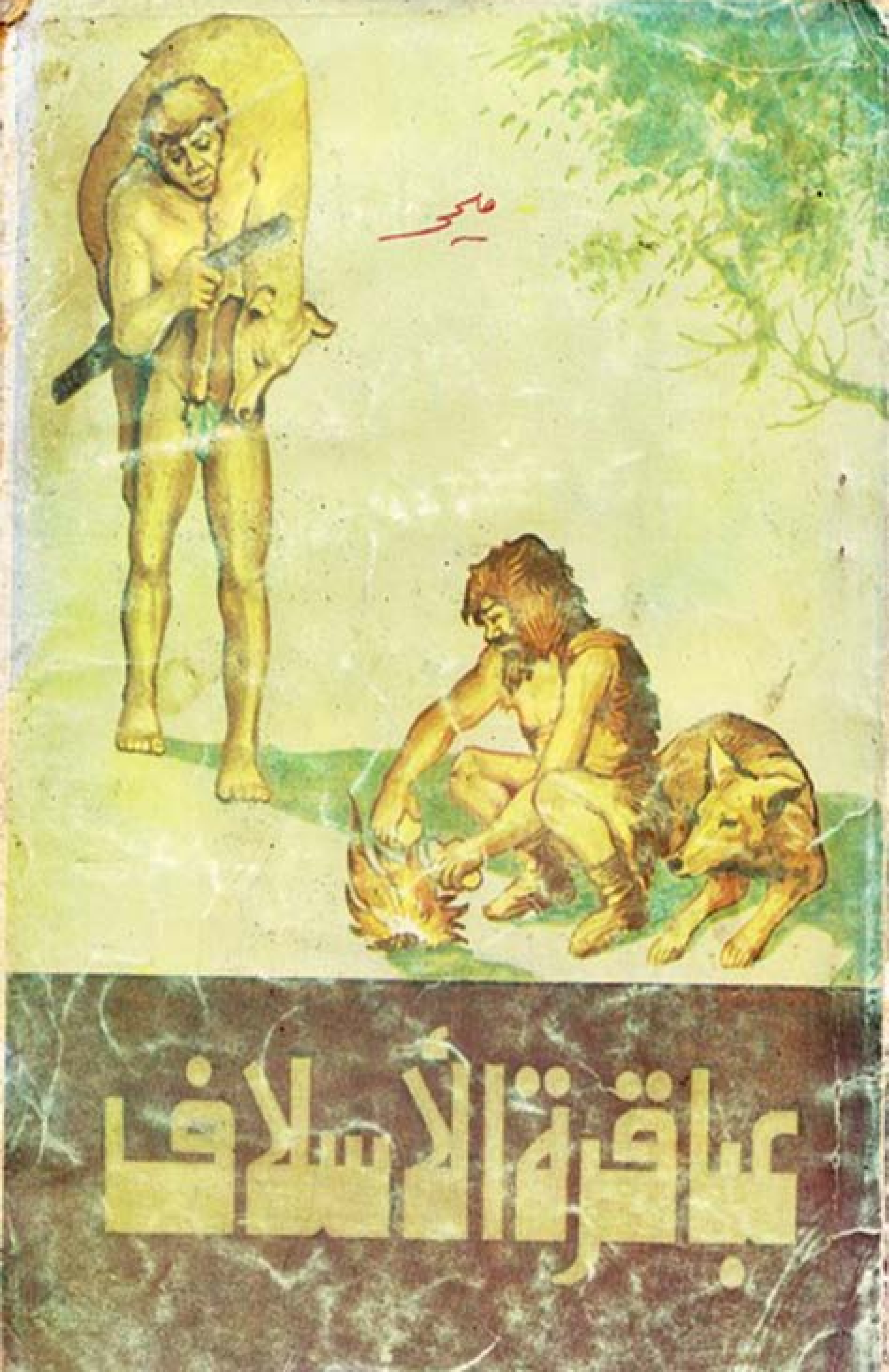


ابراهيم السعيد محمد

عباقرة الأسلاف

تأليف

إبراهيم أسعد محمد

مطبعة المعرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تعددت النظريات حول نشأة الانسان الأول. فمن رأى يقول إنه مخلوق إلهى، نشأ دفعة واحدة، إلى نظرية داروين فى النشوء والارتقاء التى تدعى أن الانسان إنما نشأ كشأن سائر المخلوقات من الأميبيا وحيدة الخلية ثم تطور حتى اكتمل خلقه، إلى رأى ثالث يحاول أن يوفق بين الرأيين.

ولسنا هنا فى مجال بحث النظريات المختلفة والمفاضلة بينها، وإنما هنالك حقائق علمية تعنينا اثبتها علماء الحفريات والسلالات.

أولاها: أن الانسان العاقل أو كما يطلقون عليه Homo Sapiens قد سبقته إلى الظهور أنواع أخرى من البشر لم يكونوا فى استواء خلقه، ولا هم فى اكتمال عقله. كانسان بيكين، وهيدلبرج. والينادرذال، وما أطلقوا عليه جايكانثروبوس وغيرها.

ثانيها: أن هذه الأنواع قد تعاصرت فعاشت مع بعضها آمادا من العمر، وربما كانت قد تزاوجت فيما بينها، ولكن البعض قد إنقرض.

ثالثها: أنه كانت هنالك طفرات فى الخلق لا ترتبط برابطة معينة ولا تتبع التطور الطبيعى. وقد ظهرت الطفرات ليس فى الانسان فحسب، وإنما أيضاً فى الحيوان، بل والنبات كذلك.

وأيا كانت كيفية ظهور الانسان على ماهو عليه اليوم، فما يهم أنه قد ظهر فى وقت وجدت فيه - أنواع أخرى من البشر، أنواع معادية، وأخرى صديقة. كان عليه أن يحارب الأولى، كما كان عليه أن يقاتل الطبيعة بما حوت. كان جسمانيا أضعف المخلوقات، أو يكاد، فليست له قوة أشباه الوحوش، ولا ضراوة الوحوش، ولم يكن له جناحان ليطير بهما، ولا كان أعدى العدائين، بل حتى

حواسه لم تكن قوية بدرجة كافية لحمايته ، فلا النظر ، ولا الشم، كانا كما هما لدى أدنى الحيوانات .

كيف إذا قضى على بعض الحيوانات ، وانتصر على الوحوش ؟ كيف تسنى له أن يستغل النباتات لصالحه ، ويسخر الحيوان لخدمته ؟ كيف أصبح سيد العالم وراثة من الوحوش المهولة الحجم ؟ هل لأن عقله يفوق الجميع ؟ أم لأن له خصائص جسمانية أخرى كانت تساعده ؟ جهاز صوتى مثلا لا يكاد أن يتوافر لحيوان آخر يمكنه به أن يقلد أصوات الحيوانات ، ويمكنه به ، وهو الاهم ، أن ينوع من دراجاته الموسيقية لتكون لغة يمكن التفاهم بها ؟ أو هل لأن له معدة تمكنه من هضم جميع أصناف المأكولات ، سواء كانت نباتية ، أو حيوانية ، بل وحتى المعدنية؟ أم هل هو تفاعل كل هذه العناصر جميعا ، . . . وغيرها .

كيف تسنى له أن يسيطر على العوامل الطبيعية ، وأهمها النار ؟ كيف روض الحيوانات ، الكلاب والماشية ، والأغنام ، والماشية ؟ لا شك أن كل هذه العوامل قد ساعدته كثير فى أوائل حياته ، ولكن لا شك أيضاً فى أنه كان عند الانسان بذور العبقرية ، إن لم يكن لديهم جميعاً فعلى الأقل عند أفراد منهم ، وضعوا أسس الحياة الاجتماعية ، والأمن ، والاستقرار ، وبالتالى أسس الحضارة ، والمدنية التى تنعم بهما الآن . هؤلاء هم عباقرة الأسلاف ، الذين عاشوا حياة مليئة بالرعب والفزع ، فى الكهوف يطاردون منها الذئاب والدببة ، وفى الغابات يصارعون الطبيعة ، يقاتلون السباع ، والنمر سبقى الناب ، والزواحف العملاقة ، بل وأهم الحيوانات وأخطرها ، الانسان . عاشوا هذه الحياة ولا سلاح لديهم سوى عقولهم ، وهراوات مقتطعة من أشجار ، أو أسلحة إفتعلوها من الحجارة والعظام ، ليخرجوا منتصرين .

أجل لا شك أن منهم من كان عبقريا . وهذه قصة أحـــد هؤلاء العباقرة الأوائل ، حبه ، وآلامه ، ومغامراته ، ومحاولاته فى البقاء ، والعيش فى أمن ، وهى محاولات خلفت لنا تراثا عظيما . هو الانتصار على الطبيعة ، وسائر الكائنات بها . الطريق نحو عالم أفضل . وقد التزمت فى القصة بالحقائق والنظريات العلمية

الممكنة حتى الآن ، واستعملت الخيال فقط فى ملء بعض الثغرات التى لم يتوصل إليها العلم محاولا أن أرسم صورة لحياة أحد العباقرة الأسلاف .

وهنالك نظرية جديدة أريد أن أشير إليها بالذات وهى أن الغريزة الأم هى الغريزة المكانية ، على العكس مما يقرره فرويد من أنها غريزة الجنس . ويدعى أصحاب هذه النظرية أن غريزة حب المكان هى أم الغرائز جميعا . فالانسان يدافع عن وطنه ، وعن مدينته ، وعن حيه ، وعن منزله . وكذلك سائر الحيوانات لها مناطق تجول فيها وتصيد ، وهى فى هذه المنطقة أقوى ما تكون . والمكان بدوره يدافع عن مستوطنيه ، فهو يعطيهم الأمان بالأماكن التى يستطيعون فيها الهرب ، أو الاختباء أو استغلاله فى . . بعض الحيل .

متى يبدأ تاريخ القصة ؟ هو تاريخ بدء الانسان الحقيق كما نعرفه اليوم . متى كان ذلك ؟ لست أدرى ، لعله من مليون سنة خلت ، وربما من ربع هذه المدة ، وقد يكون من مائة ألف فقط ، بل ولعلها لم تبدأ إلا من خمس وعشرين ألف سنة . أى من هذا التواريخ قد يكون صحيحا أو على الأقل هذا ما يقوله العلماء ، أو هذا ما هم فيه يختلفون .

والمكان بدوره غير معروف . لعله كان فى جنوب أفريقيا ، أو فى حانق اولدوای ، أو فى شرقى آسيا أو جنوبها ، وربما كان فى مصر ، أو جنوب شبه الجزيرة العربية ، أو لعله كان بين النهرين ، أو فى منطقة غير ذلك . كل ما يمكن تصوره فى الواقع ، رجما بالغيب ، هو المناخ الذى كان يسود المنطقة . فليس من المعقول أن يكون أول خلق الانسان وتطوره فى جو بارد شديد البرودة ، إذ أن مثل هذا الجو يلزمه أشياء كثيرة لم يكن فى قدرة الانسان الأول الحصول عليها . الملابس مثلا أو نوع الغذاء والسكن . فيلزم إذا أن يكون بدء حياة الإنسان فى مكان لا يحتاج فيه إلى ملابس كثيرة ، فهو جو حار نسبيا . ولا يمكن أن يكون شديد الحرارة ، وإلا لكان مدعاة للكسل وما كان فى الامكان أن يرقى الانسان إلى ما هو عليه الآن ، ولا إلى أن ينتشر فى بقاع الارض .

ولا بد أيضاً أن يكون هنالك غذاء نباتى متوفر إلى درجة معينة . ذلك أن

الانسان لم يكن لديه الوسائل الكافية فى بدء حياته لكى يصيد الوحوش أو السباع ، بل حتى الحيوانات الصغيرة كانت جميعا أسرع منه عدوا ، وما كان فى مكنته ، إلا فى القليل النادر ، أن يفاجئها فى أوكارها ، ولا كان فى مكنته أن يصيد الطيور ويسرق بيضها إلا مساء . وحتى هذه لا بد أنها كانت رحلة محفوفة بالمخاطر والصعاب . ولهذا كان لا بد أن يكون النباتات غذاؤه الرئيسى يلتذ بثماره ، ويأكل جذوره .

وعلى هذا فإن المكان الذى كان يمكن أن يتواجد فيه الإنسان الأول لا بد أنه كان ذا جو معتدل ، غزير الأمطار ، ولكن ليس إلى الحد الذى يحول الأرض إلى مستنقعات ، وبرك تجوس خلالها التماسيح ، والهوام والحشرات . ولعل أنسب مكان يمكن تصوره هو شرقى ماهو معروف الآن بالبحر الأبيض المتوسط ، مصر أو فلسطين ، وأن كان كثير من العلماء يميلون إلى أن النشأة الأولى كانت فى أواسط أفريقيا ، خانق الداوى .

الفصل الأول

الجرو والشاب

أخذ الشاب يجرى وكأن شياطين العالم أجمع تلاحقه ، راح يعدو على غير هدى وإلى غير مقصد . كان جريه مذعورا ، ولكنه عدو سهل هين تشارك فيه جميع أجزاء الجسد فى تعاون . . . وتواؤم لا إجهاد فيه . كان الجرى هو وسيلته الأساسية للحياة . لقد جرى من قبضة أبيه المتوحش حينما أراد أن يختطف قطعة من اللحم النيء الذى ينهشه . وجرى من أخوته ، وأخواته الكبار وهم يضربونه لغير سبب معروف . كانت تنتاب أحدهم ثورة عارمة فجأة فإذا به ينقض على الموجودين يضربهم ، ويركلهم ، ويغرس أسنانه فيهم . ولم تكن هنالك وسيلة للصغير سوى الجرى من أمامه . كان يجرى من الحيوانات المتوحشة . وراءها أحيانا .

كان الجرى بالنسبة إليه مسألة حياة. ولم يشعر بهذا طوال حياته كما شعر به الآن . كان كل ما يدور فى خلده أن يبتعد عن تلك المنطقة ، أما إلى أين فلم يكن بذى بال . استمر يعدو بأقصى سرعته غير مبال بأفرع الشجر تخدش جسده ، ولا بصيحات القردة والنسانيس حوله ، ولا برذاذ المطر الذى بدأ يتساقط . وحملته ساقاه الطويلتان إلى أعماق الغابة الكثيفة ، ولكنه التمس فيها الدروب والمسالك ، فقد اعتاد هذا فى صراعه مع الحياة ، سبعة عشر ربيعا . ومضت ساعات، والشاب منطلق فى ذعر لا يكاد أن يقف لحظات يلتقط فيها أنفاسه . تحاشى السبل الواسعة ، فهو يعلم بغريزته وخبرته أنها موطىء الوحوش .

كان كل ما يسيطر على عقله أن يضع بينه وبين موطنه الأول أكبر مسافة . أن يبتعد عن هذا الرعب الذى قضى على كل عائلته دفعة واحدة ، ولعله الآن ينعم بثمرة نصرة . والده ، وأمه ، وأخوته ، كلهم ذهبوا ، إلى غير رجعة ،

وما كان فى استطاعته أن يفعل شيئا . هبط الرعب عليهم فجأة ، وضرب ضربته بلا رحمة ، ولا إبطاء . لم يسمعوا له صوتا وهو قادم ، ولا حتى مجرد تكسر غصن . فقط رأوه أمامهم . كانت زمجرة ، وصيحات ذعر ، وحشرجات موت . ولم يقف الشاب ليرى بقية المأساة ، إنما اطلق لساقيه العنان . ظل يعدو فى ذعر بلا تفكير سوى فى الفرار من هذا الرعب . لم يتوقف إلا لحظات ، بين الحين والحين ، ريثما يلتقط أنفاسه .

لقد عاش طوال حياته فى الغابة ، والجبال وحسب أنه رأى كل أنواع الوحوش وأشباهها . رأى بعض أفراد عائلته يموتون ميتة شنيعة بين أنياب هذا الحيوان أو ذلك . ولكنه كان قد آلف هذا النوع من الحياة ، أو الموت ، وأخذه على أنه جزء من معيشته اليومية . ولم يكن يرتعب من هذه الوحوش . كان يخشاها ، بديهى . وكان يخافها ، إلى حد ما . ولكنه لم يكن يرتعب منها . أما هذا المخلوق . هذا الشىء ، فهو نوع آخر . كانت الوحوش مهما بلغت فى الحيطة تنبىء عن وجودها بشكل ، أو بآخر . طير يفر فزعا وسط الليل ، غصن يتكسر ، بل أحيانا حينما يكون الحيوان ضخما إلى درجة كبيرة ، كانت أفرع الأشجار ذاتها تتكسر . أما هذا الشىء ، هذا الرعب ، فقد ظهر فجأة ، وبلا سابق مقدمات ، فى سكون وبلا جلبه .

كان هو أول من رآه ، أو على الأصح ، كان أول من رأى عينيه . كانتا عينين ضيقتين إلى درجة لم ير الشاب لهما مثيلا من قبل . فيهما وحشية ، وخبث ، ونهم . ولم ينتظر الشاب ليعرف باقى التفاصيل ، وانما انزوى فى الظلمة ثم اطلق لساقيه العنان . شعر بغريزته أن هنا يكمن خطر داهم ، خطر لا مثيل له فى الغابة ولا فى الجبال ، ولا المستنقعات ، ولا الأحراش على ما حوت . خطر لن يتغلب عليه لاهو ولا عائلته مجتمعه . لقد سبق له أن وقف مع عائلته أمام أشد السباع ضراوة يقاومونه ، وسلاحهم هروات مقتطعة من الأشجار . بل أنهم قد قتلوا ذات مرة نمرا سيفى الناب ، بمجرد الهروات ، والأحجار ، أما هذا الشىء فهو جديد عليهم

تماما . لقد شعر للحظة الأولى أن هنا يكمن خطر لن يتغلبوا عليه بالهروات ، لا ولا حتى بالأحجار .

لقد سمع أثناء عدوه صوت معركة بين وحشين هائلين أحدهما النمر المخيف ، والآخر حيوان ضخم لم يتمكن من معرفته ، ولعله أحد الأفيال ، ولعل المعركة بين هذين الجبارين كانت تدور على بعد بضعة عشرات من الأمتار من مكانه ، ولكنها كانت شيئا مألوفا فى حياته ، ولم يتوقف لحظة ليراها .

بزغت عليه الشمس وهو مازال يجرى . وفى مرات كثيرة سمع صوت القردة الحبيب ، وهى تمرح بين الأشجار العاليـــة ، ولكنه لم ينظر إلى أعلى ليداعبها على عهده . كان كل ما يشغل باله أن يبتعد أكبر مسافة من ذلك الرعب الذى رآه للحظات . وكلت الساقان القويتان . وترددت أنفاس الصدر العريض لاهثة . إن عليه أن يجد مكانا يأوى إليه قبل أن يجن عليه الليل مرة ثانية . عليه أن يستريح ليسترد أنفاسه الضائعة ، وقواه الخائرة، وإلا فإنه سيكون فريسة يسيرة لأول حيوان يلاقيه .

وكأنما أرادت الطبيعة أن تحثه على البحث عن مكان يأوى إليه فازداد تساقط الأمطار حتى أضحى سيلا منهمرا . ورعدت السماء ، وأبرقت منذرة بعاصفة هوجاء . ووقف الشاب لحظات يتلفت حوله عن مكان يعطيه أمنا ، أو بعض أمن ، فالأمن الكامل لا وجود له فى حياته : رأى شجرة عملاقة هائلة على بعد أمتار منه ، فاتجه إليها ، فى بطء وحذر . إن التجويف الذى فى أسفل هذه الشجرة ، وإن كان يبدو من مدخله غير ضخم إلا أنه يصلح مأوى مؤقتا له . ولكنه أيضا يصلح مأوى لبعض الوحوش أو الزواحف . وتلفت الشاب حوله عن شىء يستطيع استعماله، حتى عثر على غصن شجرة ضخم يصلح كهراوة فتناوله واقترب من التجويف بحذر . راحت أنفه تتحسس الروائح . وخيل إليه أنه يشم رائحة أحد الوحوش . ربما كان ذئبا أو ضبعا .

تناول الشاب قطعة من حجر لقيها وألقاها بكل قوته إلى داخل الفجوه . وخيل إليه أنه سمع صوتا ، ولكن شيئا لم يحدث . مد العصى إلى داخل التجويف

المظلم ، وراح يتحسس به ، ويضرب هنا وهناك . لكن السكون فى هذه المرة كان مطبقا . إذا فالمكان خال . ربما كان فى وقت من الأوقات مأوى لأحد الوحوش ، ثم هجره لسبب أو لآخر . استجمع شجاعته ، ودخل مطأطىء الرأس ليجد نفسه فى ظلمة نسبية ، لم يستطع معها أن يتبين شيئا . استمر كذلك لحظات وهو يشعر أنه بغير نظر لا حول له ولا قوة ، فريسة سهلة لأى قاطن فى التجويف . واعتادت عيناه الظلمة ، وبدأ يميز ما حوله قليلا . استطاع أن يميز التجويف ، فإذا به يسعه واقفا ، كما أنه كان متسعا بدرجة تكفى لأن ينام براحة .

وفجأة وقعت عيناه على عيون كثيرة تلمع فى الظلام . وبحركة لا شعورية ارتد إلى الوراء ساندا ظهره إلى الداخل ، وقابضا على الغصن فى يديه ليستعمله كهراوة لكن أصحاب العيون لم تتحرك ، وإنما خيل إليه أن الخوف بدا فيها . مكث برهة ليتحقق من الذين اقتحم عليه مأواهم . أخيرا صدرت أصوات خائفة . ولأول مرة منذ ساعات تنهد إرتياحا . فلم يكن القاطنون سوى جراء صغيرة .

لكن هذه الراحة التى يشعر بها لم تدم طويلا . كانت راحة مؤقتة بطبيعتها ، إذ شعر أنه هرب من خطر حال كان يتهدده ، إلى خطر محتمل مريع . نعم إن هذه الجراء لا خطر منها ، بل أنها قد تصلح غذاء ، ولكن أين أمها ؟ إنها لا يمكن أن تكون بعيدة ، وهى إذا عادت فلن يكون له مفر فى هذا التجويف . سوف تقتله لا محالة . كان عليه أن يخرج إذا ، سريعا قبل أن تعود الأم .

نظر إلى العاصفة فى الخارج وهى تشتد ، وجال فى خاطره أن يمكث ليقاتل الذئبة دون هذا الموطن المريح . وكاد أن يستقر على هذا لولا أنه فكر فى الأب . ماذا لو عاد الاثنان معا ! . قد يكون هنالك أمل فى قتال أحدهما ، أما إذا كانا سويا فلا أمل له البتة . كلا .. لعله من الأوفق أن يترك التجويف لقاطنيه ، ولا بأس من أن يأخذ معه جروا يقتات به . فقد شعر بجوع شديد . مد يده إلى

أحد الجراء ، فتراجع مذعورا ، لكن الشاب قبض على عنقه ، وحمله متجها إلى مدخل التجويف .

وقبل أن يطل برأسه إلى الخارج سمع صوت صاعقة تنقض على الشجرة ، وتكسر فرعا كبيرا مضى يهوى إلى الأرض من شاهق فى صوت مزعج مخيف . ارتد الشاب إلى التجويف سريعا ، وأفلت من يده .. الجرو الذى ولى ، ومضى مذعورا إلى إخوته . ووقع الفرع الضخم أمام مدخل التجويف ليغلقه تماما . اتجه الشاب نحو الفرع محاولا دفعه ، لكنه كان كمن يحاول زحزحة جبل . وتملك الفزع قلبه ، إذ طاف فى خاطره أنه قد قضى عليه بالموت جوعا ، وعطشا داخل التجويف . واقترب من الفرع ثانية يبحث أن كانت ثمة فرجة يمكن أن يخرج منها ، ولكن كل ما استطاع اكتشافه هو فرجة لا تكاد أن تخرج منها الجراء ، فكأنما قد أغلقت الفجوة بيد نجار ماهر لم يترك سوى منفذ صغير للهواء .

ارتد الشاب يائسا داخل التجويف ، وجلس على الأرض مستندا بظهره إلى جذع الشجرة . كان مرهقا ، يريد أن يستريح .

أغمض عينيه لينام ، لكنه سمع فى الخارج عواء موحشا ، عواء الذئبة الأم تنادى جراءها . وهمهمت الجراء فرحة بمقدم الأم ، وما درت أنها لن تستطيع الوصول . وسمع الشاب صوت مخالب الأم تعمل فى الفرع محاولة كسرة أو تفتيته ، لكنه كان يعمل أنها لن تستطيع شيئا . لقد قضى على جرائها أن يموتوا جوعا ، وعطشا ، كما سوف يموت هو . أو ربما أكلها ، فابقته مدة على قيد الحياة . على أى ، فإن كل ما يريده الآن هو أن ينام ، وسوف يرى ما يمكن عمله بعد أن يستيقظ . إنه الآن على الأقل يستطيع أن ينام ملء جفونه ، فلن يستطيع حيوان الدخول ، كما أنه هو لا يستطيع الخروج . وثقلت جفونه وهو ما يزال يستمع إلى عواء الذئبة النائحة ، وإلى صوت مخالبها وهى تعمل فى الفرع بلا هوادة .

فتح الشاب عينيه وأحس أنه قد إستعاد قوته ونشاطه ، وأحس بجوع شديد فاتجهت عيناه لا إراديا إلى الجراء . لكن صوت الذئبة فى الخارج إرتفع عاليا يدوى كأنما قد أحست الأم بتفكيره فأرادت أن تحذره أن يمس جراءها بسوء . وعملت مخالبها فى الشجرة بشدة ووحشية . وتوقف عن التفكير فى الجراء واتجهت عيناه إلى خارج الفجوة .

كانت العاصفة قد هدأت . وتوقف سقوط الأمطار ، وبزغ صباح اليوم التالى ، ودخل بصيص من الضوء خلال الفرجة الصغيرة فى أعلى مدخل التجويف. أراد أن يطل منها إلى الخارج ، ولكن هذه الحركة كادت أن تكلفه جزءا من وجهه ، إذ ما كاد أن يضع عينيه فى الفرجة الصغيرة حتى رأى .. الذئبة تنظر إليه ، والشرر يتطاير من عينيها . وانطبق الفكان القويان على بعد لا يزيد على بوصتين من وجهه . رجع إلى الداخل مسرعا ، وجلس إلى الأرض مرتكزا على جذع الشجرة يحاول التفكير فى الخروج من هذا المأزق . وتناهى إلى سمعه صياح القردة العابثة ، مختلطا بزمجرة الذئبة ، وصوت أحد الوحوش يتردد من مكان بعيد .

ولاحظ أن الجراء قد إطمأنت إليه بعد أن قضى معها ساعات لم يحاول أن يقتلها، فمضت تلعب حوله . حاول أحدها أن يعتلى فرع الشجرة فى مدخل الفجوة لكنه أخفق فى محاولاته . وجن جنون الذئبة وهى ترى قرب وليدها ، وتسمع صوته دون أن تستطيع أن تعمل شيئا ، فارتفع عواؤها كالثكلى . وازداد احساس الشاب بالجوع، فنظر إلى الجراء فى نهم ، لكنها ، غير شاعره بما يجول فى ذهنه ، مضت تلعب حوله مطمئنة إليه . وتزاحمت فى رأسه الأفكار . كانت لديه ثلاث مشكلات ، الجوع ، وفرع الشجرة ، والذئبة التى لا تريد أن تترك مكانها . أما الجوع فلم يكن مشكلة حاله ، وإن كانت مشكلته هى المشكلة الرئيسية . إنه الآن يستطيع أن يحفر الأرض الطينية ليخرج منها بعض الديدان ، والجذور . وامتدت أصابعه القوية تحفر فى الأرض ، وتستخرج

منها بعض الديدان . وتصارعت الجراء الجائعة إذ رأت غذاء . ونظر إليها الشاب فى نقمة ، ثم خرجت من فمه حشرجة هى أقرب إلى الضحك ، ومد يده إلى الجراء لتلتهم الديدان . كانت هذه سخرية الإنسان ، من نفسه . وتزاحمت الجراء حوله حتى إضطر أن يبعدها ويطعمها الواحدة ، تلو الأخرى بما يجده من ديدان . واستمرت أصابعه تحفر فى أرض الفجوة ، فى أكثر من مكان حتى تأكد تماما أنه لم يعد هنالك ديدان باقية . وتصايحت الجراء . فما كانت تكفيها بضعة ديدان . وشعر هو بالجوع يشتد عليه ، فاستمر فى الحفر يبحث عن جذور الشجرة ، أو شعيراتها الرقيقة ، ويجذبها لمضغها عسى أن تعطيه عصارتها بعض الغذاء يسد به رمقه . وأشبع بعض جوعه ، فانتهت بالنسبة إليه مؤقتا إحدى مشكلاته الثلاث . وابتدأ يفكر فى مشكلتيه الباقيتين . إنه لن يستطيع الخروج حتى إن استطاع أن يحرك الفرع ، طالما أن هذه الذئبة واقفة فى الخارج . كيف يمكنه أن يبعدها ؟ لعلها لو حصلت على جرائها تترك المكان . ولكنه عاد يفكر فى غذائه . ماذا لو أعطاها الجراء خلال الفجوة ثم لم يستطع الخروج . إن هذه الجراء تمثل غذاء يبقيه على قيد الحياة أياما . وبدونها لن يستطيع أن يعيش على جذور الشجرة وشعيراتها فقط .

ودارت فى رأسه الأفكار . لعل الذئبة تقتنع لو أخذت جروا واحدا ، أو حتى اثنين ، ولم تكن هنالك طريقة ليعرف بها ما تفعله الذئبة سوى التجربة . واستقر رأيه على أن يقوم بالتجربة ، فقبض على أحد الجراء ورفعه إلى الفرجة ثم دفعه إلى الخارج .

وتلقفته الذئبة تلحسه بلسانها ، ثم أطبقت عليه بين فكيها ومضت به . ونظر الشاب من خلال الفجوة فلم ير لها أثرا فتنهد بإرتياح . وبدأ يفكر فى مشكلته الثالثة . حاول أن يدفع فرع الشجرة بعيدا عنه ، ولكنه لم يستطع أن يزحزحه قيد أنملة . اتجه تفكيره إلى توسعة الفرجة . وامتدت أصابعه القوية تنزع لحاء الفرع الساقط ، جزءا فجزءا . لكنه بعد مدة أيقن أن أصابعه

بمفردها أن تكفى . وتلفت حوله عن أية أداة يمكنه أن يستعملها فى توسعة الفرجة ، فلم يجد سوى الغصن الجاف الذى تلمس به طريقه فى الدخول . قبض الشاب على الغصن بيديه . ولم يكن الغصن رفيعا ولا رقيقا لدرجة تسمح باستخدامه ، بل كان ملء قبضة اليد ، وبعد عدة محاولات نحى الغصن قانطا . وفكر برهة ، ثم تناوله ثانية وبدأ يحفر به فى الأرض الطينية ، معتقدا أن الحفر أيسر من محاولة نحت الفرع . استمر الشاب يحفر فى مدخل الفجوة فترة ثم فوجىء بأن جذور الشجرة الضخمة تمتد مباشرة تحت المدخل ، مكونة سدا لا يمكنه أن يخترقه ، وغمره شعور شديد بخيبة الأمل . وجلس على الأرض مرتكنا إلى جذع الشجرة يفكر فى مصيره . أنه لن يستطيع زحزحة الفرع من مكانه . ولن يستطيع الحفر تحته . كما لن يستطيع بمجرد يديه أن يقتطع منه ليوسع الفجوة . ومعنى هذا أنه سوف يظل حبيسا داخل هذه الشجرة الملعونة . قام مرة ثانية لينظر من الفجوة إلى الخارج . ورأى الذئبة واقفة أمامه تماما . لم يكن فى نظرتها هذه المرة تلك الشراسة التى رآها أول مرة ، وانما كانت نظرة خيل إليه أن فيها استجداء وتوقع . وتردد الشاب برهة . هل يعطيها جروها الثانى ؟ وهز كتفيه . إن الجرو على أى حال لن يشبع جوعه إلا ليوم ، أو لبعض يوم . وتحول إلى داخل الفجوة ليلتقط جروا آخر ، ويلقمه للذئبة التى تناولته فرحة بين فكيها ، وانطلقت به .

وتفرغ الشاب لمشكلته الحالة . كيف يستطيع أن يوسع الفجوة . مد أصابعه إلى فرع الشجرة يحاول أن يقتلع بعض خشبها ، لكنه لم يقتلع سوى قطع صغيرة جدا . وجال بخاطره أنه لو استمر على هذه الحال فسوف يمكث أياما قبل أن يوسع الفرجة إلى درجة تسمح بخروج جسده ، وسوف يموت خلال هذه المدة من الجوع والظمأ . مضى يبحث عن الحجر الذى ألقاه قبل دخوله إلى الفجوة ، حتى عثر عليه ، وأخذ يضرب به الفرع . لكن الخشب المتكسر لم يكن بأكثر مما كان يقتلعه بيديه العاريتين . لوأن هذه الحجر كان

مدببا إذا لاقتلع أكثر . وانصرف ذهنه إلى الغصن فتناوله . لم يكن الغصن مدببا ولكن خيل للشاب أنه على أى الأحوال أقوى من الحجر . وأقبل على تفتيت قطع من الفرع الملقى . لقد تعلم أشياء كثيرة من وجوده فى الفجوة . أولها أنه لن يسير بعد الآن إلا ومعه غصن مدبب الطرف ، من يدرى ؟ فلربما تكرر له الموقف نفسه . ولكن كان عليه أولا أن يخرج من المأزق الذى هو فيه .

بدأ يفتت أجزاء صغيرة من الفرع مستعملا يديه أحيانا ، والحجر أحيانا ، والغصن أحيانا . واتسعت الفجوة شيئا ، فشيئا ، وأن لم يكن بدرجة كافية . وشعر بحاجته إلى الراحة ، وإلى الغذاء والماء ، فالتفت إلى الجروين الباقيين . إنهما سوف يكفيانه ليومين ، أو ثلاثة ، وهو لن يحتاج إلى أكثر من هذا الوقت ليفسح الفرجة بدرجة كافية تسمح بخروجه . ومضى الجروان يلعبان بين قدميه ، ويتمسحان به كأنهما قد إطمأنا بعد هذا الوقت الذى قضياه معه إلى أنه لا يبغى بهما سوءا . وساور الشاب نوع من الشفقة غريب على حياته التى قضاها فى نزاع مستمر على البقاء . كان القوى هو الذى يبقى ، أما الضعيف فمصيره الموت السريع ليذهب طعاما . لم يكن هنالك مجال للرأفة ، والتسامح ، وغيرهما من الاحساسات الرقيقة . حتى القوى ، يذهب غذاء للأقوى منه . إذا ضعفت قواه قليلا ، أو فقد حذره لحظات ، ذهب إلى غير عودة . كلا لا مجال لما يعتمل فى نفس الشاب . عليه أن يقتل أحد الجروين الآن ليتغذى جسده ، ولكى تدب فيه قوة كافية تسمح له بالاستمرار فى هذا العمل المضنى . وربما ، إذا أمكنه أن يخرج ، ربما ترك الجرو الآخر ، ولكن أحد الجروين يجب أن يموت الآن .

مد يده إلى رقبة أحد الجروين وابتدأ يضغط عليها . وحانت منه لفتة إلى وجه الجرو ، وقد بدأ لسانه يتدلى ، وعيناه تجحظان . كان ضعيفا مستسلما لا حول له ولا قوة ، إلى درجة أثارت الشفقة مرة ثانية فى نفس الشاب . وبدأ الجرو يخبط بقدميه فى الهواء محاولا أن يتنفس ، كما بدأت قواه تخور . وفجأة

سمع الشاب عواء الذئبة فى الخارج . يالهذه الذئبة اللعينة ألم تكتف بجرويها السابقين ، هل قضى عليه أن يعطيه جراءها جميعا وأن يموت جوعا ؟ وتراخت قبضته عن رقبة الجرو . لعله من الأفق أن يفكر قليلا ، ربما أمكنه أن ينتهى من توسعة الفجوة دون الحاجة إلى أكل هذه الجراء . وعلى أى الأحوال فلا زال هنالك جرو آخر إن إحتاج الأمر ، وعليه عندئذ أن يجابه الذئبة ، إذا أمكنه الخروج .

مد يده بالجرو إلى الفجوة ، وألقاه إلى الذئبة المنتظرة . كان جسده العارى يتصبب عرقا ، بينما خارت ركبتاه من جراء ما اعتمل فى نفسه من عواطف ، فجلس على الأرض ليريح جسمه المنهوك . بحثت أصابعه القوية فى الأرض عن بعض شعيرات الجذور والديدان ، وأخذ يلتهم ما يجده . واقترب منه الجرو الباقى وأخذ يموء جوعا وعطشا ، لكن الشاب كان فى شغل شاغل عنه بما يحاول إستخراجه وما يلتهمه . وأحس برغبة شديدة إلى ذلك النبات الذى كان يأكله حينما كان مع عائلته . كان ذا طعم حريف شديد الملوحة . هو يعرفه إذا رآه ، لكن أنى له أن يجده الآن . مضى يمضغ الجذور بنهم ، ويأكل الديدان ، ثم انتقل إلى موضع آخر بحثا عن غيرها . وانتقل معه الجرو يلاحقه . وأبعده الشاب المرة تلو الأخرى ، لكن الجرو كان يعود وهو يموء متوسلا ، حتى أعطاه بعض الديدان .

وقام من مكانه بعد أن شعر ببعض قواه تعود إليه . وابتدأ يعمل جاهداً فى توسعة الفجوة بأدواته الثلاث ، يديه ، والغصن ، والحجرة .

وكأنما قد تمرس فى هذا العمل فكان تقدمه فيه هذه المرة أسرع كثيراً من ذى قبل . كان يضرب الفرع بالحجر لتتفتت منه قطع يقتلعها بيديه . كان يحك الغصن الجاف بالفرع بقوة لتقفز من الفرع قطع صغيرة تتطاير . وكان يستعمل طرف الغصن ليساعده فى اقتلاع بعض الخشب الذى لا يستطيع أن يقتلعه بيده ، واتسعت الفجوة أكثر وأكثر . حاول أن يخرج رأسه منها

لكنها كانت ماتزال صغيرة نسبيا . ان يحتاج الأمر لأن يأكل الجرو الباق فلتأت أمه لتلتقطه إذا . ما بال هذه اللعينة قد تأخرت هذه المرة . لعلها نسيته ، أو لعلها اكتفت بما أخذت من جراء . على أى حال ليست هذه مشكلته . بعد قليل سوف يخرج من هذا الجحر إلى العالم الواسع ، وسوف يأكل الثمار البرية ، ويطعم لحم الحيوان ، وتدفئه الشمس . وملأته هذه الخواطر حماسا فمضى يعمل فى قوة متجددة ، وجهد لا يعرف الكلال .

لم يشعر بالوقت يمر وهو فى محاولاته حتى لاحظ أن الضوء قد خفت كثيرا ، وأن الظلام بدأ يحدق بالغابة . حاول أن يخرج رأسه من الفرجة ، فأمكنه ذلك بيسر . إذا فقد أفلح أخيرا ، يمكنه الآن أن ينطلق . كان شعوره لأول وهلة أن يخرج من سجنه إلى العالم الواسع ، إلى حيث يستطيع أن يتنفس غير هذا الهواء الرطب ، وأن يجلس ، وينام على غير هذه الأرض المبللة . لكنه عاد يفكر . أين سوف يذهب بعد أن يخرج ؟ أين سيقضى ليلته ؟ إنه هنا آمن ، على الأقل الليلة ، أما إذا خرج ، وهو لا يعرف المنطقة ، فسيكون لقمة سائغة لأول وحش جائل . لكن الجوع كان قد أخذ منه كل مأخذ ، واستبد به الظمأ ، وعافت نفسه أن يعود إلى أكل الديدان ، وجذور الشجرة ، فعليه إذا على الأقل أن يخرج ليبحث عن طعام ، وشراب قريبين ، ثم يعود ليقضى ليلته الثانية ، والأخيرة فى فجوة الشجرة .

ومن الغريب أنه لم يخطر فى باله أن يلتهم الجرو الباقى ، مع أن أمه لم تعد تطالب به ، ومن المقطوع به أنها كانت قد نسيته تماما . أطل برأسه من الفرجة بحذر ، وراح ينصت ، ويدفع أنفه فى الهواء . كانت هنالك أصوات الغابة الطبيعية فقط ، ذئب يعوى على بعد ، يتلقف عواءه ذئب آخر ، ويتحداه زئير وحش ، لكنها جميعا كانت بعيدة إلى درجة أحس فيها أنه بمأمن . وعاد إلى الفجوة ، وتناول الغصن ليستعمله كهراوة إن إقتضى الأمر ، ثم خرج حذرا متلصصا . وسمع صوت الجرو يموء وراءه فى الفجوة كأنما ليذكره بنفسه

ليرجوه ألا يتركه وقد أضحى وحيدا . وجال ببصره فيما حوله ليتذكر المكان الذى يحتوى على الشجرة . بغريزة الحيوان التى لاتخطىء ، سار فى وسط الغابة حاذرا أن يصدر صوتا . راح يرفع نظره إلى الأشجار حوله باحثا عن ثمار يأكلها . لاح له على بعد أن الغابة تشتد كثافة فاتجه صوبها ، وهناك وجد بعض الثمار على الأشجار ، فامتدت يده فى لهفة تقتطع منها ، وأخذ يلتهم ما استطاع بنهم حتى أحس بأن معدته قد امتلأت ، وظمأه يخف . فأخذ كمية منها بين يديه ، حاملا غصنه تحت إبطه ، وعاد قافلا إلى الفجوة .

وتذكر وهو فى رحلة عودته الجرو ، ترى هل سوف يأكل من الثمار ؟ أنه يعرف أنه حيوان لحمى لا يأكل النباتات ، لكن من أين له الآن أن يجد اللحم . إن المسكين الصغير لابد أنه يبكى الآن من شدة الجوع والظمأ ، فما كانت بعض الديدان لتملأ معدته يوما وليلة ، لكن ما الحيلة ؟ وفجاة توقف جامداً فى مكانه وأصاخ السمع . لقد طرقت أذنيه أصوات زمجرة آتية من الأحراش القريبة عن يساره . ألقى بحمله على الأرض ، وقبض على الغصن بكلتا يديه ووقف متأهبا . وعاد الصوت مرة أخرى . فى هذه المرة لم يكن لدى الشاب أى شك فى أنه زمجرة نمر سيفى الناب ، وأنه يربض خلف تلك الأحراش . اتجه نحو أقرب شجرة إليه ، وتسلقها فى خفة القرود ، وما استقر على غصن فيها حتى ألقى ببصره نحو الأحراش . كان القمر بدرا ، وتخللت أشعته أشجار الغابة فألقت ظلالا ، وأضواء خادعة . أما فى الأحراش فقد سقط الضوء منيرا ساطعا .

شاهد الشاب النمر سيفى الناب جاثماً يأكل جثمان ثور ، كما شاهد أربعة ضباع تقف عن بعد تنتظر أن يفرغ النمر من غذائه لتلتهم ما تبقى . كان النمر ينظر إلى الضباع ، ويزمجر بين الفنية والأخرى ، محذرا إياها إذا مادفع الجوع أحدها إلى الإقتراب أكثر مما يجب . وسال لعاب الشاب . ها هو اللحم ، لا يفصله عنه سوى بضعة عشرات من الأمتار ، ومع هذا فكان بينهما ما بين السموات والأرض . لو كان النمر بمفرده إذا لانتظر الشاب حتى فرغ من أكله ،

والنهم هو الباقى ، بل ولا أخذ كمية كبيرة لافطاره ، ولكى يأكل الجرو ، ولعل الدماء العالقة باللحم تروى ظمأ الجرو إلى حين . أما وهذه الضباع موجودة ، فلا مجال أمامه . صحيح أنها حيوانات جبانة ولكنها أيضا جوعى ، ولن تقف ساكنة أمام مجرد إنسان وتتركه يأخذ قوتها . كلا ، أنه لن يصارعها جميعا ، وعلى أى الأحوال فلا داعى لأن يجازف بحياته الآن خاصة وقد امتلأت معدته .

كاد الشاب أن يتراجع من الفرع ليهبط متخذا طريقه إلى الفجوة ، حينما تذكر الجرو . إن لم يجد هذا الجرو غذاء سريعا فسوف يموت جوعا . فليمت إذا ، ما شأنه هو ؟ ولكن ألا يكون جميلا أن يتناول هو بعض اللحم ، وأن يحرم هذه الضباع منه . أجل ، ولكن كيف ؟ استمر الشاب ينظر إلى النمر ، والضباع ، والفريسة وهو يفكر . كان المشهد واحدا لا يتغير . — فالنمر يلتهم من فريسته ما يشاء ، والضباع واقفة على بعد آمن تنظر إليه . ويدفع الجوع أحدها إلى الإقتراب قليلا ، فيرفع النمر رأسه ويزمجر ، ليرتد المجترىء . وتكرر ذات المشهد أكثر من مرة والشاب يراقب ويفكر . وطرأ فى باله خاطر ، فتحرك لينفذه . كان الاستقرار على رأى بالنسبة له وتنفيذه واحدا ، فكانت الفكرة والحركة صنوان ، إذ لم يكن فى الحياة رجاء إذا ما طرأت الفكرة ، وتردد فى التنفيذ .

انسحب من الفرع فى هدوء . وهبط الشجرة . ومضى يبحث فى الأرض حتى عثر على قطعة من خشب جافة فحملها ، ودار حول موقع النمر ، والضباع دورة طويلة محاذرا أن يحمل النسيم رائحته إلى الوحوش ، ومحاذرا أن يحدث أدنى صوت ، حتى أضحى خلف الضباع تماما . وهنا قبع ساكنا . انتظر فترة يرقب حتى بدت على النمر علامات الشبع . كان يعلم أن عليه أن يختار لحظته بدقة بالغة . كان يجب أن يترك النمر يأكل كفايته أو يكاد ، وذلك حتى لا يعود إلى الأكل ثانية . ولم يكن اختيار هذه اللحظة بالأمر العسير . ذلك أن الضباع ذاتها قد ساعدته فى المعرفة إذ إزداد إقترابها من النمر ، والفريسة ، وإزدادت

جرأتها، ورفع النمر رأسه مزمجرا . إختار الشاب هذه اللحظة ليصرخ بأعلى صوته مقلدا صوت النمر ، وقاذفا فى الوقت نفسه بقطعة الخشب على ظهر أحد الضباع بأقصى قوته . اندفع الضبع المرعوب تجاه النمر مذعورا ، فقفز النمر تاركا فريسته ، وتلقى الضبع بضربة واحدة من يده ألقته مضرجا بدمائه .

لم تنتظر باقى الضباع لترى مصير أخيها ، وإنما اندفعت فى اتجاه الغابة هاربة من وجه النمر الذى أهاجته منظر الدماء فقفز جريا وراءها . ولم ينتظر الشاب كثيرا ليجرى إلى مكان الفريسة يقتطع منه بيديه أكبر قطع يستطيع حملها . كان يعلم أن النمر قد شبع أو كاد ، وأن احتمال عودته ليكمل غذاءه إحتمال ضعيف جدا ، لكنه لا يستطيع أن ينتظر ليتحقق منه . حتى إن لم يعد النمر فسوف تعود الضباع ، وأيا كان فلا داعى للتلكؤ . اقتطع من اللحم أكبر كمية يستطيع حملها ، ثم إنسحب إلى الأحراش عائدا إلى الفجوة . كان يخالط احساسه بالانشراح لفوزه بهذه الغنيمة ، شعور غريب آخر . شعور يشابه شعور الأب وهو عائد لأطفاله الجياع بوليمة شهية .

ألقى بحمله من الفرجة قبل أن يلق بالغصن من تحت ابطه ويدخل . ورأى الجرو يجرى نحو قطعة اللحم الضخمة ليعمل فيها مخالبه وأسنانه الصغيرة بنهم . ومد الشاب يده يتحسس فراء الجرو الناعم برقة . وندت عن الجرو زمجرة غاضبة خائفة ، لكنه ما لبث أن انهمك ثانية فى غذائه الذى طال عليه الانتظار . وتركه الشاب يأكل كفايته قبل أن يمد يده ليقتطع لنفسه قطعه من اللحم يلتهمها . وامتلأت بطن الجرو ، فتدحرج عائدا إلى جوار ولى نعمته . وأغلق الإثنان عيونهما ، وراحا فى سبات عميق .

كان نور الصباح ساطعا حينما إستيقظ الشاب ليجد أن الجرو قد سبقه . وبدأ وليمته الصباحية على قطعة اللحم . ولم يجد الشاب فى نفسه ميلا نحو اللحم . تذكر الثمار التى ألقاها من يده ، والتى يوجد منها الكثير على بعد يسير من الفجوة . تناول الغصن وهم بالخروج ، ولكنه عاد وتردد ، ثم قبض على

قطعة الحجر ، وعكف يعالج بها طرف الغصن فى دقة . لقد تذكر وعده لنفسه أن يدبب طرف الغصن ، كما تذكر ، وهو يعمل ، الناب السيفى الحاد للنمر ، وتمثله وهو يقطع فى يسر ، وسهولة ، لحم الثور . لو أن معه مثل هذا الناب إذا لأضحى كالنمر لا يهاب الضباع ، ولا حتى الأسود . بل لعله كان يصارع به أشد الوحوش ضراوة ، أو ربما ذلك الرعب الذى فتك بأبيه ، وأمه ، وسائر عائلته . إنه سوف يدبب الغصن إلى أقصى درجة لا يفقد معها صلابته . سوف يجعله حادا كناب النمر يقطع بسهولة فى أجساد أعدائه . وفرغ الجرو من طعامه فراح يداعب الشاب ، ولكنه أبعده عنه فى رفق . وعكف على عمله ، بصبر ، وأناة ، وناب النمر يداعب خياله .

انتصف النهار قبل أن يرضى الشاب عن عمله . وشعر بجوع شديد ، فمد يده إلى قطعة من اللحم وأعمل فيها أسنانه . وجرى الجرو إليه يشاركه الطعام . وما فرغ الشاب من طعامه ، حتى أحس بحاجته إلى الماء . لا بد أن هنالك جدولا قريبا من هذه الشجرة ، وإلا لما اختارته الذئبة مخبأ لصغارها . خرج من الفجوة حاملا غصنه المدبب فى يده يودعه نباح الجرو . راح يتحسس رائحة الماء حتى اشتدت فى أنفه فاتجه إليه حاذرا . وعلى شدة عطشه لم يندفع نحو مصدر الماء ، وإنما توقف قليلا حينما علم أنه لا يبتعد عنه أمتار . إذا كان به ظمأ ، فربما كانت هنالك حيوانات أخرى بها مثل ما به . كان يعلم أنه ما عليه إلا أن يقتحم مسافة ضئيلة من الغابة الكثيفة ليرى مصدر الماء ، ولكن فى هذه المسافة قد يترصده فيها الموت .

تلصص الشاب الخطى بينما راحت عيناه تجولان فى كل اتجاه ، وتسمعت أذناه أدنى الأصوات ، وتلقف أنفه أخف الروائح . ولم يكتف بكل هذا ، لكنه حينما بدت له المياه من خلال الأحراش إختار شجرة ضخمة وراح يتسلقها فى خفة ومهارة . انتقى فرعا يطل على الجدول ، ومكث مدة طويلة فوقه بلا حراك ، فى حين أرسل بصره إلى جميع المنطقة حوله . رأى حيوانا

صغيرا يدلف فى سرعة بين الأحراش إلى الأعشاب النامية على شاطئ الجدول ، لكنه لم ير شيئا يثير مخاوفه .

وقفز الشاب من فرع الشجرة الى الأرض ، وتقدم بخطى بطيئة حذره نحو الجدول مخترقا الأعشاب . وفجأة التفت حول ساقيه قيد من حديد . لقد انساه شدة الخوف من الوحوش أنه قد يوجد بين الأعشاب ما هو أشد خطرا منها : الثعبان . وفقد الشاب توازنه . ووقع على الأرض ، وسقط الغصن من يده . وضغطت عضلات الثعبان الفولاذية على ساقيه كما بدأ فى الإلتفاف حول باقى الجسم . وللحظات كاد فيها أن يفقد حياته ، طاش صوابه ، فأخذ يضرب بيديه محاولا أن يتملص من القيد الفولاذى الذى يزداد ضغطا على جسده ، يكاد أن يصهره .

وشعر بأن أنفاسه سريعة لا تفى بحاجته الى الهواء ، وأنه ان استمر قليلا على ذلك فسوف يموت اختناقا . وأدرك أن مقاومة الثعبان بيديه لن تجدى : فشتان بين القوتين . فترك نفسه برهات بغير مقاومة ، وراح يلتفت حوله عن الغصن الذى كان بيده وسقط منه حينما فقد توازنه . ورآه على مسافة يسيرة منه ومد يده اليه ، ولكنه لم ينله . جمع شتات قواه الخائرة وقاوم الثعبان زحفا متجها نحو الغصن . ولم يجد صعوبة كبيرة فى هذا اذ كانت كل قوى الثعبان متجهة الى هصر عظام فريسته . وقبضت يده على الغصن المدبب ، وغرزه بكل قوته فى جسد الثعبان . وصدر حفيف مخيف ، أقرب الى صرخة ألم ، وغضب . وتراخى الطوق الحديدى الذى كاد أن يهشم العظام .

وتملك الشاب نوع من الجنون ، فعاود ضرب الجسم الناعم الملمس بالغصن مرات ، ومرات . وتنحى الثعبان عن فريسته ، ولكن الفريسة هاجمته فى كل جزء من جسمه تمزقه . وحاول الثعبان أن يستعمل فكيه وأسنانه ، ورأسه ، ولكن الغصن المدبب الحاد كان يقابله فى كل مرة بتمزيق جديد . وآثر الثعبان الهرب ، ولكنه لم ينله ، فقد قابله الغصن فى كل اتجاه نحاه ، يقطع جزءا

جديدا من جسده . ولم يكف الشاب عن الضرب حتى تأكد أن غريمه قد فارق الحياة .

وأحس أن مفاصله تخور وأنه لن يستطيع الحراك ، ولكنه كان يعلم كذلك أنه لا يمكنه البقاء فى مكانه عرضة لأن يلتهمه أى حيوان . سحب فريسته نحو الشجرة ، واستلقى على الأرض مستند إلى جذعها . وبقى يلتقط أنفاسه اللاهثة ، ثم زحف محاذراً نحو الجدول حتى أصابه . وفى حماية الأعشاب ، طفق يطفىء ظمأه فى شغف حتى ارتوى . وعاد زاحفا ببطء إلى الشجرة حيث التقط فريسته وطوق جسمها بذراعه وراح يجرها نحو مخبئه حاملا غصنه المدبب بيده الأخرى .

قذف بالفريسة إلى داخل الكهف الشجرى ثم أتبعها واستقبله الجرو فرحا ، وراح يقفز حوله ويلعق قدميه . ولاحت شبه إبتسامة على وجه الشاب وهو يقدم الفريسة إلى الجرو ، ولكنه جافاها ، وصدرت منه أصوات همهمة أقرب إلى الأنين ، يتخللها عواء ونباح . وحار فى تفهم مايريد الجرو . كان يريد أن ينفرد بنفسه ، ليتفكر فى حوادث اليومين الماضيين . فصرف النظر عنه وأطلق لأفكاره العنان .

رجعت ذاكرته إلى الوراء ، رأى عائلته الصغيرة تمزق ، وسمع الصوت الزمجرة الخافت الكريه المرعب رأى نفسه ينطلق متسللا بين الأدغال ، وتذكر كيف إخترع هذا الغصن المدبب ، أنه سلاح قوى ، أقوى حتى من الهراوة ، ومن الحجر ، كما أثبت ذلك فى صراعه مع الثعبان ، ولو أنه رأى أن فيه بعض العيوب لو كان الغصن أقصر قليلا مما هو الآن لأمكنه أن يستعمله بيسر أكبر ، ولكان أكثر فاعلية . بل لعله يستطيع أن يمزق به لحم الجيف بدلا من أن يقتطعها بيديه ، وأسنانه . ولم يكف الجرو عن عوائه ونباحه عسى أن يلفت إليه النظر ، ولكن الشاب كان مستغرقا فى أفكاره . وحاول الجرو أن يتمسح فيه ، ولكنه نحاه عنه أكثر من مرة . ماذا يريد هذا الجرو وأمامه من الأكل الكثير ؟ .

وعاد إلى أفكاره . لو كان الغصن أقصر مما هو عليه الآن لكان أجدى نفعاً . وما الذى يمنعه من أن يكسره ؟ وهم فعلا بتناول الغصن ، ولكنه عاود نفسه . ما الداعى للعجلة ؟ ألا يجوز أن تكون هنالك حاجة لهراوة فى قتال مع أحد الوحوش ؟ ألا يكون من الأحوط أن يقاتل بعيداً عن المخالب الحادة ؟ ان الأخشاب كثيرة فى الغابة فما الذى يمنعه من أن يبحث عن غصن آخر أقصر من هذا ، ويقوم بتشذيب نهايته ، بل وجعله أكثر حدة من الذى معه واستراح إلى هذا الفكر ، فنفض عن نفسه موضوع الغصن وانتقل الى غيره .

أن هذه الفجوة مكان آمن نسبيا ، خاصه بعد أن سقط الفرع ليسد المدخل ولكنها لا تصلح لتكون سكنا دائما . قد تصلح لأيام ، أو حتى ربما لأسابيع ولكنها لا يمكن أن تصلح للاقامة المستقرة . أن عليه فى الأيام القادمة أن يكتشف المنطقة التى حول الفجوة ، جزءا فجزءا حتى يتعرف على كل شبر فيها وكل شجرة ، وكل حيوان . لقد عرف بخبرته أن للحيوانات مناطق لا تحب أن تتركها إلا مكرهة . لها آجام ومرابض ، ولها عادات تكاد أن لاتحيد عنها أجل عليه أن يكتشف المنطقة ببطء ودقة ، ليعرف أين توجد منابع المياة ، وأين توجد الأشجار المثمرة ، وأين خلايا النحل ، وأين الحيوانات الصغيرة ، بل وأين توجد مخابئها . عليه أن يتوسع فى دائرة حركته يوما إثر يوم ، يدرس كل شجرة ، وهل تصلح ملاذا عند الخطر ، أو لا ؟ وهل يمكن للحيوانات أن تتبعه عليها ؟ وهل يستطيع أن يختبىء بين أغصانها ، وفروعها بسرعة كافية ؟ وهل يمكنه عند الضرورة أن ينتقل منها إلى غيرها ؟ ومئات الأشياء الصغيرة الأخرى التى تتوقف حياته على معرفته لها .

وضايقه نباح الجرو وعواؤه . ترى ما الذى يبتغيه ؟ لعله ينادى أمه أو أخوته ، أو لعله يبتغى أن يلاعبه . ومد الشاب يده إلى الفرو الناعم ، والرأس الصغير . لقد شعر بألفة غريبة تجاه الحيوان الصغير ، بل انه لا يتصور وجوده فى الفجوة منفردا بغيره . وحتى لو حضرت أمه الآن تطالب به ،

فسوف يقاتلها دونه ، وخفت نباح الجرو وعواؤه قليلا تحت أصابع الشاب ، ولكنه لم ينقطع. ماالذى يبتغيه ياترى ؟ ان أمامه أكلا يكفيه أياما، بل لعله لم يأكل هكذا منذ فطمته أمه ، إذن ماالذى ينقصه ؟ كيف تسنى له أن يذى هذا ؟ياالجرو المسكين ، انه الظمأ الذى يجعله يموء ويعوى وينبح .

وحمله بين يديه واتجه إلى مدخل الفجوة . وتوقف قبل أن يخرج به . كان الجرو مايزال يموء ، ومعنى هذا أنه سوف يكون أحسن دليل يقــود إليه الحيوانات الهائمة بليل ، إنه يستطيع أن يكمم فم الجرو ، ولكن أى صوت يكفى القضاء عليهما معا . كلا إنه لايستطيع المجازفة . إذا فعليه أن يحمل المياه إلى الفجوة . كيف ؟لقد اعتادت النساء فى عائلته على حمل المياه فى أوراق الشجر العريضة،ومعنى هذا أن يضطر إلى استعمال كلتا يديه ، وبالتالى إلى ترك الغصن ، وهو السلاح الذى أشعره ببعض الأمان . لو أن معركته مع الثعبان كانت بغير هذاالغصن ، بل حتى بهراوة لكان الآن فى عداد الأموات ومايدريه لعل الموت ينتظره بصــورة أو بأخرى فى الظلام . لابد أن هنالك وسيلة أخرى لحمل المياه إلى الجرو غير ورق الشجر . وسيلة يحتفظ فيها بالميــاه مسافة قصيرة ، ولايحتاج فيها لكلتا يديه .

وكأنما إستجابة لدعاء ، حملت إليه الرياح أصوات الرعد ، والعاصفة تقترب. هذا هو معنى المنجى ماعليه إلا أن ينتظر أن يهطل المطر ، وهو ليس ببعيد ، إذا كان له أن يحكم من صوت الرعدوضوء البرق . وتناول الشاب الغصن وهرع يبحث عن أوراق الشجر العريضة . وتساقط المطر بشدة قبل أن يجدها ، ويعود إلى مدخل الكهف . ومد يده يرتق الفرع على الأرض فلمست بللا . وندت عنه ضحكة هى أقرب إلى الحشرجة ، فما كان فى حياته مجال للضحك أو البكاء. لقد تلقى التجويف الذى أحدثه فى الفرع ، ماء المطر واختزنه . هذا هو الحل الذى كان يفكر فيه . ماعليه إلا أن يعمل طرف غصنه المدبب فى فرع عريض نسبيا ليحدث تجويفا فيه يختزن الماء ، ويسهل حمله إلى أية مسافة شاء ، وكان خروجه

من كهفه الشجرى ، ومغامرته المسائية بحثا عن أوراق الشجر العريضة ، وتعرضه للبرد ، والمطر ، كل هذا بلا فائدة . لقد أعطته الطبيعة الحل عند مدخل مأواه .

لم يضع الوقت سدى ، دخل إلى الفجوة وحمل الجرو المتألم بين يديه ، ووضعه أمام التجويف وتركه ، ينهل من الماء ماشاء ، حتى ارتوى فأعاده إلى الداخل . ونام الرجل ، والتصق به الجرو يبغى الدفء .

كانت العاصفة قد إنتهت ، وبزغت الشمس ساطعة حينما إستيقظ الشاب والجرو . شعر بالنسيم البارد الرطب يلفح وجنتيه حينما ألقى بنظره من الفرجة إلى الخارج . ومضى الجرو يلعب بين قدميه كأنما تملكه الفضول للتطلع إلى ماوراء الكهف . وجلسا يأكلان بعض اللحم حتى شبعا ، ثم هم الشاب بالخروج . وجرى الجرو خلفه وهو يموء ويداعب قدميه . وخطر فى باله أن الجرو يجب أن يخرج قليلا إلى الغابة ، ولكنه خشى إن هو أخذه أن يبتعد عنه . وأخيرا استقر رأيه ، وحمل الجرو ودلاه من الفرجة ثم تركه ليسقط على الأرض ، وتناول غصنه المدبب ، وتبعه إلى الخارج .

ألقى نظرة حوله بحثا عن الجرو فلم يجده وتلفت فى كل إتجاه ولكنه لم يعثر على أثر . واغتامت الشاب غمامة من الحزن ، وانتابه شعور بالوحدة والوحشة ، لقد نادت الجرو طبيعة الغاب فذهب يلبى النداء ، وترك رفيق الكهف الشجرى . سار منقبضا نحو الأشجار يقطف ثمارها ، ولم يلتفت إلى صياح القردة وهى تلاعب بعضها ، ولم يلتفت كذلك إلى تغريد الطيور ، ولا إلى ألوانها ، ولكنه ركز إهتمامه على جمع الثمار ، واصاخة السمع لأصوات الغابة المعادية .

وعاد إلى الفجوة فألقى فيها ماجمعه من ثمار ثم توجه الى الجدول فارتوى . ومضى يوسع من — رقعة تجواله يتعرف على الأشجار ومنابع المياه ، والوحوش ، والمخابئ ، والأوكار . ولكنه فى تجواله كانت عيناه دائما تجوسان خلال الغابة بحركة لاشعورية ، بحثا عن الجرو ، وتصنتت أذناه أن تسمعا صوت عوائه .

كادت الشمس أن تغيب حينما عاد الشاب الى الفجوة يحمل هذه المرة

قطعا متعددة الأشكال والأحجام من أخشاب الشجر . التي يحمله من الفرجة ثم داف الى الداخل . وأحس بمجرد دخوله بوحشة مقبضة اذ تذكر الجرو . لو أنه كان موجودا لاستقبلة فرحا لاعبا مداعبا ، اما الآن فكأنه قد دخل الى سجن مظلم . ترى اين الجرو ؟ هل لحق بأمه واخواته ؟ ام انه ذهب غذاء يسير الوحش من الوحوش ؟ ولم يدر بخلد الشاب مطلقا أن الجرو يمكن أن يمكث فى الغابة وحيدا لا كثر من مدة يسيرة يفقد بعدها حياته وجلس على الارض الرطبة وبدأ فى عمله يشذب أطراف الاغصان .

وفجأة قفز قلبه بين ضلوعه إذ تناهى إلى سمعه أصوات نباح ، وعواء ومواء خارج الفجوة . وقفز من مكانه إلى المدخل وأطل منه ، وهناك ، أمام المدخل تماما ، وجد الجرو ينظر إليه ، ويبصبص بذنبه ، ويقفز فى الهواء فرحا . أسرع بالخروج ، وتناول الجرو بين يديه . ولو كان يعلم ما التقبيل لقبله وشعر براحة شديدة وهو يضم الجرو إلى صدره العارى . وبادله الجرو الشعور فراح يلعق جسده ووجهه ويديه ، واستخف الطرب الشاب فمضى يرقص فى الهواء حاملا الجرو . وتناهت إلى سمعه أصوات بعض القردة تتصايح مودعـــة الشمس ، فانطلقت من حنجرته أصوات ساخرة مقلدة .

أودع الجرو بحنان فى أرض الفجوة ثم داف وراءه ، وجرى الجرو نحو ما بقى من لحم يلتهمه . يا للمسكين لعله ظل اليوم بأكمله دون غذاء ، لقد كان من حسن الحظ أنه أكل فى الصباح وجبة دسمة كفته طوال يومه . وتلفت حوله يغمره شعور بالفرح ، لم تعد الفجوة سجنا مظلما ، وإنما اضحت منزلا ومأوى ، وتمدد الشاب على بعض الحشائش الجافة التى كان قد أتى بها من الخارج ، وجرى إليه الجرو وقد امتلأ . وسرحت أفكاره فيما فعل ، وما يجب عليه أن يعمله فى غده .

لقد جمع عددا لا بأس به من الثمار ، كما لا تزال توجد قطعة اللحم . فغذاؤه والجرو موجود ، وليسا فى حاجة إلى الخروج إلا لرى الظمأ . وانتقل تفكيره

إلى الاخشاب التى جمعها لقد اعتنى بأن يكون منها ما به التواء فى باطنه حتى يسهل عليه تجويفه ، وسيكون وعاء يختزن فيه الماء ، ولعله بذلك لا يكون عليه الخروج كل يوم ، فتقل احتمالات الخطر .

عليه أن يبدأ غدا فى عمل التجويف اللازم فى الجزء الملتوى ، وعليه كذلك أن يصنع خشبا مدببا قصيرا ليستعمله كسلاح ، بل وربما صنع عددا من كل ما سبق وعاد إلى ذاكرته تقليده لأصوات القردة كانت محاكاه تامة حتى أن بعض القردة قد سكت لينصت . وحتى محاكاته لزمجرة النمر كانت أيضا متقنة جعلت الضبع يقفز فزعا . إنه ليستطيع أن يجعل من هذا تسلية إن شاء . لعل له ميزة على الحيوانات الأخرى ، لعله يستطيع أن يحاكى أصواتها جميعا . كان يعلم أن لكل حيوان ، بل لكل طائر مجالا صوتيا معينا لا يتعداه ، بل أن حياته فى الغابة قد علمته أن يفرق بين أصوات الحيوانات المختلفة ويعلم منها حالة الحيوان نفسه إن كان جائعا ، أو غاضبا أو خائفا ، أو متألما أو غير ذلك . كان لكل من هذه مجال صوتى واحد لا يتغير . أما هو فانه يستطيع أن يغير من صوته كيفما شاء الايمكن أن يستعمل هذه الميزة فى شئ آخر سوى مجرد التسلية ؟ ألا يمكن أن يدرس الأصوات إلى حد تقليدها تقليدا محكما يخدع الحيوانات ذاتها ؟ إن لها أصوات معينة حينما تحذر ، وحينما تخاف ، وحينما تهاجم ، أو تجوع ، أو تبغى التزاوج ؟ ألا يمكنه أن يلاحظ هذه الأصوات ليقلدها فيستفيد بها ؟ أجل ولكن أية فائدة ترجى ؟ ماذا يمكن أن يفعل بهذه المحاكاه سوى التسلية ؟ سوف يرى ، أما الآن فان جفنيه ثقيلان .

كان الجرو هو الذى أيقظه من النوم . ثوان انقذت حياته . وبغير أن يعرف السبب وبغريزة لا تخطىء الشعور بالخطر إمتدت يده إلى الغصن المدبب فى حين اتجه نظره الى الفرجة ليرى رأس الذئبة وهى تحاول الدخول . ولولا أن الفرع الملتى فى المدخل به انبعاج لكانت قد دخلت فعلا ولو تمكنت من الدخول لكان

هنالك قتال بينهما حتى يموت أحدهما. ودفع الغصن فى حركة سريعة الى وجه الذئبة التى تراجعت بخفة بعيدا عن الفرجة لتقف فى الخارج ترسل عواء طويلا .

يا للذئبة اللعينة ، هل عليه الآن أن يعطيها الجرو . كلا إنه سوف يقاتلها دونه . لقد اعتاد على وجوده فى الأيام الماضية حتى أنه لا يتصور أن يعيش بدونه . ولكن ما الذى أتى بالذئبة ؟ لعلها قد إلتقطت رائحة الجرو حينما خرج أو لعل الجرو كان قد ذهب إليها حينما غاب طوال النهار . لو كانت الأخيرة فمعنى هذا أن الجرو قد فضله على أمه ، وأنه بعد أن مكث معها ، وأخوته هذه الفترة الطويلة هجرهم ليعود إليه . ومؤدى هذا أيضا أنه لا ضرر من أن يترك الام تحمل الجرو الى مخبئها الجديد . فسوف يعود إليه ثانية . ولكن هل يجازف بهذا ؟ هل يدع الذئبة تأخذ الجرو على مجرد أمل أن يعود إليه .

واستقر رأيه على حل وسط . سوف يعطى الجرو إلى الذئبة ، وسوف يتبعها إلى مخبئها الجديد ثم ينتهز فرصة يخطفه ليأخذه إلى مكان بعيد لا تستطيع الذئبة أن تنتبه إليه ، وإذا احتاج الأمر فسوف يقاتلها دونه .

وأمسك بالجرو ودلاه من الفرجة إلى الام المنتظرة . وجرى الجرو الى أمه التى تلقفته بحنان ومضت تلحس فراءه وأطبق فكا الذئبة القويين على رقبته تحمله الى الوكر الجديد .

وهنا حدث ما لم يتوقعه الشاب ، ولا الذئبة ، صدرت من الجرو عدة زمجرات ، وحاول الإفلات من بين فكى امه . واضطرت الأم إلى إحكام فكيها على جسده ، ولكنه استمر فى الزمجرة ، ومحاولاته للافلات . وأخيرا ، وحتى لا تضغط الذئبة بأنيابها الحادة على جسده فتؤذيه تركته يهبط الى الأرض .

واندفع الجرو إلى فرع الشجرة فرحا مبصبصا بذنبه ، وبغير أن يشعر الشاب خرج من الفرجة ليلتقطه . وصدر من الذئبة صوت وحشى ، وتأهبت

الهجوم ، ولكن ، المرة الثانية حدث مالم تتوقعه . زمجر الجرو ، ووقف إلى جانب الشاب مكشرا عن أنيابه . كان منظرا مضحكا الذئبة الضخمة تتأهب الهجوم ، والشاب العملاق يستعد لملاقاتها ، وقد وقف الى جانبه جرو صغير لا يكاد أن يبين بين الاثنين ، ومع هذا فإنه يثبت وجوده بزمجرة وتكشير عن أنياب لا تعدو أن تكون أسنانا صغيرة .

وتوقفت الذئبة لحظات ، ونظرت إلى وليدها وكأنما لا تصدق عينيها ، ثم رفعت نظرها إلى الشاب ، وفى تأنٍ يكاد أن يكون حزينا ، استدارت واختفت فى الغابة .

الفصل الثاني

الذئب والشاب

كانت عينا الشاب ترقبان قطيع بقر الوحش وهو يرعى فى هدوء . كان يجلس فوق فرع الشجرة بلا حراك عاريا تماما سوى من جلد يلتف حول شعره المكث الطويل ، وآخر يلتف حول وسطه ، وقد تدلى منه خنجر خشبي حاد الطرف ، كان قد أمضى أياما وأسابيع عديدة وهو ينتقى من بين الخشب وأفرع الأغصان ما يلائم أغراضه ويكفيها أشكال مختلفة . صنع عدة حراب طويلة كتلك التى أنقذته من الثعبان ، وصنع أخرى قصيرة ليسهل على اليد استعمالها فى الصراع ، وأتقن صناعتها حتى أضحت خناجر . وصنع عدة أوعيه خشبية ليختزن فيها الماء . أمضى أياما وهو يتدرب على إلقاء الحراب حتى أتقن التصويب بها ، وأمكنه أن يقذفها على أمتار لتصيب حيوانا يجرى ولا تخطئه . ووجد أن حمل أكثر من سلاح معه قد يعوق حركته ، أو يقلل من سرعته ، فهداه تفكيره إلى أن يدلى بعضها حول بدنه . واستعمل فى بادىء الأمر ألياف الأشجار يربطها حول وسطه ، ولكنها كانت لجة سريعة التلف فلم يكن يعرف كيف يفتلها حبالا .

واصطاد ذات مرة ثورا بريا ، فقطع منه أجزاء ليختزنها بعد أكل كفايته . وبعد أيام حينما أراد أن يأكل مابقى من اللحم العفن وجد أنه لايستطيع أن يمضغ الجلد بسهولة ، فألقاه خارج الفجوة ، وتعرض الجلد لمياه الأمطار ثم إلى الشمس حتى يجف تماما . وشاهد ذات يوم الجرو يلعب بالجلد على عادة صغار الحيوانات يحاول تمزيقه بأسنانه ومخالبه . ولاحظ أن الجلد لم يكد يتأثر بما تفعله أسنان الجرو على حدتها ، فتناوله منه واختبره . ومنذ هذه اللحظة استقر رأيه على أن يتخذ منه حزاما يربطه حول وسطه ويدلى منه خنجره .

وتعلم أن الجلد الذى تجففه الشمس تزيد قوة احتماله كثيرا . فكان كلما اصطاد حيوانا سلخ عنه جلده ، وجففه ، واحتفظ به ليستعمله حينما يحتاج إليه حتى اجتمعت له كمية لا بأس بها من الجلود .

ودارت عينا الشاب فى الأشجار الضخمة ، والأحراش المحيطة بالقطيع ، فلم يلحظ شيئا غير عادى . ولكنه لم يتعجل ، كان يعلم أن الحيوانات المفترسة أساتذة فى فن الاختباء . وأنها دائما تأخذ وقتها فى الهجوم .

وطال مكثه ، ولم يحدث شيئا . وبدأ ينتقى من القطيع أقربها إليه ، وأبعدها عن أقرانها ، فريسة لغذائه . وفجأة ، كأنما بإشارة متفق عليها ، توقف القطيع كله عن الحركة والأكل ، ثم إندفع فى ذعر شديد بين الحشائش والأعشاب . تعجب من ذعر القطيع ، فهو لم يلحظ شيئا على طول خبرته ، وطول بقائه فى مكانه . لم توجد حركة فى الأعشاب ، ولا أى صوت أو اهتزاز ، كما أن أشجار الغابة كانت بعيدة نسبيا عن موقع القطيع . وصلت أذنيه من بين أشجار الغابة زمجرة وحشية خافتة تلاها صوت بقر وحشى يصرخ من الألم صرخة ما كادت أن ترتفع حتى إنقطعت دون أن تكتمل . ثم ، لاشىء .

قفز قلب الشاب بين ضلوعه ، وانتفض جسمه فزعا . لقد ذكرته هذه الزمجرة بأخرى شبيهة بها ، سمعها منذ أشهر طويلة . وتسمر فى مكانه على الشجرة ، وأبى عقله أن يعمل . إستمر يعاود أذنيه صدى الزمجرة ، كما عاود عينيه المنظر الذى رآه منذ شهور خلت . إذا فقد انتقل الرعب ليجعل هذه المنطقة مسرحا لصيده . وإذا فلم يعد هنالك أمان فى البقاء فيها ، وعليه أن يترك فجوة الشجرة ، على قدر ما جاهد فى اخفائها عن عيون الوحوش ، وعلى قدر ما عمل طوال هذه الشهور ليجعل منها مكانا مريحا كلا ليس هنالك مكان آمن فى مسرح صيد هذا الرعب ، وكل ما يمكنه عمله هو الفرار قبل أن يقع فريسة سهلة .

وتصبب العرق منه ، عرق الخوف والخنق . هل قضى عليه أن يبقى هاربا حتى يأتى الوقت الذى يفاجئه فيه هذا الرعب ؟ هل قضى عليه ان ينتقل من مكان إلى آخر بلا هوداه أو توقف ؟؟ وأدواته التى قضى وقتـــا طويلا فى عملها ،

هل سيتركها فى الفجوة ؟ الأوانى الخشبية ، وأوعية المياه ، والخناجر ، والرماح ، والجلود . هل سيتركها جميعا مكتفيا بما يحمل معه الآن ؟ والذئب ترى أين هو الآن ؟ وهل سيصحبه فى تجواله . إن الحيوانات لا تميل إلى ترك مناطقها إلا مضطرة مكرهة ، ولن يفهم الذئب أنه قد أضحى عليه أن يهجر المنطقة ليبتعد عن الخطر الساحق الذى يتهدده .

فى بطء وحذر شديدين هبط من الشجرة ، وتناول رماحه الملقاة إلى جانب جذعها . وتوقف لحظات ينصت . راعه أن الغابة جميعها لا يصدر منها أى صوت وأن السكون مطبق . ترى ماالذى حدث للطيور المغردة ؟ وأين هى ؟ والقردة الثرثارة التى لا تصبر على الصمت لحظات ؟ هل جميعها خائفة من هذا الرعب ؟ إن القردة جسورة لا تهاب ، بل إنها كثيراً ما تتحدى النمر سيفى الناب ، وكثيراً ما تسخر منه . ومن غيره من الوحوش ؟ هل تخاف هذا الرعب هى أيضاً ؟

وتردد قليلا ، ثم إستقر رأيه على أن يجازف بالاتجاه إلى مسكنه . سار متلمسا ظلال الأشجار ، ومتحسسا كل صوت ، بينما كانت عيناه تدوران فى كل اتجاه . كانت حياته فى الغابة قد علمته الحذر الشديد ، وإزداد حذره حينما أصبح وحيداً لا يمكنه الإعتماد سوى على حواسه . أما وهذا الرعب فى المنطقة ، فقد كانت أعصابه متوترة إلى أقصى مدى ، كما كانت جميع حواسه منتبهة . ولاحظ بعد فترة أن الطيور عادت إلى تغريدها ، وأن القردة بدأت ضجيجها ، وعجيجها ، فتراخت أعصابه ، وسار فى ثقة أكبر نحو فجوته الحبيبة . كان عليه أن يترك المنطقة ، ولكنه لن يتركها قبل أن يأخذ الذئب معه . أو على الأقل ، قبل أن يحاول إصطحابه .

وفد إلى أذنيه عواء الذئب الموحش مترامياً من بعيد ، وتلقفه عواء آخر ثم آخر ، وآخر ، حتى تجاوبت الغابة أصداء العواء . وتساءل الشاب عما إذا كان الذئب صاحبه من هذه المجموعة ، أم أنه يقبع خارج الفجوة فى انتظاره . ووصل إلى الشجرة ، وهاله مارأى . كان الفرع الضخم الذى ظل فى مكانه طوال هذه

الشعور يخفى المدخل ، قد طرح بعيداً ، وكانت الأخشاب والأغصان الصغيرة التى جمعها الشاب لإحكام اخفاء الفتحة مبعثرة فى كل مكان . ووقف مبهوتا . أية قوة تلك التى أمكنها أن تنقل هذا الفرع من مكانه لتلقيه بعيدا عن الفجوة ؟ لا يمكن أن يكون هذا من فعل أحد الوحوش . ودار فى خياله ماحدث .

فى وقت ما ، أثناء تغيبه عن الفجوة ، حضر الرعب . ولعله قد نفذت إلى أنفه رائحة إنسان ، وظن أنه مختبىء داخل الكهف الشجرى . فأزاح الفرع عن طريقه ، وبعثر الأغصان ، ولم يكن فى إستطاعته حتما أن يدخل من الفتحة نظرا لضخامة حجمه ، ولعله حاول بطريقة أو بأخرى أن يبحث عن قاطن الكهف الشجرى ، ولما لم يجد أحدا ترك المنطقة بحثا عن غذائه فى مكان آخر . وقد صادفه الشاب فعلا عند القطيع . ومعنى هذا أنه سوف يعود ثانية آملا أن يجد قاطن الكهف الشجرى قد عاد إليه ، بل لعله الآن على بعد خطوات يرقبه بهاتين العينين الخبيثتين القاسيتين .

وأيقن الشاب أنه لن يستطيع المخاطرة بانتظار صديقه الذئب . وأن عليه أن يرحل الآن فورا ، حتى دون أن يدخل إلى كهفه الحبيب ليحمل معه ماقد يكون قد بقى فيه من صناعاته الخشبية التى كان فخورا بها . كان عليه أن يواجه الأخطار المحدقة به من كل صوب ، للمرة الثانية ، بغير صديق ، أو مأوى . كان عليه أن يواجه الغابة ليلا ، ونهارا ، دون أمن لحظة واحدة ، ودون غطاء من شمس محرقة أو مطر غزير . كان عليه أن يواجه الطبيعة ، والحيوانات ، والوحوش منفردا لاسلاح له سوى رمحه وخنجره الخشبيين . كان عليه أن يترك المنطقة التى عاش فيها ، وعرفها وحفظ كل شجرة بها ، وكل دغل ، وكل جدول ، بل كل حيوان . ولم يفقد حذره وهو يستدير بخطى مهمومة متثاقلة بعيدا عن كهفه .

° ° °

قبع الشاب إلى جوار الغزال يقتطع منه أطايبه بخنجره الخشبى . ومضى يأكل فى نهم زائد إذ كانت قد مضت عليه أيام طويلة وهو لا يأكل سوى مايلقاه فى طريقه من ثمار ، أو بعض الزواحف ، والطيور وبيضها ، كان كل ما يشغل باله فى الفترة

السالفة أن يبتعد عن ذلك الرعب، وعن المنطقة الجديدة التي إتخذها مسرحاً لوحشيته. لم يكن قد أخذ كفايته من النوم في أي يوم من أيام ترحاله، كما لم يكن قد أخذ كفايته من الغذاء، إذ لم يكن ينتظر طويلاً ليصطاد حيواناً. وأثرت هذه الأيام في جسده إذ بدا أكثر نحولاً، كما أثرت في تفكيره فكان أكثر حذراً، وحينما قيض له أن يقتل الغزال، زايله بعض حذره. وكاد هذا أن يكلفه حياته.

كان رمحه ما يزال غائراً في جمجمة الغزال، كما كان خنجره مغمداً في اللحم وهو ماض يلتهم كلما اقتطع لنفسه. ولم تنتبه أذناه إلى تلك الحركة الخفيفة في الأحراش، كما لم تصل إلى أنفه تلك الرائحة التي ما كان ليخطئها لولا إندفاعه في الأكل بكل جوارحه. لم ير الوحش وهو يزحف في بطء، وسكون خلفه وقد سال لعابه للفريستين اللتين رآهما.

استعد الوحش للقفز حينما إنقض عليه جسد أشعث ضخم كأنما هبط من السماء ليغرز أنيابه في ظهره. وصرخ الوحش من الألم، وإستدار ليواجه العدو الجديد. وفي أقل من برهة عادت إلى الشاب جميع حواسه، يقظة منتبهة، في سرعة خاطفة إستدار ليواجه الخطر، بينما إنتزعت يده الخنجر من جسم الغزال في الحركة نفسها.

رأى على بعد خطوات منه منظراً أفزعه، وأثلج صدره في الوقت نفسه. كان الذئب، زميله القديم، يتصارع صراع الموت مع نمر في ثلاثة أمثال حجمه. وأدرك الشاب أن مثل هذا الصراع غير المتكافيء، لا يمكن أن يدوم طويلاً، كما أدرك أن خنجره الصغير لن يجدي فتيلاً. كان يعلم أن الذئب ما كان ليهاجم مطلقاً نمراً لو لم ير أنه سوف يقتل صديقه. كان في إستطاعته في أي وقت أن يعدو بعيداً عنه لينجو بحياته، ولكنه آثر الصراع غير المتكافيء ليعطي فرصة الهرب للشاب.

في سرعة خاطفة استقر رأيه على ما يجب عمله. مد يده فانتزع الرمح من رأس الغزال، واتجه إلى مكان الصراع ليشترك فيه. ولم يكن الذئب من الجنون بحيث يضع نفسه تحت رحمة أنياب النمر أو مخالبه، فقد كان يعلم أن ضربة واحدة منه

كفيلة بالقضاء عليه ، وإنما كان يستغل خفة حركته ، وصغر حجمه نسبيا ، ليهاجم غريمه حيثما لا يتوقع ، ثم يبتعد قبل أن يتمكن النمر من النيل منه . ولم يكن الوحش من ناحية أخرى ثقيل الحركة ، لكن المفاجأة ، وضخامة جسده النسبية ، وانصراف حواسه جميعا إلى الفريستين اليسيرتين أمامه ، كل هذا أعطى الذئب ميزة المبادأة لفترة .

إقترب الشاب ببطء وحذر شديدين . كان يدرك أن لديه فرصة واحدة ، إن ضاعت منه فسوف يلاقى هو والذئب حتفهما حتما . كان عليه أن يضع هذا الرمح بأقصى قوته فى مقتل من النمر . ساده هدوء عجيب وهو يتقدم إلى المعركة . كان النمر مشغولا بالذئب الذى إستمر يهاجمه من نواح عديدة ، ليقتطع منه قطعة ، ثم يفر بعيدا . وحاول النمر مرارا أن يضرب الذئب بقبضته إلا أن هذا كان دائما يفلت منها ، ليدور حوله ، وليضرب ضربة أخرى قبل أن يستعيد غريمه توازنه تماما .

تأهب الشاب لأن يلقى رمحه بين عينى النمر تماما ، ولكن قبل أن يفعل ، وقعت الواقعة . أخطأ الذئب التقدير ، وتلقاه النمر أثناء هجمته بضربة قوية ألقت به بعيدا . وطار الذئب فى الهواء كسكرة أتقن قذفها راميها ، واستقر على الأرض على بعد أمتار ، جثة لا حراك بها . وجن جنون الشاب وزايله حذره ، إندفع نحو الوحش وألقاه برمحه بكل قوته . واستقر الرمح فى صدر النمر . وكانت الضربة من القوة بحيث دخل الرمح إلى أكثر من ثلثه . وصرخ الوحش صرخة مدوية من الألم ، وقفز فى الهواء بضعة أمتار ثم سقط على الأرض .

لكن الضربة لم تكن قاتلة ، فقد أخطأ الشاب فى عجلته التصويب . اندفع النمر فى جنون الألم نحوه فتنحى بخفة بعيدا عن القبضة القاتلة ، ثم اعتدل متأهبا للقاء . واستدار النمر نحوه . كانت الدماء تنزف منه بغزارة ، كما كان الرمح مازال بارزا من صـــدره ، ومع هذا فلم يكن يبدو أن الجرح قد استنزف قواه ...

هجم النمر للمرة الثانية ، لكن الشاب تحول عنه بخفة حتى مر ثم اعتلاه ، وارتفع الخنجر ، مثنى ، وثلاثا ليهبط بقوة فى كل مرة يمزق جسد النمر الهائج .

وقفز النمر فى الهواء ، فسقط الشاب من ظهر الوحش ليرتطم بالأرض بشدة شلت قواه لحظات ، وألقت بالخنجر بعيدا . وفى سرعة البرق امتدار الوحش ليضرب ضربة ، لكن الشاب تدحرج على الأرض بسرعة . واستمر القتال بين الإثنين دقائق خالها الشاب ساعات .

وجاءت النهاية حينما لمس كف النمر كتف الشاب . ومع أنها كانت مجرد لمسه ، إلا أنها ألقته بعيدا . وشعر بدوار شديد لم يستطع معه أن يستجمع قواه . وتحول النمر إلى ناحيته . حاول أن يتقى الهجمة وهو طريح الأرض ، لكن الجسد الضخم كان قد سقط عليه . وأيقن الشاب أن حياته قد أوشكت على النهاية ، فلو أطبق عليـــه الفكان الهائلان ، أو لو أصابته ضربة واحدة من القبضة الحديدية ، أو لو مزقت جسده المخالب الحادة لانتهى أمره .

لكن النمر لم يفعل شيئا من هذا ، وإنما استقر الجسد الضخم فوق الشاب يسمره فى الأرض ويكتم أنفاسه . وبعد لحظات أدرك أن النمر لن يفعل شيئا آخر ، فقد كان جثة هامدة . وبدأ يتملص من تحت الجسد الملقى عليـــه ، حتى إستطاع أن يخلص نفسه منه . وتدحرج على الأرض . ثم إستقام واقفا والأرض تدور من حوله . ونظر إلى النمر الملقى هنيهه ، ثم عاد إلى حيث إستقر جسد الذئب الهامد ، وقد نسى متاعبه .

وركع الشاب على ركبتيه يتحسس جسد صديقه . راعه أن الدماء كانت تنزف من جرح كئيب بأعلى الساق اليمنى ، وظن أول الأمر أن الذئب قد مات ، لكنه سرعان ما أدرك أنه يصدر منـــه أنين خافت ضعيف ، وأن الجسم كان يختلج . وحار فيما يفعل . كان عليه أن يحمل الذئب بعيدا عن هذه الأحراش التى لاشك أنها سوف تكون قريبا مسرحا للضباع ، وغيرها من الحيوانات . كان عليه أن يوفر المكان المناسب الذى يستطيع أن يبقيه فيه بعيدا عن الوحوش ، كما كان عليه أن يوفر له غذاءه حتى يستعيد قواه . وتردد قليلا ، ثم إندفع يعمل بسرعة . ذهب إلى حيث كانت جثة النمر ملقاة على الأرض ، واستخلص الرمح منها بصعوبة ثم بحث عن خنجره حتى عثر عليه .

عاد سريعا إلى حيث يرقد الذئب . وبرفق الأمومة وحنانها حمل الجسد المسجى ووقف يتلفت حوله فى حذر . كان يجب عليه أن يجد مأوى لهما بسرعة فلو أن أحد الوحوش جاء الآن فسوف يكونان غنيمة يسيرة . إندفع بحمله إلى داخل الغاب بعيدا عن الأحراش . ودارت عيناه فلم تصادفا سوى الأشجار المحيطة بالأحراش ، فاتجه نحو أضخمها . كانت شجرة هائلة ذات جذع ضخم مائل ميلا يكاد أن يكون عموديا ، وامتدت فروعها الضخمة لتتعانق مع ما حولها من أشجار .

وقف الشاب بحملة الثمين تحت ظل الشجرة ينظر إليها وقد إرتسمت على وجهه علامات التفكير العميق . كان يعلم أن أول ما يجب أن يفعله هو أن يضع الذئب فى مكان آمن ، بحيث لا تصل اليه الضباع ، أو أى أنواع الحيوانات . هو يستطيع أن يحمله على بعض فروع الشجرة عاليا ، لكن بعض الحيوانات المفترسة تستطيع كذلك أن تتسلق مثل هذه الشجرة ، كما أنه لن يأمن أن يترك الذئب بمفرده ولو للحظات ، خشية أن يسقط من حالق ، وتكون نهايته . وعاد تفكيره الى الفجوة الشجرية التى كانت موطنا لهما لأشهر عديدة . لو أن هنالك مثل هذه الفجوة اذا لأمكنه أن يجمع بعض فروع الأشجار ويجعلها مخبأ آمنا ! لكن أين له بها الآن وهو على بعد أيام كثيرة منها ؟ نظر الى الانحناء الشديد فى جذع الشجرة وخطر فى باله انه يكاد أن يكون فجوة ، لكن تنقصه بعض الحماية .

استقر رأيه سريعا ، فلم يكن أمامه حل آخر . وضع الذئب برفق على الأرض ، ومضى يبحث حوله عن أفرع ، واغصان قوية متكسرة ، وما كان أكثرها . وبدأت عبقرية الشاب تظهر ، فقد اختار من الافرع والاغصان ما يصل من الارض ليلامس انحناء الجذع . وأخذ يغرس الأفرع فى الأرض الى جانب بعضها ، ليكون حائطا فى الجوانب المفتوحة .

مضى عليه النهار وهو دائب فى عمله ، والسياج يتكامل جزءا فجزءا . كان

عليه فى بعض الأحيان أن يدق بين الأفرع ، أو يزيل بعض الأغصان ، أو يحفر فى الأرض أكثر . كان العمل شاقاً لم يألفه . كما كان يجب أن ينتهى فى أسرع وقت تحت ظروف صعبة ، إذ كان عليه أن يعمل ، ويجمع الأفرع ، والأغصان على ألا يبعد كثيراً عن المنطقة ، وعلى أن يراقب الحيوانات ، ويتحسس روائحها. وبدأ هجوم الليل ، ولم يكن قد أتم من السياج أكثر من نصفه ، أو ربما زاد عليه قليلا ، فهرع كالملهوف يجمع ما يستطيع جمعه من الأفرع ، والأغصان ليعود سريعا إلى حيث يرقد صديقه .

لم ينم الشاب فى هذه الليلة ، وإنما إستمر يعمل بجهد لا يعرف الكلال ، وساعدته قوته الهرقلية ، فلم يكن يتوقف عن العمل إلا لينصت إلى أصوات الغابة ، ويتحسس الروائح . كان يعلم أن عليه أنْ يترك فرجه فى السياج تكفى الدخول والخروج منها ، لكنه كان من اليسير عليه أن يخفيها عن الأعين المتطفلة بأغصان يسهل رفعها . وعمل على أن تكون الفتحة مواجهة للرياح ، حتى تأتيه الروائح من بعد ، وحتى لا تحمل الهواء رائحة الذئب إلى الوحوش .

وأسفر الصباح وقد أتم صنع السياج إلا جزءاً يسيراً جداً ، لا يكاد أن ينفذ منه الشاب الا بصعوبة . وهكذا تم إنشاء أول منزل فى التاريخ .

° ° °

نظر الشاب إلى الذئب المسجى . كان لا يزال فى غيبوبته ، لكن الدماء كانت قد توقف نزيفها كما كان تنفسه منتظما . ومرت يد الشاب على شعر الذئب فى حنان بالغ . لم يكن بالنسبة إليه حيوان مفترس ، لكنه كان صديقاً ، ورفيقا ، صاحبه شهورا لا أنيس له فيها سواه . لقد نام معه ، وقاتل معه ، وأكل وشرب معه ، وأنقذ حياته مرات لا حصر لها ، كما أنقذ هو حياته ، بل ولعله شاركه شعوره ، وأحاسيسه . كم من مرة شعر الشاب بالوحدة ، وبرغبته فى لقاء أحد أبناء جنسه ، فالشعور بالإجتماع غريزة فى الإنسان . وكم من مرة زاغ خياله إلى الماضى حين كان مع عائلته قبل أن يهاجمهم ذلك الرعب . وكم من مرة شعر بحنين متزايد إليهم ، أو إلى أمثالهم ، حين شعر بالذئب يضع رأسه

على فخذه وكأنما يعزيه عما ضاع ، وكأنما كان يشعر بشعوره . كان يشاركه حتى تفكيره ، وأحاسيسه فى ألفة غريبة ، وتفاهم عجيب .

ولم تدم فترة سكون الشاب واستسلامه طويلا ، فقد كان يشعر بالجوع ، والظمأ ، والإرهاق . كان يعلم كذلك بغريزته أن الذئب يحتاج إلى ماء يرطب جسده المحموم ، ويحتاج إلى غذاء يبعث فى جسده القوة ، إن استطاع إلى ذلك سبيلا .

خرج من الفرجة الضيقة ليجمع بعض الأغصان ، وأوراق الشجر ، ويضعها أمامها حتى غطاها تماما . وحمل رمحه ، وخنجره ، ومضى يبحث عن غذاء وماء . ذهب إلى الأحراش حيث كانت جثتى الغزال والنمر ، لكن الضباع ، والعقبان كانت قد أتت عليهما تماما ، ولم يبق منهما إلا بعض عظام ، فكان عليه أن يبحث من جديد عن صيد ، وماء .

على عادته ، بدأ يتعرف على المنطقة التى قدر عليه أنه سيبقى فيها مرغما لمراعاة الذئب أياما . كان يعلم أن عليه أن يعود إلى صاحبه سريعا بالمياه ، لكنه كان يعلم أيضا أن من الخير لكليهما أن يعود متأخرا على ألا يعود مطلقا . والتقط فى تجواله بعض الأفرع التى قدر أنها سوف تنفعه لتقوية السياج أو كأوان لحفظ المياه ، لكنه لم يصادف حجرا واحدا يستطيع أن يستعمله فى نحت الخشب . وكثر عليه حمله من الأخشاب فوضعها كومة واحده إلى جانب شجرة ومضى فى تجواله بحثا عن الغذاء .

صادفته بعض الحيوانات ، لكنها كانت وحوشا ضخمة لا يسهل قتلها ، وما كان لينازلها إلا إذا اضطره الحال ، أو إذا لم يجد مخرجا آخر . وعثر وهو جالس على فرع إحدى الأشجار على بركة تجمعت فيها مياه الأمطار ، لكنه أيضا لاحظ نمرا سبق الشاب يقبع منتظرا على قرب ، ومضى النهار جله لم يعثر فيه على صيد أو ماء . وكأنما قد تحالفت ضده الأقدار ، فحتى السماء كانت صافية لا أثر فيها للسحاب . كان عليه أن يعود فى كل فترة ليطمئن على الذئب ،

فلم يكن بالتالى ليستطيع أن يوسع من منطقة تجواله ، مما زاد فى ضآله فرصة الصيد ، والعثور على جدول مياه .

عاد إلى المأوى ومعه كل ما استطاع حمله من الافرع ، والاغصان . وشعر بأنه قد خذل صديقه . لقد كان هو يستطيع أن يصبر يوما ، أو أياما ، بغير طعام أو شراب سوى ما قد يقتطعه من ثمار ، فقد إعتاد على هذا فى حياته فى الغابة ، أما الذئب فى حالته الراهنة ، فلم يكن من اليسير عليه قضاء يوم ، أو بعض يوم ، بلا قطرة ماء . دخل من الفجوة ، وسمع صوت الذئب يئن أنينا خافتا ضعيفا فإتجه إليه ، وأخذ يربت على جسده المحموم .

وكأنما قد اطمأن الذئب إلى اليد التى تربت عليه فى حنان فهدأ قليلا . وخف ارتعاش جسده ، ثم راح فى سبات عميق .

نام الشاب على الطوى مرهقا تعبا وقد كاد حلقه أن يجف . واستيقظ فى جوف الليل على صوت أنين الذئب ، وعلى صوت آخر قفز له قلبه فرحا ، إذ كانت السماء تمطر بلا هواده . خرج إلى العراء يتلقى الماء المنهمر فى فمه ، ولما روى ظمأه بسط يديه يحتملان أكبر كمية من المياه ، ودلف إلى المأوى ليضع الماء على جسد رفيقه المحموم . وكرر العملية عدة مرات قبل أن يدرك أن أثرها بسيط ، وأن الذئب فى حاجة إلى الماء أكثر مما تستطيع يداه حمله . ونظر حوله إلى أوراق الأشجار ، لكنها كانت جميعا صغيرة لا تكفى لحمل المياه . وفكر فى أن يحمل الذئب إلى الخارج ليتلقى المطر ، لكنه خشى عليه من الحركة ، كما الهمته غريزته أن المياه الكثيرة لن تفيده بل وربما ضرته . وذهبت ذاكرته إلى الاوانى التى تركها فى المخبأ الاول . لو أنها كانت معه إذا لكفته حتى مشونة التفكير .

تذكر البركة المليئة بالمياه التى كان يقبع أمامها النمر منتظراً فريسته . وقفز إلى ذهنه خاطر مضى ينفذه ، بسرعة ولهفة . دخل الى المأوى ثم خرج حاملا خنجره الخشبى ، وبدأ يحفر فى الارض ، مجرى صغيرا طويلا من العراء إلى المدخل . وجرت المياه فيه ، فاستمر فى الحفر حتى أدخل المجرى الى المأوى ، ثم أخذ

يوسع من المجرى ليكون بركة صغيرة مملئة بالماء . ومضى يبلل فم الذئب ويضع فيه الماء ، قطرة فقطرة ، ويتحسس رأسه بيديه الرطبتين المرة تلو المره . مضت فترة والشاب دائب على فعله حتى شعر أن الذئب قد ارتوى أو كاد ، وأن الحمى قد خفت حدتها قليلا . ونام الذئب نوما عميقا لا رعشة فيه ولا أنين . ونام الشاب ملء جفونه راضيا سعيداً .

أيقظه صوت الذئب ولم تكد الشمس أن تبزغ . والتفت إليه ، فرآه يحاول النهوض دون جدوى ، فقد كان مافقده من دم قد أنهك قواه . وبعد محاولتين أو ثلاث فشلت جميعا ، نظر الذئب بابتهال إلى صاحبه كأنما يشكو له ضعفه وحاجته إلى الطعام .

وفجأة كتم الإثنان أنفاسهما إذ سمعا صوت خطى ملتصصيه تدور حول المأوى لعلها تجد منفذا . ونمت إلى آذانهما أصوات أنفاس الوحش تتردد فى ثقل . وتناول الشاب حربته الخشبية ، وخنجره ، وانتظر حتى كان الوحش فى الناحية الأخرى ثم دلف من الفتحة فى صمت وسكون. دار حول جذع الشجرة دورة كاملة ليأتى من وراء الحيوان ، ونمت إليه رائحته قبل أن يراه، فعلم أنه ضبع جذبته رائحة الدماء التى نزفت من الذئب فظن أنه فريسة سهلة .

إرتفعت الحربة فى يد الشاب لتهبط بكل القوة الفتية ، وتغرس فى عنق الضبع اللاهى فى تحسس كيفية الولوج إلى فريسته ، ولتنفذ من الناحية الأخرى. وصرخ الحيوان صرخة مروعة من الألم ، وقفز فى الهواء قفزة عالية سقط بعدها على الأرض ، ومضى يبذل محاولات يائسة للتخلص من الحربة . ولم يمهله الشاب بل هجم عليه يطعنه فى جسمه بخنجره طعنات زادت من سيل الدماء المتدفقة منه . ومع أن الضبع حيوان جبان بطبيعته، إلا أنه وقد وجد نفسه يقاتل فى سبيل الحياة ، طرح من نفسه كل خوف ، ودفعه جنون الألم إلى الدفاع المستميت . حاول أكثر من مرة أن يصل إلى غريمه بمخالبه ، أو أنيابه ، لكن الأخير كان اخف حركة، واوفر نشاطا فلم يدع له الفرصه . كان الضبع يضرب ضربته حيث رأى غريمه ، لكن هذا كان فى خفة متناهية ينتقل إلى مكان آخر ، ويهوى بالخنجر على الجسد المتهالك .

وطال القتال بين الغريمين ، وبدأ الضبع يحس أن قواه تخور ففضل أن يطلق لسيقانه العنان ، عساه ينجو بحياته . ولم يدعه الشاب يفلت ، فقد إنقلبت الفريسة صائدة . كان يحتاج هو وصاحبه إلى اللحم سريعا ، وقد أرسلته الأقدار حتى باب مأواهما . اعتلى الضبع وهوى الخنجر مرات ، ومرات . لكن الأخير وقد أفقده الألم كل شعور طرح الشاب من ظهره ، واندفع صوب الأحراش ليختفى بين الأعشاب الطويلة . وأذهلت السقطة الشاب لثوان معدودة سرعان ما استعاد نفسه بعدها فانطلق يجرى خلف الضبع وهو واثق من أنه لن يبتعد كثيرا . وفطن وهو يعدو إلى أنه قد فقد خنجره ، لكنه أيضا لم يفكر فى العودة للبحث عنه بل تابع عدوه وراء فريسته .

وصدق حدسه فلم يكن الضبع ليستطيع أن يبتعد ، وقد أثخنته الجراح ، وفقد من دمه الكثير ، علاوة على ما بذل من جهد فى قتاله . وجده ملقى على الأرض يجود بآخر أنفاسه إلى جوار ما تبقى من عظام النمر سيفى الناب . هم بأن يقترب لينهى حياته ، لكن الضبع زمجر فى وحشية أدرك الشاب معها أن فى قوته بقية . التفت حوله ليجد بقايا عظام النمر وقد لمع منها الناب السيفى . انتزع الشاب الناب من الفك ثم تناوله ، وجثم إلى جوار الضبع لينهى البقية الباقية من الحياة . وأدهشته السهولة التى اخترق بها الناب جسد الحيوان ، وأدرك أن بين يديه خنجرا يفوق كثيرا خنجره الخشبى ، فمضى يطعن به الجسد المسجى وقد غشيه سرور وحشى لم يفق منه إلا بعد أن لاحظ أن الحيوان لم تصدر منه خلجه منذ مدة .

توقف الشاب عن الطعن ، وراح ينظر إلى الناب بين يديه وكأنما قد عثر على كنز ، ولعله بالنسبة إليه كان أكثر من ذلك إذ هو الفيصل بين الموت والحياة . ومضت برهات قبل أن يعود إلى نفسه ، فوضع خنجره الجديد بين جسده والحزام الجلدى الذى يحيط به وسطه . وانحنى على الأرض لحمل فريسته ، وألقاها فوق كتفه ، وسار بها نحو مأواه .

ألقى الشاب بحمله على الارض أمام مدخل المأوى . ثم دلف منه ، وسحب الجثة إلى الداخل ليضعها أمام رفيقه . لمعت عينا الذئب ، وبذل جهدا جبارا

لكي ينهض ، لكنه عاد وألقى برأسه على الأرض فى يأس وأسى . وتقدم الشاب بهدوء من جثة الضبع ، ومضى يمزقها بخنجره الجديد . وهدته غريزته أن يعطى أطايبها لرفيقه ، فانتزع الكبد فألقمه ، وتركه يلتهمه فى نهم بينما إقتطع لنفسه قطعة كبيرة من اللحم ومضى يأكل . ولما فرغ من طعامه التفت إلى الذئب فرآه قد أغلق عينيه وراح فى سبات عميق . إنتزع حربته من رقبة الضبع ، ثم دفع ما بقى منه جانبا ، وأسلم نفسه للتفكير .

كان يعلم أن الذئب لن يستطيع حراكا ليوم ، أو إثنين على الأقل ، ثم هو لن يستطيع الدفاع عن نفسه لعدة أيام بعد هذا ، وربما لعدة أسابيع . ولم يكن فى استطاعته أن يبقى إلى جانبه دائما فكان عليه أن يبحث عن الطعام والشراب . ولن يكفى هذا المأوى المؤقت لحمايته فى غيابه ، فلو لم يكن مصادفة موجودا حينما تحسس الضبع حول المأوى لكانت مسألة وقت قبل يكتشف المدخل ، ويلتهم الذئب . أو لو أن حيوانا قويا فكر فى أن يضغط بجسده على السياج الضعيف لانهار فى لحظات . كان عليه إذا حتما أن يجد مأوى آخر أقوى من هذا ، أو كان عليه أن يقوى هذا المأوى ، ويخفيه قدر إستطاعته عن العيان ، وأن يحيطه برائحة طبيعية تطغى على رائحة الذئب الجريح .

ترك رفيقه ينعم بنوم هادىء ، ودلف من الفتحة إلى الخارج . وتناهت إلى سمعه أصوات القردة تمرح ، وتصخب فوق الأشجار فتطلع إليها ورآها تنظر إليه معجبة . لم يذهب بعيدا للبحث عن أفرع الأشجار ، وأغصانها ، وأمضى بقية نهاره فى جمعها ، وتخزينها إلى جانب السياج الذى يكون المأوى . استمر فى عمله لا يعرف الكلال حتى أوشكت الشمس على المغيب ، فأبتدأ فى عملية تقوية السياج ، يغرس الأفرع القوية فى الأرض لتساند ما سبق أن أقام ، ولتكون سياجا ثانيا حوله ، وأحاط كل هذا بالأغصان الرفيعة ، وأوراق الشجر لتخفيه تماما عن العين ، وليبدو على قدر الاستطاعة منظرا طبيعيا لمجموعة من الأفرع ، والأغصان ، وأوراق الشجر . وتذكر وهو يعمل ذلك النبات الحريف الذى

كل يأكله مع عائلته . كان شديد الحرارة فى مذاقه، كما أنه كانت له رائحة نفاذة خاصة الثمار ، ولو أنه وجد من هذه الشجرة فى المنطقة لكانت بعض ثمارها كافيه لتغطية رائحة الذئب .

فرغ من عمله ، وقد أظلمت الدنيا تماما . وبدأت وحوش الليل فى تجوالها الأبدى فى الغابة ، فاتجه إلى الفتحة ، ونفذ منها إلى الداخل ، ثم أعاد تغطيتها ، وقبع فى ظلام المأوى الدامس حتى تعتاد عيناه . أحس بفم الذئب ، ثم رأسه توضع على فخذه فى إستكانة ، واطمئنان ، فامتدت يده فى صمت تداعب الفراء الناعم بينما عبر تفكيره عشرات الأميال إلى موطنه الأول ، حينما تفتحت عيناه على عائلته .

داخله شعور عجيب بالوحشة ، والوحدة ، وتاقت نفسه إلى رؤية أفراد جنسه . كان يعلم أنه جنس نادر الوجود ، وأن عددهم قليل إلى درجة أنه لم ير فى حياته غير أفراد عائلته ، وربما لم يكن يوجد سواهم فى دنياه . ومعنى هذا أنه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، ولا أمل له فى لقاء أى فرد آخر . لم يكن هنالك نوع من التفاهم بينهم ، ولم يكن يدرى اذا تصادف أن التقى مع أى فرد منهم ماذا سوف يكون موقفه . ربما قاتله ، ومع هذا فقد كان يود أن يلتقى بهم ، وبأن يشعر بأنه ليس الفريد من جنسه فى عالمه .

لقد مضت عليه أحيانا أسابيع كان الذئب يتركه فيها ليلحق بأبناء جنسه يمرحون ، ويتزاوجون ، ويتقاتلون ، وكان يتمنى ، خاصة فى هذه الأيام أن يكون له هو الآخر أفراد من نوعه يلجأ اليهم . وقد مضت عليه فترة كان يظن أنه نوع من القردة ، ربما نوع ضعيف غير متطور منها . لم يكن له خفتها فوق الشجر ، أو لغتها الجميلة ، أو شعرها الكث ، ولكنها كانت مع هذا أقرب الحيوانات شبها به . حاول أكثر من مرة أن يرتقى الأشجار اليها لكنها كانت تهاجمه ، أو تهرب منه مذعورة . وبعد عدة محاولات يئس منها ، وانطوى على نفسه وغالبه النعاس فنام كما هو جالسا على الأرض ، ويده على رأس الذئب .

مضت الأيام التالية فى بطء شديد على وتيرة تكاد أن تكون واحدة ، أمضاها الشاب فى صنع بعض الأدوات التى يحتاجها . صنع وعاء لحمل المياه لصاحبه ، واعتنى بأن يكون كبيرا وعميقا حتى يحمل كمية كبيرة من المياه . وصنع عدة حراب ، كما سلخ بعض جلود الحيوانات ، وجففها وقطع منها عدة سيور جلدية راح يربط وسطه بها الواحد تلو الآخر وهو فخور بما صنع .

وحدث ذات مرة وهو يشحذ نصل رمح أن مكث مدة طويلة فى عمله حتى زادت الحرارة من احتكاك الخشب الجاف ببعضه ، فبدأ الدخان يتصاعد. وتوقف الشاب عن عمله ، ومضى ينظر بذهول إلى الفرعين الجافين ثم راح يحكها فى بعضهما مرة أخرى بشدة أكثر ، وبقوة أكثر . ومضت مدة دون أن يحدث شىء ، ثم تصاعد الدخان ثانية . وتوقف الشاب عن العمل ، فتلاشى الدخان ، وكرر العملية أكثر من مرة ليحصل على النتيجة نفسها ، وأخيرا استمر فى حكهما رغما عن ظهور الدخان . وفجأة اشتعلت النار فى أحدهما .

وذعر الشاب فألقى الفرع المحترق . وصرخ الذئب ، وانكمش فى ركن من المأوى ، وراح الإثنان ينظران بذهول إلى الفرع ، وهو يحترق حتى انطفأت النيران . وتنهد الشاب بارتياح حينما انطفأت الجذوة ، إذ كان فيه الخوف الحيوانى الغريزى من النار . وتراخت عضلات الذئب إذ رأى النار تخمد ، وراح ينظر إلى صاحبه نظرة جديدة ، ليس فيها حب ، واطمئنان فحسب ، لكنها نظرة كان يشوبها الخوف أيضا ، فقد فهم الذئب أن صاحبه قد صنع ذلك الشىء الذى يهبط من السماء فيحول الغابة إلى أتون ملتهب يأكل كل ما فى طريقه من نبات ،أو حيوان . ولم يدر الإثنان أن الشاب قد وضع أساس الحضارة ، وأنه قد أخذ إحدى الخطوتين الأخيرتين اللتين تفصلان الإنسان عن الحيوان : النار ، واللغة .

° ° °

تقدمت صحة الذئب كثيرا على مر الأيام ، فاستقام واقفا على أقدامه ثم ابتدأ فى الخروج مع صاحبه يرافقه فى تجواله . وإن كان لايزال يعرج بإحدى

خشبتيه الأماميتين . وحاول الشاب مرارا أن يصنع النار كما فعل ، لكنه أخفق في محاولات كثيرة إذلم تكن الأخشاب التي انتقاها بالجفاف الكافي ، ولا استمر في عمله المدة الكافية . وتوالت محاولاته حتى تعلم أي نوع من الأخشاب ينتقى. وأصبحت النار لعبته التي لا يمل من تكرارها ، وعلم أنه إن ألقاها في التراب أو الطين تنطفيء ، وأنه يمكن أن ينقلها من خشبة إلى أخرى ، بل أنه يمكنه أن يجعلها تنتقل إلى عدة أخشاب في آن واحد دون أن تنقص شيئا . وأنها تكون أسرع اشتعالا لو استعمل معها بعض أوراق الشجر الجافه .لم يكن يعلم ماذا يستطيع أن يفعل بها ، كالم تكن لها بالنسبة له أي نفع سوى شعوره بأنه يملك تلك القوة التي تهبط من السماء .

ولاحظ أن القردة أصبحت تتحاشى جيرة مأواه ، بل وحتى الحيوانات المفترسة لم تعد تسلك هذا الطريق ، وإن تصادف مرور بعضها فإنه يهرب سريعا بمجرد أن تتناهى إلى أنفه رائحة الدخان . واعتاد الذئب على رؤية صاحبه يلهو بلعبته الجديدة ، فقل خوفه منها بعد أن اطمأن إلى أنها لن تؤذيه ، وأن صاحبه يقتلها حينما يريد ، ثم يبعث فيها الحياة ثانية . ثم أتى ذلك اليوم ، الذي علم فيه الشاب ، والذئب أن النار ليست مجرد لهو ، ولعب ، وإنما يمكن أن تكون أداة تدمير هائلة .

° ° °

كانت السماء لم تمطر منذ وقت طويل ، أياما لعلها أسابيع . وبدت أشجار الغابة مترية لا تعلوها تلك الخضرة النضرة المحببة . كان الجو خانقا حارا بينما كانت الشمس تسطع ملتهبة من لحظة ظهورها . وجفت عيون كثيرة ، بل وحتى الجداول لم يكن بها ماء . وسارت الحيوانات لاهثة متقطعة الأنفاس ، وتوترت أعصابها ، وازدادت شراستها ، فكانت الوحوش تهاجم ، وتقتل لمجرد أن ترتوى بالدماء ، وتترك اللحم تنهشه الضباع ، والعقبان .

ران صمت عميق على الغابة . حتى الطيور بدت أنها كفت عن تغريدها ، ولعل الكثير منها قد هاجر إلى مناطق أخرى . كفت القردة الثرثارة عن

صخبها ولعبها . كان جو الغابة كله توقع وترقب ، وكله انتظار لضربة لايدرى أحد من أين تأتى . كانت بعض الحيوانات تجرى مذعورة فى إتجاه معين لاتحيد عنه ، ولم يكن يبدو فى الظاهر وجود أى خطر أزعجها ،، ومع هذا فقد كانت تستمر فى العدو بلاهواده .

وسمع الشاب الذئب إلى جوارة يهمهم قلقا ، وينظر إليه فى ابتهال ورجاء . ومع أنه عزى ذلك إلى جوع أو ظمأ ، إلا أنه داخله شعور مبهم من القلق الذى لايعرف له مبررا .

وجاء يوم استيقظ فيه الشاب مبكرا وحلقه يكاد أن يلتهب من الظمأ فقد مرعليه أكثر من يوم لم يذق فيه طعم الماء . كان عليه أن يعثر على الماء بأى طريق ، والا هلك ظمأ .

داف خارجا من المأوى ، فتبعه الذئب فورا . أحس به يلتصق بساقه كأنما يلتمس الطمأنينة من خوف لا يدرى كنهه . وراع الشاب السكون المطبق على الغابة . حتى نسمة الصباح ، لم يكن لها أى أثر . وسطعت أشعة الشمس حارة ملتهبة بمجرد ظهورها . وحار أى اتجاه يأخذ بحثا عن الماء فقد مضى عليهما يوما ، وبعض يوم بلا قطره واحدة ، وازداد شعوره بأن حلقة قد جف ، ولاحظ أن الذئب يصدر أنات متواليات وهو ينظر اليه كانما يحاول أن ينقل اليه شيئاً . رآه يتجه الى الأحراش وهو ما يزال ينظر اليه فتعجب اذ كان يعلم أنه لاتوجد مياه فى هذه الناحية ، أو على الأقل الى مسافة ليست بالقصيرة فقد سبق له أن ذهب بحثا عن المياه ، ولم يجدها فى هذا الاتجاه . ومع هذا فربما قد التقط الذئب الرائحة ، اذ أنه يعلم أن حاسة الشم لديه أقوى بكثير منه .

تناول الشاب رمحه وخنجره وتبع الذئب . ودهش ثانية اذ لاحظ أن الذئب يحاول ، على ما به من عرج ، أن يجرى ، وأن جريه كان ظاهرا بلا هدف ، ولافائدة سوى مجرد استنزاف القوى : وأبطأ الشاب فى سيره ، لكن الذئب لم يبطىء ، بل لعله قد زاد من سرعته ، ولم يتوقف الا حينما شعر أن صاحبه

لايتبعه فقط إليه نظرة كلها ضراعة، لكنه لم يأبه له إذ تناهى إلى سمعه أصوات وقع حوافر قطيع الغزلان يعدو متجها إليهما . وظهر القطيع فى أول الأحراش قبل الشاب. بعيدا عن طريقه ، متخفيا بين الأعشاب الجافة الطويلة . ودهش إذ رأى القطيع لايحاول تغيير اتجاهه ، مع أنه مما لاشك فيه أن الحيوانات قد رأته . وأذهل الشاب أن القطيع لم يتوقف لحظة واحدة ولاحتى ليلتقط بعض أفراده غذاءها بل قطع كل المسافة المغطاة بالأعشاب فى سرعة هائلة ، كأنما تطارده كل فهود الغابة ، ونمورها .

بدأت نسمة خفيفة تداعب النباتات ، وأغصان الأشجار . وأوراقها . وبحث عن صاحبه فإذا به يقف بعيدا عنه ، وينظر إليه وقد زاد ارتياعه ورعبه فاتجه إليه . وما أن رآه الذئب يسير حتى جرى أمامه .

فجأة بدأت الأرض ترج تحت أقدامها ، وفى هذه المرة ، علم أن قطيعا من الثيران يتجه إلى ناحيتهما فى سرعة خارقة ، وتنبه إلى الخطر المحدق بهما ، خاصة الذئب الذى لم يكن يستطيع أن يعدو بكامل قواه . نظر إلى الأشجار من الناحية الأخرى من الأحراش فوجدها بعيدة بعدا أيقن معه أن الذئب لن يستطيع أن يبلغها قبل أن يلحقه القطيع ليمزقه تحت حوافره . إزداد ارتجاج الأرض تحت قدميه فلم يتمهل بل أطلق ساقيه للريح وراء صاحبه . لم تمض لحظات حتى كان إلى جواره ، فالتقطه من الأرض ، واستمر فى عـــدوه . وظهر القطيع فى أول الأحراش ، وعلا صوت الحوافر حتى صمت أذنا الشاب ، فالتفت وراءه وذهل إذ لاح أن كل ثيران الغابة قد تجمعت فى قطيع واحد ملأ الأحراش على سعتها . وأذهلته السرعة التى ينطلق بها ، وكأن به مس .

ضاعف الشاب من سرعته يريد أن يبلغ الأشجار ، لكن الحمل الذى كان يثقله كان يبطىء من حركته ، ويستنزف قواه . بذل جهدا جبارا ليستمر فى عدوه بالسرعة نفسها ، وإن كان قد بدأ يشعر بأن قواه تخور ، وأن تنفسه يتردد فى عنف ، ورئتيه تكادان أن تنفجرا ، داخل صدره . كان يعلم أن حظه فى النجاة ضئيل ، وأن المسافة بينه وبين الأشجار مازالت بعيدة فى حين أن المسافة

بينه وبين القطيع تتضاءل شيئا فشيئا ، ومع هذا فلم يخطر فى باله لحظة أن يلقى العبء الذى قد يكلفه حياته .

لاحظ وهو يعدو أن النسمة التى كانت تقوى شيئا فشيئا ، قد انقلبت فجأة إلى رياح ، وأن سرعتها تزداد عنفا بشكل مخيف ، كما بدأت السحب تتجمع فى السماء ، وتغطى وجه الشمس . لكنه كان لاهيا عن معنى هذا بالموت المحقق الذى يلاحقه . تقطعت أنفاسه ، بدأ يشعر أن كل هواء يدخل إلى رئتيه خلال حلقه الجاف كأنما هو سوط من نار . شعر بالدم يندفع إلى رأسه ، وبالدوار يلاحقه ، وأن ركبتيه لاتكادان تحملانه . خيل إليه أن جسد الذئب الذى يحمله قد تضاعف وزنه عن ذى قبل ، وأن يديه قد بدأتا تكلان ، وعضلاته تتمزق . فكر أكثر من مرة فى أن يضع حمله على الأرض ، ويجلس إلى جواره ينتظران الموت المحتوم تحت حوافر الثيران الهائجة المندفعة خلفهما . لكن بمجرد التفكير فى هذه الميتة كان يدفعه إلى عدو أسرع . توالت أنفاسه سريعة متقطعة ، وازداد شعوره بالظمأ حتى كان يلهث .

خيل إليه أن المسافة إلى الأشجار لا تتناقص أبدا . وبدأ قلبه يسرع فى نبضاته مطالبا بمزيد من الهواء . وأحس بطنين فى أذنيه يعلو على صوت وقع أقدام القطيع الذى كان يملأ الجو . وفجأة تطلع أمامه ليرى أن الأشجار قد قربت منه إذ لم يبق بينه وبينها سوى مائة متر أو تقل . والتفت وراءه . هاله أن يرى أنه لا يفصله عن القطيع سوى مسافة لا تجاوز ربع المسافة التى بينه وبين الأشجار : وملأه الذعر فضاعف من جهده فى محاولة يائسة . اندفع يعدو لا تكاد تلامس قدماه الأرض . وصل إلى حمى أول شجرة فى اللحظة نفسها تقريبا التى وصل إليها القطيع ، فاختبأ وراءها وبين يديه صاحبه .

تماسك الشاب مستندا إلى جذع الشجرة بينما مر القطيع حوله من كل ناحية وهو مازال يعدو فى جنون . وتزلزلت الأرض من وقع حوافر القطيع ، وتصاعدت و له ، وتمنع عن رئتيه الهواء ، وهو أشد ما يكون حاجة

إليه . جمع ما بقى له من قوة ، وتحامل على نفسه ، ورفع الذئب بيديه ليضعه على أعلى فرع استطاع ، ثم ارتقى الفرع ، واستمر بنقل الذئب وينقل الى أعلى حتى استقر على بعد كاف لأن يستنشق الهواء . تهالك على نفسه ، ومدد جسده على الفرع الضخم ، وراح فى شبه غيبوبة ، يحاول أن يدخل الهواء من فم قد جف تماما الى رئتين تنفجران .

مضت مدة طويلة قبل أن ينتهى آخر القطيع من المرور تحت الشجرة . واسترد الشاب أنفاسه ، ونظر الى الذئب فرآه يقبع فى خوف على الفرع حيث وضعه ، وراح ينظر اليه تلك النظرة المبتهلة التى رآها فى عينيه ذلك الصباح ، ويئن أنينا خافتا . لاحت منه لفتة الى السماء فإذا بالسحب قد غطت وجهها تماما ، كما راحت الرياح تعول بصوت مزعج ، وتندفع فى قوة بين الأشجار ، جعلت الفرع الذى يجلس عليه الشاب يهتز على قوته . تطايرت فى الهواء شتى أنواع أوراق الشجر ، والأغصان الصغيرة الجافة ، وبدأت الأفرع تتكسر . والأشجار تئن ، وتتمايل تحت وطأة الرياح .

وفجأة انقلبت الغابة رأسا على عقب ، وبدأت تقذف من جوفها جميع أنواع الحيوانات والوحوش ، شاهد الشاب . وهو على الشجرة ، شتى الأنواع تجرى مرعوبة جنبا الى جنب . رأى النمر السيق الناب يعدو مذعورا إلى جانب الظبى . رأى آكلى العشب يسابقون آكلى اللحوم ، والجميع لا يبغى سوى الفرار كأنما شياطين الأرض تتعقبهم أجمعين .. تعالى الدخان من الغابة ، وتصاعدت ألسنة النيران إلى عنان السماء ، ودفعت الرياح النيران أمامها تسابق الحيوانات ، وحملت قطعا ملتهبة من الأغصان ، والأفرع لتقطع الطريق أمام الوحوش الفارة ، ولتشعل النيران فى أماكن متفرقة ما تلبث أن تلتئم لتكون أتونا مستقرا . تناهت الى سمع الشاب انفجارات عالية تصم الآذان. كانت الأشجار الضخمة تنفجر تحت وطأة الحرارة الشديدة ، وتتطاير شظاياها الملتهبة فى أنحاء الغابة لتزيدها اشتعالا .

تعالت صيحات الفزع ، وزمجرات الغضب تملأ الغابة فى حين انتشر الدخان يخنق مالم تحرقه النار . وذهل الشاب وهو يرى السرعة التى تنتقل بها الحرائق

من مكان الى آخر . وكان أول ماجال فى خاطره أن يهبط من الشجرة حاملا رفيقه ليجرى من هذا الخطر الأكيد ، لكنه راجع رأيه بعد لحظات إذ رأى أنه إذا هبط من الشجرة فلن تكون أمامه أية فرصة للنجاة وهو يحمل الذئب ، فإن لم تدهمه أقدام الحيوانات الفارة فسوف يموتان محترقين ، أو سوف يختنقان من الدخان الكثيف الذى بدأ فعلا يملأ الجو . رأى الذئب الى جانبه ينتفض فرقا لايستطيع حراكا على الفرع . مد يده يربت على ظهره محاولا ادخال بعض الطمأنينة إليه .

رأى القردة تعدو فى الأحراش فى ذعر ثم تقفز الى الأشجار تسابق الريح ، تتصايح مرعوبة أمام الموت الرهيب . وكاد أن يفقد توازنه حينما اصطدم به قرد ضخم لم يكن يرى ما أمامه من شدة ذعره . تشبث بالفرع ليمنع نفسه أن يسقط من حالق ، ثم اعتدل ، وأمسك بالذئب واستند الى جذع الشجرة ، ومضى يرقب أنواع القردة والنسانيس من حوله . شاهد بعض القردة المسكينة وهى تقفز صارخة من الألم وقد علقت بها النار ، فراحت بدورها تنشرها حينما تلامس أوراقا جافة .أو غصنا يابسا. خيل اليه أنه قد مضى ساعات وهو فى جلسته ، ومع هذا فإن سيل الحيوانات كان لايزل يتدفق من الغابة الملتهبة . ازدادت كثافة الدخان بسرعة فائقة ، وبدأت تنتشر سحب منه تعلو الاشجار ، وتغطى وجه السماء . وحملت الرياح الدخان الى رئتيه ، ودمعت عيناه حتى لم يعد يرى جيدا . وانتابه السعال فى كل تنفس يدخل رئتيه . لم يتصور أنه يستطيع أن يستمر دقائق على هذه الحالة .

وفجأة شاهد بعض الحيوانات تندفع من الغابة المقابلة والنيران تشتعل فيها ـ كانت المسكينة تجرى كالمجنونة من الالم . وتحتار فى اتجاهها محاولة أن تتخلص من النار العالقة بها بينما ترددت صرخاتها المؤلمة تعلو على أصوات الحيوانات . بسرعة مذهلة اشتعلت النيران فى الاعشاب الجافة ، ومضت تلتهمها التهاما . واشتدت الرياح، وحملت معها قطعا ملتهبة من الاغصان، والافرع لتتساقط حول الشاب . واشتدت حرارة الجو حتى أصبحت لاتطاق وانتابهما الذعر ،

حاول الذئب أن يقذف بنفسه من أعلى الشجرة ، لكن الشاب كان مازال يده تمسكه بقبضة من حديد . وللحظات كاد الشاب ذاته أن يلقى نفسه والذئب ليواجها أية ميتة ، وينتهى العذاب الذى يحيط به ، لكنه استعاد رباطة جأشه إذ كان يعلم أن الذعر لن يفيدهما شيئا ، وأن أملهما الوحيد فى النجاة هو بالتمسك بأعصابه إلى أطول مدة ممكنة ، والبعد عن النيران، أو الحيوانات الهائجة ما استطاعا ، فلربما تسقط الأمطار لتطفىء من الأتون الأرضى .

لكن الأمطار لم تسقط ، ولو كان الشاب يعلم أنها لن تسقط إلا بعد فترة طويلة فلربما كان قد فقد الأمل فى النجاة . لكنه لم يكن يعلم ، وظل متشبثا بالأمل بالرغم من أن قطع الأخشاب الملتهبة تزايد تساقطها ، وأمسكت النيران ببعض الأشجار حوله لتحيط بهما احاطة تامة . وازداد ارتفاع الحرارة حتى خيل إليهما أن جلدهما يشتعل ، وازدادت كثافة الدخان حولهما فبدأ يختنقان . وعاود الذئب محاولته فى الإفلات من قبضة صاحبه بجنون ، ولولا حبه لصاحبه لاستعمل أنيابه ، ومخالبه .

دارت عينا الشاب الدامعتان فى الأفق المحيط بهما محاولا أن يجد مخرجا إذ علم أنهما لن يستطيعا البقاء على الشجرة أكثر من هذا . وفجأة قفز قلبه من الفرح . رأى النيران قد التهمت كل الحشائش فى منطقة الأعشاب تقريبا ، وأنها تكاد أن تصل إلى الشجرة التى يحتميان عليها . لاحظ أن تلك هى المنطقة الوحيدة الخالية من النيران ، وإن كان مازال يتصاعد منها دخان فى أماكن متفرقة ، ومازالت الرياح تحمل إليها بعضا من أوراق الأغصان المحترقة تتساقط فى أماكن كثيرة .

كان هـذا هو المخرج إذاً ، ولكن كان عليه أولا أن يخترق مسافة قصيرة من النيران ، كما كان عليه أن يهبط من الشجرة فى وسط الدخان الكثيف المتصاعد من احتراق الاعشاب الجافة . وفيما عدا هـذا لم يكن هنالك مخرج . تردد برهات وهو يتأمل ألسنة النيران تتصاعد إليهما ، ويستمع إلى صوت الوحش الاصفر يزمجر وهو يلتهم كل ما يصادفه بشراهة . وتزايدت سحب الدخان كثافة وازداد التنفس صعوبة . نظر إلى الذئب المسجى إلى جانبه وقد تدلى لسانه ، وأسلم نفسه للموت . أوقف التفكير فى النيران والدخان ، وتناسى عينيه الدامعتين ، وحلقه

الجاف ، ومد يديه إلى الذئب يلتقطه كأنه طفل رضيع ، وضمه إلى صدره يحمى شعره من النيران، وبدأ يهبط من أعلى الشجرة إلى الآتون الملتهب فى الاعماق .

لم يكن من اليسير عليه أن يهبط وهو يحمل الذئب ، ومع هذا فلم يخطر فى باله مرة أن يتخلى عنه . تضاعفت درجة الحرارة ، وتساقط العرق من كل جزء فى جسده ، والذئب ، ثم جففته النار فى التو . وازدادت كثافة الدخان حق أن الشاب ماكان يكاد أن يرى . زلت قدمه أكثر من مرة ، لكنه لم يكن يرخى قبضته من فرع الاحينما يتأكد من موطىء قدميه . وأمتدت ألسنة النيران تلفح جسده ، واستحال التنفس تماما ، كما استحالت الرؤيا فاضطر إلى اغلاق عينيه الملتهبتين . احترق جلده فى أماكن متفرقة من جسده وشعر بفيض من الآلام ، ومع هذا فقد استمر فى الهبوط باصرار .

أخيراً لمست قدماه الأرض لم يتوقف لحظة ، وانما اندفع مخترقا النيران صوب الأحراش المحترقة . وشعر بسهام الألم فى قدميه تتجه مباشرة إلى رأسه لكنه كان قد قدر هذا ، واستعد له نفسيا ، وأن كان الألم قد فاق كل تصوره .

لم يتوقف الشاب عن العدو نحو وسط الأعشاب بعيداً عن الغابة الملتهبة ، والدخان الكثيف ، فقد كانت حاجته الأولى إلى الهواء النقى فى تزايد مستمر . وخفت حدة الدخان قليلا ، لكنه كان مايزال لايستطيع التنفس حتى بشبه حريه وتعثرت قدماه المحترقتان أكثر من مرة ، وكاد أن يسقط هو وصاحبه على الأرض ، لكنه كان يتمالك نفسه ، ويستمر فى عدوه . أخيراً علم أنه لا بد له من التنفس وأنه لن يستطيع الاستمرار فى عدوه بغير هواء ، فتوقف عن السير وقد بدأ يسلم أمره للموت . فتح فمه قليلا رئتيه بالدخان عساه يختنق ، لكنه دهش إذ لاحظ أن الهواء انقى قليلا مما ظن ، وإن إضطره الدخان إلى السعال بشدة ، ولكنه كان مختلطا بالهواء على كل حال . عاوده الأمل ، فتحامل على نفسه واندفع متوغلا بعيدا عن النيران غير عابىء بالآلام التى يعانيها فى قدميه ، وجلده المحترق ، ولا بتنفسه المتقطع ، وصدره الذى يكاد أن ينفجر . ولاحظ

أنه كلما ازداد توغلا كلما خفت حدة الدخان حتى وصل إلى مكان كان الدخان فيه أقل ما يكون فتوقف عن العدو ، وراح يلتقط أنفاسه اللاهثة المتلاحقة .

لأول مرة لاحظ أن الذئب لا يتحرك بين يديه . نظر إليه فإذا بعينيه مغلقتين ، وإذا باطرافه قد تراخت ، بينما راحت أنفاسه تتوالى فى تقطع غير منتظم . كان قد اغمى عليه منذ مدة طويلة ، واحترقت بضعة أجزاء فى جسده ، فما كان مع ضعفه ليتحمل ما مر به من أهوال . راح الشاب يقتلع بقايا الأعشاب المحترقة من الأرض ،غير عابىء بيديه ، حتى أفسح مكانا لا أثر فيه للنيران وضع عليه جسد رفيقه . استمر يعمل فى سرعة حتى أبعد كل أثر للدخان فى رقعه فسيحة نسبيا ، ثم تحامل على نفسه وجلس على الأرض إلى جواره .

كان كل جسمه يتألم من الحروق التى ألمت به ، لكن أكثرها كان فى قدميه اللذين احترقتا وتساقط جلدهما ، فقد كان الألم الصادر منهما يأتى فى موجات متتالية متلاحقة تنتهى كل منها عند اذنيه ، ورأسه . لم يكن فى استطاعته أن يفعل شيئا يخفف به من حدته ، فمد رجليه حتى لا تلمسان الأرض ومضى يئن كلما ازداد عليه الألم .

تلفت حوله فى حيرة كأنما ليبحث عن أى شىء يمكنه أن يخفف من حدة آلامه ، لكنه لم ير سوى رماد الأعشاب ، وجثث بعض الحيوانات المحترقة .

وفجأة لاحظ شيئاً بعث فيه أملا جديدا . كانت الغابة الأولى قد احترقت تماما ، ولم يبق منها سوى هياكل بعض أشجار محترقة يتصاعد الدخان من أماكن متفرقة فيها ، وتقفز ألسنة من النار بين الفنية والأخرى . كان منظر الغابة موحشا أسود ، لا أثر فيها لغصن أو أوراق ، حتى الأفرع الكبيرة كان الكثير من الأشجار قد جرد منها ، أو من معظمها . كانت تصل إلى اذنيه عبر زمجرة النيران ، صوت فرع يتكسر ، ويهوى على الأرض ، لكن الذى أثلج صدر الشاب هو ما لاحظه من أن الرياح كانت ما تزال على شدتها تدفع

البقية الباقية من الدخان أمامها ، وأنها تترك الجو يكاد أن يكون صحوا ، والهواء نقيا .

تحير الشاب فى المكان الذى بدأت فيه النيران وأيقن . أنه ليس بعيدا وإلا ما كانت النيران قد خمد أوارها فى هذه الغابة بمثل هذه السرعة إذ أن النهار لم يكن قد ولى بعد . ودهش إذ تذكر أن كل هذه الأهوال قد حدثت فى نهار أو بعض نهار ، بينما كان شعوره أنه قد مضت أزمنه طويلة منذ أن أخرجته أنات الذئب ، وتوسلاته من وكرهما . التفت إلى الناحية الأخرى من الغابة ، وشاهد منظرا ان ينساه طوال حياته . كانت الغابة برمتها اتونا يغلى تندلع فيه النيران ، وكانت السنة اللهيب تتطاول إلى ما فوق أعالى الأشجار فى حين كانت سحب الدخان تتعالى سوداء قاتمة إلى عنان السماء . وبالرغم من أن الرياح كانت تقوى فى الاتجاه المضاد الا أن صوت زمجرة النيران ، وهى تلتهم كل ما يصادف طريقها ، كان يصل واضحا إلى اذنيه تتخلله أصوات الأفرع ، والأشجار وهى تسقط فى الأتون لتروح ضحية شراهة الوحش الأصفر الذى لا تمتلىء له معدة . وفجأه تزايد الألم عليه حتى لم يعد يطيقه . شعر بالدنيا تدور حوله ، وتراقصت أمام عينه ألوان مختلفة اختتمت بالأسود . ولم يعد يشعر بشىء .

أفاق من غيبوبته وقد دار اليوم دورة كاملة ، أو يكاد ، شعر فى اللحظة الأولى من صحوته بحلقه يلتهب ، وبلسانه قد جف ، فتململ فى رقدته والتفت إلى صاحبه . كان الذئب قد افاق ، ولعله كان أحسن حالا من الشاب اذ لم تكن به حروق تذكر ، لكنه كان يلتهب من شدة الظمأ ، والجوع . كان يدور فى مكانه خوفا من أن يتخطى المساحة التى جردها صاحبه من الأعشاب الملتهبة . ولما رآه يعتدل فى جلسته ، قفز إليه فرحا وقد نسى للحظات مابه من آلام الظمأ ، والجوع ، وصدرت منه أصوات كلها حب ، وفرح بأن صاحبه لم يمت .

عاودت الشاب الآلام فى قدميه ، لكنها كانت أخف قليلا ، ولم يحاول أن يقف إذ كان يشعر انه لو فعل لعاودته الآلام فورا بشدة . تلفت حوله فلاحظ أن الغابة كانت ما تزال تحترق . وإن تكن النار قد بعدت عن حافة الأعشاب ، إلى درجة كبيرة . رأى جثث الحيوانات المحترقة متناثرة فى كل مكان فى الأحراش ، بعضها متفحم تماما ، وبعضها الآخر مات مختنقا ، ولم تلمسه النيران الا قليلا . وعلى شدة جوعه هو وصاحبه ، وظمئهما ، عافت نفسه أن يمد يده إلى أقرب الجثث إليه إذ كانت متفحمة تماما . نظر على بعد إلى جثة غزال لم تتفحم ، بل ولم تمسها النار إلا فى أجزاء صغيرة ، وبدأ يزيح الرماد من الطريق إليها زاحفا على يديه ، وركبتيه . وتبعه الذئب متعجبا مما يفعل ، لكن ثقته فى صاحبه كانت لا حدود لها . وأخيرا ، بعد لأى ، وصل الاثنان إلى جثة الغزال . انقض عليها الذئب ينهش فى اللحم بلا هوادة . فى حين تناول الشاب الناب السيفى الذى كان ما يزال عالقا بالسير الجلدى حول وسطه ، وارتعشت يده وهو يمزق أحشاء الغزال . وامتدت اليد لتقطع الكبد إلى قطعتين ، القى باحداهما إلى الذئب ، ومضى يلتهم الأخرى . وإذ فرغ من حصته أخذ ينتقى بعض الأجزاء .

أشبعهما الغذاء ، ورواهما نسبيا . لكنه ما كان يغنى عن الماء . راودت الشاب الآلام فى قدميه ، لكنه لاحظ أنها تركزت فى مناطق أضيق من الأول . التفت إليهما يتفحصهما . فرأى أن اجزاء كانت قد لامست الرماد فغطاها ، وأنها هى التى خفت آلامها إلى حد بعيد . ولم يكن حوله ما هو أكثر من الرماد ، وبقايا الأعشاب المحترقة ، فمد يده يأخذها ويغطى بها حروق قدميه وجسده . لم يذهب الألم لكنه خف إلى درجة مكنته من أن ينتحى بتفكيره إلى ناحية أخرى . كان وصاحبه فى حاجة قصوى الى الماء ، صحيح انهما اذ طعما أحشاء الغزال قد يستطيعان الصبر يوما آخر ، بل أن فى مكنتهما الاستمرار على الأكل من الحيوانات المائتة لمدة لكن هذا لن يغنيهما من الماء

ثم أنه لاحظ أن بعض العقبان ، وقد بدأت النيران حول المنطقة تخمد ، كما انتهى أثر الدخان . راحت تحلق فى السماء . بل ان منها ما كان قد هبط فعلا على بعض الجثث ينهش فيها . وحلق بعضها فوق رأسيهما مباشرة . ودهش إذ رأى وهو ينظر إلى السماء أن الرياح دفعت السحب بعيداً . وانتابته خيبة أمل شديدة إذ ضاع آخر أمل له فى المياه .

لمن قدميه . وعدم استطاعته السير بغير أن يعرض نفسه لألم لا يطيقه . ومع هذا فقد كان يعلم أن عليه أن ينتقل من مكانه بحثا عن المياه سريعا . لقد قطعت السماء الصافية فوقه بأن الماء لن يأتيه سريعا ، وهو فى حاجة من ناحية أخرى إليه قبل أن يموت ، ورفيقه عطشا . لم تكن ثمة مندوحة أمامه من الحركة بحثا عن الماء . فكر فى أن يزحف على يديه ، وركبتيه كما فعل حينما اتجه إلى جثة الغزال ، لكنه سرعان ما طرح هذا التفكير جانبا إذ أدرك أنه لن يمكنه الانتقال إلى أى مدى على هذا النحو . واتجه تفكيره إلى الرماد الناعم . ايقن أنه لو أمكنه وضع كمية تحت قدميه لامكنه أن يحتمل السير . وخطر فى باله خاطر ابتدأ فى تنفيذه فورا . وراقبه الذئب فى تعجب وهو يقطع قطعتين كبيرتين من جلد الغزال . وزاد عجبه حينما شاهد رفيقه يجمع كميات كبيرة من الرماد فى الجلد . ثم يضع قدميه فيها ، الواحده تلو الأخرى ، ويلفهما تماما حولهما . وما درى الاثنان أن هذه كانت الخطوة الأولى نحو صناعة الحذاء .

جمع الشاب شجاعته . ووقف على قدميه متوقعا أن يصرخ من شدة الألم . لكنه لم يفعل . لقد آلمته قدماه ، لكن ليس إلى الدرجة التى كان يعتقدها . وبدأ فى السير جاهدا قدر استطاعته أن يلمس الأرض بأصغر جزء من قدمه ، والا يمسها الا بالمواضع الأقل ألما . شعر فى مبدأ الأمر بضيق لهذا الرباط الذى يلتف حول قدميه . والذى لم يألفه ، ولكنه أدرك أنه ليس أمامه سوى هذا إذا كان يريد السير .

رآه الذئب ينحنى على بقايا عظام حيوان ضخم أكلته العقبان لينتقى عظمة

تصلح تماما كهراوة مؤقتة . وعجب الذئب اذ رآه يتوكأ فى سيره على العظمة الضخمة لكن بالرغم من الحذاء وما يحويه من رماد ، وبالرغم من العظمة الضخمة التى كان الشاب يتوكأ عليها ، فإنه كان يشعر بالآلم فى كل جزء من جسمه . كانت كل حركة تزيد من آلامه . لكنه كان يعلم أن عليه أن يتحرك إن كان يريد الحياة . وزادت حروق النار المختلفة فى اجزاء جسده من شعوره بالحرارة . وزاد معها شعوره بالعطش . لا لم يكن لديه أى خيار . كان عليه أن يتحرك . أيا كانت الآلام . والتفت إلى الذئب وبدأ السير المضنى .

اتجه الاثنان الى الغابة . الى الأشجار التى لم تحترق . الى حيث مهب الرياح . بحثا عن المياه .

الفصل الثالث

سكان الكهوف الاوائل

مضت بضعة أيام منذ ذهب الإثنان يبحثان فى الغابة عن المياه . وكان الحال قد تغير تماما . فالذئب قد استرد نشاطه ، وقوته . حتى رجله العرجاء كان مابها قد زال أو كاد . أما الشاب فقد ألمت به حمى شديدة أخمدت جسده المنهوك ، وجعلته قعيدا لايكاد يستطيع الحراك . كانا قد عثرا على جدول تجرى مياهه صافية ، ولعله من السخرية أنهما ماأن عثرا عليه بعد أن كاد الظمأ أن يفتك بهما ، حتى تساقطت الأمطار من السماء فى سيل منهمر .

ظلا يشربان حتى ارتويا . ولم يذكر الشاب أنه ذاق ألذ من طعم المياه فى فمه ، ولا أنه شعر باحساس أجمل من البرودة التى انسابت فى حلقه ترطبه . انتاب الشاب نشاط مؤقت ، مالبث أن زال وحل محله هبوط كامل . وتصبب جسده عرقا . ونظر حوله فرأى أشجارا قريبة على حافة الجدول تماما ، فانتقى إحداها وارتقاها حتى وصل إلى فرع آمن ، بعيدا عن الارض . وراح فى سبات عميق .

لم يدر كم من الوقت مضى عليه وهو نائم ، لكنه شعر بضعف شديد حينما استيقظ . وأحس بالآلام فى قدميه تتزايد ، فمد يده إلى جلد الغزال ينزعه منها . وخف ألمه نسبيا بمجرد أن فعل هذا ولامس النسيم الرطب حروقه . لكنه كان يشعر أيضا بالحرارة تأكل فى جسده وتغشى بصره . وسمع عواء الذئب فى أسفل الشجرة ، فنظر إليه . ورآه وقد جر جثة خنزير صغير وضعها عند الجذع تماما ، ووقف يرسل نداءه إلى صاحبه . حاول الشاب الهبوط ، ولكنه أرسل صرخة مروعة لحظة أن لمست قدمه فرع الشجرة تحته ، وكاد أن يسقط من حالق

لولا أنه تشبث بالفرع الأعلى . وعلمه هذا الدرس أن يحذر فى وضع موطىء قدميه ، فمكث برهة وهو يلهث حتى زال عنه بعض الألم ، ثم استمر فى هبوطه البطىء .

أخيرا وصل إلى الأرض بعد لأى ، وجلس متهالكا مستندا إلى جذع الشجرة . نظر إليه الذئب محاولا أن يتفهم لماذا لم يبدأ صاحبه فى تناول الطعام الشهى الذى أحضره له . ومد الشاب يده إلى الجثة يقتطع منها ، لكنه بدلا من أن يأكل ما اقتطع ، رأى نفسه يعاف اللحم ، فنأى عنه وألقاه . وانشغل الذئب فى إعمال مخالبه ، وأسنانه ، فلم يلحظ أن صاحبه قد استند إلى الشجرة تاركا الغذاء لم يقربه . وتحامل الشاب على نفسه إلى أشجار فاكهة قريبة يقتطف ثمارها ، يشبع بها بعض الجوع الذى أحس به ، ثم انحنى على الجدول ينهل من الماء يروى به جسده المحموم . وتابعته عينا الذئب فى اشفاق وحنان . رأى صاحبه ضعيفا متثاقلا فى سيره ، فتوقف عن أكله يرقبه ، ويتحسس الروائح خشية اقتراب عدو . حمل الشاب معه بعض الثمار . وعاد إلى شجرته المفضلة وبدأ يرتقيها بصعوبة حتى وصل إلى الفرع الذى اختاره لسكناه ، فألقى بالثمار جانبا وتهالك نائما .

° ° °

استمرت الحياة تسير على وتيرة واحدة لأيام عديدة ، لم تغفل فيها عينا الذئب عن مراقبة صاحبه . كم من مرة أنذره من عدو يقترب ، أو هاجم حيوانا يتلصص ، ليعطيه فرصة الاحتماء بأعلى الشجرة . وأخيراً زالت حدة الحمى ، وبدأ الشاب يسترد صحته ونشاطه ببطء . التأمت الحروق فى جسده ، وقدميه ، وراح يشارك الذئب فى التهام لحم ما قد يصيده الأخير . وجاء يوم استيقظ فيه الشاب أوفر ما يكون نشاطا وقوة ، وقد زايلته آخر آثار ذلك اليوم المشئوم . لكنه لم يكن مشئوما على الإطلاق . فقد تعلم منه أن النار سلاح مخيف ، وأن اللحم إذا مسته النار بغير أن يتفحم كان له طعم مستساغ . وتعلم أن جلد الحيوان قد ينفع فى وقاء القدم إذا ما أصيبت .

كان فى مرضه قد أتم صنع حربة بدلا من التى فقدها . أراد أن يصنع

أدوات أخرى ، لكنه رأى عدم فائدتها ، إذ لو أتمهما فلن يجد المكان ،الذى يضعها فيه . وقاده هذا إلى التفكير إلى وجوب أن يكون له ، ورفيقه ، مأوى يحميهما . ويجب أن يبقيا فيه ليدافعا عنه ضد كل معتد . أيا كان . وهبط من الشجرة بخفة ليتلقاه الذئب فرحا ، مداعبا إذ أحس بأن صاحبه قد عاد سيرته الأولى .

أعمل الشاب فكره فى الاتجاه الذى يجب أن يأخذه بحثا عن المأوى . إستبعد الاتجاه إلى الغابة المحترقة ، واتخذ بغريزته إتجاها معاكسا للذى عثر فيه عليهما الرعب . كان يريد أن يضع أكبر مسافة بينه وبين تلك الوحوش الخبيثة التى يشع من عينيها حب الدماء ، وشهوة القتل كان معنى هذا أن يأخذ طريق الجدول ، وإن كان يعلم أن الحيوانات جميعها ترد الماء ، وأن هذا الطريق سوف يكون أكثر الطرق إزدحاما بالوحوش . استقر رأيه على هذا فبدأ فى مسيرته . وما علم أنه بدأ أول هجرة متعمدة يقوم بها إنسان بحثا عن مأوى أمين بغية حياة الاستقرار .

سار الشاب ومعه الذئب بمحاذاة الجدول . ومرت الأيام متتالية ، والاثنان دائبان على التنقل . دائما فى الاتجاه نفسه . نحو الشمال ، وبدأت المناظر تتغير شيئاً فشيئاً بشكل لم يلحظه الشاب فى مبدأ الأمر . بدأ المناخ يميل إلى البرودة . واعتاد الشاب أن يحتفظ بجلد بعض الحيوانات التى كانا يصيدانها جريا وراء الطعام . ولما شعر ببرودة الجو ليلا . كان ينام عليها ، أو يلتحف بها . وبدأ الجو يزداد برودة حتى فى الصباح . ولف الشاب صدره وبطنه ببعض الجلود . كان يعقدها فى بعضها حتى لا تقع منه ، ولا تعوق حركته . وتغيرت طبيعة الأرض ببطء . وكثرت الحجارة الصغيرة . حتى اضطر إلى أن يحتمى موطىء قدمه .

وجاء ذلك اليوم الذى بدأ فيه الشاب يفطن إلى حقيقة نفسه . وإلى أنه خلق يغاير ما عداه تماما . كان الوقت ليلا . وكان القمر بدرا يرسل ضوءه بين

أغصان الأشجار . وسار الشاب والذئب بغية إقتناص فريسة . شاهدا غزالا ، ورئما فتبعاهما . وأحس الغزال ، والرئم بالمطاردة فأطلقا لسيقانهما العنان . اندفع الرفيقان وراءهما فى سرعة خاطفة ، لكن الطريدتين كانتا أسرع منهما كثيرا فابتعدتا عنهما حتى كادا أن يفقدا أثرهما . وفجأة شاهد الاثنان أشباحا تسقط من الأشجار لتقع على الطريدتين . وتوقف الشاب عن العدو ، ثم أرسل صوتا خفيفا أعاد الذئب إلى جانبه . وتلصص الاثنان السير فى بطء وحذر شديدين ، حتى بدأت تصل إلى أذانهما أصوات تمتمات ، وهمهمة . اختبأ الاثنان خلف شجرة ضخمة . وراحا يرقبان فى هدوء وصمت.

نظر الشاب فى تعجب وفضول . فرأى أشباحا تدانيه فى البنية ... لم يتبين أشكالها تماما حتى يعرف ما إذا كانت تشابه خلقه . ظنها فى مبدأ الأمر جماعة من القردة . لكنه عاد فاستبعد هذا الظن اذ لم يشاهد مطلقا قردة تهاجم غزلانا ، كما لم يرها تأكل اللحم . اشتد الفضول بالشاب ، فأشار إلى الذئب أن يقبع حيث هو . ثم صعد الشجرة فى خفة حتى إنتقى مكانا يمكنه منه أن يرى ولا يرى ، وراح يرقب . أبصر جماعة تجاوز العشرة عدا . كانوا جميعا من الذكور ، يتمتمون فيما بينهم تمتمه هى أقرب إلى أصوات القردة ، وإن لم تدانيها صخبا . ولاحظ الشاب أن الفريستين ملقاتان على الأرض ، وأنها قد قتلتا ضربا بالهراوات . وانقسمت الجماعة الى فئتين حمل بعض أعضائها الفريسة بينما امتشق البـــاقون الهراوات ، وبدأوا فى السير نحو الشرق فى نظام متعمد بحيث يكون الأربعة حاملو الفريستين وسط الباقين حاملى الهراوات . وتردد الشاب فيما يفعل . ان الاتجاه الذى أخذوه يغاير تماما اتجاه الجدول الذى كان يسير بمحاذاته ، فهل يغير اتجاهه ويقتفى أثر الجماعة ؟ . واستبد به الفضول اذ رأى أنهم كانوا شديدى الشبه بعائلته التى قضى عليها ذلك الرعب . وأخيرا استقر به الأمر على اقتفاء أثرهم . وما عليه بعد أن يشبع فضوله سوى أن يعود أدراجه ليتابع سيره فى الاتجاه الذى اختاره لنفسه .

هبط الشجرة بهدوء وألفى الذئب ينتظره ، فداعب رأسه بيده ، ثم سار

الاثنان فى أثر الجماعة . وخطر فى باله أن يظهر نفسه ، وأن يطالب بالانضمام الى جماعتهم . لكن محاولاته السابقة مع القردة ، وحياته فى الغابة ، جعلته شديد الحذر ففضل أن ينتظر قبل أن يتخذ قرارا . ودام التعقب ساعات حتى طلع ضوء النهار ، ومع هذا لم تتوقف الجماعة عن السير ، وتمكن الشاب من أن يرى أشكالهم بوضوح ، وأن يميز تفاصيل وجوههم وأجسامهم .

لاحظ أن ذراعاتهم أطول من ذراعيه . كانوا فى ذلك أقرب الى القردة تتدلى أذرعتهم الى ما تحت الركبة . وكان سيرهم متثاقلا كأنما ينوؤون بحمل ، لكنهم لم يستعملوا أبدا أيديهم فى السير . وذكرته هيئتهم عموما بهيئة القردة فى انحدار الجبهة الى الخلف ، وضيق العينين ، وكثافة الحواجب ، وسعة الفم وفطس الأنف . مع هذا فقد كان الاختلاف واضحا فى التفاصيل . كان الشعر يكسو الكثير من أجسامهم ، لكنه شعر من نوع مختلف ، كما لم يكن يكسو كل الجسد ، بل ان منهم من كان خفيف الشعر يقارب الشاب فى هذا . ولم تكن وجوههم متشابهة كوجوه القردة وانما كان التباين فى تفاصيل الوجه أكثر . لم يكونوا متساوين فى سعة الفم ، ولا ضيق الجبهة . وإنما تفاوتوا سعة وضيقا . ولفت نظر الشاب على الأخص أيديهم إذ كانت فى هيئتها تشابه إلى حد كبير يديه . وكان استعمالهم للابهام يقارب جدا استعمالاته . لكن حركته كانت ثقيلة نتيجة لغلاظة اليد نفسها وسمكها . كانوا أقصر منه قامة ، وأقل استواء وأكثر تثاقلا فى المشية . لكنهم كانوا أقوى بنية . وأعرض عند الكتفين . كما كان لون جلدهما أقرب إلى البياض من جلده (١) .

لكن الشاب كان يرى كل هذه الفوارق دون أن يدرك مغزاها . بل لعلها كانت تذكره بقومه إذ لم يكونوا يختلفون كثيرا عن هؤلاء . كان يعلم أنه كان هو الشاذ بينهم . أو على الأقل أنه كان يغايرهم فى بعض الصفات الجسمانية . لكنه ، وهو يعيش معهم كان قد اعتاد عليهم كما إعتادوا عليه . ولم يدر أنه

---

(١) هذا هو وصف رجال النياندرتال .

كان طفره من الطبيعة فى تطورها نحو الكمال . حتى فى أفعاله وتصرفاته ، كان قومه يرون فيه بعض الغرابة . كان مثلا يفضل دائما أن يستعمل أدوات بدلا من القوة المجردة ، وكان يصحب إشاراته ، أما إذا ما أراد التفاهم ، ببعض التمتمات المتميزة عن بعضها فى كل موقف ، على النقيض من قومه الذين كانوا لا يعرفون سوى الإشارات ، والصيحة ، وقليلا ما كانت تخرج بعض الحشرجات من أفواههم فى مناسبات غضب ، أو رعب ، أو استسلام ، أو أنات توجع من آلام .

إستمرت الجماعة فى السير يتبعهم الشاب والذئب . ولاحظ الشاب أن الأرض، قد تغيرت طبيعتها تماما عما كان يألفه ، فكثر ظهور الأحجار، وقلت الأشجار، وتباينت الثمار . تجرحت قدماه من السير على الحجارة والحصى ، فلم تكونا قد اعتادتا عليها ، وإنما كان سيره دائما على أرض الغابات الطينية الناعمة .

وجاء وقت اضطر فيه أن يختفى وراء الصخور ، بدلا من الأشجار ، نظرا لتباعد الأخيرة تباعدا يكشفه للعيان إذا ما اكتفى بالاختباء خلفها . لاح أمامه على بعد تل من الصخور والرمال ، ولم يكن قد شاهد فى حياته شيئا يشبهه فحار فكره فيما يكون هذا . رأى الجماعة تتجه إليه بغير تردد ، فأشار إلى الذئب بالتوقف والإنتظار حيث هو ، وغرس رمحه فى الأرض إلى جانبه فى حين إستأنف تتبعه لهم . واستمر السير لأكثر من ساعة . ولاح أن المرتفع لم يقترب كثيرا عن ذى قبل . ودهش الشاب إذ كان يتصور أن التل قريب لايحتاج الوصول إليه كل هذا الزمن . وخيل إليه أن ارتفاعه يزداد كلما اقترب منه حتى كاد أن يطاول السماء .

وفجأة دوى فى الوادى صوت لم يشك الفتى أنه صيحة تحذير وإنذار . وتلفت حوله ليرى مصدرها ، لكنه لم يعطه الفرصة للتحقق اذ رأى الجماعة كلها تتوقف عن المسير ثم تلتفت خلفها . ولمحه بعض الرجال ، فخرجت منهم أصوات أجشة ، وصيحات غضب ، وتهديد . اعتقد الشاب أن الفرصة قد سنحت ليظهر أنه ليس عدوا ، وأنه مسالم من جنسهم يريد الإنضمام إليهم ، فأظهر نفسه كاملا ، ووقف منتصب القامة ، رافعا يديه إلى أعلى . لكن أربعة

رجال انفصلوا عن بقية الركب واتجهوا عدوا إلى ناحيته . لم يكن هنالك شك في نواياهم العدوانية ، فقد ملأت صيحاتهم الجو بالتحدى والإنتصار .

تردد الشاب لحظات فيما يفعل . خطر فى باله أن يقف ليقاتلهم ، لكنه أيقن بأنهم سوف يقتلونه بهراواتهم الضخمة لامحالة . وتضاءلت المسافة بينهم وبينه حتى أضحت أقل من ثلاثين مترا . وفجأة استدار الى ناحية الغابة ، وأطلق لساقيه العنان . منذ اللحظة الأولى ظهرت ميزاته الجسمانية ، فكان لرشاقة جسده ، وطول ساقيه أثر واضح فى سرعة حركته وخفتها . ولاحظ خصومه أن المسافة بينهم وبينه تزداد اتساعا على مر الدقائق فتوقف اثنان منهم ، والتقطوا بعض الحجارة وراحوا يقذفونه بها . وتساقطت الأحجار من حوله . بل وأصابه بعضها ، لكنها كانت اصابات فى أماكن لاأثر جدى لها . وبعد برهة وجيزة كانت الحجارة تتساقط خلفه لاتكاد أن تبلغه .

وتوقف قاذفا الحجارة حينما رأيا أنه لافائدة مما يفعلان ، ثم إستدارا قافلين نحو باقى الجماعة ، وتركا المطاردة للرجلين الآخرين . وبالرغم من أنه كان من الواضح أن المسافة بين المطاردين ، وطريدتهما تزداد اتساعا وأنه لاأمل لهما ألبته فى اللحاق به ، الا أنهما استمرا فى المطاردة بعزم وتصميم . وكاد الشاب أن يبلغ الغابة اذ لم يبق بينه وبينها سوى بضع عشرات من الأمتار فالتفت وراءه ليرى المسافة بينه وبين مطارديه فلاحظ أنهما قد أضحا بعيدين تماما عنه ، وأنه أضحى أوكاد، فى مأمن من أن يلحقا به وندت منه تنهيدة راحة ، لكنه فى هذه اللحظة تعثر فى احدى الأحجار فوقع على الأرض . ووصل الى سمعه صيحات ظفر أطلقها المطاردان ، فنهض واقفا ليستمر فى عدوه ، لكنه أوشك أن يقع ثانية اذ شعر بألم حاد فى كاحله الأيمن ، فراح يعرج مهرولا نحو الغابة وهو يكاد يصرخ ألما فى كل خطوة يخطوها .

لاحظ المطاردان الحالة التى عليها غريمهما فضاعفا من سرعتهما ، وقد أيقنا أنه سوف يكون غنيمة سهلة . بدأت المسافة تتضاءل بسرعة حتى أضحت لاتعدو بضع خطوات ، لكن الشاب كان قد دخل الغابة فعلا فواجه غريميه مستندا بظهره إلى جذع شجرة ضخمة ، وأخرج من منطقته ناب النمر السيفى ، واستعد لملاقاتهما لم يتوقف المطاردان ، وانما رفعا هراويهما واندفعا بكل قوتهما نحوه ،

وقد وثقا من من النتيجة . وفجأة اندفع من وراء الشجرة جسد ضخم ليمرق فى الهواء مروق السهم ، ويصدم بأحد الرجلين ويلقيه أرضا . طارت الهراوة من يد الرجل . وصرخ صرخة رعب وألم حينما انغرزت انياب حادة فى عنقه ، بينما راحت المخالب تمزق جسده .

توقف الرجل الثانى عن الهجوم على الشاب . واندفع نحو المتصارعين على الأرض محاولا انقاذ صاحبه من براثن الذئب الجاثم عليه . وكادت الهراوة الضخمة أن تهبط على رأس الذئب . إلا أنه شعر كأنما دخل قضيب من نار احترق كتفه، شل حركة ذراعه تماما حتى أن الهراوة أضحت حملا ثقيلا بين يديه وسقطت على الأرض .

استدار ليواجه مهاجمه والدماء تنزف بغزارة من جرحه . فى حين سحب الشاب الخنجر وواجهه به . وامتدت يد الرجل الأخرى لتقبض على رسغ الشاب بقوة تمنعه من تسديد طعنة أخرى . وجاهد الاثنان . ولكن الشاب لم يكن ندا للرجل بالرغم من أصابته ، كما أن قدمه كانت تؤلمه فى حركته ، وتعوق من خفته . وبدأ صراع بين الاثنين استعملت فيه الأيدى والأرجل ، والأسنان . وسقط الخنجر من يد الشاب بينما قبض الرجل على رقبته وبدأ يشدد الضغط عليها وقد بدت الوحشية . وشهوة القتل تظهران بوضوح فى عينيه الضيقتين .

حاول الشاب أن يتملص من القبضة الحديدية ، وأن يبعد اليدين التى كانتا تمنعان عنه الهواء ، لكنه لم يفلح . فترك محاولته ، وسدد قبضته إلى الوجه القبيح أمامه . وزمجر الرجل سالت الدماء من الأنف الافطس . ولكن اليدين الحديدتين لم تتراخيا عن عنقة . واستمر الشاب يضرب بجنون فى الوجه ، والجسد أمامه دون جدوى فى حين إزداد الضغط على رقبته يمنع عنه التنفس . وابتدأت الدنيا تسود فى عينيه . وضعفت ضرباته ، كما شعر بأن ساقيه لم تعودا تقويان على حمله .

وفجأة ندت من الرجل صيحة ألم ، وتخلت اليدان عن الرقبة فاندفع الهواء إلى الرئتين اللتين كانتا تكادان أن تنفجران . رأى الشاب الرجل وقد وقع على الأرض يتلوى من الألم ، وهو يحاول أن يخلص ساقيه من بين أنياب الذئب . وطرح نفسه فوقه وراح يكيل له اللكمات ، فى وجهه ،وكل ماصادفه من أجزاء

جسمه . استمرت المعركة غير المتكافئة لحظات خمدت بعدها حركة الجسد المسجى على الأرض . ولم يدع الذئب الساق إلا حينما وضع صاحبه يده على رأسه ينبهه إلى انتهاء المعركة .

جلس الشاب على الأرض مستندا إلى ضجذع الشجرة يلتقط أنفاسه الضائعة وراح ينظر إلى آثار المعركة ، كان منظر الرجل الأول بشعا فقد خرجت قصبته الهوائية وتمزق جسده ، ووجهه من آثار براثن الذئب ، وأنيابه . كان من الواضح أنه فارق الحياة تماما . ولم يكن منظر الثانى بأحسن من الأول . فقد كانت الدماء تكسو وجهه من أثر الضربات التى كالها له الشاب ، كما كانت تسيل بغزارة من بين كتفه وساقيه . لكن الحياة لم تكن قد فارقته .

عادت أنفاس الشاب إلى طبيعتها ، وبدأ يشعر بجوع شديد . وتطلع إليه الذئب ، وفهم أنه يدعوه إلى الوليمة . وأنه يشعر مثله بالجوع إذ لم يكونا قد تذوقا طعاما لأكثر من يوم . واتجه الذئب إلى الرجل الميت وبدأ ينهش فى جسده ، وهو يتطلع إلى الشاب بين الفنيــة والأخرى ، ولكن الأخير لم يشعر بميل نحو مشاركة رفيقه الطعام ، بل لعله شعر بغضاضة يسيرة ، وهو يرى الذئب يلتهم أحد أبناء جنسه . وتطلع حوله يبحث عن بعض الثمار حتى لمح بعضها فوقف واتجه اليها . أحس لحظة وقوفه بالألم فى كاحله ، لكنه كان أخف من ذى قبل . ودهش الذئب إذ شاهد صاحبه يعاف أكل اللحم الطيب ويأكل الثمار ، لكنه لم يشغل باله كثيرا بهــذا ، واستمر فى وجبته الشهية بلا توقف .

سار الشاب إلى حافة الغابة وراح يمد ببصره إلى الأفق البعيــد حيث المرتفعات . لم تلتقط عيناه باقى الرهط الذين كانوا متجهين إلى التل فلا بد أنهم قد بلغوه ، أو شارفوا . وعادت ذاكرته إلى الصيحة التى نبهتهم الى وجوده فأدرك أنها لابد قد أتت من التل ، فد بصره تجاه السهل المنبسط أمامه ، وراحت عيناه الثاقبتان تبحثان عن مكان يمكن أن يكون مأوى لهؤلاء الناس ، أو أشباه الناس ، لكنه لم يتمكن من أن يتحقق من موضع معين بالذات نظرا لبعد المسافة وأن كان قد رأى ، أو خيل إليه أنه رأى ، أماكن تكتنفها ظلال قاتمه ربما كانت فجوات فى هذا التل .

عاد بعد برهة إلى حيث ترك الذئب ، ولاحظ أنه قد فرغ من طعامه أو كاد . وسمع الشاب أنينا خافتا صادرا من الرجل الآخر ، فنظر إليه . واعتملت فى نفسه أحاسيس مختلفة . حيثما عاش ، لم يكن هنالك مجال للرحمة ، أو الشفقة ، اعتاد أن يقتل أو يقتل ، ولا مكان للضعيف بين الأحياء . كان يعلم ما يحدث . سوف يتركه ملقى على الأرض ، وبعد فترة قصيرة ستأتى العقبان ، بل أنها تحلق الآن فعلا فى انتظار ارتحالهما . ثم ستأتى الضباع ، ولعلها الآن ليست بعيدة . ولم يكن بطبيعته يحب العقبان أو الضباع ، فهى جبانة لا تأكل سوى الرمم ، ولا تعيش إلا على نفايات الحيوانات ، والطيور الجارحة العظيمة

فرغ الذئب من طعامه ، فاتجه إلى رفيقه الذى تناول حربته فى صمت وبدأ الاثنان فى المسير فى الاتجاه الذى أتيا منه . والتفت الشاب خلفه فشاهد العقبان تحط على مسافة يسيرة من الجثتين ، ورأى عينى الرجل المسجى على الأرض . لم يكن فيها خوف ، ولم يكن فيها رجاء ، وانما كانتا مستسلمتين للأمر الواقع . وتردد الشاب هنيهة ثم عاد أدراجه ، وطارت العقبان مبتعدة . انحنى على الرجل ورفعه من الأرض ، وألقاه على كتفه ، وسار به متوغلا فى الغابة .

مضى ركب الثلاثة فى السير ساعة أو تزيد . وازدادت كثافة الأشجار ، ولمح الشاب بضعة حيوانات تتسرب على مسافات قريبة ، كما تعالت صيحات القردة ، والنسانيس . وبدأ الشاب يشعر بآلام حادة فى قدمه ، فقد أضاف الحمل الجديد عليها عبئا لم تكن فى حالة تستطيع احتماله كثيرا . واتجه تفكيره إلى مكان يمكن أن يستقر فيه يوما ، أو أياما حتى يتمكن من العناية بالرجل ، وبكاحله المتورم . وازدادت الآلام فى قدمه حتى اضطر أن يضع حمله على الأرض . وجلس إلى جواره مستندا إلى جذع شجرة ، ومضى يدلك قدمه .

سمع أنات خافتة تصدر من الرجل المسجى ، فالتفت إليه وراح يفكر فيم سيفعله به . كان الرجل فى حالة سيئة جدا ، وإن كان الجرح الكئيب بين كتفين قد توقف عن النزيف ، الا أنه كان قد فقد كثيرا من الدماء ولم تكن سائر الجروح تقل كآبة عن طعنة الخنجر ، خاصة آثار أنياب الذئب . وتلفت حوله بحثاً عن مياه يمسح بها جروح المصاب ، لكنه لم يجد ماء على مدى بصره . كان التعب قد أخذ منه ، وتثاقلت عيناه ، فنسى الرجل المصاب إلى

بجواره ، واستلقى على ظهره ، وراح فى سبات عميق ، بينما ربض الذئب قانعاً ببطنه الملىء .

استيقظ الشاب بعد فترة على صوت أنات الرجل المتزايدة . فنظر إليه ولاحظ أن العرق قد بدأ ينضح على جسمه بصورة واضحة ، وأنه كان يتململ فى غشيانه وإن كان أضعف من أن يتحرك ، حركة كاملة . شعر بغريزته أنه لابد للمصاب من مياه تبلل شفتيه وتمسح عرقه . احتمله على كتفه وسار به وهو يتشكى على حربته . بحثا عن المياه ، حتى وجد غديرا صافيا . انتقى أقرب شجرة آمنة منه ، ووضع الرجل على الأرض ، ثم ذهب يبحث عن أوراق شجر عريضة يحمل بها الماء الى المريض . وأراد الذئب أن يتبعه ولكنه أشار إليه أن يقبع إلى جوار الرجل ففعل ، وبعد برهة عاد الشاب ليجد أن الذئب قد بدأ يتحسس الرجل بأنفه . لقد ظن أن رفيقه قد حل الرجل كما فعل عشرات المرات قبل هذا بلحم بعض الحيوانات التى صاداها ، إلى وقت يداهمهما فيه الجوع فلا يحتاجان إلى السعى وراء فريسة ، ومن حسن الحظ أن الجوع لم يكن قد تمكن تماما من الذئب فلم يبدأ فى نهش الجسد المسجىّ أمامه . وأبعده الشاب عن الجثة فزمجر غضبا ، ولكنه تنحى ، ورفع الشاب الرجل ثم بدأ فى ارتقاء الشجرة ليضعه على غصن آمن بعيد عن متناول الذئب ، والحيوانات العابرة . ثم عاد وهبط إلى الأرض ، وتناول أوراق الشجر العريضة وملأها ماء وعاد إلى الرجل يبلل شفتيه، ويمسح وجهه وجسده المحموم .

علم الشاب أن الرجل لن يستطيع الحركة ، ولاه العناية بنفسه لأيام . فابتدأ فورا فى محاولة تحسين معيشتهما على قدر ما يستطيع . جمع أفرعا صغيرة ، وأغصانا ليضعها على فرع كبير فوق الرجل يحميه بها من وهج الشمس ، ووقاه يسيرا من الأمطار . ودثره بجلد غزال صاده فأكل به حمايته . وصنع عدة أوان خشبية كان يحمل فيها المياه ، كما أحضر ثمارا ، وفواكه راح يضعها فى فم المريض بين الوقت والآخر .لم تكن لديه معلومات عن الجروح سوى أن كل جسد لابد له من الغذاء، والماء فمضى يوفرهما للمريض . وقاوم الجسد الحديدى الحمى ، ونقص الدم وبدأ شيئا فشيئا فى استرداد قواه، والتغلب على جراحه . ومضت أيام كان الشاب فيها يرعى مريضه رعاية دائبة ، ولم تبد على الرجل أية آثار الحياة سوى تلك

الأنات التى كانت تصدر بين الفنية والأخرى .

فى اليوم الرابع تفتحت العينان الضيقتان لأول مرة بوعى عما حولها ، ولما استقرتا على وجه الشاب ظهرت عليهما الوحشية . تحرك الرأس الضعيف فى محاولة النهوض ، ثم عاد فهبط مكانه من الضعف ، وأغلقت العينان . ومد الشاب يده فى رفق وراح يمسح العرق الذى بدأ يتصبب بغزارة على الجبين المتقد ، وتفتحت العينان للمرة الثانية ، لكن نظرتهما هذه المرة كانت تغاير تماما سابقتها . اكتسبت علامة التعجب والذهول ، وعدم التصديق . كان قد اعتاد بين رهطه أن الجريح أما أن يترك ليموت . أو يأكله رفاقه ، وهو الأغلب الأعم ، فلم يكن يوجد مكان للرحمة ، أو الشفقة فى حياتهم ، بل لعله لم يكن يعرف ماهما أصالة .

مد الشاب يده ببعض الثمار يقربها من الفم ، وزم المريض شفتيه فى مبدأ الأمر ، لكنه عاد يأكل ما وسعت شهيتـه ، رفع الشاب رأس المريض قليلا ، وأعطاه جرعة ماء من أحد الأوعية الخشبية . ارتشفها الرجل بشغف ، وصدرت منه تنهيدة راحة ، ثم وضع رأسه على فرع الشجرة ، وأسلم نفسه إلى النوم .

مضت الأيام تترى حتى عادت للرجل بعض قواه ، وابتدأ يأكل اللحم ، ومنذ هذا الوقت سار نحو استرداد صحته الكاملة بخطى واسعة ، وجاء اليوم الذى استطاع فيه أن يهبط من الشجرة بمفرده دون معاونة ، وأن يتجه إلى الغدير يرتوى منه ، وأن ينتقى من الأفرع مايصلح لأن يكون هراوة غليظة يستعملها فى الدفاع عن نفسه . وشاهده الذئب لأول مرة واقفا على قدميه ، فزمجر وكشر عن أنيابه ، فى حين استعد الرجل لملاقاته بالهراوة . ووقف الشاب بينهما يشير إلى الرجل أن يدع الهراوة ، ويمسح بيـده على رأس الذئب حتى ساد بينهما السلام .

لم يجر بين الرجل والشاب حديث بأية لغة ، حتى الإشارات بينهما كانت قليلة متباعدة لاتعدو أن تكون طلبا لماء أو غذاء . ولاحظ الشاب أن إشارات الرجل كانت واضحة جلية تفصح تماما عن المعنى الذى يرغبه فى حين أنه لم تكن تصحبها أية أصوات ، بل إن صوته لم يخرج ألبتة من فمه إلا فى مرات معدودات كانت اشارات تحذير أو صيحة نداء ، كما كانت الطبقة الصوتية فيها تكاد أن تكون دائما واحدة

على العكس من الشاب الذى كانت تصحب إشاراته دائما أصوات مختلفة ذات طبقات ، ونغم يطابقان مقتضى الحال .

حاول الرجل ذات مرة أن يقلد بعض الأصوات التى صدرت من الشاب ، لكنها كانت محاولات تعسه لم تسفر عن نتيجة تبشر . واستخف الطرب فصدر من الشاب مايشبه الضحكة ، ومضى يقلد أصوات الحيوانات ، والطيور حتى أن الرجل راح ينظر إليه فى بلاهة غير مصدقة .

وحدث أن خرج ثلاثتهم للصيد فصادوا خنزيرا بريا . وتقدم الرجل فوثب على ظهر الحيوان ضاربا إياه بهراوته ، لكنه سرعان ماوقع على الأرض . دار الوحش دورة سريعة وهاجم الرجل قبل أن يفيق من وقع الصدمة تماما . لم تكن المسافة بين الإثنين لتزيد على بضعة أمتار حينما مرقت من خلف الرجل حربة طويلة لتستقر بقوة بين عينى الخنزير تماما . وقفز الحيوان فى الهواء صارخا من الألم ثم سقط على الأرض لاحراك به . وذهل الرجل فمضى ينظر إلى الشاب والحربة مستقرة فى رأس الخنزير ، ثم تقدم ببطء وراح يتحسس الخشب كأنما ليكشف عما به من سحر يجعله يقتل وهو على مثل هذا البعد . واستل الشاب خنجره ، وراح يشق بطن الخنزير أمام عينى الرجل المذهول ، ثم اقتطع له قطعة كبيرة من اللحم تناولها وهو مازال يبـــدو فيما يشبه الحلم . وجلس الإثنان على الأرض يأكلان نصيبهما فى حين قبع الذئب إلى جوارهما يلتهم نصيبه فى هدوء .

إنتهى الطعام ، ونظر الرجل إلى الشاب ثم أشار بيده إلى أنه يود أن يرحل إلى قومه ، وأنه يود لو أن الشاب ذهب معه . لم يرد الشاب فورا ، لكنه راح يفكر . كان يشعر بحنين شديد إلى أناس من قومه يجلس معهم يشاطرهم صيدهم ، وطعامهم ونومهم . كانت الأيام التى قضاها مع الرجل سعيدة ، لطيفة أزالت عنه وحشة الوحدة ، ولعله لو ذهب معه إلى قومه فسوف يعيش بينهم مدى الحياة ، ليصبحوا قومه أيضا . ولكن هل هم حقيقة قومه ؟ هل يشبهونه شكلا أو عملا ؟ لقد قضى مع أحدهم أياما ، ولم يجد هنالك خلاف كبير بينه وبين القردة ، أو سائر الحيوانات . ربما كان أرقى قليلا ، لكنه كان يشعر أن الفارق بينهما كبير . وعلى أى الأحوال فقد حاول فى مبـــدأ الأمر أن يتفاهم مع الرجال الآخرين

فقابلوه بالعداء ، وأرادوا قتله ، فهل سيتغير الحال لو ذهب الآن مع فرد منهم؟

وعاودته غريزة حب الاجتماع حتى استقر رأيه على ذلك . عزم على أن يذهب ، ولكنه فى هذه المرة سوف يكون محتاطا لما عسى أن يحدث لو أنهم رفضوا قبوله بينهم . إلتفت إلى الرجل الذى كان مايزال ينظر إليه بصبر ، وهز رأسه علامة القبول . ولم تبد على الرجل أية علامة من علامات العاطفة ، فلم تتحرك عضلة من عضلات وجهه ، ولا تغيرت نظرته ، وإنما كل مافعله هو أن استدار ، واتجه إلى ناحية الجبال متوقعا من الشاب والذئب أن يتبعاه .

مد الشاب يده وقبض على ذراع الرجل الذى توقف وواجهه مستفهما . أشار إليه الشاب بأن ينتظر قليلا . كان يعلم أن المسافة بينهم وبين الجبال يمكن أن تقطع فى وقت يصلون معه قبل أن تغيب الشمس . وهذا مالم يكن يريده كان يبغى أن لايصل إلى الأرض الفضاء التى تفصل الغابة عن الجبال قبل غروب الشمس . ولم يفهم الرجل بغية الشاب ، لكنه صدع إلى إشارته ، وتبعه إلى الغدير القريب حيث جلس إلى جواره مستندا إلى جذع شجرة .

إقتطع الشاب غصنا مناسبا من الشجرة ، وراح يتسلى بعمل حربة أخرى أمام ناظرى الرجل المشدوه . ومضت فترة ، والرجل ينظر ، ثم حول عينيه إلى الغدير فشاهد أسماكا تسبح قريبا من الشاطىء . قام الرجل بحذر شديد ، وراقبه الشاب وهو يتجه نحو الماء ، ثم رآه وهو ينحنى فجأة ليقبض على سمكة بيديه ويلق بها على الشاطىء ثم راح يتلمس ضفة الجدول تاركا السمكة تتلوى وتقفز على الأرض دون أن يلتفت إليها . وتكررت العملية أربع مرات دون أن يخطىء الرجل مرة واحدة فى إخراج سمكة . ودهش الشاب من مهارة الرجل فى الصيد ، ولم يكن هو قبلا قد أكل سمكا ، وإن يكن قد حاول صيدها لكن محاولاته كانت دائما تبوء بالفشل .

قام من مجلسه واتجه إلى ناحية زميله ليرى كيف يتسنى له أن يقبض على السمكة بيديه دون أن تنزلق وفهم الرجل مايدور بخلد الشاب ، فدعاه بالإشارة إلى أن يجرب حظه ، لكنه أخفق فى كل محاولة قام بها . ولأول مرة لاحت على وجه الرجل علامات مايختلج فى نفسه ، إذ انبسطت أساريره قليلا وبان عليه الزهو إذ استطاع أن يبز رفيقه فى عمل من الأعمال . وكأنما ليثبت قدرته

وقفوته ، انحنى فجأة ودفع سمكة أخرى إلى الشاطىء .

واعتلجت فى نفس الشاب عوامل وحشية من الغيظ، والحنق.رفع حربته وطعن بها السمكة التى كانت تتلوى على الأرض . واخترقت الحربة جسد السمكة ، وألصقتها بالأرض . وفجأة هدأ غضب الشاب ، وراح ينظر فى تفكير إلى السمكة التى كانت مازال تتلوى فى ضعف . مد يده فتناول الحربة ،وأخرج منها السمكة ثم اتجه بحذر نحو الشاطىء . وهبطت الحربة ،بسرعة البرق لتخترق المياه وتخرج منها ؛ وفى طرفها سمكة تتلاعب فى ضوء الشمس . وصدرت من الشاب صيحة إنتصار وفرح . وسرعان ما أتى بالسمكة على الشاطىء ، ومضى يكرر عمليته ليصيد غيرها ، وغيرها ،حتى بلغ ما اصطاده خمسا . واكتفى الاثنان بما حصلا عليه ، ومضيا يجمعان السمك من الشاطىء ثم رجعا إلى جذع الشجرة ، وراحا يلتهمان غذاء شهيا، فى حين التقط الذئب نصيبه .

كانت الشمس تقترب من المغيب حينما بدأ الثلاثة سيرهم صوب الجبال . أعطى الشاب إحدى الحربتين إلى الرجل فتناولها الأخير ومضى ينظر إليها فى بلاهة . حاول الشاب أن يعلمه كيف يقذفها ، لكنه لاحظ أنه لا يستطيع أن يحسن القبض عليها إلا كما يقبض على الهراوة ، فقد كانت يده ، وأصابعه، غليظة لا مرونة فيها ، فترك محاولته،وناوله هراوته استمر الثلاثة فى سيرهم بقيادة الرجل الذى كان كأنما يسير على هدى غريزته فلم يحاول مرة واحدة أن يتباطأ أو يتلكأ ، وإنما كان يسير على وتيرة واحدة دون أن يلتفت يمنة أو يسرة .

وغابت الشمس تماما وهم لا يزالون فى الغابة لم يخرجوا منها . وتجمعت الظلمة سريعا حتى بدأ القمر فى الظهور فأضاء لهم الطريق بما يكفى للسير ، ولاحظ الشاب أن أشجار الغابة قد خفت كثيرا عن ذى قبل ، وأن الجو داخله برد ، وكثرت الحصى، فراح ينتقى خطواته فى حين كان الرجل يسير بالخطوة نفسها التى بدأ بها ، بلا تمهل أو انتقاء للخطى .

لاح الجبل قائما يطاول السماء . واختفت الأشجار تماما أو كادت ، فما ترى سوى شجيرات متناثرة هنا وهناك ، تفصل بينها مسافات كبيرة . وشعر الشاب وكأنما قد جرد تماما من كل سلاح معه ، إذ كانت حياته دائما بين الأشجار يحتمى بها ، ويتسلقها ، ويستعمل أفرعها وأغصانها ، ويأكل ثمارها ، أما العراء ،

فقد كان تجربة جديدة عليه لم يرتح لها ، ولهذا كان كثير التلفت يمنة ويسرة . وأحس أن الذئب كذلك لم يكن على طبيعته . كانت تصدر منه زمجرات كما لو كان يتخيل أعداء تترصده ، بل كثيرا ماتوقف عن السير لولا أن الشاب كان يحثه .

وبدأت قدما الشاب تؤلمانه من كثرة ارتطامهما بالحصى، فاضطر إلى التباطؤ قليلا فى حين استمر الرجل فى سيره دون أن يغير حتى من سرعة خطواته . وابتدأ الشاب يجد صعوبة فى اللحاق برفيقه . وأخذت الشقة بين الاثنين فى الاتساع ، لكن لم تكن هنالك صعوبة فى الرؤيا نظرا لشدة سطوع القمر . وازدادت المسافة رويدا رويدا حتى أضحى لا يكاد أن يرى خيال رفيقه الا بصعوبة ، ومع هذا فلم يكن يهتم كثيرا بالرؤية اذ أن فى حاسة شمه ماكان يغنيه عنها خاصة وأن الرياح كانت ترد من ناحية الرجل، وما علم أن تأخره قد انقذ حياته .

فجأه أحس الشاب بأن الذئب قد توقف عن السير تماما ، فالتفت إليه يحثه لكنه زمجر رافضا التقدم . وأيقن أن هنالك خطرا يتهددهما ، وأن الذئب قد شمه قبله اذ علم بالتجربة أن حاسته أقوى ، فلم يصر على الاستمرار فى التقدم بل توقف أيضا . لم ينتظر طويلا ، فقد وصلت إليه صرخة عالية ، لم يشك فى أنها صدرت من الرجل الذى كان معه ، وتوالت صرخات أخرى وزمجرات ، ثم .. لا شىء .

كان أول ماخطر فى ذهن الشاب أن يسارع بالهرب ، لكنه عاد بعد اللحظات الأولى من الذعر وتمهل فى تفكيره . إن المسافة بينه وبين الغابة كبيرة جدا ، ولو كان من قتل رفيقه قد رآه فانه لاشك سوف يلحق به إذ لم يعتد الشاب على العدو فى مثل هذه الأرض المليئة بالحصى والحجارة ، فى حين أن طارديه قد اخشوشنت أقدامهم فلم يعودوا يشعرون بها ، وكان واثقا من ناحية أخرى أنهم لم يلتقطوا رائحته إذ كانت الرياح آتية من جهتهم ، ومع هذا ، ومع قوة حاسة الشم لديه فلم يلتقط رائحتهم فى حين أن الذئب قد التقطها. أخيرا استقر رأى الشاب . ابتدأ يدور دورة واسعة حول الاتجاه الذى كان الرجل قد أخذه ، والذى أتت منه رائحة الباقين . ولم يمانع الذئب فى هذه

المرة من متابعة المسير ، وان كان كثيرا ما التفت حوله كأنما ينتظر أن يواجه عدو فى أية لحظة .

ابتدأت الأرض تدرج نحو الارتفاع ، واضطر الشاب أن ينتقى طريقا بين الصخور ، وقد صمم على الصعود إلى قمة التل . وساعده ضوء القمر على تلمس الطريق ، فاستمر يرتقى يتبعه الذئب فى هدوء وبطء . كان يعلم أنه ليس بعيدا بعدا كافيا عن موطن أصحاب الرجل ، أو قتلته فكان فى ارتقائه حذرا أن يحدث أدنى صوت . لم يكن الجبل عاليا ، كان مجرد تل ، ومع هذا فقد استغرق الشاب فى ارتقائه جل ما بقى من الليل . كان القمر قد اختفى تماما حينما وصل الشاب إلى قمة الجبل تعبا مجهدا . تلفت حوله فلم يكد يرى سوى على بعد خطوات قلائل ، فحار فيما يفعل . زاد بؤسه أن الرياح كانت تصفر بشدة ، وأنه بدأ يرتعش من شدة البرد . وسار متمهلا يتبعه صديقه الوفى حتى عثر على صخرة ضخمة ، منحته وصاحبه بعض الحماية من زمهرير الجو ، وعصف الرياح فارتكن إليها . والتصق به الذئب ، وراحا فى سبات عميق .

بزغت الشمس ترسل أشعتها دافئة تتخلل الجسدين النائمين . وفتح الذئب عينيه ، والقى صاحبه مستغرقا فى نومه فتسلل من جواره ، ومضى يتطلع حوله ، بحثا عن الطعام . لم يكن جائعا بالضرورة ، إذ كان ما تناوله فى اليوم السابق يكفى لأن ينتظر على غذائه دون أن يصيبه أدنى ضيق ، لكنه أحس بأن قمة التل على امتدادها لا تحوى طعاما أو ماء ، وكان مجرد البعد عن الاثنين يكفى لأن يشعر بالجوع والظمأ . اتجه ببطء إلى إحدى حافتى القمة ، ثم عاد لينظر فى الجهة المقابلة ، وأخذ يهبط فى تكاسل إلى السفح .

تململ الشاب فى نومه تحت وطأة أشعة الشمس ، وحين فتح عينيه . كان شعوره لأول وهلة بأنه فى مكان غريب عليه . ولم يستمر هذا الشعور سوى ثوان معدودات استعاد بعدها جميع حواسه تماما ، فاستقام واقفا وراح ينظر على امتداد الطرف .

كان المنظر الذى قابله بديعا . على آخر الأفق كانت غابته الحبيبة تتطاول أشجارها حتى كأنها رؤوس شياطين . وظهرت الأرض التى قطعها سيرا فى الليلة الماضية جرداء إلا من بضعة أشجار ، وغيضات متناثرة خففت من عراها .

تذكر صاحبه الذى مات ، وقومه الذين قتلوه ، فارتد إلى الخلف فى حركة لا شعورية بعيدا عن الحافة . وتطلع حوله باحثا عن الذئب ، لكنه لم يعثر له على أثر . راحت عيناه تجوبان الأرض بين الغابة ، والتل بحثا عن صاحبه ، ولم ير شيئا يتحرك . اتجه إلى الحافة الأخرى قابله منظر آخر أذهله لحظات حتى عن التفكير فى رفيقه .

كانت هنالك أيضا أرض جرداء كتلك التى بين الغابة والجبل فى الناحية الأخرى . لكنها لم تكن فى مثل اتساعها ، ولا فى مثل عراها . كانت الأشجار المتفرقة هنا أكثر ، كما كانت توجد بعض الزهور البرية ، والأعشاب المتناثرة تعطى المنظر رونقا وحياة . وخلف الأرض امتدت الغابة ، لكنها بدورها لم تكن كالغابة التى جاء منها ، فلم تكن أشجارها بمثل هذه الكثافة ولا الضخامة ، لكن معظمها كانت باسقة مستقيمة تكاد أن تكون جرداء حتى أعاليها . وتلاعبت أشعة الشمس والظلال يتممان روعة الطبيعة فى حين أخذت الرياح تلاعب بالأشجار لتضفى على المنظر حياة ، وحركة . ووقف الشاب مبهوتا رغم أنفه ، مأخوذا بجمال المنظر ، لكن طبيعته العملية عادت به سريعا ليدور العملية بناظريه بحثا عن رفيقه . وبعد لحظات عاد إليه بصره حسيرا فلم يكن هنالك أى أثر للذئب .

ارتد مرة أخرى إلى الحافة محاذرا . وجالت عيناه هذه المرة فى الجبل نفسه يبحث عن موطن أهل صديقه الراحل . وفجأة شاهد بعضهم يخرجون من جوف الجبل وكأنما انشق عنهم . كان ظهورهم فجائيا لدرجة أن الشاب إنبطح على بطنه بعيدا عن الحافة خشية أن يروه . وحينما هدأ روعه بعد برهة ، عاد مرة ثانية زاحفا على بطنه ، وأطل برأسه محتميا ببعض الصخور . كانوا على مسافة لا تبعد أكثر من مائة متر من مكانه ، فكانت عيناه الحديديتان تستطيعان تمييزهم بسهولة . ولأول مرة منذ أكثر من سنتين رأى أناثا .

استبد به الفضول فأخذ ينتقل محاذرا إلى مكان أقرب يستطيع فيه الرؤية بشكل واضح ، حتى استقر به المقام على مسافة لا تبعد أكثر من خمسين مترا . شاهد النساء يدخلن إلى جوف الجبل حاملات فواكه وخضرا . رآهن وهن يعدن مرة ثانية إلى الخارج بعد أن يتخلصن من أحمالهن . وخيل إليه ذات مرة

أنه رأى فتاة صغيرة بينهن تسير أكثر استقامة من الباقيات . ازداد فضوله فأراد أن يقترب أكثر ، لكنه خشي أن يروه إن فعل.وشاهد النساء يتحركن في ثقل نحو مكان في الجبل لا يزيد في بعده عن مكانهن بأكثر من ثلاثمائة متر، حيث إمتدت الغابة بأشجارها أكثر من أى مكان آخر، وحيث تكاد الأشجار أن تتصل بسطح الجبل بل أن بعضها كانت تنبت عليه فعلا .

أخذ يمعن النظر في الفتاة حتى تأكد أن نظره لا يخدعه ، وأنها تسير باستقامة أكثر من الباقيات حتى أنها كانت تبدو غريبة بينهن . وعادت به الذاكرة إلى موقفه من عشيرته . كان هو أيضا يسير أكثر استقامة منهم . بل وكان تركيبه الجسماني مختلفا عنهم تماما . صحيح أنه كان بينهم من له أنف في مثل إستقامة أنفه ، ومنهم من كانت شفتاه أرق من الباقين ، ومنهم من كانت يداه أقصر لا تمتدان إلى مابعد الركبتين ، ومنهم من لم تكن جبهته في مثل ميل جبهات الآخرين ، ولا كانت عيناه غائرتين في مثل غور أعينهم ، بل أن منهم من كان يجمع أكثر من صفتين من هذه الصفات ، ولكن لم يكن منهم من يجمعها جميعا سواه . لعل هذه الفتاة من جنسه ، ولعلها أيضا شاذة منبوذة بين أهلها كما كان هو . وأراد أن يتحقق من ذلك فاستقر رأيه على أن ينتقل إلى ناحية الخضرة التي تجمع منها النساء الفواكه والطعام . كر راجعا إلى قمة الجبل محتميا بالصخور حتى تأكد أنه إذا وقف فلن يراه أحد .

اتجه تفكيره مرة ثانية إلى أن يلقي نظرة على الجانب الآخر لعله يرى لرفيقه الذئب أثرا . جال ببصره في الأفق الممتد أمامه، لكنه بدلا من يرى رفيقه ، شاهد على البعد بضعة نقط سوداء تتحرك . أدرك من انتظام حركتها ، وهيئتها أن القادمين رجال يتجهون نحو الجبل . بل لعلهم لو احتفظوا بخط سيرهم لجاءوا إلى البقعة نفسها التي يقف عليها .

اختفى خلف احدى الصخور يرقبهم يتقدمون . نسى تماما فضوله الأول في أن يرى النساء عن قرب ، بل ونسى كذلك رفيقه الغائب ، وما كان في الواقع ليهتم بغيابه ، فكثيرا ما فعل هذا ثم عاد بعد بضعة ساعات ، وأحيانا بضعة أيام . وإشتد لهيب الشمس ، وشعر بالظمأ والجوع ، وإن كان الجوع محتملا . وقاده التفكير في المياه إلى أن يتعجب من أين يشرب أولئك القاطنين في جوف الجبل ؟

هل هنالك غدير فى الغابة القريبة حيث تجمع النساء الطعام ؟

مر الوقت ثقيلا وهو يرقب النقط المتحركة تقترب شيئا فشيئا ، وتتضح معالمها كلما كبرت . واشتدت وطأة الشمس فاشتد به الظمأ . فكر فى أن يقوم من مكانه ، ويتجه إلى الغابة ليروى ظمأه ، ويسد جوعه ، لكنه قبل أن يتحرك لاحظ نقطة صغيرة آتية من الغابة وهى تتقدم بسرعة نحو الجبل . لم يكن عنده أدنى شك فى أن هـــذه النقطة إنما تمثل الذئب . ولابد أن الرجال شاهدوه ، لكنهم لم يعيروه إلتفاتا إذ كان من الواضح أن فى ذهنهم ما يشغلهم أكثر منه .

استمر الشاب ينقل بصره بين الذئب والرجال ، وهو يلاحظ أن الأول يقترب بسرعة أكبر كثيرا من الآخرين . فتأهب لملاقاته ، وبلغ الذئب سفح الجبل ، ثم أخذ ينتقى طريقه إلى القمة فى بطء وحذر . لاحظ الشاب أنه يحمل فى فمه شيئا لم يتحقق منه فى بادىء الأمر حتى إقترب بدرجة كافية فرأى أنه أرنب كبير . وقفز قلب الشاب مسرورا إذ كان الجوع قد إستبد به . تلقى رفيقه فرحا وراح يربت على ظهره ورأسه بينما قنع الذئب بأن يضع أمامه صيده . تناول الشاب خنجره ، وقطع الأرنب ، وراح يأكل ويطعم رفيقه . ودار فى ذهنه مقدار التعب الذى لابد أن رفيقه قد عاناه من جراء حمله مثل هذه المسافة الطويلة ، فزاد له حبا وبه إلتصاقا .

عاود التفكير فى الرجال الذين كانوا يقتربون من سفح الجبل ، وتعجب من وجهتهم وهدفهم . أما وجهتهم فكانت بلاشك إرتقاء الجبل ، ولكن إلى أين ؟ وما هدفهم ؟ هل هم أصدقاء لساكنى الجانب الآخر ، أم هم أعداء لهم ؟ .

وإذا كانوا أعداء فما بغيتهم من إقتحام موطن عدوهم ؟ هل هو مجرد القتل؟ ثم ماذا ؟ وفرغ من طعامه فسكن جوعه ، وخف ظمأه قليلا . وأطل برأسه بحذر ليرى إلى أى مكان وصل القادمون فشاهدهم وقد بدأوا يرتقون الجبل .

كان أمامهم فى تقدير الشاب فسحة من الوقت حتى يصعدوا القمة ، فى حين كانت الشمس قد توسطت كبد السماء . راح يرقبهم بعض الوقت وهم يسيرون فى صف واحد فى صمت رهيب ، بل بحركة تكاد أن تكون واحدة .

وانتقل إلى الناحية الأخرى من الجبل . شاهد بعض الرجال جالسين على مدخل الكهف ، وفى أيديهم بعض الأحجار لم يتبين ماذا يفعلون بها لبعد المسافة ،

فى حين كانت النساء لازلن على دأبهن فى الذهاب إلى أطراف الغابة القريبة ، والعودة منها حاملات بعض الفواكه والثمار . ومرة أخرى لاحظ الفتاة بيتمن ، بقامتها المنتصبة ، وسيرها المستقيم . وعاوده الفضول الشديد أن يراها عن كثب ، لكنه راجع رأيه ، وآثر التريث حتى يرى ماسوف يفعله القادمون . رجع بناظره مرة ثانية إلى الرجال الجالسين فى مدخل الكهف ، ولاحظ أنهم لا يكادون يتحركون من أماكنهم ، فى حين راحت بعض الصبية تلعب حولهم فى صخب وضجيج .

كان من الواضح أن الجميع لايعلمون شيئا عن القادمين ، وأنهم لم يكونوا يتوقعون أى زائرين ، أو مهاجمين بل كان كل منهم فى شأنه لاه . واختار مكانا آمنا عن العيون أراح فيه جسده ، بينما تمدد الذئب إلى جواره صامتا . ومضت فترة طويلة قبل أن يتحرك الشاب ليلقى نظرة على القادمين . وفوجىء بأنهم قد شارفوا القمة فعلا ، وأنهم لم يكونوا يبعدون عن مكانه سوى مسافة يسيرة . ازداد إنكماشا فى مكانه ، ووضع يده على رأس الذئب محذرا ، فى حين كان الأخير قد هم فعلا بالوقوف متحديا ، لكنه ما لبث عندما شعر بيد رفيقه على رأسه أن عاد إلى وضعه الأول ، وأغلق عينيه فى تكاسل .

وصل القادمون إلى القمة . واستطاع الشاب أن يميز قاماتهم ووجوههم . لاحظ أنهم أكثر انتصابا فى سيرهم من ساكنى الكهف ، وإن لم يكونوا قد وصلوا إلى درجته أو الفتاة . لكن هذا الانتصاب أعطاهم مظهرا أكثر ضخامة وطولا ، كما أن أيديهم لم تكن تهبط كثيرا إلى ما بعد الركبتين كشأن الآخرين ، ومع هذا فقد كانت أرجلهم قصيرة ومشيتهم متباطئة . كان مع كل منهم هراوة ذات رأس ضخم ، ومقبض يناسب قبضة اليد . ولاحظ أن جميع الهراوات تتشابه تماما فى الشكل ، والمظهر الخارجى ، ولم تكن كتلك التى شاهدها فى أيدى قاطنى الكهف بمجرد أفرع شجرة تتفاوت حجما وطولا .

رأى الشاب الجماعة تقف وهى تنظر إلى رجل كان يبز الجميع طولا وضخامة . وأشار الرجل بيديه ، وهراوته بضعة إشارات بدأت الجماعة بعدها فى التفرق ، والهبوط بحذر شديد على الناحية الثانية من الجبل . وأن هى إلا لحظات حتى كان الجميع قد تواروا تماما عن نظر الشاب .

إنتظر قليلا حتى تأكد من أن أحدا لن يراه إذا تحرك من مكانه . ثم أشار إلى الذئب بالمكوث . وتقدم نحو الحافة زاحفا على بطنه ، وحينما أطل برأسه رأى أن المهاجمين كانوا منتشرين بين الصخور ، وهم يتقدمون ببطء وحذر نحو جماعة الكهف اللاهية . استمر تنقل المهاجمين والشاب يرقبهم وقد ركزوا كل حواسهم على الرجال ، والنساء تحتهم ، وعلى تحركهم البطىء بحيث لا يصدرون صوتا . وتدحرج حجر من تحت قدم أحدهم ليسقط على بعد خطوات من أحد الجالسين . رفع رأسه إلى أعلى لجأة فى حين جمد المهاجمون فى مكانهم متوارين خلف الصخور . استمر الرجل يمعن النظر فى الجبل . ثم هب واقفا وصدرت منه صرخة تحذير . وهو يشير بيده إلى موضع المهاجمين .

جمد الموقف للحظات ثم إندفع الجميع إلى الحركة . جرى الرجال إلى داخل الكهف ليخرجوا بعد لحظات ومع كل منهم هراوته . اختفى الأطفال ، والنساء فى الداخل ، ودوت صرخة أخرى فى أرجاء الجبل . لكنها فى هـذه المرة لم تكن صرخة تحذير ، وانما كانت صيحة هجوم أطلقها العملاق الذى كان يقود جماعة المهاجمين .

أظهرت الجماعة المهاجمة نفسها فلم يبق هنالك داع للاختفاء خاصة وقد ضاعت منهم فرصة المفاجأة التى كانوا يسعون إليها . اندفعوا هابطين يقطعون المسافة التى تفصلهم عن فريستهم . وبالرغم من أن عدد المهاجمين كان أقل من نصف عدد عدوهم إلا أنه كان من الواضح منذ البداية أن الفوز ، سوف يكون حليفهم ، لاحظ الشاب وهو يرقب أن حركتهم كانت أسرع وأخف ، وأن سلاحهم أكثر فاعلية .

التقى الجمعان ، وبدأت المعركة بوحشية لم ير الشاب مثيلا حتى بين أكثر الحيوانات ضراوة . استعملت الهراوات فى مبدأ الأمر ، ثم انقلب القتال بعد هذا إلى الأيدى والأظافر ، والأسنان ، والأرجل . ركز الشاب نظره على عملاق المهاجمين ، كان من اليسير أن يراه وسط المعمعة المحمومة إذ كان رأسه يرتفع عاليا عن سائر الجماعة ، والظاهر أن سكان الكهف أيضا قد علموا أن لهذا الشخص أهمية خاصة فالتف حوله خمسة منهم يضربونه بهراواتهم . ورأى الشاب الهراوة الضخمة ترتفع فى يد العملاق لتهبط مرتين متتاليتين بسرعة عجيبة ليسقط إثنين محطمى

الرأسين تماما . وقفز أحد الرجال على ظهر العملاق ، وأنشب أظافره في وجهه في حين أنغرزت أسنانه في الكتف . واضطر العملاق أن يلقى الهراوة من يده في وجه أحد مهاجميه ليلتفت إلى الذى أعتلى ظهره . ارتفعت اليدان القويتان لتقبضان على يد الرجل تبعدانهما من الوجه ، ثم تلقيان به على الأرض . وانتهز الرجل الباقى الفرصة ليكيل له بضعة ضربات قوية على كتفه ، رأسه . ثم ألقى بنفسه عليه يساعد زميله الذى تعلق بالقدمين . ووقع العملاق على الأرض فاختفى من أمام ناظرى الشاب وسط المعركة .

أدار الشاب رأسه ليرى سير القتال مع باقى الأفراد . كان القتال مازال على أشده ، لكن العدد كان قد تناقص جدا فلم يبق من المهاجمين سوى خمسة ، فى حين هبط عدد سكان الكهف إلى أقل من النصف . كانت جثث القتلى ، والجرحى ملقاة ببشاعة على الأرض فى حين بدأت العقبان تطير محلقة فوقها . لم يكن بين جميع المقاتلين من الطرفين من لا يسيل الدم من جرح ، أو جراح فى شتى أنحاء جسمه ، ومع هذا فقد كان القتال مازال دائرا بالوحشية نفسها التى بدأ بها ، ولاحظ الشاب أن الدائرة قد دارت على المهاجمين فقد كان سكان الكهف على ما فقدوا مازالو ضعف عددهم فى حين فقد المهاجمون إحدى ميزاتهم الهامة إذا كان القتال دائرا بغير هراوات .

لكن الحال لم يستمر طويلا على هذا ، إذ انتفض واقفا فجأة فى وسط الجماعة عملاق يحمل أحد مهاجميه ، وألقى به على المقاتلين جميعا ، عدو وصديق على السواء . وقع بعض الرجال على الأرض . وحدث هرج لثوان معدودات كاد القتال أن يتوقف فيها ، وانتهز العملاق الفرصة وتناول هراوته وراح يطيح بها الرؤوس . فى ثوان إنقلب ميزان القوى تماما ، وابتدأ سكان الكهف يتساقطون تحت الضربات الساحقة ، الواحد تلو الآخر ، مهشمى الجماجم . ولم تدم المعركة بعد هذا طويلا إذ سقط آخر سكان الكهف تحت ضربة رهيبة من هراوة العملاق سحقت رأسه تماما .

توقف العملاق ، ولم يبق من المهاجمين ، سوى ثلاثة رابعهم العملاق . راح الأخير يتفرس فى وجوه القتلى والجرحى . شاهده الشاب يقتل بعض سكان الكهف الذين لم يكونوا قد ماتوا أثناء المعركة كما مد يده ليعاون شخصين من إخوانه على الوقوف .

لاحظ الشاب أن بعض النساء بدأن يخرجن من الكهف إذ توقف صوت المعركة ، يستطلعن الخبر . لكن صيحة العملاق جعلت الرؤوس تختفى بسرعة فى الداخل . هبط الرجال الستة إلى مدخل الكهف حيث اختفوا عن ناظرى الشاب . وبدأت العقبان تهبط إلى مكان الجثث لتشرع فى وليمتها العظيمة .

تحرك الشاب من مكانه وقد شعر بالعطش الشديد ، لكنه سرعان ما عاد وراء الصخرة إذ شاهد اثنين من الرجال يرتقيان الجبل إلى مكان المعركة . وطارت العقبان صارخة فى غضب ، فى حين دهش الشاب من السبب الذى دعا الرجلين إلى العودة فراح يرقبهما فى فضول . رآهما يتفرسان فى الجثث الملقاة ، ثم انتقى كل منهما جثة حملها على كتفه وعاد بها إلى حيث اختفى فى مدخل الكهف . وعادت العقبان هابطة . حار الشاب فى تفسير الهدف الذى دعا إلى انتقاء الجثتين ، لكنه لم يقف التفكير اذ عاوده شعوره بالظمأ الشديد فترك مخبأه ، وسار هابطا التل إلى الغابة القريبة يتبعه رفيقه الذئب .

كانت الشمس قد غابت حينما وصل الاثنان إلى أطراف الغابة ، وراحا يبحثان بغريزتهما التى لا تخطىء عن جدول مياه . وحل الظلام قبل أن يعثرا على بغيتهما ، فارتويا ، ثم بحث الشاب عن شجرة مناسبة لارتقاها ، واستلقى على أحد فروعها ، وأغمض عينيه ، فى حين قبع الذئب تحتها . لكن النوم لم يأت الشاب سريعا على خلاف عادته . راح عقله يفكر فى أحداث اليوم . وتوالت فى ذهنه الأسئلة بلا اجابات قاطعة .

لماذا إنتقل هؤلاء كل هذه المسافة البعيدة ؟ ولماذا قتلوا جميع الرجال من سكان الكهف ؟ لماذا حمل اثنان منهم قتيلين ودخلا بهما إلى الكهف ؟ ماذا دار فى الداخل ؟ هل قتلت جميع النساء أيضا ، والأطفال ؟ هل قتلت هذه الصبية البيضاء المستقيمة القامة ؟ ما الغرض من كل هذا القتل ؟ لقد عاش حياته كالحيوان لا يقتل الا دفاعا عن النفس ، أو إذا عضه الجوع بنابه ، لكن هؤلاء يلوح أنهم كانوا يقتلون لمجرد الشهوة فى القتل ، والا فلماذا قضى العملاق على الجرحى من خصومه ؟

وداعبت صورة الفتاة المستقيمة القامة خياله ، وتمنى لو أنه رآها عن قرب ، لكنها الآن فى الأغلب قد قتلها الغزاة كما فعلوا بالباقين ، وبذلك لن يتسنى له

أن يراها أبدا . فكر أن يقوم من مكانه ليرتقى الجبل إلى حيث مدخل الكهف ليرى ما يفعله الغزاة ، لكنه عاد فراجع رأيه ، فى مثل هذا العمل مخاطرة جسيمه لا تؤمن عواقبها ، كما أنه ليس واثقا من أنه سوف يستطيع فى الظلام رؤية الفتاة والتحقق من شكلها ،حتى إن استطاع التلصص ،واستراق النظر دون أن يشعر به الرجال . وغلبه النعاس ، فأغلق عينيه ، وإستسلم للنوم ، وصورة الفتاة بقدها الممشوق ماثلة أمامه .

إستيقظ الشاب مع شروق الشمس ، وهو يشعر بجوع شديد . ألقى بنظره إلى أسفل الشجرة ، لكنه لم ير الذئب فى مكانه فهبط إلى الأرض ،وراح يبحث عن بعض الثمار يقتات بها . كانت المنطقة غريبة عليه فاستغرق فى بحثه وقتا أطول من المعتاد حتى أن الشمس كانت قد إرتفعت فى السماء حينما فرغ من تناول وجبته . ومع أنه كان مشغولا بالبحث عن الطعام ، الا أنه لم يتوقف عن التفكير لحظة فى الفتاة ، ومن معها وهم فى أيدى الغزاه .وما أن أشبع جوعه حتى توجه فورا الى الجبل ، ونظر من بعد نحـــو فتحة الكهف ، لكنه لم ير أثرا للحركة ، أوالحياة فيه أوحوله ، فبدأ يرتقى الجبل متجها اليه ، وهو يحاذر فى كل خطوة يأتيها من عين مترقبة ، أو اذن منصتة . ظل ينتقل من صخرة الى أخرى يحتمى بها ، وعيناه لا تفارقان مدخل الكهف . لكن الجبل ظل مواتا لا حياة فيه .

جال ببصره فى جوانب الجبل كلها ، ولم يجد جديدا ، ومع هذا فقد ظل على حيطته وحذره ، فقد كان يخشى أن يكون شركا نصب له . دار دورة كاملة حول مدخل الكهف حتى صار فوقه تماما وشاهد ما تبقى من جثث قتلى المعركة وقد أضحوا مجرد هياكل عظمية بعد أن أتت العقبان على ما كان فيها من لحم . كان منظر العظام ، والجماجم المتناثرة بشعا تضيق به النفس فأسرع مبتعدا عنه حتى أضحى فوق مدخل الكهف مباشرة . أصاخ السمع محاولا أن يلتقط أى صوت فى الداخل ، لكن كان كل ما تناهى إليه أصوات عقبان تتنازع . كان معنى هذا الحتمى عدم وجود أحد فى الكهف، أو على الأقل عدم وجود شخص حى فيه . علم أنه لم يعد هنالك داع للتخفى ، والاختباء ، فأسرع هابطاً إلى المدخل . صرخت العقبان فى وجهه متحدية ، لكنه كان يعلم أنها جبانة

لا تهاجم حيا ، فتناول حربته وتقدم نحوها . إزداد صراخها حتى كان يتردد بين جنبات الكهف ، ثم وكأنما كانت على إتفاق ، هبت جميعها طائرة . واضطر الشاب أن يترك المدخل لحظات ريثما تخرج منه الطيور الفزعة .

جابهه منظر كئيب . كان الكهف متسعا يتجاوز طوله عشرة أمتار وعرضه مثلها أو تزيد ، كما كان سقفه عاليا إلى درجة تسمح للرجل الطويل أن يقف براحة . بل وكانت هنالك منطقة ارتفع فيه السقف ، داخلا فى جوف الجبل إلى مساحة جعلته مظلمة تماما ، وعلى أرضية الكهف الواسعة ترامت جثث القتلى ثلاثة لأطفال رضع ، وجثتا الرجلين الذين حملا من ساحة المعركة إلى داخل الكهف ، وجثة خامسة لإمرأة .

كانت جميع الجثث قد نهش لحمها بدرجة أو بأخرى . لكن الشاب لاحظ ظاهرة لم يكن قد رآها من قبل فى أى وقت ، كما لم ير حيوانا فى حدود علمه يمكن أن يتسبب فيها . رأى جماجم القتلى جميعا مهشمة وفارغة . لم يكن يعرف ما يوجد داخل الجمجمة عادة ، لكن أيا كان الذى كان فيها ، فقد التهمه الذى هشمها(١) . شعر الشاب بقشعريرة غريزية اذ فهم أن الرجال الذين كانوا فى الكهف قد هشموا رؤوس القتلى ، واستخرجوا ما كان فيها وأكلوه ، كما أنهم ولا بد قد أكلوا من لحمهم . وإن كانت العقبان قد ضيعت معالم ما أكلوه . وما كان الشاب ليفهم معنى تهشيم الجمجمة وأكل المخ، وما كان ليفهم أيضا بشاعة أكل لحم البشر ، بل على العكس ، كانت بيئته وحياته تجعل هذا من الأعمال العادية المألوفة ، لكنه بالرغم من ذلك ، شعر بنفور غريزى ليس له سبب .

دارت عيناه مرة ثانية فى جدران الكهف ، وسقفه . رجعت ذاكرته إلى عائلته التى كانت تقطن تجاويف الأشجار ، وفروعها ، ورأى نفسه يقارن بين المأوين . لاشك أن مثل هذا المأوى أقوى ، وأمتن من الأول ، وهو أقل عرضه الهجوم عليه ، وأسهل فى الدفاع عنه ، ومع هذا فقد قتل جميع من فيه ، وأخذ الباقون أسرى . هل ينفع مثل هذا المأوى ضد الرعب الذى طارده والذى يبتعد الشاب عنه قدر استطاعته .

---

(١) كان المخ والنخاع من الرفاهيات التى يستطيبها الانسان الأول .

لم يكن هنالك شك فى أن هذا المأوى الحجرى أحسن كثيرا من تجاويف الأشجار وفروعها ، ولا شك أيضا أنه يعطى حماية أكثر ضـــد الأمطار ، والرياح ، والصواعق ، وغيرها من عوامل الطبيعة ، لكنه ليس دفاعا كافيا ضد أى عدو مهاجم ، بل لعله شرك لا يسهل الإفلات منه . وراودته بعض الخواطر ، أن يستعمل الكهف كموطن له بعد أن قتل أهله أو أسروا ، لكنه راجع نفسه إذ كانت الثمار ، والمياه بعيدة ، بل وكذلك الصيد . وشعر بحركة خلفه ، فالتفت بسرعة مستعدا بحربته ، لكنها كانت العقبان التى طارت بمجرد أن رأته يتحرك . وأخرجته هذه الحركة من أحلامه ففكر فى أن يعاود رحلته الأولى بمحاذاة الجدول ، لكن فضوله دفعه إلى أن يقرر تتبع آثار المهاجمين ليرى ما سوف يفعلون بالأسرى ، وليرى كذلك وجه الفتاة مستقيمة القامة عن كثب .

الفصل الرابع

هي ... وهو

كانت الشمس قد تعدت الظهيرة حينما وصل الشاب إلى قمة الجبل للمرة الثانية .
على ضوء النهار إتجه من فوره إلى الحافة الثانية ، وسرح بنظره فى الأفق حيث
رأى المهاجمين لأول مرة . لم يخب حدسه إذ لاحت له على البعد ، قريبا من الغابة نقط
صغيرة تتحرك ، لم يشك لحظة ، فى أنها الجماعة عائدة أدراجها من حيث أتت . تردد
لحظات قبل أن يبدأ فى الهبوط ، وجال بناظريه فى قلق إلى الاتجاه الذى أتى منه ،
مفكرا فى زميله الذئب الذى لم يره منذ الصباح . وحار فى فكره عما إذا كان
الذئب سوف يستطيع أن يتتبع أثره وأن يلحقه . لم يكن يفكر عادة فى
أن رفيقه قد لا يستطيع اللحاق به ، لكن المنطقة كانت غريبة على كليهما ، ولم
يكن الشاب واثقا من قدرة الذئب على تتبع أثره . كاد أن يرجع عن رأيه فى
إقتفاء أثر الجماعة ، والعودة للبحث عن رفيقه لولا أنه شاهده فجأة يظهر على
الحافة الثانية من الجبل متجها نحوه . ولم يتردد بعد هذا ، اتجه مباشرة منحدرا
على السفح ، فى الاتجاه الذى رأى فيه النقط المتحركة .

بدأ تعرف الشاب على أنواع جديدة من الحيوانات حينما شاهد ماعزا يقفز من أكمة
صغيرة إقترب منها ، ثم رآه وهو يجرى مذعورا ليختفى بعد لحظات بين الصخور .
حاول اللحاق به ، لكن الماعز كان يقفز بخفة متناهيـــة على الصخور ويرتقى
أماكن لم يكن فى استطاعته أن يلاحقه فيها . ذكرته رؤية الماعز الشاب بجوعه
فتلفت ، حوله باحثا عن غذاء أو صيد . شاهد عن بعد قطيعا من الحيوانات تقفز
من صخرة إلى أخرى فى خفة ، ورشاقة متناهيتين . فكر فى محاولة صيدها ، لكنه
رجع عن رأيه لما رآه من يسر حركتها فوق الصخور ، ويقينه باستحالة مضارعتها .
حتى الذئب قنع بأن ينظر إليها بنهم دون أن يحاول اللحاق بها . وما درى الشاب
أنه كان يشاهد قطيعا من الماعز الجبلى .

ترك الإثنان سفح الجبل وسارا متجهين نحو الغابة . كان الشاب يعتقد أن المسافة بين الغابة والجبل ليست بعيدة ، لكنه لم يقدرها قدرها حتى أن الليل جن قبل أن يبلغا بداية الأشجار المتناثرة . شعر بجوع شديد ، وظمأ ، فمضى يبحث بين الأشجار القليلة عن الثمار ، فى حين تركه الذئب فى إحدى رحلاته التى يتغيب فيها عن رفيقه . لم يجد أية ثمار ، كانت جميع الأشجار باسقة ليس فيها سوى خضرة الأوراق . حتى فروعها لم تكن على ماعهده من سائر أشجار الغابات التى مر بها . قريبة من الأرض نسبيا يسهل تسلقها ، وإنما كانت الشجرة تكاد أن تكون ملساء فى جذعها ، وترتفع شاهقة بلا أى فرع إلى مسافة كبيرة من الأرض ، ثم تبدأ الفروع .

ضرب صفحا مؤقتا عن الطعام والشراب ، ومضى بكليته يبحث عن مأوى ينام فيه يقيه غائلة الوحوش، والهوام ومضت أكثر من ساعة دون أن يجد بغيته فاضطر أن يضع حربته إلى جانبه ، وأن يستلقى تحت إحدى الأشجار دون أية وقاية سوى حواسه المدربة .

لم يكد الشاب أن يستسلم للنوم حتى هب فزعا على صوت صيحة بدت آتية من داخل الغابة.ماكادت أن ترتفع ألما ورعبا حتى بترت قبل أن تصل إلى منتهاها. كانت الصيحة بعيدة ما كان يمكن للأذن العادية أن تلتقطها، لكن أذنى الشاب المرهفتين ، وحذره الدائم . وتوقعه لأى خطر أيقظه من نومه . لم يشك لحظة فى أن هذه الصيحة التى سمعها إنما صدرت عن حنجرة آدمية ، وبالذات من امرأة . واستمر فترة يتوقع تكرارها ، أو حدوث أى صوت آخر ، لكن الغابة عادت إلى صمتها لايقطعه سوى عواء ذئاب تجاوب بعضها .

جفا النوم عينيه فظل يقظا يفكر . لم يكن هنالك شك لديه أن الصيحة إنما صدرت عن امرأة من الأسيرات ، ولعلها الفتاة المستقيمة القامة . ولابد أن المرأة قد أفزعها شىء ، ولعل أحد الرجال المهاجمين كان يريد أن يقتلها ، فرأت المرأة ذلك فصرخت ، ولعل هراوته الثقيلة قد هوت على رأسها فهشمته ، وقطعت الصرخة قبل أن تصل إلى مداها . ولابد أن الجماعة الآن تلتهم لحمها ، أو تزدرد مافى جمجمتها ، كما فعلوا قبل ذلك بالجثث التى رآها فى الكوخ . أجل لابد أن هذا هو ماحدث . ترى هل صدرت هذه الصيحة من فم الفتاة مستقيمة القامة ؟

وعاوده التعب فاستلقى لينام ، ومازالت صورة الفتاة فى مخيلته .

استيقظ قبل أن ينتصف الليل وقد سرت فى جسده قشعريرة شديدة لم يشعر بمثلها من قبل من أثر البرد . نظر حوله يبحث عن شيء يدفيء به جسده العارى فلم يجد سوى بعض أوراق الأشجار ، فمضى يجمع منها ما يستطيع على ضوء القمر الذى يتخلل من بين الأفرع والأغصان ، حتى تجمعت لديه كمية كبيرة منها ففرشها على الأرض ، وحاول أن يدخل نفسه بينها . وبالرغم من هذا فلم يأته النوم حتى وصلت إلى أنفه رائحة رفيقه الذئب الذى وصل إليه ، والتصق به يبتغى الدفء بدوره . ودبت الحرارة فيهما فناما نوما عميقا من أثر المجهود الذى بذلاه طوال اليوم .

فتحت السماء أبوابها ليهطل المطر بلا توقف ساعات متتالية محت كل أثر يمكن أن يستدل به الشاب على الطريق الذى سلكته الجماعة ، بل ومحت كذلك كل أثر لرائحة خلفتها ، ولم يبق أمامه بعد هذا الا أن يصرف همه إلى إشباع جوعه وزميله ، ثم الاتجاه نحو المصدر الذى تصور أن الصوت قد جاء منه . إتجه الإثنان بسرعة إلى الغابة عسى أن يكون بين أشجارها بعض الحماية ضد الأمطار . وبينما هما سائران فى دروب الغابة ، طلع على الشاب فجأة منظر بشع . جمجمة مهشمة ، وبقايا عظام ، وعقبان تطير بعد أن سلخت ما كان قد تبقى من المرأة المنكودة .

حار الشاب فيما يفعل وإلى أى اتجاه يسير . كان أمامه أن يسير فى الإتجاه نفسه ، وأن يستمر فيه ، أو يقاربه حتى يستدل على مكان الجماعه إذا تسنى له أن يسمع صرخة أخرى ، إذ كان قاطعا فى أن المهاجين سوف يقتلون امرأة ثانية خلال يوم أو اثنين . لكن هذا معناه الانتظار لشيء قد لا يحدث إذ ربما تقتل المرأة دون أن يكون لديها فرصة الصراخ ، أو فى مكان بعيد بحيث لا يصل إلى أذنيه الصوت . لكنه لم يأخذ أى الطريقتين ، كان يعرف بحكم بيئته أن العقبان لديها غريزة عجيبة فى توقع الموت . تسلق احدى الأشجار بصعوبة راح ينظر إلى السماء حتى شاهد العقبان تحلق ، فلم يتردد فى أن يأخذ الاتجاه الذى رآها فيه .

سار الشاب حثيثا يتبعه الذئب . ولم تتغير مناظر الغابة حوله أثناء سيره إلا قليلا . كانت دائما تلك الاشجار الباسقة الخضراء ، وقليلا ما كان يرى لونا

آخر . استمرت الأرض خليطا من الطين ، والحصى ، والحجارة فى حين نمت بعض الأعشاب فى المناطق التى تخف فيها الأشجار نسبيا . لاحظ أثناء سيره أن أنواع الحيوانات تختلف تماما عن تلك التى ألفها فى الغابة التى نشأ فيها . كانت معظمها حيوانات صغيرة ما يكاد أن يراها حتى تجرى ، لتختفى فى جحورها ، أو بين الأعشاب ، وان كان قد لمح بين الحين والآخر غزلانا تمرح بين الأشجار ، أو ما أعتقد أنها غزلانا ، وإن كانت أكبر حجما من زميلتها فى غابته الأولى .

افتقد أكثر الأصوات المألوفة لديه ، فلم يسمع صراخ القردة ، والنسانيس ، ولا الأصوات المرعبة للوحوش وان كان قد خيل إليه أنه سمع زئير نمر سيف الناب ، كما وصل إلى أذنيه عواء الذئاب . لكن أصوات الغابة عموما كانت مغايرة تماما لما ألفه ، حتى أن أكثرها كان تغريد طيور . ولاحظ أن أصوات الطيور كانت أعمق ، وأحسن من طيور غابته ، لكن الأخيرة كانت ألوانها أكثر تعددا ، وتباينا ، وبريقا .

وزمجر الذئب ليعيد الفتى من أحلامه ، وليجد أمامه تماما ، وعلى بعد لا يزيد عن عشرين مترا ، وحشا هائلا قد سد الممر بين الأشجار . تذكر أنه قد رأى شبيهه فى غابته ، وإن كان هذا الوحش أكبر حجما إلى درجة تجاوز مرة ونصف الآخر . زمجر الوحش ، ودهش الشاب حين رآه قد وقف على خلفيتيه حتى كاد أن يكون منتصب القامة فكان منظره هائلا . استعد الشاب بحربته وهو يشك فى قيمتها وفاعليتها ، أمام هذا الجسم الضخم .

لوح الوحش ، وما كان إلا دبا ، بيديه فى الهواء متحديا . وانتظر الرفيقان ماسيفعله ، لكنه استمر فى تحديه ، ولعله هو الآخر كان ينتظر ماسوف يفعلان إزاء تحديه ، وتحرك الشاب ببطء وحذر نحو الأشجار الجانبية مفسحا الطريق فى حين لم تفارق عيناه الذئب لحظة واحدة ، وبقى الذئب مكانه مكشرا عن أنيابه ومطلقا زمجرات متحدية متتالية . وازداد غضب الدب ، وركز اهتمامه على غريمه ثم اندفع كالمجنون نحوه . بقى الذئب مكانه حتى كاد أن يدهمه الوحش الهائج ، وحتى استعد الشاب لدخول المعركة ، لكن زميله تنحى فى اللحظة الأخيرة ، بخفة لا تضاهى ، واندفع الدب . ودهش الفتى إذ رأى أنه لم يتوقف فى اندفاعه . وندت عن شفتيه تنهيدة راحة كأنما انزاح عن كاهله عبء ثقيل .

استأنف الاثنان سيرهما دون حدث آخر . وتعجب الشاب اذ لم تصل الى انفه رائحة الجماعة . كان يعتقد أنه يقاربها ، ومع هذا فقد مضت خمسة أيام وهو يسير فى الغابة الغريبة دون أن يلحظ أى دليل على وجودهم .

وذات يوم كانت الشمس قد شارفت المغيب حينما اختار شجرة أسهل من غيرها فى التسلق ، وارتفع ليرى العقبان وقد انحرفت تماما عن الاتجاه الذى كانا يسيران فيه . لكنه لاحظ أيضا شيئا آخر كانت الجبال التى رآها عن بعد وهو على قمة التل قد اقتربت ، وكان الاتجاه الجديد الذى اتخذته الجماعة يتجه رأسا الى احدى سلسلة الجبال ، وأقربها . قفز الى رأسه أن المهاجمين أيضا كانوا من سكان الكهوف ، وان كان مسكناهم فى جبل آخر . وإذا فبعد أيام سوف تصل الجماعة إلى موطنها ، وان يكون من اليسير عليه عندئذ أن يرى الفتاة عن كثب . هذا إذا ما كانت ما تزال على قيد الحياة . إذا كان يريد أن يفعل شيئا فعليه أن يفعله بسرعة ، فكل يوم يقربهم من بغيتهم ، ويبعده عن غابته الحبيبة ، كما قد يكون بعض أفراد أهليهم قد خرجوا للصيد ، وبذلك يكونون قريبين إلى درجه يحتمل معها أن يسارع أحدهم إلى نجدتهم ، فيضطر الشاب ، والذئب إلى مجابهة فئة كثيرة لا قبل لهما بها .

هبط من الشجرة إلى حيث كان الذئب فى انتظاره ، وابتدأ فى اتخاذ الاتجاه الصحيح . واظلمت الدنيا وهما مازالان يجدان فى سيرهما حتى اضطر إلى التوقف خشية أن يفقد الاتجاه الصحيح ، وأخذ يجمع الفروع الصغيرة ، والأوراق المتساقطة ليعد فراشه ، وزميله إذ كانت الحرارة قد انخفضت بمجرد أن اختفت الشمس . وللمرة الثانية طرقت اذنيه تلك الصرخة المريعة غير المكتملة ، ثم ساد الغابة هدوء غريب . كانت الصرخة فى هذه المرة أكثر قربا من سابقتها ، وا كثر ارتفاعا وحدة . ونام ليلته وخيال الفتاة يداعبه .

أيقظته حركة من الذئب قبل انبلاج الفجر . سار الاثنان فى الغابة يبحثان عن طعامهما حتى وجداه فى شكل غزال صغير اقتسماه . ولم يلق الشاب هذه المرة بباقى الطعام وانما حمله ، والجلد . وخطر فى باله خاطر . ذكرته قدماه الداميتان من الحصى بحريق الغابة ، فقطع قطعتين من الجلد ، وربطهما حول قدميه . ولما

فرغ كانت الشمس تكاد أن تتوسط كبد السماء . مرة أخرى ارتقى قمة شجرة ليرى العقبان ، ثم هبط ليأخذ ذات الاتجاه . وفى هذه المرة كان يسير بسرعة تقارب العدو فقد كان يريد أن يلحق بالجماعة فى الليلة نفسها . مر فى طريقه على عقبان تنهش ما بقى من جثة امرأة . لاحظ أنها قتلت بالطريقة نفسها التى قتلت بها سابقتها ، وأن جمجمتها قد هشمت تماما كما كسرت بعض العظام الكبيرة ، وما درى أيضا أن هذا كان لاستخراج المخ ، والنخاع .

قدر أنه لن تقتل امرأة ثالثة الا بعد أيام ، فواصل سيره فى تؤدة حتى كادت الشمس أن تغيب ، ومع هذا فلم ير للجماعة أثرا . فكر فى أن يرتقى شجرة ليرى منها موقع العقبان . لكنه تردد فى التنفيذ خشية أن يضيع عليه الوقت ويحل الليل قبل أن يتأكد من مكانهم ، فواصل سيره بلا توقف ولا هوادة . ومضى يومان آخران والشاب يتبع اتجاه العقبان . وبالرغم من هذا فقد هبط عليه ظلام اليوم الثانى دون أن يرى أى أثر .

كاد أن ييأس ، ويبدأ فى تجميع فراشه من أوراق الشجر حينما توقف الذئب فجأة ، وصدرت عنه زمجرات خافتة . توقف الشاب بدوره ونظر إلى رفيقه فرآه يحدق بعينيه فى ظل شجرة لا تبعد أكثر من عشرين مترا عن مكانهما . كانت الغابة فى ظلام يكاد أن يكون دامسا ، اذ لم يكن القمر قد ارتفع فى السماء بعد . وضع يده برفق على رفيقه ، ثم انساب بخفة إلى أقرب شجرة يحتمى بها . وفهم الذئب ما يريد رفيقه فى سكون ، فانهى زمجرته . أخذ الشاب يحملق فى الاتجاه الذى ينظر إليه الذئب حتى خيل إليه أنه يرى بقعة أشد ظلاما من غيرها . وفهم لماذا لم يسمع صوتا ، ولماذا لم تقتل امرأة فى هذه الليلة حتى الآن . لقد تناهت إلى الجماعة رائحته اذ كان قد اضحى فى مهب الريح بعد أن انحرف فى الطريق ، فوضعوا له كمينا ينتظره ليقضى عليه ، وربما ارادوا أن يكون هو الضحية فى هذا المساء . ولقد كاد أن يكون ، لولا حدة بصر الذئب . وتحرك الذئب يتبعه من مكانه مرة أخرى ليختفى فى ظلال أشجار الغابة ، وليدور دورة كاملة بعيدة حتى لا يبقى فى مهب الريح ، وحتى يضع الجماعة حيث تتناهى إليه رائحتهم .

أكمل دورته بغير حادث بالرغم أن القمر كان قد تألق فى السماء مرسلا أشعة وضاءة كادت أن تحيل الليل نهارا . وقف فى ظل شجرة بعيدة ، وراح

يربت على كتف الذئب حتى لا تصدر منه زمجرة، أو حركة تكشف عن وجودهما. كان الجميع نياما سوى الشخص الذى كان ينتظرهما خلف الشجرة وقد بدا الآن واضحا فى ضوء القمر. ودارت عينا الشاب بين النائمين بحثاً عن الفتاة، لكنه شاهد أولا ذلك العملاق الذى كان الفيصل القاطع فى القتال مع سكان الكهف. وركز نظره عليه مدققا فى ملامحه. لاح الجسد طويلا جدا وهو نائم، وبدت عليه علامات القوة الصارخة فى كل جزء من أجزاء جسمه. ونقل الشاب بصره متفرسا فى الوجه. لاح له أن العين لم تكن فى مثل غور عيون الآخرين، ولا كانت الجبهة فى انحدار جبهاتهم، وكان الأنف أفطسا، لكنه لم يكن بالغ الفرطحة كسائر زملائه. وخيل إليه أنه الذراعين لم يكونا فى طول ذراعات الآخرين، ولا كانت الرجلان فى قصر أرجلهم. لكن أكثر ما كان يلفت النظر فى الرجل هى وحشيته البادية على وجهه حتى فى نومه. كان نائما ويده تقبض على هراوته الضخمة.

انتقلت عينا الشاب تبحثان حتى استقرتا حيث كانت ترقد الفتاة وسط النسوة الاسارى والأطفال. ولسبب لا يدرى كنهه أحس براحة اذ شاهدها. وعلم أنها لم تكن احدى الضحايا السابقات. مضى يلتهمها بعينيه. دارت عيناه من الشعر الأسود الفاحم، إلى الأهداب الطويلة المسبلة ثم إلى الأنف الدقيق المستقيم، والشفتين المليئتين، وأخيرا هبطتا إلى الجسد الصغير القوى. ودارت فى رأسه الأفكار. لقد كان كل مايوده هو أن يشبع فضوله ليرى الفتاة عن كثب، أما الآن وقد رآها، فقد قرر أن يستخلصها لنفسه. فكر فى أن يختطفها والباقون نيام، لكنه راجع رأيه حينما تصور عظم المخاطرة.

انسحب بعد دقائق، وتبعه الذئب. وحينما أضحى على مسافة آمنة من الجماعة جمع بعض الأوراق الجافة وجعلها له فراشا. ثم استلقى على الأرض. والتف الذئب إلى جانبه وسرعان، ما اغمض عينيه وراح فى سبات عميق.

لكن الشاب جافاه النوم. وراح عقله يفكر فى الوسيله التى يستخلص بها الفتاة لنفسه. ولاح لخياله الوجه الجميل كأنما يستحثه على انقاذها فمضى يتململ فى رقدته دون أن يواتيه النوم. كان يعلم أن فى انقاذ الفتاة من أيدى آسريها مخاطرة جسيمة

حتى فى أحسن الظروف ، أما إذا اقدم دون روية فلا شك فى أنه هالك ، وأنها هالكة .

أخيرا استقر رأيه . إن عليه أن ينتظر ، ويتحين الفرص . عليه أن يقتفى أثر الجماعة ، دون أن يلحظوه ، وأن لايخاطر الا اذا دعته الضرورة الحتمية لذلك .

وكأنما كان فى استقرار رأيه راحة ذهنية له ، فلم يمض وقت طويل حتى راح فى سبات عميق لم يستيقظ منه الا مع تباشير الصباح . ورأى أن يترك الجماعة فسحة الوقت قبل أن يتبع أثرهم . فانطلق فى الغابة يبحث عن صيد .

مضت أكثر من ساعتين قبل أن يقتنص غزالا شاردا ، ومضت ساعة أخرى التهم فيها مع الذئب وجبتهما ، ثم حمل الشاب ما استطاع من اللحم واندفع يجرى وراء الجماعة . وصلته الرائحة قبل الغروب ، فتمهل فى سيره . دارت عيناه فى الغابة حتى رآهم . واستقر نظره على الفتاة . رآها تسير مكدودة تعبة تجرجر ساقيها جرا . ولم يكن حال الاسيرات الأخريات بأحسن منها ، بل ربما كانت هى أكثرهم تجلدا ، وتماسكا .

استمر الشاب فى تعقبه محاذرا أن يتعرض لمهب الرياح ، أو أن يحدث أى صوت . وكأنما ظن الذئب أنهما يتعقبان فريسة اذ أنه بدوره تبع صاحبه متسللا متلصصا .

جاء الليل ، وتوقفت الجماعة من المسير ، وبدأوا يأكلون مما معهم من لحم وجذور نباتات وألقوا بفضلاتهم إلى الاسيرات اللائى رحن يتقاتلن فى سبيلها . ومضت فترة ، ثم عم السكون الغابة . وعلم الشاب أن القوم قد هجعوا ، وأنه لا سبيل الليلة أيضا إلى محاولة انقاذ الفتاة .

انسحب بهدوء ، ومضى يبحث فى مكان قريب عن موضع يسكن إليه ، ويقضى فيه ، ورفيقه الليل ، ولم يتوقف عقله لحظة أثناء بحثه عن التفكير . كان قلقا ، ملولا يريد أن يتعجل استخلاص الفتاة . لكنه كان أيضا يخشى من المخاطرة بلا طائل .

وقطع حبل تفكيره زمجرة ضعيفة صدرت من الذئب فالتفت إليه . رآه قلقا ينظر فى الغابة . تحرك الشاب بخفة من مكانه ، لكن الذئب اتجه إلى

ناحية أخرى ، ثم توقف وراح ينظر إليه مرة ثانية نظرة قلقة غير مستقرة ، وعدل الشاب عن الاتجاه الذى اتخذه ومضى يتبع الذئب . لقد التقطت أذنا الذئب الحادتان صوتا لم يصل بعد إلى اذنيه . ابتدأ الذئب يبتعد كثيرا عن منطقه الجماعة . لكن الشاب لم يكن يريد أن يبتعد فتوقف عن السير . وتوقف الذئب وراح ينظر إليه متطلعا . لقد كان الذئب يخشى تجمعات الانسان بطبيعته ، وكذلك كانت سائر الحيوانات ، أما هو ، فهو انسان، فلماذا يخشى تجمعاتهم . وأشار إلى رفيقه بأن يتبعه ، لكنه لم يتحرك من مكانه، وأخذ ينظر إليه تلك النظرة القلقة .

فجأة علم السبب فى قلق الذئب . تناهى إلى سمعه وقع أقدام خفيفة على الأرض . اسرع بالاحتماء فى ظل شجرة ، واتجه ببصره إلى مصدر الصوت . على ضوء القمر ،رأى جماعة من الرجال تتجه إلى حيث المعسكر وبقايا سكان الكهف لم تكن طريقة سيرهم تختلف عن زملائهم النائمين . فاكتافهم مقوسة، وأيديهم طويلة مدلاه ، ومشيتهم ثقيلة متباطئة . وتبعهم الشاب جاعلا أياهم من حيث تأتى الرياح . ودارت فى رأسه الأفكار . من هم هؤلاء الجماعة؟ هل هم أصدقاء للنائمين أم أعداء ؟ هل سيدور القتال أم سيكون احتفال ؟ .

وقرب مكان معسكر النائمين ، واستطاع الشاب أن يراهم . شاهد العملاق وهو يهب فجأة من نومه ، وقد أمسك بهراوته ، ويصرخ صرخة مرعبة ، نبهت كل من كان فى المعسكر فهبوا مذعورين . شاهد الجماعة الآتية وقد توقفت عن السير ثم أصدر واحد من الرجال صوتا صديقا كان له مفعول السحر . إذ وضع العملاق هراوته جانبا ، ومضى قدما يتبعه فريق ضمن من كان معه . ولاقى القادمين بسرور . فهم الشاب أن الجماعة القادمة انما كانت أيضا من أصحاب الاخرين وانهم ربما كانوا فى رحلة صيد أخرى بدورهم ، ثم تناهت إليهم رائحة أصحابهم ، فحضروا القيام .

رأى العملاق يتحول نحو النساء ، والأطفال الاسارى . وراح يتفرس فى وجوههم ، واجسادهم . رآه يقف هنيهة عند الفتاة مستقيمة القامة التى ملأ وجهها الذعر ، ثم مد يده وقبض على ذراعها . حاولت الفتاة التملص بكل قواها ، ولكنها كانت كريشة فى مهب الريح . وجرجرها العملاق غير عابىء بمقاومتها ،

رأى الشاب الجماعة تراقب المشهد وقد انطبعت على وجوههم أحاسيس شتى . فالنساء والأطفال كانت أحاسيسهم تتأرجح بين الرعب والراحة ، فى حين ارتسم التهم على وجوه الرجال .

وصل العملاق إلى حيث ترك هراوته ، انحنى ليلتقطها . وقرر الشاب التدخل مهما كانت المجازفة . وقبل أن يتحرك من مكانه رأى الفتاة وقد انتهزت فرصة استرخاء اليد حينما انحنى العملاق لتناول هراوته ، وتملصت من قبضته ، وفى ثوان كانت قد أطلقت ساقيها للرياح .

وظهر هنا فارق الإنسان الكامل واضحا فى السهولة التى كانت تفكر بها الفتاة ، واليسر فى العدو الذى ساعدتها عليه ساقاها الطويلتان . وتوقف تفكير الجماعة لفترة مكنت الفتاة من الاختفاء فى الغابة من عين الشاب ، ثم حدث هرج بينهم . كان أسرعهم فى استرداد وعيه العملاق إذ تناول هراوته بسرعة وأشار إلى بعض الرجال أن يتبعوه ، وانطلق فى أثر الفتاة . ودهش الشاب حينما رأى أن العملاق ، على ضخامة جسده كان خفيف الحركة ، سريع العدو حتى أنه ترك باقى الرجال خلفه بمسافة ولم يكد السباق أن يبدأ .

ترك الشاب مكانه غير حافل بأن تراه الجماعة ، واندفع بدوره فى الاتجاه الذى سارت فيه الفتاة . ولم تمض دقائق حتى لاح له شبحها وهى تجرى بين الأشجار منطلقة فى خفة الغزال . أراد أن يلحق بها لكنه تريث حتى يرى مطارديها . وسرعان ما شاهدهم . كان العملاق يتقدمهم بمسافة ، لكنه بدوره كانت بينه وبين الفتاة مسافة تزداد اتساعا فى كل خطوة . واطمأن الشاب إلى نتيجة السباق ، فراح يعدو خلف الفتاة على مسافة جانبية تمكنه من رؤية مطارديها دون أن يروه . لم يجهد نفسه فى العدو إذ لم يكن يريد اللحاق مؤقتا بها ، كما كان يريد أن يطمئن إلى أن أعداءها لن يلحقوا بها أو أنهم سوف يدعون المطاردة . واستمر السباق ، والشقة تتسع بين الفتاة ، والعملاق ، كما كانت تتسع بين العملاق وسائر المطاردين .

استمرت الفتاة منطلقة غير عابئة بالحصى فى الأرض تدمى قدميها . كانت أنفاسها تتردد سريعة ، ويكاد الهواء أن يفجر رئتيها . وكلت ساقاها من حمل جسدها ، لكنها مع هذا استمرت تجرى دون أن تخفض من سرعتها ، أو حتى تفكر فى الوقوف لاسترداد أنفاسها . كانت تعلم أن الموت وراءها ، وأن كل

خطوة تجريها تبعدها عنه ، كانت كلما هبطت قواها دفع إليها الرعب مزيداً من القوى . لم تكن تدرى إلى أين هى ذاهبة ، وما كان يهمها إلا أن تبتعد عن العملاق وهراوته، بل لم يخطر فى بالها أخطار الغابة وحيواناتها . كم من مرة تناهى إلى سمعها صوت حيوان قريب ، أو وصلت إلى أنفها رائحة وحش كاسر ، لكنها مع هذا لم تكن تعبأ بما سوف ينتهى إليه مصيرها طالما هى تبتعد عن هذه الهراوة الضخمة التى رأتها تهشم الرؤوس تهشيماً .

لم تحاول مرة أثناء عدوها أن تلقى نظرة وراءها لترى المسافة التى تفصلها عن أعدائها ، إذ أنها كانت تعلم أنها أسرع منهم عدواً ، بل إنها حتى وهى طفلة كانت تسبق نساء وفتيات عائلتها . كان يجب أن تستمر فى عدوها . كان يجب أن تحتمل قدميها اللتين بدأتا تؤلمانها فى كل خطوة . يجب أن تحتمل وتقاوم الإعياء الذى بدأ يداخل جسدها ، وضربات قلبها التى إرتفعت حتى كانت تشعر بها تضرب كالمطارق فى رأسها .

فجأة قفز أمامها من الظلام شبح أسود ضخم ، ورأت عينين واسعتين تقدحان شرراً . وتناهى إلى سمعها زمجرة الوحش . لم يكن لديها وقت تتفادى فيه القفزة الطويلة للشبح الأسود فأيقنت بالموت فى لحظات . ربما قد داخلها شعور بالراحة لانتهاء المطاردة ، وبأنها لن تقع فريسة لتلك الهراوة المرعبة . وخيل لها أن شيئاً قد مر من فوق رأسها وإن لم تكن متأكدة ، لكنها سمعت الوحش يطلق صرخة مروعة ثم ينحنى على نفسه فى الهواء ليسقط على الأرض يتلوى على بعد خطوات منها . لم تتوقف لترى ، بل إستمرت فى عدوها وقد أمدها الرعب قوة زادت من سرعتها ، فى حين امتدت يد قوية تنتزع الحربة من رأس الفهد الأسود بعد أن خمدت حركته تماماً . وعاودت الساقان الطويلتان جريهما خلفها .

مضى الوقت والفتاة مازالت فى عدوها حتى أحست بأنه لم يعد فى مكنتها الجرى ، وأن عليها أن تستريح مهما كان الثمن الذى سوف تدفعه . ألقت بنفسها على الأرض إعياء ، وراحت فى شبه غيبوبة بينما ترددت أنفاسها سريعة بين ضلوعها . كانت خائرة القوى تماماً ، وزاد من ضعفها أنها لم تكن قد تناولت غذاء لثلاثة

أيام تباعا سوى ما كانت تمضغه من أوراق شجر ، أو جذور نباتات فقد عافت نفسها أن تأكل من لحم بنات جلدتها الذى تبقى من فضلات غذاء أعدائها .

لم تشعر الفتاة بالعينين اللتين كانتا ترقبانها بقلق من وراء شجرة قريبة . لم تسمع كذلك الخطوات المتلصصة حتى رأت الذئب واقفا أمامها وقد كشر عن أنيابه. وصدرت منه زمجرات . وصرخت الفتاة . وازدادت التصاقا بجذع الشجرة ، بينما ارتعد جسدها رعبا . إنتظرت أن يهجم الذئب عليها ، لكنها سمعت صوتا صادرا عن قرب منها . وتوقف الذئب إذ سمع الصوت ، ثم أدار وجهه ، وانطلق إلى الغابه حيث إختفى بين ظلال الأشجار . عجبت الفتاة من الصوت الغريب ، فراحت تتلفت حولها عن مصدر الصوت ، لكنها لم تر حتى مجرد حركة فى الظلال فعاد بها التفكير إلى الوحش الأسود الذى هاجمها ، وإلى ذلك الشىء الذى يشبه الهراوة الذى مرق من فوق رأسها ليستقر فى رأس الوحش فيقتله ، حارت فى التعليل ، وإزداد رعبها من ذلك المجهول الذى يحوم حولها ، دون أن تراه .

وعاد بها التفكير إلى موقفها كانت تعلم أن عليها أن تبدأ مرة ثانية فى العدو وأن مطاردبها لابد أنهم قد اقتربوا جدا منها الآن . أن عليها أن تتحرك بسرعة إن أرادت الحياة . حاولت أن تقف ، لكن قدميها خانتاها فوقعت على الأرض . وشاهدت العينان المختفيان منظرا لعله كان الأول من نوعه على وجه البسيطة ، كما سمعت الأذنان صوتا ربما لم يكن أحد من قبل قد سمعه ، كانت الفتاة تجهش بالبكاء العاجز المستسلم . وشعر الشاب بشعور خفى مقبض بأنه لايحب سماع هذا الصوت، وبأنه قد آن له أن يتدخل لمساعدة الفتاة .

شعرت الفتاة بيدين قويتين تطوقانها ، وترفعانها من الأرض لتلقيان بها على كتف عريض . حاولت فى مبدأ الأمر التملص من القبضة ، لكن قواها الخائرة لم تسعفها ، فتركت نفسها مستسلمة . وشعرت بالهواء يلفحها ، وقد بدأ حاملها فى عدو سريع ، أسرع من عدوها بمراحل ، وقد كانت تظن نفسها أسرع بنت جلدتها عدوا . رأت ذئبا ضخما يجرى وراء حاملها فشهقت رعبا ، لكن الرجل لم يلتفت واستمر فى عدوه . رأت الذئب يتابعهما دون أن يحاول الاقتراب أو الهجوم ، وسرعان ما أدركت أن هذا الغريب كان صديقا للذئب . وحارت فى كنهه ، هل هو من الرجال الذين كانوا يطاردونها ؟ واستبعدت هذا الخاطر

إذ لم تر منهم من يستطيع العدو بمثل هذه السرعة واليسر ، كما أنه إن كان منهم فما الذى يدعوه إلى الفرار بها . ربما كان يريد أن يأخذها لنفسه ويلتهمها دون باقى أصحابه . وأعياها التفكير فكفت عنه مستسلمة ، وراحت ترقب الأرض والقدمان الواثقتان تنهبانها فى سهولة بخطوات منتظمة ليس فيها كلل ولا إرهاق .

لاحظت أن حاملها قد إنحرف فى عدوه عن الإتجاه الذى كانت مندفعة فيه ، ثم فهمت سبب هذا حينما لاحظت أن اتجاه الرياح قد تغير ، وأنه قصد بهذا غالبا أن لاتحمل الرياح رائحتهما إلى مطارديهما . استمر حاملها فى العدو بلا توقف ، ولا هوادة بخطوات واسعة شعرت الفتاة أنها مع سرعتها ليست هى أقصى مايستطيعه حاملها من سرعة . لقد قدر سرعة مطارديهم . تقديرا سليما ، ولم يشأ أن يجهد نفسه بمجهود لاداعى له .

خيل للفتاة أنه قد مضت ساعات ، وحاملها مازال يعدو بها بذات السرعة الرتيبة لاينقص منها ولايزيد . وبدأت طلائع النهار تنير الكون ، والرجل مازال يجرى كأنما لم يمسه تعب أو كلال . وتغلب التعب والجوع على الفتاة فراحت فى شبه غيبوبة لم تفق منها إلا بعد أن سقطت أشعة الشمس عليها . فتحت عينيها لترى نفسها ملقاة على الأرض إلى جانب جذع شجرة . ودارت ببصرها فرأت رجلا طويل القامة ، مستقيم الجسد يمسك بما ظننته عصا ويقذفها فى جدول يجرى قريبا منها ليخرج سمكا من طرفها الآخر .

خطر فى بالها أن هذه هى فرصتها للهرب ، فبدأت تتحرك ببطء لكنها سرعان ما كفت عن الحركة حينما سمعت إلى جوارها مباشرة زمجرة عرفت قبل أن تنظر أنها زمجرة الذئب . وسمع صائد السمك الزمجرة فالتفت إلى ناحيتها ، وكف عن صيده . ولأول مرة رأت الفتاة وجها يخالف تماما كل ما ألفته فى جماعتها . كانت هنالك العينان ، والأنف ، والشفتان والشعر واللحية ، لكن شتان بين المنظرين . لم تكن العينان غائرتين ، والجبهة منبطحة إلى الخلف ، بل رأت نفسها تنظر فى عينين صافيتين وجبهة مستقيمة ، وأنف لاأثر فيه للفطس ، وشفتين ليس فيهما غلظة . ومضى الشاب ينظر إليها فترة . ثم انحنى فتناول سكين من الأرض ، وألقى بهما إليها ثم عاد يصطاد من جديد .

تتردد الفتاة فى أن تلتهم السمكتين إذ كان الجوع قد ألم بها إلى حد غير محتمل وراحت تنهشهما فى نهم. لاحظت وهى تأكل أن الشمس كانت قد جاوزت وسط السماء، فدهشت إذ لم تكن تصورت أنها نامت كل هذه المدة. فرغت من أكلها بسرعة زائدة ثم حاولت التوجه إلى الجدول لترتوى، فشعرت بألم شديد فى قدميها جعلها تصرخ صرخة كتمتها قبل أن تخرج من شفتيها، ومع هذا فقد لاحظت أن الشاب قد توقف للمرة الثانية عن الصيد، ونظر إليها يستطلع الخبر. ولم تعر الفتاة الشاب التفاتا، وتحاملت على نفسها وسارت إلى الجدول ترتوي زمجر الذئب، ثم كف حينما علم أنها لن تحاول الهرب شربت حتى أخذت كفايتها ثم راحت عيناها تنظران إلى الشاب وهو ما زال مشغولا بصيده، ثم إلى الذئب وقد قبع فى ظل شجرة يلتهم إحدى الأسماك.

وخطر فى بالها أن فرصتها للهرب قد عادت، لكنها فى هذه المرة راحت تدور بعينيها بحثا عن أحسن مخرج. أدارت رأسها ببطء وحذر فى أشجار الغابة، وفجأة خيل إليها أن هنالك حركة خلف إحدى الأشجار القريبة فثبتت نظرها عليها. ولم تمض فترة حتى تأكدت أن هنالك حركة فعلا. شاهدت جزءا من كتف يبرز، ولم يعد عندها شك فى أن هنالك من يرقب الفتى ليتحين فرصة الانقضاض عليه. وأطلقت صرخة تحذير فى اللحظة التى قفز من خلف الشجرة عملاق يطوح بهراوته فى الهواء.

هبطت الهراوة فى قوة لو أنها أصابت لهشمت رأس الشاب تماما ولانتهت المعركة قبل أن تبدأ، لكن الشاب تفاداها بخفه وسهولة أذهلت الفتاة. ودهشت إذ رأت الذئب قد اندفع مزمجرا، لا إلى المعركة ليساعد صاحبه، وإنما إلى داخل الأحراش والغابات. ولم تمض فترة طويلة حتى فهمت السبب حينما سمعت أصوات صياح مختلطة بزمجرات الذئب. لقد أحس الأخير بأصحاب العملاق يقتربون فهب إلى مهاجمتهم. وفى هذه الأثناء كانت المعركة أمامها على أشدها.

كانت الحربة قد سقطت من يد الشاب حينما تفادى هجمة العملاق، وأضحى أعزلا تماما، لكنه سرعان ما تناول شيئا من منطقته لم تتبينه الفتاة فى مبدأ الأمر، ثم تحققت من أنة الناب السيفى لنمر، وواجه عدوه.

إستهتر العملاق حينما رأى غريمة يكاد أن يكون أعزلا ، فتقدم منه وهو يلوح بهراوته الضخمة ، كأنما هى عصا رفيعة لا ثقل لها ولا وزن ، وظهر فارق التكوين الجسمانى واضحا فى خفة حركات الشاب ، وسرعتها إزاء الثقل النسبي لحركات العملاق . وبالرغم من أن ميزان القوى كان من الواضح لصالح العملاق ، إلا أن سرعة الحركة وخفتها وازنت بين الكفتين . كانت الهراوة ترتفع لتهبط حيثما يكون الشاب . لكنها تقابل الهواء . وتكون الفريسة فى مكان آخر . وانتهز الشاب فرصة أقترب فيها غريمه منه وتفادى ضربة من الهراوة ثم امتد الخنجر بسرعة خاطفة لينشق لحم الكتف بجرح عميق انبثق منه الدم. صرخ العملاق من الألم والغضب ، وسقطت الهراوة من يده ثم تراجع إلى الخلف بعيدا عن هذه الآلة الجهنمية .

أدرك الشاب أن المعركة أضحت لصالحه ، ولكن أصوات القتال فى الغابة كانت تصل إليه ، وكان يعلم أن الذئب لن يستطيع إيقاف باقى الرجال طويلا ، وأنه قد يفقد حياته فى المحاولة ، فكان حتما عليه أن ينهى المعركة فى أسرع وقت مستطاع . وطبق على غريمة يريد إنهاءه بطعنه أو اثنين . وهنا تبين له الفارق بين قتال الحيوان والإنسان . لم يجـــر العملاق كما كان يتوقع كما لم يهجم كما تفعل الحيوانات المحاصرة ، وإنما إنتظر فى مكانه حتى أقترب منه الشاب ثم ، بخفة غير متوقعة من مثل حجمه ، تفادى الطعنة الموجهة إليه وإمتدت يده السليمة لتضرب الشاب على وجهه ضربه طوحت به بعيداً وأسقطت الخنجر من يده . وقبل أن يفيق من هول الضربة كان العملاق قد سقط عليه يشل حركته ويزهق أنفاسه .

قاوم الشاب بجنون بكل قوة ، ولكن اليدين اللتين كانتا تطبقان على عنقه كانتا قد منعتا الهواء عنه ، وتمالك الشاب نفسه وعاوده العقل . ان يستطيع الإفلات من القبضة الحديدية بمجرد القوة ، فكان عليه أن يلجأ إلى الحيلة . فجأة أمتدت يداه ، لا لتزيحا القبضتين من عنقه وإنما لتغرز الاصابع بكل قوة فى العينين الضيقتين . صرخ العملاق من الألم ، وترك الرقبة التى كان يضغط عليها ليرفع يديه إلى عينيه الملتهبتين . وانتهز الشاب الفرصة وانهال على الوجه ، والجسد لكما وضربا حتى طرح غريمه عن صدره ، وهب واقفا فى حين تقهقر العملاق ووقف بدوره . مضى ينظر إلى عدوه من خلال عينين حمراوتين

لا تكاد ان تريان . وابتدأت معركة رهيبة قوامها الأيدى والسكمات . وراقبت الفتاة قتالا بين ماردين لا رحمة فيه ولا هوادة .

وفجأة برز من بين الأشجار أربعة رجال وذئب . كان الذئب يحاول الهجوم على الرجال ، ويتفادى فى الحين نفسه هراواتهم ، لكنهم كانوا يضغطون عليه ويحاولون التقدم لمساعدة زميلهم . وما كان فى مكنة الذئب إلا مجرد تأخير هذا الهجوم ، تسلل أحد الرجال تاركا زملاءه يناوشون الذئب ، واتجه نحو المتقاتلين . ورآه الشاب فترك غريمه وجرى إلى الجدول يلتقط حربته . وتبعه الرجلان . وهنا أيضا ساعدته خفة حركته الناشئة من تكوينه الجسدى . بالرغم من قصر المسافة فإنه كان قد التقط الحربة ووجهها إلى حامل الهراوة ، وقذفه بها قبل أن يصل العملاق ليبدءان الاشتباك ثانية . دخلت الحربة صدر الرجل لتخرج من ظهره ، فأطلق صرخة مروعة ندت عن مقدار الألم الذى شعر به . سقطت منه هراوته ، وأمسك بالحربة بكلتا يديه ، كأنما كان يبغى انتزاعها ، ثم سقط على الأرض جثة هامدة . وازداد اقتراب الرجال من المتقاتلين فتردد الشاب برهة ثم ترك غريمه فجأة ، وانحنى على الأرض ليلتقط الفتاة ، وأطلق صرخة هى أقرب إلى النداء ، ثم راح يجرى ، والتفتت الفتاة لترى الذئب قد ترك بدوره غرماءه وتبعهما عدوا .

لعل المهاجمين كانوا قد أخذوا كفايتهم من القتال ، أو ربما كانوا قد أخذوا درسا من السباق الأول فلم يحاولوا اللحاق بالثلاثة . وتبين الشاب الحقيقة بسرعة فتوقف عن العدو . ألقى بالفتاة على الأرض ، ورأته بعد ذلك يبحث فى الغابة عن أشياء لم تعرف ماهيتها حتى عاد ومعه بعض أفرع الشجر الصغيرة ألقاها إلى جانبها ثم رأته ينتقى قطعة معينة من الأحجار ثم يجلس إلى جوارها وبدأ يعمل دون أن يلتفت إليها ، فى حين قبع الذئب أمامه وأسلم نفسه للنعاس تحت أشعة الشمس التى تخللت الأشجار .

راحت الفتاة تراقبه فى فضول فى حين تتالت فى رأسها الأسئلة . ماذا سوف يفعل بها ؟ هل سيعيدها إلى قومها ؟ وهل بقى منهم أحد لم يمت بعد تلك الغارة المشئومة ؟ أم تراه سوف يلتهمها كما فعل الرجال الآخرون ببعض قومها ، وفكرت فى الهرب ، لكنها تذكرت أنه أسرع منها عدوا ، وأن الذئب

ولا بد سوف يقتلها إن فعلت ، فتركت الفكرة مؤقتا لحين يمكنها تنفيذها . استمرت ترقبه وهو يشحذ أحد طرفى غصن ويدببه . وتذكرت الرجل الذى هجم عليه والذى قذفه الشاب بالرمح ، وكيف دخل الرمح فى صدره ليخرج من ظهره ويرد به قتيلا فى الحال . وعلمت أنه يقوم بصنع سلاح أشد فتكا من تلك الهراوة التى لا تأثير لها إن هى برحت اليد نظرت إلى الحزام يلتف حول وسط الشاب ، ثم إلى جلد الغزال فى قدميه ، وتعجبت من فائدة الأول ، وتمنت أن يكون لها إذا لحمى قدميها من تلك الحجارة اللعينة التى أدمتهما . ورأت الشاب وقد فرغ من صنع رمح ، وانتقى غصنا ثانيا وبدأ يعمل فيه كما فعل فى الأول .

لم يمض وقت طويل حتى كان الشاب قد أنهى رماحا أربعة . وما كاد أن يفرغ من صنع الأخير حتى جمعها ونظر إلى الذئب ثم أشار إليه أن يقبع مكانه كما أشار إليها ألا تتحرك ثم اختفى بين الأشجار . مكثت الفتاة برهة لا تحاول شيئا ، وراقبت الذئب فرأته مازال نائما فى الشمس لا تطرف عيناه . وتسحبت فى بطء شديد محاذرة أن تصدر صوتا ، لكنها ما كادت تحاول القيام حتى سمعت زمجرة الذئب ، ورأته ينظر إليها وقد كشر عن أنيابه ، فعادت ثانية إلى مكانها فى حين أغمض عينيه ، واستمر فى تمتعه بأشعة الشمس .

دلف الشاب بين الأشجار فى غير صوت ، وبدأ يدور دورة طويلة عائدا إلى مكان المعركة . راح يرقب الرجال الأربعة من بين الأشجار . لاحظ لأول وهلة أن جثة زميلهم الخامس قد نهش الكثير من لحمها بينما عوملت الرأس المعاملة نفسها التى رآها الشاب فى الجماجم الأخرى . وفهم لماذا لم يمتن الرجال بمطاردتهم إذ رأوا غذاء شهيا ، فتوقفوا لينالوا قسطهم من اللحم . راح يراقبهم وقد جلسوا متخمين لا يكادون أن يتحركوا ، بل أن أحدهم كان نائما تماما . وانتقلت عينا الشاب إلى العملاق ، رآه يستند إلى جذع شجرة وقد وضع هراوته إلى جانبه فى حين راح يتأمل الخنجر الذى كان قد سقط أثناء المعركة . كان الدم قد توقف نزيفه ، ولاحظ أن العملاق كان قد وضع عليه طينا من الأرض ، ولكنه بالرغم من هذا كان بادى التعب والإرهاق .

ارتفعت إحدى الحراب فى يد الشاب ثم تركها لتندفع إلى أقرب الرجال

الأربعة فتدخل فى ظهره وتستقر بين ضلوعه . وصرخ الرجل صرخة الموت ، وانبثق الدم من ظهره كالميزاب ، ثم إنكفأ على وجهه ، وراح يتلوى قبل أن تسكن حركته ، وتفارقه الحياة . وتصايح الرجلان الباقيان ، وقفز العملاق من مكانه ، واندفع إلى حيث كان الشاب يقف ، لكنه كان قد ترك مكانه من مدة . وانتقل إلى قلب الغابة ، مختفيا عن العيون . لم يجر الفتى بعيدا ، وإنما أعاد دورة أخرى ، ورأى الرجلان وهما مازالا يبحثان عنه . وحار فى أمر العملاق إذ لم ير له أثرا ، فهل كان أضعف من أن يتحرك ، أم تراه يبحث عنه بمفرده . ؟ تملك القلق الشاب ، وود لو عاد إلى الجدول ليرى إن كان العملاق مازال هنالك ، أو بارح مكانه ، لكن رأيه إستقر على التخلص أولا من الرجلين . لم يكن هنالك شك لديه فى أن العملاق أكثر قوة من الرجلين ، حتى فى ضعفه ، كما أنه أكثر منهما دهاء إلى درجة تجعل بمجرد وجوده خطر عليه والفتاة . أحس بشعور خفى بأنه لن ينسى كما تنسى الحيوانات ، بل وكما سوف ينسى زملاؤه الرجال ، مافعله به الشاب فى المعركة ، وهو ماتناول الناب السيفى إلا ليستعمله فى القتال القريب ، أو ليمنع الشاب من إستعماله .

طارت حربة أخرى فى الهواء لتستقر فى صدر أحد الرجلين ، وليخر بدوره على الأرض ممسكا بها يريد إنتزاعها . ذعر الرجل الأخير فاندفع عائدا إلى الجدول يريد أن يحتمى بالعملاق . ولم يتبعه الفتى ، ولا حاول اللحاق به ، إنما مضى ينتقل بخفة وحذر بين الأشجار مرسلا بصره فى شتى الاتجاهات . فناهت إلى أذنه أصوات صيحات الرجل الأخير ، كان من الواضح أنها صيحات نداء . ومعنى هذا أنه لم يجد العملاق فى مكانه فمضى يصرخ مستنجدا وقد تملكه الرعب وهو بمفرده إزاء ذلك الموت الذى لايراه حتى يأتى طائرا فى الهواء . وما كان الموت فى حدذاته ليخيف الرجل فقد عاشره فى حياته حتى ألفه ، لكنه كان الرعب من المجهول هو الذى أفقده صوابه . رآه الشاب من بعد ، وهو يجرى ويصيح بين الأشجار غير عابىء بأن يحذر أو يحتاط . لاحت على شفتيه شبه ابتسامة ، فقد علم أن الرجل لن يعيش طويلا ، وأنه سوف يكون لقمة سهلة سائغة لأول حيوان مفترس يصادفه .

أهمل التفكير فى الرجل ، ومضى يتساءل عن العملاق . كانت الشمس قد

شارفت المغيب وكان يود أن يعود إلى الذئب ، والفتاة قبل أن يجن الليل ، وقد يفقد طريقه وسط هذه الغابة الغريبة عليه . لكنه لم يكن أيضا ليجرؤ على الحركة طالما لم يكن واثقا من إنتهاء معركته مع غريمه الضخم . دار فى خلده أنه ربما يكون قد اكتفى بما ناله وكر عائدا إلى قومه ، قانعا من الغنيمة بالإياب لكن شعوره كان يستبعد هذا ، وكان يعلم فى قرارة نفسه أن العملاق مازال فى مكان ما من الغابة قريب . وأنه يتحين الفرصة ليأخذه على حين غرة قبل أن يستطيع أن يستعمل حرابه .

تجمد فى مكانه ، وراحت عيناه تبحثان بين الظلال المترامية ، والأشجار بحثا عن أية حركة ، أو صوت يمكنه أن يستدل به على موقع غريمه . لكن الغابة كانت تطبق على سرها ، ولم يتناهى إلى سمعه سوى صيحات الهارب آتية من بعيد ، وأصوات الغابة العادية . أيقن أن عدوه كان يريدها معركة انتظار وتحين للفرص . وانتظر الشاب بعض الوقت . ولكن شيئا لم يحدث ، وظلت الغابة قابعة صامتة . وابتدأ الانتظار يضغط على أعصابه ، وخيل إليه أن غريمه قد ترك الجيرة منذ زمن ، وأنه إنما ينتظر هنا بلا جدوى .

استبد به الظمأ وهو قابع فى مكانه لا يتحرك ، كانت مجرد رؤية المياه تجرى فى الجدول على بعد أمتار منه يزيد من عطشه . وأخيرا قرر أن يجازف فانتقل من مكانه فى حذر شديد ، متجها صوب الجدول ، وعيناه لا تفارقان الأشجار تبحثان عن أية حركة غير عادية . لكن شيئا لم يحدث . وإزداد اطمئنانه ، وكاد يقطع بأن العملاق قد فارق الجيرة وأنه عاد إلى قومه ثانية وتذكر خنجره الذى أخذه عدوه وتأسى عليه فقد كان يود أن يستعيده بأية طريقة .

وصل إلى الجدول ، ووضع حربته على الأرض ثم انحنى ليشرب . كان يعلم أن هذا هو أخطر وقت ، وأنه من اليسير على عدوه ، إن كان مختفيا بين الأشجار ، أن يهاجمه وهو فى هذا الوضع ، ولعله كان قد أخذ درسا من المرات الأولى ، وبالتالى فسوف يسترق الخطى ، ويهاجمه بلا أدنى صوت . لن يطوح هراوته فى الهواء كما فعل فى المرة السابقة ، ولن يصيح ، وانما سوف يكون هجومه صامتا ، قاتلا . وضاعف من حذره وهو يشرب . كانت حواسه جميعها متيقظة لأدنى حركة ، أو أدنى صوت ، كما لم تبعد يده كثيرا ، حتى وهو يعب

الماء ، عن حربته إلى جواره . لكن شيئا لم يحدث . واستمر الصمت المطبق على الغابة الا من أصواتها العادية . فرغ من شرابه فندت عنه تنهيدة راحة واطمئنان ، والتقط حربته ، واعتدل واقفا . لقد أيقن الآن أن العملاق قد غادر الجيرة ، وعاد إلى قومه . وأسف اذ علم أنه لن يرى خنجره مرة ثانية ، وأن عليه أن يستعيض عنه بشيء آخر . طرأ فى باله أن يتبع عدوه ليسترد نابه السيق ، لكنه عدل عن ذلك إذ آثر أن يعود إلى الفتاة والذئب قبل أن يهجم الظلام .

فجأة حملت إليه الرياح زمجرات صادرة من ذئب ، وصرخة من الفتاة . لم يتردد لحظة ، واندفع يجرى بأقصى سرعته عائدا إلى حيث ترك رفيقه ملقيا بالحذر جانبا ، وغير مبال ما إذا رآه العملاق ، أو هاجمه أحد وحوش الغابة . كل ما استولى على تفكيره أن العملاق قد خدعه ، وأنه تركه يقاتل الرجال الثلاثة ثم ينتظر فى خوف ، فى حين انسل هو من المعركة وهاجم الذئب والفتاة .

تلاحقت فى رأسه الهواجس ، والأفكار ، تسابق قدميه إلى ساحة القتال . وتزاحمت الأسئلة عن مصير الذئب والفتاة . كان يخشى أن يكون العملاق قد قتلهما انتقاما منه . وطرد من فكره أن يكون رفيقه قد قتل ، فطالما دخلا معارك معا ليخرجا منها منتصرين . ولم يكن يتصور أن يعود ليراه جثة هامدة لا حراك بها . أخذ ينحى على نفسه باللائمة إذ ترك غريمه يخدعه بمثل هذه السهولة ، ويفتك برفيقه وهو قابع فى الغابة يلعب دور المنتصر اليقظ .

وصل إلى المكان الذى ترك فيه رفيقه ، والفتاة ليجد الذئب ملقى على الأرض ، والدماء تنزف منه بغزارة ، ولم يجد أثراً للفتاة أو العملاق . ركع إلى جانب رفيقه ، وتحسس جسده وتنهد بارتياح إذ رآه مازال على قيد الحياة ، وإن كانت الدماء تنزف من جرحين عميقين غائرين . ومد يده يأخذ من تراب الأرض ليضغط بها على جراح رفيقه فقد أدرك بغريزته أنه يجب أن يوقف تدفق الدماء ، والا فقد الذئب حياته . نسى الفتاة تماما وهو يعتنى بالجراح ، وينقل الجسد الهامد إلى أقرب شجرة يحميه بها من بعض الرياح . وأخذ يجمع سريعاً بعض أوراق الشجر المتساقطة يضعها حوله ، وتحته ، وفوقه ، بحيث

كادت أن تغطيه تماما . وتناهى إلى سمعه صراخ الفتاة ، فتردد هنيهه ، وحار فيما يفعل ، فكان بين أن يترك رفيقه تحت رحمه الأقدار ، أو أن يدع الفتاة إلى مصيرها . لم يكن يشك فى أنه القتل ، حينما يجوع العملاق ثانية ، بعد أكلته الدسمة ظهر اليوم .

لم يطل تردده طويلا ، فقد كان عليه أن ينقذ الفتاة ، وأن يقتل غريمه الذى خدعه، وكاد أن يقتل رفيقه . وغلى الدم فى عروقه وهو يندفع بين الأشجار نحو مصدر الصوت . والمرة الثانية لم يعتن بأن يراه العملاق ، أو تراه الوحوش . كان يعلم أن عليه أن ينهى غريمه بسرعه ، إذا أراد انقاذ رفيقه ، والفتاة معا . طرح الحذر كليه وهو يسابق الرياح ، وما خطر فى باله لحظة سوى أن يلحق بغريمه ، وأن يمزق جسده جزاء على ما فعله برفيقه . وبدأت ظلال الغروب تغشى على الغابة وهو ما يزال فى اندفاعه . وخيل إليه أنه يرى على بعد شبحا ضخما يتحرك بين الأشجار . لم يتوقف عن عدوه بل لعله زاد من سرعته . ولم تمض لحظات حتى تأكد لديه أنه يشاهد العملاق يتسلل وهو يحمل الفتاة على كتفه وكأنها لعبة أطفال .

رآه غريمه فتوقف ، والتفت إليـــه ليقابله ولـكنه لم يلق بحمله على الأرض . وتنبه الشاب إلى أنه إن استعمل حربته فقد يصيب بها الفتاة ، وأن العملاق انما تعمد أن يستمر فى حملها حتى يحرمه من استعمال رمحه فقد كان هنالك عقل بشرى ، أو يكاد ، فى رأس هذا الجسد الضخم . رآه الشاب يستعد لملاقاته وقد قبض بيده على الناب السيفى ، وألقى هراوته على الأرض . كان منظره ، والظلام يكاد أن يكتنفه هائلا مخيفا ، لمكن الشاب لم يكن يفكر فى كل هذا ، وإنما انحصر تفكيره فى الناب السيفى ، فقد كان يعلم مقدار حدته وتأثيره . لوأن العملاق أعطى فرصة مهما كانت ضآلتها لإستعمال هذا السلاح الحاد ، لـكان فى هذا القضاء المبرم على الشاب ، والفتاة ، والذئب . لم يتوقف عن اندفاعـه حتى كان على قيـد خطوات من غـريمه ، وبـدلا من أن يقـذف الحربة ، اندفع بها إلى الـكتف العارى يطعنه ، وبحركة سريعة جدا على حجمه تنحى العملاق عن طريق الحربة وفى الوقت نفسه ألقى بالفتاة والخنجر على الأرض ، وانتزع الحربة من يد الشاب ليطوحها بعيدا . كانت حركة ثلاثية

سريعة إلى حد أن الشاب فوجىء بها فلم يستطع أن يفعل حيالها شيئا . وكان خطأ العملاق الأول أنه حاول أن ينحنى ليلتقط الخنجر من الأرض ، مما أعطى الشاب فرصة ليسترد توازنه ، وليقفز فى الهواء ضاربا وجه عدوه بكلتا قدميه . كانت الضربة من الشدة بحيث ألقت بالعملاق على مسافة كبيرة ، وكادت أن تكسر ترقوته ، فى حين وقع الشاب على الأرض إلى جوار الخنجر .

فى لحظات إنقلب الموقف تماما . لقد تناول الشاب خنجره ، وامتدت يد العملاق إلى الهراوة . إعتدل الاثنان فى وقفتيهما وبدءا يدوران حول بعضهما فى حذر يرقبان كل حركة قد يأتى بها أحدهما . كانا يعلمان أن القتال فى هذه المرة لا بد أن ينتهى بموت أحدهما ، أو ربما بموتهما معاً ، لهذا فقد راح كل منهما يزن غريمه . رأى الشاب عينى العملاق الضيقتين ، وهما ترقبان كل حركة يأتى بها . كانتا عينان ظهر الخبث والقسوة فيهما جليا ، كما ظهر شعور آخر ، هو أقرب إلى أحاسيس الإنسانية ، شعور بالكره ، ممزوج بالخوف . ولاحظ الشاب أن الجرح فى كتف العملاق قد فتح ، وأن الدماء عادت تنزف منه . لكن الجسد الحديدى ما كان ليأبه بمثل هذه الترهات ، ومع هذا فقد كا الشاب يعلم أنه لو استمر نزيف الدماء مدة كافية فقد يفقد العملاق قوته الهرقلية ليكون فريسة سهلة له . لكن الشاب بدوره كان متعبا كما لم يكن عنده من الوقت ما يكفى لاضاعته فى إستنزاف قوى غريمه إذ كان يفكر فى رفيقه الجريح الذى تركه تحت رحمة الضباع . وأنه من المحتم عليه أن يعود إليه سريعا .

حانت من الشاب إلتفاته سريعة إلى الفتاة . فرآها مسجاة على الأرض حيث ألقاها العملاق ، لا حركة لها ولا حياة ، كما لاحظ كدما فى جبهتها . فلعل العملاق ضربها ليفقدها وعيها ليمنعها من الصراخ . وانتهز العملاق فرصة الثانية التى تحول فيها نظر الشاب عنه . وبادره بضربة من الهراوة ، لو أنها أصابت لكانت فصلا الخطاب . لكن الشاب كان ينتظر هذه الحركة ، بل لعله قد حول نظره عن غريمه ليغريه بأن يقدم عليها ، وما كاد أن يفعل حتى عرف خطأه الثانى بعد فوات الفرصة . فى خفة القط تنحى الشاب عن طريق الهراوة ليندفع العملاق من قوة الضربة إلى الامام ، وفى شراسة النمر ، إرتفع الخنجر ليهبط

على الجسد مرتين متتاليتين بسرعة البرق . أن العملاق ، وترنح ، واندفعت الدماء من الجرحين الجديدين الغائرين . لكنه أدهش الشاب ، وأخذه على حين غرة حين تحركت الهراوة بحركة عكسية لتصيب يده ، وتطوح منها الخنجر . أحس بأن الهراوة قد كسرت عظام يده وشلتها عن الحركة ، كما شعر بالآلام حادة ترتد إلى الذراع كله لتصدم بالكتف .

رأى العملاق الشاب وقد أضحى أعزلا من سلاحه ، فارتد بسرعة وأخذ يطوح بهراوته فى ضربات متتالية عسى أن تصيبه احداها فيكون فيها نهاية الحركة . وتراجع الشاب أمام الثورة العارمة . وتناسى مؤقتا يده ، وراح يتفادى طريق الهراوة ما أمكنه ذلك . وأصابته ضربة على جانب كتفه ألقت به على الأرض ، لكنها لحسن حظه لم تصب عظاما ، ومع هذا ، ومع أنها كانت ضربة ضعيفة نسبيا الا أن الآلام انتشرت فى جسده ، وصرخ العلاق صرخة النصر حينما شاهده ملقى على الأرض وقد أذهلته الضربة ، فألقى بهراوته ثم ارتمى عليه بجسده . واستعاد الشاب وعية بسرعه ، ورفع رجليه لتصيبان الجسد الضخم المندفع فى أسفل البطن ، ولتطوحانه بعيدا عنه . وصرخ العملاق ولكنها فى هذه المرة كانت صرخة ألم ، وليست صرخة انتصار .

وارتد الإثنان يقفان . كانت يد الشاب تكاد أن تكون مشلولة تماما ، وتردد الآلام فى كل جسده ، فى احين وقف العملاق يترنح وقد تسربل فى حلة من الدماء التى كانت تنزف من جروحه بغزارة . والتحم يبغى القضاء على غريمه . واعتمد العملاق على قوة ذراعيه فأطبق على الشاب ، وطوقه بهما يهزه كأنما يخرج منه الحياه . شعر الشاب بطوقين من الفولاذ يلتفان حوله ، وبأنفاسه تضيق ، فراح يكيل اللكمات على الوجه القريب منه . انبثقت الدماء من وجه العملاق ، لكن ذراعيه لم تتراخيا ، بل جمع كل قوته ، وإزداد هصرا لغريمه . وأطبقت أسنان الشاب الحادة فى العنق الضخم ، بينما راحت الأظافر تقطع فى جلد الوجه الكئيب ، ومازال الذراعان يطوقانه بالقـــوة نفسها ، وكأنه كان ينحت فى صخر صلد .

أحس الشاب بأنفاسه تتالى بسرعه ، وبالدنيا تدور ، واشتد الظلام أمامه ،

وعلم أن قواه بدأت تخور ، وأن عظام صدره قد تتكسر تحت الضغط الهائل الذى يدفع الهواء من رئتيه ، ويمنعه من الدخول ثانية إليهما . تملكه جنون فراح يكيل اللكمات لغريمه فى كل جزء طالته يداه فى محاولة أخيرة الفكاك من الطوق الفولاذى الذى لم يرتخ لحظة واحدة . وفجأة نامت الركبتان عن حمل الجسد الضخم ، ولم يعد فى مكنة العملاق أن يتحمل من العقاب أكثر مما إحتمل فخر على الأرض كأنما هو جبل ينهار . وتراخى الذراعان الحديديان ليهبطا فى محاولة يائسة لحماية الجسد من الإنطباح على الأرض . أحس الشاب بالهواء يندفع إلى صدره ، بالحياة تعود إليه . لم يتوقف عن كيل الضرب بجنون إلى غريمه الذى لم يعد فى استطاعته حتى مجرد تحريك ذراعه للدفاع عن نفسه ، أو حمايتها من السيل المنهمر .

بالرغم مما عاناه العملاق فقـــد امتد الذراعان الحديديان ليقبضا على ساق الشاب ، وترغمانه على الركوع على الأرض . وتبادل الإثنان اللكمات ، وإنبثقت الدماء من وجهيهما وجسديهما . وشعرا بأن عظام أصابعهما تتكسر اثر كل لكمة ، ومع أنه كان من الواضح أن القوة الجسدية لكليهما قد إنتهت ، أو شارفت على الإنتهاء ، فإن القتال استمر بمجرد الإرادة البحتة . اختلطت الدماء بالتراب ، فكان منظرهما بشعا . وجاء وقت لم يستطع فيه أيهما أن يحرك ذراعه ، فانتقل القتال إلى الخربشة ، وتمزيق الجلد ، والقضم بالأسنان .

ووقع الجسدان على الأرض من الإرهاق ، وما كفا عن بعضيهما . وتنبهت الفتاة فراحت ترقبهما فى ذهول ، لم يخطر فى بالها أن هذا خير وقت لها للهرب إن شاءت ، وأن أيهما لن يستطيع تعقبها . كان المنظر الماثل أمامها قد سحرها إلى درجة نسيت كل تفكير فى أى شىء آخر . فهى على مارأت فى حياتها من العنف ، والقسوة ، لم تر لمثل هذة الوحشية مثيلا . غرز الشاب أسنانه فى كتف العملاق . وحاول الأخير ، بما بقى له من قوة أن يفقـــأ عينى غريمه ، وتمزق جلد الوجه ، وما ترك الشاب كتف عدوه .

لكن القتال فى الواقع كان قد وصل إلى مشارف نهايته . فقد كان مافقده العملاق من الدماء من الكثرة بحيث لم تعد لديه القوة للاستمرار فى المعركة ، ولاحتى بمجرد تحريك يديه . أما الشاب فقد بلغ به الإرهاق حدا إضطره لأن ينتظر بين كل حركة وأخرى ، ليسترد أنفاسه الضائعة . وأخيرا لاحظ أن

غريمه لا يكاد أن يتحرك ، وإنما كانت حركته مجرد خلجات من الجسد الضخم ، وأنفاس ضعيفة تتردد ، فتوقف بدوره عن الحركة ، وابتدأ يستريح ليسترد قواه الخائرة .

حاول النهوض أكثر من مرة دون أن يفلح ، فقد خانته ركبتاه فى كل مرة ، كاد أن يسقط على الأرض ليريح جسده المرهق ، ولولا خوفه على رفيقه الذى تركه تحت رحمة الضباع لأغلق عينيه ونام . لكنه كان يعلم أن نومه معناه الحتمى أن زميله سوف يلتهم قبل إنبثاق الفجر ، كان عليه أن يقوم ، ويعود إليه مهما كلفه هذا من مشقة . استجمع إرادته ووقف فوق الجثة المسجاة ، يترنح لا تكاد ساقاه تحملانه . ولم يفكر فى أن ينهى غريمـــه بضربة حربة ، أو طعنة خنجر ، وإنما تحرك فى صعوبة ، وهو يشعر بالألم فى كل جزء من جسمه . إنحنى على الأرض يتحسس مكان السيف الثانى ، والحربة حتى عثر عليهما . ووضع الأول فى منطقته بينما تقدم نحو الفتاة وهو يتوكأ على الثانية .

رأى الفتاة تنظر إليه وقد اتسعت حدقتاها فى ذعر . ولو كان قدر له أن يرى نفسه لهاله المنظر ، ولعرف السبب فى الرعب الذى إستولى على الفتاة . كان جسده مغطى بالتراب المختلط بالدماء ، واحمرت عيناه ، وشعث شعره ، وسالت الدماء من وجهه وتدلت إحدى يديه عاجزة ، لا يستطيع حراكها إلا بالآلام شديدة ، فى حين كان يجر نفسه جرا إلى حيث تستلقى الفتاة متوكئا على حربته . وفجأة فكرت الفتاة فى أن فرصتها للهرب قد حانت ، فلن يستطيع اللحاق بها وهو فى هذه الحالة ، كما كانت تعتقد أن الذئب قد قتله العملاق . ولكن حانت منها التفاته إلى الحربه فأدركت أنه على ما به من ضعف يستطيع أن يرسلها فى الهواء خلفها ليقتلها إذا شاء قبل أن تخطو بضعة خطوات .

انكمشت على نفسها حين رأته يتقدم نحوها وينخزها بطرف حربته لتقف، ثم أشار إليها أن تسير أمامه عودا إلى الذئب .

سارت مكرهة،وجر الشاب نفسه وراءها جرا ، وتركا العملاق كومة ضخمة من اللحم ، والدم ، المختلط بالتراب ، ومع هذا فقد كانت أنفاسه مازالت تتردد وصدره يعلو ويهبط ببطء . أبت قوته الهائلة ، وحيويته الفياضة أن تترك الحياة

وأبت الحياة أن تفارقها . لم يكن القمر قد بزغ ، خيم الظلام تماما على الغابة حتى أن الشاب كان لا يكاد أن يرى الفتاة أمامه الا بصعوبة ، كان كل جزء في جسمه يتألم ويصرخ . لكن إرادته الجبارة كانت تسيره . وكاد أن يضل الطريق ، لولا أن تناهى إلى سمعه أصوات الضباع فهدته السبيل .

ووصل أخيرا إلى حيث كان يرقد الذئب . رأى قبل أن يصل إلى مكانه عيونا كثيرة تلمع في الظلام ، وسمع زمجرة رفيقه يحاول أن يخيفها ليبعدها . وأصدر صوتا أجشا متحديا فاختفت العيون سراعا ، لكنها عادت تنظر من بعيد . وأرسلت الضباع صراخا طويلا ، أجابتها عنه ضباع أخرى قريبة علم الشاب أنها لا بد تحاصر العملاق الآن منتظرة موته . وخامره شعور يشبه الأسف لأن تذهب مثل هذه القوى نهبا لآكلي الرمم .

جلس على الأرض إلى جانب الذئب مستندا إلى الشجرة ، وأشار إلى الفتاة أن تجلس إلى جواره . وكأنما أحس الذئب براحة واطمئنان لوجود رفيقه إلى جواره فوقفت زمجرته وراح في سبات عميق . وبقى الشاب يغالب النوم وينظر إلى العيون النهمة التي تلمع في الظلمة ، وترقب الجماعة في صبر . وبقيت الفتاة يقظة ترقبه في خفية ، والأفكار تتسابق في رأسها . إن فرصتها في الهرب والنجاة والعودة إلى عائلتها أقوى ماتكون في هـــذه الليلة ، فالذئب عاجز لا يستطيع حراكا ، والشاب شبه عاجز ، وحتى العملاق لا بد أنه قد مات الآن ، وأكلته الضباع ، لم تبق سوى أخطار الغابة العادية ، وما كانت لتفكر فيها إذ إعتادتها . ما عليها الآن الا أن تتخلص من الشاب ، وما أيسر ذلك بمجرد أن ينام ، وهو لا بد فاعل بعد الارهاق الذي عاناه طوال اليوم . شعرت بشيء صلب إلى جوارها فتحسسته فإذا به حجر كبير . قفز قلبها من الفرح فقد وضعت الطبيعة سلاحها إلى جوارها ، فبهذا الحجر من اليسير عليها جد أن تهشم رأس الشاب ، وما عليها الا أن تنتظر حتى ينام .

طالت النظر فرأت رأسه يميل على صدره ، ثم ينتفض مرة ثانية ليصحو ، وليعاود اغفاؤه . وبقيت متيقظة تنتظر ، ومضت ساعات ، والحال على ما هي عليه ، وكأنما يئست الضباع من الجماعة فتركتها ، ولعلها بعدئذ اتجهت لتشارك

زميلاتها فى وليمة العملاق . وبزغ القمر يرسل ضوءه بين الأشجار ليلقى ظلالا كأنما هى المردة ، والشياطين تحف بهم من كل جانب . ونظرت الفتاة إلى الشاب ، وكأنما كان قد إطمأن حينما رأى الضباع تهجرهم ، فتدلى رأسه على صدره وراح فى سبات عميق هو أقرب إلى الغيبوبة منه إلى النوم . كان الذئب بدوره نائما لا ينبىء عن حياته سوى أنفاس ضعيفة تتردد ، وتهز الجسم فى انتظام . وعلمت الفتاة أن ساعة خلاصها قد دنت ، ومع هذا فقد غالبها ما اعتادته من حرص الغابة وحذرها ، فلم تتعجل . ومضت فترة أخرى دون أن تتحرك .

أخيراً قررت أن ساعة العمل قدحانت إذ بدأ القمر فى المغيب ، ألقت نظرة أخيرة على الراقدين إلى جوارها ، وإطمأنت إلى أنهما كانا فى سبات عميق . تحركت يداها فى بطء شديد تتناولان الحجر إلى جوارها ، وما فارقت عيناها النائمين . إعتدلت فى جلستها حتى تحكم توجيه الضربة ، ثم رفعت الحجر بكلتا يديها لتهوى به على الرأس المدلى على الصدر . وفى ثوان تغير المنظر تماما ، زمجر الذئب العاجز ، واستيقظ الشاب النائم وأدرك ما يحدث . وهبط الحجر على رأسه ، لكنه تحرك عن طريقه ، وقبض على يد الفتاة بأصابع من حديد . انبطح الاثنان على الأرض . وحاربت الفتاة كالنمرة الهائجة بكل ما فيها من شباب وقوة ، فى حين لم يكن الشاب فى مكتمل قواه . علمت أنها وقد فشلت فى ضربتها فمصيرها الموت الذى لاشك فيه ، فراحت تدافع عن نفسها بكل ما أوتيت من قوة . أنشبت أظافرها فى وجهه ، وراحت تخمش جلده ، وغرزت أسنانها الحادة فى كل جزء صادفها من جسده . ولم يحاول الشاب إيذائها . وإنما قصر همه على إبعاد أذاها عنه . وتدحرج الاثنان على الأرض عدة مرات . واعتلته الفتاة تخمش جسده ، وتجذب شعره ، لكنه سرعان ما ألقاها ثانية على الأرض بدوره ، وقبض على معصميها فسمرهما فى الأرض ، وما كانت قوتها لتضارع قوته مهما كان اجهاده .

تريث الاثنان برهة يلتقطان فيها أنفاسهما . وأحس الشاب بالجسد القوى تحته ، وبالصدر الناهض يلتصق بصدره ، والأنفاس الحارة تلفح وجهه . وشعرت الفتاة بالجسد الضخم يضغط عليها يكاد أن يدفع الهواء من صدرها

دفعا ، واللحية الخشنة تلتصق بخدها الناعم ، فحاولت التملص ثانية . لكن محاولاتها إنما زادت من التصاق اللحية الكثيفة ، وضغط الجسد الثقيل . أحست فجأة أن الصراع بينها وبين الرجل قد تحول من صراع فى سبيل الحياة إلى صراع الغريزة .

تركت الطوقان الحديديان يديها ، وامتدت أصابع فولاذية تتحسس جسدها الغض فى وحشية وقسوة ، آلمت كل جزء لمسته . وانغرزت الأسنان فى شهوة فياضة فى وجهها ، ورقبتها ، وصدرها . وضاعفت الفتاة من مقاومتها ، وحاولت دون جدوى أن تلقى الجاثم فوق صدرها على الأرض . راحت تنشب أظافرها فى جلده ، وتجذب شعره ، ولحيته ، وتغرز أسنانها فى كتفه ، وتدفعه فى صدره بيديها ، وتحاول أن تلقيه عنها بساقيها . لكن الشاب لم يحاول حتى أن يدفع عن نفسه أذاها .

الفصل الخامس

العملاق

لم تكن الشمس قد بزغت حينما فتح الرجل عينيه وتلفت حوله . إلى يساره كانت ترقد المرأة نائمة ، وإلى يمينه كان الذئب . ومن الغريب أن تفكيره إتجه بصفة واحدة إلى العملاق متسائلا عما إذا كانت الضباع قد قضت عليه . هب من مكانه واقفا . وجلست المرأة معتدلة . وفتح الذئب عينيه ، وراحا ينظران إليه. أشار إليهما أن يبقيا حيث هما ، ثم انطلق مندفعا فابتلعته الغابة . كان كل جزء فى جسمه مازال يؤلمه ، كما كان وجهه متورما ، وأثر الخدوش واضحة به . لكنها كانت آلاما سطحيـــة لاتعوقه عن الحركة ، وذلك فيما عدا عظام يده التى تزايدت آلامها .

وصل إلى حيث ترك العملاق وهو واثق من أن الضباع التهمته . لكنه رأى عجبا . لم يكن العملاق فى مكانه الذى سقط فيه ، وإنما كان قد زحف حتى وصل إلى أقرب شجرة ، واستند إلى جذعها . رآه يمسك بهراوته ، وهو جالس . فقد كان أضعف من أن يقف . رأى أربعة من الضباع تحوم حوله . وشعر الرجل شعور بالإعجاب فقد كانت معجزة أن يبقى غريمه على قيد الحياة حتى الآن. صاح الرجل ففرت الضباع مختفية فى الغابة ، وأضحى هو وعدوه وجها لوجه . نظرت إليه العينان الضيقتان القاسيتان ، ولم ترتفع عنه النظرة وهو يتقدم حتى وصل إليه . وفجأة إرتفعت الهراوة الخشنة فى الهواء ، لكن الرجل نحاها عنه بيسر . وإنهارت قوى العملاق مرة واحدة ، وغشيته غيبوبة، لعلها أقرب إلى الإستسلام للموت .

انحنى الرجل ، وتناول العملاق بين يديه ثم رفعه إلى أعلى ليضعه على كتفه . والتقط الهراوة ، ثم كر راجعا إلى امرأته ، ورفيقه . ربما كان الإثنان يتوقعان رؤية أى شىء سوى أن يعود صاحبهما حاملا العملاق . ندت

من المرأة صرخة جزع ورعب ، وزمجر الذئب ، وحاول أن يقف لكن صاحبهما تقدم نحوهما بخطى ثابتة ينوء بحمله الثقيل ، ثم وضعه على الأرض برفق وجلس إلى جواره . مكث الإثنان ينظران إليه ، ودارت الأفكار فى رأس المرأة . هل أتى بالعملاق ليأكله ثلاثتهم ؟ إنها وقومها لم يكونوا يأكلون لحوم بعضهم، وإن كان الرجال فى بعض الأحيان يأكلون قلب الرجل الشجاع منهم حين يموت متصورين أن شجاعته سوف تنتقل إليهم . لكنهم كقاعدة لم يأكلوا لحم البشر . فهل يأكل رجلها لحوم البشر ؟ .

إن العملاق مازال يتنفس ، كما لايبدو على رجلها أنه ينوى قتله ، فلماذا إذا أتى به ؟ وحارت فى عقلها الإجابة . كانت تعلم أنه أتى به ليقذه من براثن الضباع ، وليحميه حتى يشفى ، ومع هذا فقد أنكرت نشأتها هذه الفكرة ، فقد كانت صبغة حياتها القتل لا الرحمة . طرحت الأفكار من رأسها . إنه رجلها وأيا فعل فهو الصواب . وودت لو أمكنها أن تنبئه أنها بحثت له فى الغابة القريبة عن ثمار ليأكلها ، لكنها لم تجد ، وأنها لما خشيت أن تفقد طريقها إلى مكانها عادت تنتظر أوبته .

ما كاد الرجل أن يستريح ويسترد أنفاسه حتى هب واقفا ثانية ، ثم انحنى ليرفع العملاق ويطرحه على كتفه ، ثم اتجه نحو الذئب ، ورفعه بين يديه مشيرا إلى المرأة أن تلتقط الرماح وتتبعه . فعلت المرأة كما أمرت ، ثم سارت خلف رجلها تتعجب من مقصده . لاحظت أنه يسير فى الاتجاه الذى جاء منه ، والذى يؤدى إلى قوم العملاق فازداد تعجبها ، لكنها كانت تعلم أنه ليس لها إلا أن تطيع .

سار الرجل بخطى بطيئة وهو ينوء بحمليه الثقيلين ، لكنه غالب التعب الذى كان يشعر به . كان يريد أن يصل إلى الجدول الذى حدثت عنده المعركة الأولى مع الرجال فبين يديه حياة إثنين يلزمها الماء أكثر من أى شىء آخر ، وليس من اليسير حمل الماء إلى مسافات بعيدة . وقطع الرهط المسافة على خمس مراحل ، لكنهم وصلوا أخيرا .

كاد الرجل أن يطير من الفرح حينما وجد شجرة ضخمة ساقطة على الأرض ، ولعل صاعقة قد انقضت عليها ، أو عاصفة هوجاء طوحت بها وضع الرجل حمليه برفق

على الأرض ، فى حمى الشجرة وأشار إلى المرأة أن تتبعه ، ثم انطلق إلى الجدول أمامه يبلل شفتيه وينعش وجهه ورأسه ، فى حين ألقت المرأة بنفسها كاملة على أرض الغدير ، وتركت الماء يجرى على جسدها .

اتجه الرجل صوب الشجرة الملقاة على الأرض ، وبدأت المرأة ترى عجبا . رأته ينحنى ليحمل الذئب برفق بين ذراعيه ثم يتجه به صوب المياه . ورأته يدنيه منها ليشرب بينما راحت يده تمسح على وجه الوحش ، وجسده فى حنو الأم . ولما اكتفى رفيقه ، أعاده إلى مكانه من الشجرة ثم كرر فعلته مع العملاق . رأت العملاق يفتح عينيه المتورمتين ، وينظر إلى الرجل نظرة من لا يصدق ، ورأته ينهل من المياه كمن لم يشرب منذ أيام . وتركه الرجل حتى إرتوى تماما ، ثم عاد وحمله كأنه طفل رضيع لا حول له ولا قوة ، وأرقده إلى جوار الذئب . وزمجر الأخير فى غضب ، لكن نظرة واحدة من الرجل كانت كفيلة بأن تسكته .

توالت الأعاجيب على المرأة ، فقد أشار إليها الرجل أن تصيد السمك ، وبدأت تفعل ذلك على طريقة قبيلتها ، بيديها . وكان صيدها بطيئا ، لكنها جمعت عددا لا بأس به . والتفتت بين الفنية والأخرى نحو الرجل . فرأته قد إنتقى جزءا معينا من فرع شجرة ، وجلس على الأرض ، وأخرج من جرابه الناب السيفى ثم أخذ يحفر فى وسط الفرع بهمة وجد . لم يمض وقت طويل حتى جوف وسط الفرع ، لكنه لم يتوقف بل استمر فى حفره الخشب حتى عمق الفجوة جدا ، ورقت الحوافى . وحمل الرجل الإناء ، وإتجه نحو المرأة ، وأشار إليها أن تنظر ، وعجبت إذ خيل إليها أنه لم يكتف فقط بالإشارة ، وإنما صدر من فمه صوت صاحب الإشارة ، رأته يغترف من جدول ليملأ الإناء ، واستقر الماء فى الوعاء حمله وسار به إلى جانب العملاق المذهول .

لم يقف الأمر عند هذا الحد من المعجزات ، لكنها ، وقد صادت أسماكا كافية جلست تطعم الذئب ، وتأكل وتراقب الرجل . رأته ينتقى أفرعا ، وأغصانا تكاد أن تتساوى فى طولها حتى تجمعت لديه كمية ضخمة منها . ورأته ينظر إلى الشجرة الطويلة الملقاة على الأرض فى تفكير ، ثم رأته وهو يتجه إلى حيث تستقر قمة الشجرة ، ومضى يبحث بين الفروع الغليظة كأنما قد فقد شيئا . وأخيرا إستقر رأيه على أنه لم يكن من المستطاع أن يقيم مأوى يضمهم الأربعة ، فلم تكن فروع

الشجرة من الضخامة كما كانت الفروع فى غابته الأولى . وانتقى مكانا تعددت فيه الفروع إلى جانب بعضها ، ونقل إليها ما اقتطعه من أخشاب . راقبته المرأة بذهول وهو يحفر فى الأرض ليضع الأغصان إلى جوار بعضها ، ثم يردمها متخذا من فروع الشجرة الضخمة سقفا يحمى من المطر ، والشمس .

مالت الشمس نحو المغيب ، ولما يكتمل سوى مأوى واحد نقل إليه الذئب بعد أن أمر إمرأته أن تجمع بعض أوراق الشجر الجافة . وللمرة الثانية لاحظت أن إشارته إليها قد صحبها صوت أجش لم تدر له سببا ، لكنها راحت تجمع أوراق الأشجار كما أمرت ، فى خفة وسرعة . وفرش الرجل جزءا منها تحت جسد الذئب ، ثم وضع فوقه كمية أخرى . كان الظلام قد حل حينما إتجه نحو العملاق ليرفعه من مكانه ، وينقله إلى جوار مأوى الذئب تحت فرع آخر من الشجرة ليعطيه بعض الحماية من الجو البارد . وأحاطه بكمية كبيرة من أوراق الشجر . وأخيرا استلقى على الأرض إلى جوار المرأة فالتصقت به تستمد الدفء من جسده الضخم .

واستيقظت فى الصباح المبكر ناعمة هانئة لترى مكانه شاغرا . استولى عليها رعب شديد فقد ظنت أنه قد هجرها . وهبت واقفة لترى العملاق مازال راقدا فى مكانه ، وقد أخذت منه الحمى كل مأخذ ، كما أبصرت الذئب وقد خرج من مأواه ، وراح يعرج فى إتجاه الغدير . تلفتت المرأة حولها فى حدة ورعب باحثة عن رجلها ، لكن الغابة ظلت صامتة إلا من أصواتها المألوفة ، طير يغنى ، وذئب يعوى ، ودب يتحدى . وجال فى خاطرها أن تجرى فى الغابة بحثا عن رجلها ، لكنها عادت فاستبعدت الفكرة إذ لم يكن هنالك أى أثر ينم عن الاتجاه الذى سار فيه .

عاودت النظر إلى العملاق الذى كان هائجا فى نومه يقاتل أعداء غير موجودين . وحارت فيما تفعل له . نظرت حولها فرأت وعاء الماء ، وإلى جواره ترك لها الرجل رمحين . تناولت إحدهما وفكرت فى أن تقضى على العملاق . لكنها تذكرت أن رجلها قد أنقذ حياته ، ولو أنه أراد له الموت فما كان أيسر عليه من أن يتركه نهبا للضباع . رأت الذئب يتجه إليه مكشرا عن أنيابه ، فدافعته بالحربة . وزجر الذئب ، ثم عاد واتجه نحو مأواه

واستلق فيه . حملت المرأة الوعاء وملأته ماء ثم صبته على العملاق الهائج ، وفعل الماء فعل السحر ، فقد هدأ العملاق فى لحظات وانقلب صراخه ، وقتاله إلى تأوهات وأنات وتململ سقيم . كررت المرأة العملية حتى هدأ المصاب تماما ، وراح فى سبات عميق .

ارتفعت الشمس فى كبد السماء ، وتناولت المرأة أحد الرحين ، وانطلقت فى الغابة تبحث عن الفواكه البرية . وسرعان ما وجدت بعضها على ضفاف الغدير وقريبا منه ، فأكلت ثم جمعت كمية منها بين يديها ، وقفلت راجعة إلى المعسكر لتجد أن العملاق قد فتح عينيه نصف مغمضتين ومضى يرقبها وهى تسير نحوه . وتجلس إلى جواره عارضة التوت البرى عليه . ولم يتمكن من تناوله بيديه فقد كان فى حالة من الضعف لم يستطع معها حتى أن يحرك ذراعه ، كما أن الجراح فى كتفيه كانت قد صلبتها ، فاضطرت أن تضع الطعام فى فمه . وأكل بشهية حتى أتى على ما جلبته ، وعاود النظر إليها ثم إلى الوعاء . وهدأت المرأة رأسه ، وأسقته ماء حتى ارتوى ، فأعادت رأسه إلى موضعها ونام .

وحارت فيما تفعل بعد ذلك حتى حانت منها التفاتة إلى الأغصان التى جمعها الرجل فهبت من مكانها ، وتناولت الوعاء الخشبى ثم مضت تجمع الفواكه البرية حتى ملأته ، وعادت إلى الأخشاب المتجمعة ، ووضعت الوعاء على الأرض ، وبدأت تقلد رجلها فيما كان يفعل .

انتصف النهار وهى تعمل بجد لا يعرف الكلال . وألهاها عملها عن أن تلتفت حولها ، لكنها توقفت حينما سمعت الذئب يزمجر ويعوى محذرا . وتركت عملها ، واندفعت نحو الحربتين فتناولت إحداها ووقفت تنصت ، تجول ببصرها فى الغابة . لاحظت أنه قد ران على الغابة صمت رهيب . حتى الطيور كانت قد توقفت عن الغناء . دب الخوف فى قلب المرأة ، وراحت تتلفت حولها فى حيرة . والتفتت إلى العملاق المسجى . رأته ينظر إليها نظرة خيل إليها أن فيها تسلية ، وفيها اعجاب . وخرج الذئب من مكمنه يجر نفسه جرا ، ووقف إلى جانب المرأة مكشرا عن أنيابه . نظرت المرأة إلى حيث اتجه نظره ، لكنها لم تر شيئا ، فجالت بنظرها فى أنحاء الغابة ثم عادت تنظر إلى الذئب . لاحظت أن نظره لم يحد عن الموضع الذى ثبت عليه أولا . وعادت تحد من

طرفها جاهدة أن تبصر ما عسى أن يكون الذئب قد رآه . خيل إليها أنها رأت حركة بين الأشجار عن بعد ، لكنها لم تكن واثقة ، وطار فكرها إلى رجلها . لو أنه كان موجودا الآن ، لكفاها هذا الرعب الذى يعتصر قلبها اعتصارا . وخطر ببالها خاطر سرعان ما نفذته . وروع الذئب إلى جوارها وهو يستمع إلى صرخة عالية أطلقتها المرأة صرخة ملؤها الاستنجاد ، والرعب . ودهش العملاق حتى أنه رفع جسده قليلا يحدق النظر فى المرأة ، ثم عاد واستلقى ضعفا من مجهوده .

كان لصدى الصرخة أثر سريع ، فقد رددت الغابة زئيرا عاليا لا يبعد مصدره عن المعسكر إلا قليلا ، ورأت المرأة على أثره جسدا ضخما يعدو بين الأشجار مندفعاً نحوها . واشتدت قبضة المرأة على الرمح فى يدها ووقفت صامتة تنتظر الهجمة ، وقد تحققت من أن خصمها نمرا ضخما . للمرة الثانية إنطلقت من حنجرتها صرخة استغاثة رددتها أرجاء الغابة ، وتوقف النمر فجأة وهو على بعد لا يزيد على عشرين خطوة من مكانها ، وراح ينظر إليها ، والذئب بعينيه القاسيتين المتوحشتين . كان المنظر فى حد ذاته يكاد أن يكون مضحكا . فمن ناحية وقف النمر فى جلال منظره ، وقوته ينظر بشراسة إلى المجموعة أمامه . وفى ناحية أخرى كان ثلاثة : إمرأة تقبض على رمح تتحدى به ملك الوحوش ، وذئب جريح لا يكاد أن يقوى على الحركة ، عملاق طريح الأرض فى شبه غيبوبة .

وكأنما أدرك النمر الموقف فلم يتعجل فى هجومه . سار بخطوات بطيئة نحو الفريسة . وقبض الرعب على قلب المرأة حتى كادت ركبتاها أن تخوناها ، لكنها تماسكت ، وازدادت قبضتها شدة على الرمح . وفجأة زأر النمر ، وقفز فى الهواء قفزة حملته المسافة الباقية حيث يقف خصومه . وطار الرمح من يد المرأة ليتلقاه فى الهواء ويصيبه فى كتفه ، وتنحت المرأة عن طريقه فى حين حاول الذئب أن يقفز عليه لينشب فيه أنيابه وأظافره ، لكن قدماه خانته ، فوقع على الأرض قبل أن تكمل القفزة . وسقط النمر على الأرض بدوره ، وزأر غاضباً . ولم تكن ضربة الفتاة من القوه بحيث يدخل الرمح فى الجسد إلى درجة يصعب إخراجه ، ولا كانت أيضاً فى مقتل ، أو مكان يعجز النمر ، ولو مؤقتا

عن متابعة هجومه . وإنما كان مافعلته الضربة أن أخرت النتيجة المحتومة لبضع دقائق. انتهزت المرأة الفرصة ، وانحنت على الأرض والتقطت الرمح الثانى ، واستعدت لمقابلة النمر .

سقط الرمح الأول من كتف الوحش فاستدار وهجم على المرأة . وطار الرمح من يدها للمرة الثانية ، لكنها كانت قد تعجلت الرمية ، فطاش دون أن يمس هدفه . وتنحت من أمام الوحش ، لكنها تعثرت فسقطت على الأرض . وبسرعة البرق ، وقبل أن تستطيع استعادة توازنها والقيام ، كان النمر قد عاود هجومه ، وانتظرت المرأة ضربة تقضى عليها ، وانتظرت الجسد الضخم يقع عليها ، وعلمت أنها لن تستطيع الحركة بالسرعة الكافية لتفادى الجسد ، أو الضربة فاستقرت فى مكانها على الأرض ناظرة برعب إلى الوحش وهو يعاود الهجوم .

لكن الهجوم لم يكتمل فقد طار رمح فى الفضاء من حيث لم تعلم المرأة ، واستقر بقوة فى صدر النمر . وامتلأت الغابة بصرخـــة ألم ، وغضب أطلقها الوحش الهائج الجريح ، فى حين قفز قلب المرأة من الفرح والأمل ، ودار بصرها إلى حيث المصدر الذى أتى منه الرمح لترى الرجل واقفا كالآلهة وقد قبض فى يده على الناب السيفى وراح يرقب النمر وهو يقفز فى الهواء قفزات متتالية كأنما يبغى التخلص من الرمح الذى دخل بعمق فى صدره . توقف النمر فجأة عن القفز ، وهجم على غريمه الجديد الذى حرمه من فريسته ، والذى سبب له كل هذه الآلام . وابتعد الرجل عن المخالب القوية ، وبحركة سريعة واثقة إعتلى ظهر النمر ، وارتفع الخنجر ليهبط مرات متتالية ، كل منها أقوى من سابقتها . تعالت صيحات النمر وزئيره ، وتقلب على الأرض محاولا التخلص من عدوه ، لكن الساقين كانتا تحيطان بجسده كسوار من حديد كما التفت إحدى الذراعين حول رقبته فى حين مضت الأخرى تكيل له الطعنات .

لم يستمر القتال طويلا فقد تغلب العقل البشرى مرة أخرى على القوة الغاشمة العمياء . همد الجسد الضخم ووقف الرجل المنتصر . وجرت المرأة إلى رجلها فخورة بما يفعل ، وتعلقت به واضعة رأسها على صدره العريض بينما راح الرجل يربت عليها فى حنان ، ثم دفعها فى رقة لاتخلو من حزم ، واستدار عائدا إلى الغابة . ولم يطل مكثه هذه المرة ، وسرعان ماقفل راجعا بعد أن رأى الضباع

قد أتت على الغزال الذى كان قد صاده ثم ألقاه من كتفه حينما سمع نداء الصرخة.

مرة أخرى شاهدت المرأة عجبا. رأت الرجل وهو يمزق جلد النمر بخنجره شاقا البطن. ولم يبدأ فى الأكل، وإنما انتقى بعض الأطايب فألقاها إلى الذئب الذى إنقض عليها نهما. وانتقى بعضا آخر ناوله للمرأة ثم العملاق، لكن الأخير رفض وراح فى غيبوبة من النوم. رأته وهو يمزق الجلد يفصله من اللحم فى تؤدة وتأن. ودهشت عما يبغى فعله حتى أنها تركت غذاءها ومكثت تنظر إليه.

أتم الرجل سلخ الجلد عن اللحم، ففرده بعناية معرضا إياه لأشعة الشمس ثم بدأ فى غذائه. وأسرعت المرأة تقدم له الفاكهة فنحاها جانبا واستمر يلتهم اللحم. وفرغ من أكله فاتجه نحو الغدير يعب الماء، ويصبه على رأسه وجسده ثم عاد متجها نحو الأغصان الباقية ليتم بها مأوى آخر الذئب. ولاحظ أن بعض الأغصان قد أضيف إلى ماسبق له إقامته فتعجب لحظة، ثم نظر إلى المرأة مستفهما. ولاح على وجهها سرور مشوب بالخوف أن تكون قد أتت مالا يرضى عنه، لكنه أشار إليها أن تأتى لتساعده. وبدأت المرأة إلى جانب الرجل فى إقامة المأوى لهما، والعملاق الطريح.

مضت الأيام سراعا تتوالى وهما فى عمل دائم. إذا لم يكن بحثا عن طعام، فإقامة لبناء، أو صنعا لأوعية. واقتطع الرجل من جلد النمر جزءا صنع منه حذاء لرفيقته، وكان فرحها به كبيرا لدرجة أنها أخـذت تجرى وترقص، وتقفز مما أطلق من بين شفتى الرجل ضحكة خشنة أجشة. وعلمها الرجل كيف تحكم الإصابة بالرمح، وأخذ يمرنها ساعات طوالا حتى كانت تخر كلالا، ولكنها فى النهاية أتقنت قـذف الرمح إلى درجة تكاد أن تضارعه هو. صنع لها خنجرا من عظام النمر، وحزاما من الجلد، واتخذ من سائر الجلد دثارا يقيهما البرد مساء. وشفى الذئب تماما، وجرى معهما فى الصيد. واطمأن إلى المرأة فعاملها كما كان يعامل رفيقه، لكنه لم يطمئن أبدا إلى العملاق، وكثيرا ما كان يزمجر حين يراه يقترب منه، ولو ترك معه بمفرده لقتله. لكن الرجل كان دائما مستعدا لهذا، فمنذ استرد الذئب صحته لم يكن ليتركه أبدا منفردا بالعملاق، وإنما كان دائما يصحبه معه أو يترك المرأة معهما.

وبدأ العملاق يسترد قوته ببطء شديد فى مبدأ الأمر ، لكنه بمجرد أن بدأ يأكل اللحم كان تقدمه نحو الشفاء بخطوات سريعة . وكتم العملاق حقيقة شفائه، واستعادته لقوته حتى خدع الرجل ، والمرأة . لكن عين الذئب المشكوكة لم تكن تدعه ، ولم تترك له أية فرصة . فاستمر فى تمثيلة الضعف ، وأنه لم يسترد قواه كاملة. ومع أن الرجل لم يكن يشك فيه إلا أنه لسبب أو لآخر كان قد أصبح دائما لا يتركه منفردا مع المرأة ، بل كان يشير إلى الذئب بالبقاء إلى جوارهما ، كما كانت أقل حركة من العملاق مساء تستصدر زمجرة من الذئب اليقظ .

وجاء يوم كان الرجل فيه متغيبا فى الغابة يصيد . وجلست المرأة فى الشمس تحاول أن تقتطع بخنجرها قطعة من جلد الغزال فى حين قبع الذئب إلى جوارها يتمدد فى كسل ظاهرى ، وراحت عين العملاق ترقب الإثنين بخبث . وفجأة ارتفعت رأس الذئب ، ومضت أذناه تصيخان السمع . وجمد العملاق فى مكانه ، وازداد تصلب جسده ، وتحول نظره عن الذئب ، والمرأة إلى الغابة عبر الجدول وراح يحدق النظر . واستمرت المرأة لاهية فى عملها فلم تعر ما يحدث حولها أى التفات . كان قد خطر فى بالها أن تقتطع قطعة من الجلد لتربط بها شعرها فمضت فى عملها دون أن تفكر فيما حولها ، مطمئنة إلى وجود الذئب إلى جوارها .

دارت عينا العملاق تحدقان فى الغابة عبر الجدول ، وارتسمت علامات الجد على وجهه ، ثم تلفت حوله باحثا حتى وقعت عيناه على غصن قريب يصلح أن يكون هراوة تليق به . وانتهز فرصة إنشغال المرأة بما تفعل ، وتركيز الذئب لكل حواسه فيما هو أمامه فى الغابة وأخذ ينتقل ببطء حتى امسكت يده الهراوة فأخفاها وراء ظهره ، وعاود نقل النظر بين المرأة ، والذئب ، والغابة .

إزدادت زمجرة الذئب ، فتوقفت المرأة عن عملها قلقة ، وألقت نظرة على العملاق الذى تظاهر بالنوم ، فحولت عينيها إلى الذئب . رأته وهو يحدق النظر فى الغابة ، عبر الجدول قلقا غير مستقر . تركت الجلد ، واشتدت قبضتها على الخنجر ، ثم هرولت إلى الرماح الملقاة على الأرض وأمسكت بإحدها ووقفت متأهبة ، لم يطق الذئب صبرا وقد علم أن المرأة قد تنبهت إلى وجود الخطر ، فاندفع عبر الجدول ليختفى بين الأشجار المقابلة فى سرعة خاطفة .

صدرت صيحة ألم وغضب ، مختلطة بزمجرات الذئب . فى لحظات تحولت

الغابة الصامتة إلى حركات وأصوات . اندفع من وراء الأشجار عدة رجال يتصايحون ، ويلوحون بهراواتهم فى الفضاء . لقد أيقنوا من مراقبتهم للمعسكر أنه لا يوجد به سوى إمرأة ضعيفة ، ورجل ملقى على الأرض لا يستطيع حراكا، وذئب . وحينما هجم الذهب على أحدهم تركوه يقاتله ، وهجموا على المرأة ، والرجل الطريح وهم موقنون من سهولة الصيد .

أطلقت المرأة صيحات إستغاثة متتالية ، وخطر فى بالها أن تولى الأدبار فهى تعلم أنها أسرع من مهاجميها . استدارت فعلا لتفعل هذا ، لكنها رأت رجلين يبرزان من خلفها فى الغابة ، لقد أتقن المهاجمون حبك المصيدة . وطار الرمح من يدها ليستقر فى صدر أحد المهاجمين ، صرخ الرجل من الألم وسقط على الأرض يتلوى ، محاولا إخراجه من صدره فى حين هجم الباقون على المرأة غير معتنين بأن يستعملوا هراواتهم . وتلقاهم خنجر حاد أسقط رجلا آخر يتلوى من الألم ، وقد انبثق الدم من جنبه . ودارت المرأه بينهم كاللبؤة الهائجة تطعن كل من يصادفها ، لكنهم كانوا قد أحاطوا بها ولم يكن هنالك أى أمل فى أن تستمر مقاومتها طويلا . أخيرا رفع أحدهم هراوته ليقضى عليها . لقد أرادوا أن يأخذوها حية وليعودوا بها إلى قبيلتهم ، أما وقد أبدت هذه المقاومة ، وفى يدها هذا السلاح الحاد فلم يكن هنالك أيسر من تهشيم رأسها . ارتفعت الهراوة فى الهواء ، وقبل أن تهبط على الرأس إندفع عبر الجدول سهم مارق ليقفز على الرجل ، ويلقيه أرضا . وتملك الرجال الذعر للحظات من هذا الوحش الذى لا يعرف الخوف إلى قلبه طريقا ، فتفرقوا سريعا تاركين زميلهم على الأرض يمزقه الذئب بأنيابه ومخالبه .

انتهزت المرأة الفرصة وتناولت رمحا آخر ، واعتدلت شعثاء ممزقة الجلد متحدية . وتجمع الرجال مرة ثانية وقد قبضوا على هراواتهم مصرين على إنهاء المعركة . طار الرمح الثانى فسقط أقرب المهاجمين . وأوقف تقدمهم للحظات ، لكنهم سرعان ما تصايحوا ، واندفعوا يقطعون الخطوات الباقية بينهم وبين المرأة والذئب .

فجأة وقف أمامهم العملاق ، وكأنما انشقت الأرض عنه . ولم تكن دهشة المرأة لتقل عن دهشة المهاجمين وهم يعتقدون أن الجريح لم يكن ليستطيع

حراكا فأهملوه ، وإذا بهم يرونه قد ظهر أمامهم فجأة يطوح هراوة غليظة ويصيح صيحة قتال منكرة ، ويقف سدا منيعاً بينهم وبين بغيتهم ، المرأة والذئب . ترددوا برهة قبل أن يستعيدوا جأشهم ويعاودوا هجومهم أشد ضراوة . وانتهزت المرأة الفرصة، وأطلقت ساقيها للريح فى حين وقف العملاق يقاتل عشرة رجال أو يزيد .

ارتفعت الهراوة الضخمة لتهبط على رءوس الرجال . وتساقطوا حوله كالذباب . وأصابته ضربات هراوات ثقيلة فى كتفه بل فى جانب رأسه ، وكل جزء من جسمه تقريبا . وانبثقت الدماء من أكثر من جرح ، لكنه استمر يقاتل . واستمر الرجال يتساقطون . واندفع الذئب فى وسط المعركة ينشب مخالبه فى هذا ، ويغرز أنيابه فى ذلك . لكن ما كانت شجاعة الذئب ، ولا قوة العملاق لتجديان أمام الكثرة العددية الفائقة . ولم يكن هنالك شك فى النهاية المحتومـــة .

إندفعت المرأة فى الغابة بأسرع ما تستطيع أن تحملها ساقاها ، وأطلقت صرخة إستنجاد أخرى رددت أصداءها الأشجار . ولم تكد تبعد عن مكان المعركة بأكثر من مائة متر حتى برز من وراء إحدى الأشجار جسد ضخم لم تستطيع فى جريها أن توقف نفسها قبل أن تصدم به . كادت تصرخ فزعا ، لكن الذراع الذى أحاطها فى قوة وحنان ، جعلها توقف الصرخة قبل أن تخرج من حنجرتها . فى لهفة أشارت إلى مكان المعركة ، ووجدت نفسها تتمتم بأصوات لا تعرف كنهها أو معناها ، لكن لم يكن هنالك شك فى أن الرجل قد فهم ما ترمى إليه إذ نحاها جانبا ، واندفع بكل سرعته لنجدة رفيقه والذئب .

جرت المرأة خلفه وقد زايلها الخوف ، فما كان مكانها إلا حيثما يوجد الرجل ، ولو فى وسط الجحيم . كانت ثقتها فيه ، وفيما يستطيع عمله تجاوز كل الحدود بعد أن رأته يصرع النمر ، ويصنع المعجزات بيديه ، من أفرع الشجر ، وجلود الحيوانات وعظامها . ولم تأخذ المسافة منهما أكثر من دقيقة حتى وصلا إلى مكان المعسكر .

كان المنظر الذى جابهما قد بلغ منتهى الروعة والرعب .

رأيا العملاق ما يزال واقفا وقد كسته الدماء فكأنه تسربل فى حلة كاملة

منها . كانت الهراوات ترتفع ، وتهبط على جسده دون أن يحاول حتى مجرد تفاديها ، بينما كان يقبض على هراوته بكلتا يديه ويضرب بها بكل ما أوتى من قوة . وكان الذئب من ناحية أخرى يهاجم بلا توقف ، لكنه كان فى الوقت نفسه يتفادى الضربات المنهالة من كل جانب ، بل أنه كان أحيانا يبتعد عن مكان المعركة ليعاود الهجوم من جديد . وتناثرت فى الأرض أجساد ضحايا العملاق ، والذئب ، فأعطت المعركة منظرا رهيبا بشعا .

لم يضع الرجل لحظة ، قذف الرمح من يده بقوة ليستقر فى ظهر أحد الرجال المهاجمين وينفذ من صدره . وصرخ الرجل صرخة الموت ، ووقع على الأرض يتخبط فى دمائه . وفوجىء المهاجمون بعملاق آخر يهبط فى وسطهم وقد إستل خنجرا حادا يضرب به يمينا ويسارا ويثخنهم بالجراح . وتساقط الرجال على الأرض يتلوون من الألم ، وتعالت أناتهم وتأوهاتهم . وأعطى ظهور الرجل ودخوله المعركة قلبا جديدا للذئب والعملاق فتضاعفت قوتهما وحملا على الباقين حملة صادقة .

رأى المهاجمون العملاق الجديد ينضم إلى الفئة المقاتلة ، ورأوا مافعله فيهم سلاحه الحاد . كانوا قد ذاقوا من هراوته ، وأنياب الذئب ما فت فى عضدهم ، فكان تدخل الرجل بقوته الحديدية فى المعركة فصل الخطاب . أطلقوا لسيقانهم العنان يلتمسون النجاة . وتوقف الرجل والعملاق عن القتال فى حين اندفع الذئب وراءهم ليلحق بأحدهم على الأرض فى مياه الجدول ، وينشب مخالبه فى كتفه وليغرز أنيابه الحادة فى رقبته القصيرة ، ولم يدعه حتى إكتسى الجدول بالدماء ، وحتى خمدت الحركة تماما .

وقف الرجلان يرقبان القتال إلى أن انتهى ثم تبادلا النظرات ، وأشار الرجل إلى العملاق بأن يذهب بعيدا عن الثلاثة ، وهز العملاق رأسه نفيا . توعده الرجل بخنجره ، لكن الثانى تراجع إلى الخلف ، وهز رأسه نفيا . وأمسك الرجل بأحد الرماح وصوبه نحو صدر العملاق فجرى الأخير بعيدا حتى احتمى خلف احدى الأشجار ، ووقف منتظرا .

ورأى الذئب رفيقه يطارد العملاق ، فاندفع نحوه مطاردا ، لكن الهراوة ارتفعت فى الهواء مهددة ، ولم يتحرك العملاق . ووقف الذئب مزمجرا ينتظر

فرصة للهجوم ، لكن الرجل ناداه ، فترك مكانه متبرما . استمر الرجل ينظر إلى العملاق قليلا وهو يفكر . لماذا تصنع المرض فى حين كان قد استرد قواه كاملة ؟ هل كان يبغى إنتهاز فرصة ليقتله وامرأته ، ورفيقه ؟ إذا كان هذا فانه لابد أنه قد سنحت له فرص كثيرة فلماذا لم ينتهزها ؟ ولماذا انضم للمرأة والذئب ضد رفاقه مع علمه بأنهم لولا وصوله لكانوا قتلوهما لا محالة ؟ وأخيرا لماذا لا يريد الآن أن يتركهم ويذهب إلى قومه ؟ ولماذا لم يقاتل حينما هدده بالخنجر ؟ لا يمكن أن يقال إنه جبن أمامه فهذا فرض مستبعد . إنه لم يجبن أمام الذئب ، وإن كان قد تحرج من أن يهبط عليه بهراوته فعلا . ما هو غرضه إذا ؟ ولماذا تصنع الضعف فى حين كان فى كامل قوته ؟ وقفزت الإجابة إلى ذهن الرجل .

لقد تصنع العملاق الضعف حتى لا يطرده الرجل ، أنه يريد أن يبقى إلى جواره ويتبعه ، ولهذا قاتل أهله إلى جوار الذئب ، والمرأة ، ولهذا أيضاً لم يقبل أن يقاتله حين تحداه ، وانما إبتعد إلى مسافة كافية تقيه شر الخنجر ، والرمح ولهذا أخيرا يقف ناظرا إليه منتظرا . وعاود النظر إليه فرآه يخالس النظر مترقبا ، فأشار إليه بالقدوم . وكطفل صغير فاز فى النهاية بأمنيته ، إندفع العملاق قافزا فى الهواء ، وأخذ يرقص رقصات تنم عن سروره وفرحه . وزمجر الذئب ثم هدأ وكأنه قد فهم . وتطلعت المرأة إلى رجلها مستفهمه . ولما لاحظت أنه لا ينظر إليها ، وإنما يرقب العملاق أدارت وجهها بدورها ترقبه .

ومنذ هذه اللحظة أصبح الرهط رجلا وأمرأة ، وعملاقا ، وذئبا .

° ° °

لم يضع الرجل وقتاً ، فقد كان يعلم أن مهاجميهم سوف يعودون ثانية ، وفى هذه المرة سوف يكونون أكثر عددا ، وحذرا ، وربما لن يكونوا هم سعداء الحظ كما كانوا فى القتال الماضى . أشار إلى العملاق والمرأة ، وبدأ يحمل ما يرغب من متاع . الرماح ، والأوانى ، والجلود . وشاركه رفيقاه ، فلم تمكن إلا بضع دقائق حتى كان المعسكر خاويا إلا من بضع قطع من الأخشاب . وسار الرهط يتقدمه الرجل ، كل بحمله إلى حيث تقودهم أقدامهم . واتجه بهم الرجل نحو الجبل وإن لم يتخذ طريقا مستقيما .

مضت أيام كثيرة وهم فى سيرهم متجهين دائماً إلى الشمال . وازداد الجو برودة ، ولاحظت المرأة وهى تحمل بعض جلود الحيوانات التى صادها أن جسدها دافىء حيثما لامس الجلد . فحاولت أن تدثر نفسها بإحداها ، لكنه كان يسقط من عليها ، كما كان يعوق حرية حركتها إلى حد ما . وإزدادت وطأة البرد ، وبدأ هطول الأمطار بصورة شديدة متوالية إضطرتهم فى نهاية الأمر إلى التوقف عن السير . وأشار إليهم الرجل ، وبدأ ثلاثتهم فى إقامة معسكر يحتمون فيه من عنف الطبيعة وقسوتها . وأقيم المعسكر فى هذه المرة بسرعة عجيبة إذ كان فى معونة العملاق سند قوى . وابتدأت الرياح تعصف ، والأشجار تتمايل مهددة بالسقوط . ورعدت السماء وبرقت ، ولم يكن أمام المرأة إلا أن تنكمش فى صدر الرجل . وتدثر الجماعة بالجلود فى مأواهم ، ولكنها لم تكن كافية لحمايتهم من الزمهرير الذى أطبق .

ومضت أيام أخرى ، وقل الصيد حتى كاد أن ينعدم . وزادهم الجوع بردا ، وزادهم البرد جوعا . ولم ترحمهم الطبيعة ، بل زادت من قسوتها ، فاشتدت الرياح حتى كانت تتخلل الجدران المصنوعة من أفرع الأشجار المتراصة فتحيل مأواهم إلى مثلجة ، بل أنها انتزعت أكثر من مرة الأغصان ، واضطروا إلى إعادتها إلى موضعها . كانت الشمس تقضى أياما مختفية وراء السحب لا تظهر . وبدأ هطول الجليد ، وازدادت الحيوانات شراسة إذ أمضها الجوع ، وكان عواء الذئاب يصل إليهم بصفة تكاد أن تكون مستمرة . وخدمهم الحظ مرة فاصطادوا وعلا كبيرا كفاهم غذاء لأيام لم يحتاجوا فيها حتى لمجرد الخروج من المأوى ، وفى هذه الأيام حدثت أشياء كانت نقطة فصل فى تاريخ البشرية .

كانت المرأة تقطع بعض الوقت فى التسلى بمحاولة عمل أوانى خشبية مقلدة فيها رجلها ، وأخذت قطعة من فرع وبدأت تفرغ وسطه بخنجرها العظمى . وكان الرجل والعملاق يرقبانها فى سكون . وبدون سبب مفهوم كان الرجل يكثر التحديق فى قطعة الخشب فى يدها . لقد لاحظ أنها جافة تماما . وانتقل ذهنه إلى الاكتشاف الذى اكتشفه فى الغابة الأخرى منذ مدة طويلة مضت ، وبرز عقل الإنسان كاملا كما برزت طباعه . أراد أن يفاجىء رفيقيه بمعرفته ، ويظهر لهما تفوقه العقلى عليهما . وفوجئت المرأة بالرجل يقفز من مكانه ويتناول منها

القطعة الخشبية . ثم إزداد عجبها حينما بدأ يبحث بين الأغصان المتراكمة حتى إستخرج قطعة أخرى . ثم جمع بعضا من أوراق الشجر الجافة ، وبدأ يحك قطعتى الخشب . وراقبه العملاق والمرأة وهما فى دهشة بما يفعل . واستمر الرجل فى عمله مدة طويلة حتى أن مراقبيه سئما النظر ، فبدأت المرأة تتسلى فى عمل آنية من قطعة أخرى من الخشب ، فى حين ، أسلم العملاق نفسه للنوم .

توقفت المرأة عن عملها مرسلة صرخة فزع . وهب العملاق من نومه جزعا إذ وصلت إلى أنفه رائحة دخان ، وراح الإثنان ينظران بهلع إلى الرجل وما يصنع . شاهدا دخانا يخرج من إحدى قطعتى الخشب دون أن يشاهدا نارا . ورأيا الدخان يتكاثف كأنما بفعل قوى سحرية . ثم فجأة أمسكت النار كأنما من القدم فى أوراق الشجر الجافة . وإنكمشت المرأة فى ركن من المأوى هامة تنظر إلى النيران بدهشة ، فى حين تراجع العملاق بعيدا عنها ، ومضى يتلفت حوله كأنما يبحث عن مفر . وهب الذئب واقفاً . لكنه ، وكأنما تذكر ما كان يفعله رفيقه منذ مدة ، عاد واستقر مطمئنا . نظر الرجل إلى النار بفخر ، وأسرع يغذيها بأوراق الشجر ، ثم بأغصان رفيعة . وإزدادت النار إشتعالا ، ودمعت أعينهم من الدخان المتكاثف فى مبدأ الأمر حتى أن الذئب فضل الخروج إلى العراء والزمهرير على المكث فى المأوى ، لكن سرعان ما إستقر الدخان فى عمود واحد . ودخل الذئب المأوى .

لكن تسلية الرجل ، وهلع المرأة والعملاق ، وعدم اكتراث الذئب ، انقلبت جميعا إلى ألوان أخرى من الأحاسيس حينما بدأت النار تشيع الدفء فيما حولها ، وشعر الرهط لأول مرة منذ أيام طويلة بحرارة حقيقية تنفذ إلى أجسامهم . ومنذ هذه اللحظة أصبح الانسان سيد العالم ، فقد بدأ إستعمال النار ، ولم يخمد لها أوار بعد هذا ، أو يكاد .

مع الزمن ، وبالمران ، تحسن إستعمالهم لها ، فعلموا أن الدخان أقل ما يكون حينما لا تكون هنالك رطوبة فى الأخشاب المستعملة فبدأوا يختزنون الأخشاب داخل المأوى ، بعيدا عن عوامل الطبيعة . وزال خوف المرأة والعملاق منها ، بل إنهما كانا يقتربان من وقت إلى آخر ، لكن الرجل أضحى

أمامهما إلها . ولا عجب أليس هو صانع النار ؟ ولم يجرؤ عقلهما على تصور أن فى إستطاعتهما أن يفعلا مثله ، فقد بدا عندهما أنه يتمتع بقوة سحرية . أليس هو صانع الخنجر ، والحراب ، والأوانى ، والجلود ، والمأوى ؟ من كان يستطيع أن يفعل هذا لو لم تكن لديه قوة خاصة ؟

التقطت أنوف الحيوانات رائحة الدخان فابتعدت عن المكان . حتى أصوات الذئاب ، لاحظت الجماعة أنه قد نأى قليلا . دفعة واحـــدة ، عاشت الجماعة فى دفء ،وأمن . ولم يقتصر الأمر على هذا . لقد تذكر الرجل أيضا حريق الغابة ،وتذكر اللحم المحترق الذى أكله ، وأن بعضه الذى مسته النار لم يكن سوء الطعم ، نظر إليه الاثنان مشدوهين وهو يقتطع قطعة من اللحم ويقربها من طرف النيران لتحترق قليلا ثم يبدأ فى أكلها . عرض قطعة على المرأة فأخذت منها خائفة ، وأشار إليها أن تأكل مصاحبا إشارته بصوت آمر ففعلت ، وإستساغت طعمها ، وفعل مع العملاق مثل مافعل معها ، لـكن العملاق لم يستسغ طعم اللحم المشوى، وإن كان لم يأنفه .

وهكذا أضحت النيران دفئا ونورا وأمنا ، ووسيلة لطهو الطعام .

الفصل السادس

الصائد والفريسة

جاء صباح يوم لاحظ فيه الرجل أن اللحم بدأ يتناقص ، وأن عليهم أن يبدأوا فى البحث عن فريسة أخرى . وهنا ظهر العقل البشرى مرة أخرى ، فقد إعتادت الحيوانات الا تفكر فى طعام الغد ، طالما كان لديها ما يكفيها اليوم ، أما الرجل فقد كان يفكر فى غده . رأوه وهو يقتطع قطعة كبيرة من اللحم ، يعطيها العملاق مشيرا إليه بحملها ، ودهشت المرأة وهى تراه يخرج من المأوى ليجمع لها عددا ضخما من الأغصان ، والخشب ويلقيه إلى جانبها . أشار إليها أن الباقين سوف يخرجون للبحث عن طعام ، وأن عليها أن تبقى . لاحظت المرأة أن الرجل كان دائماً يلقى أوامره بالاشارة ، ويصاحبها بأصوات تصدر من حنجرته . ولاحظت كذلك أن الاصوات ، وإن كانت تبدو واحدة إلا أنها فى الواقع تختلف فى طبقاتها ، والأحاسيس التى توحى بها . بل إنها لاحظت أنها هى نفسها بدأت تقلده فى هذا ، وأنها كثيرا ما صحبت إشارتها بأصوات غير مفهومة . لكن استعماله للصوت كان أكثر تقدما بمراحل ، فقد كان هو الآمر .

إتجه الرجل نحو مدخل المأوى ، فقابلته صرصر عاتية أعادته ثانية يفكر . إنه سوف يخرج ليصيد فريسة فى هذا الزمهرير ، وقد يمكث وصاحبه يوماً ، أو أياما ، وبذا سوف يضطران إلى المبيت فى العراء ، فى هذا البرد القارص . عاد ثانية فتناول جلد النمر ، وبعض الرماح ، ثم ناول العملاق جلد الوعل ، وأشار إليه أن يتبعه . خرج الاثنان يتبعهم الذئب ، وكان منظرا فريدا لم تشهد الغابة مثيلا . رجل متكامل ضخم البنية يحمل رماحا ، وجلد نمر ، ويتمنطق بسير من الجلد يتدلى منه ناب سيف ، ويحتذى حذاء من جلد . وعملاق لم يصل فى تطوره إلى مرتبة الإنسان العاقل الكامل ، وإن يكن أعلى بمراحل من أشباه

الإنسان ، ألقى على كتفه العريض جلد وعل ، وتهتز فى يده هراوة ضخمة ، وحول وسطه حزام جلدى يتدلى منه خنجر من العظم ، انتعل بدوره قطعة من الجلد . وذئب ضخم بادى القوة والشراسة ، ومع هذا فقد كان يسير إلى جوارهما فى دعه وسكون .

نمى إلى الرهط عواء الذئاب الجائعة تردد أصداءه أشجار الغابة . وسار الثلاثة ينتزعون أقدامهم فى الجليد المتراكم ، وهم يتلفتون فى كل مكان بحثاً عن صيد . لكن الغابة بدت وكأنما قد هجرتها حيواناتها ، بل وطيورها تماما . بدت الأرض أمامهم ناصعة بيضاء لا أثر فيها للحياة . وتفرعت دروب الغابة فسرجوا فيها يتلصصون دون جدوى . اشتدت الرياح ، وهطل الجليد ، يبرأ أبدانهم ، وأضحى السير عسيراً فى أكوام الثلج المتزايدة ، وما زال لا أثر لحيوان . أكلوا بعضا من اللحم معهم ، لكن الرجل كان يوزع بقدر ، فما أشبع اللحم جوعهم ، أو ملأ بطونهم . غابت الشمس ، واستند الرجلان إلى جذع شجرة وتدثرا بالجلدين ، وما كفياهما لسعة البرد . والتصق الذئب برفيقه يبغى الدفء ، ويشيع فى جسده الحرارة . وعلى طوى ، نام الثلاثة إلى صباح يوم تال .

استيقظ الرجل مع بزوغ النهار وقد شعر بأن جسده قد تصلب من شدة البرد . والتفت إلى جواره فافتقد الذئب ، لكن العملاق كان ما يزال نائما . أخذ يدلك وجهه ، وجسده بيديه عسى أن يشيع فيها بعض الحرارة . واستيقظ العملاق . وشعر بالبرد بدوره ، فراح يقلد الرجل فيا يفعل . وناوله الرجل قطعة من اللحم ، وتناول مثلها ، وراحا يأكلان . لم يكن الجو بأحسن مما كان فى اليوم السابق بل لعل الرياح قد إزدادت شدة ، والبرد قسوة . حاول الرجل أن يتدثر بجلد النمر ، لكنه كان دائما يقع منه ، وأخيرا وضعه حول وسطه وربط الحزام الجلدى فوقه . وقلده العملاق ، وشعرا بدفء نسبى ، لكن رأسيهما ، وصدريهما كانا مازالا معرضين للسع الجو . وقبل أن يتحركا حضر الذئب يحمل بين فيه أرنبا بريا . تناوله الرجل منه وأعطاه من لحم الوعل قطعة كبيرة نسبيا ، ثم بدأ فى سلخ فراء الأرنب وانتهى من عمله بسرعة من أضحى خبيرا ، وكاد أن يلقى بالفراء جانبا ، لكنه عاد فراجع رأيه ووضعه

على رأسه ولف أطرافه حول صدغيه . وازداد دفئا . راقبه العملاق فى تعجب عما يفعل ، فقد كانت الحياة معه مليئة بالعجائب والمفاجآت .

ومر يوم ثان ، وتلاه آخر ، ومازالت الرياح على ما كانت عليه ، ولم ينقطع هطول الثلج إلا فى فترات متباعـــدة . وفرغ اللحم . حتى الذئب لم يستطع أن يجد فريسة أخرى . وبدأ الجوع يعض بنواجذه . ولم يكن الرجل ليهتم بهذا كثيرا فإنه كان يستطيع أن يعيش على جذور الأشجار مدة طويلة ، وهو ولابد سوف يعثر على فريسة فى هذه الأثناء . ولعل الحال كذلك بالنسبة للعملاق ، لكن الذئب كان لابد له من لحم ، وإلا هلك جوعا . وتعالى عواء الذئاب الجائعة يملأ الغابة . رد عليها الذئب متحديا . واختفى الذئب فى اليوم الرابع فلم يعد إلى الإثنين حتى المساء . كان واضحا أنه لم يكن أسعد منهما حظا ، فقد لحقهما منهوك القوى ، يجر نفسه جرا فوق الجليد .

كان صباح اليوم الخامس حينما شاهد الرجل حيوانا ضخما يسير فى فسحة بين الأشجار يرعى بعض العشب . ظنه لأول وهلة فيلا ، لكنه حين حقق فيه علم أنه حيوان آخر ، وإن كان يشبه الفيل إلى حد بعيد . كان حجمه يجاوز ضعف حجم الفيل العادى ، كما كان نابا ه أكبر كثيرا من ناب الفيل ، ويكون كل منهما ما يكاد أن يكون دائرة كاملة ، فى حين كانت أذناه أصغر من أذنى شبيهه ، ورأسه أقرب إلى البيضاوية منه . وما علم الرجل أن الحيوان ماموث ، وليس فيلا ، وإن كان من عائلته .

نظر الرجل إلى العملاق وإلى الذئب ، واحتار فيما يفعل . هل يجرؤ ثلاثتهم على مهاجمة هذا الحيوان الضخم ؟ إن حجمه يزيد عن خمسة أضعاف حجمهم مجتمعين ولاشك أن ضربة واحدة من خرطومه الطويل كفيلة بالقضاء على أيهم ، ثم كيف يقتلونه ؟ بالحراب أم الهراوة أم بمخالب الذئب ، وأنيابه ؟ واستبعـــد الرجل فكرة مقاتلة هذا المارد ، لكنه ما استدار إلى رفيقيه حتى رأى الجوع يكاد أن يعصف بهما . وعادت الفكرة تراوده . إنهم جميعا سوف يموتون جوعا ، وبردا ، إن لم يوجد اللحم سريعا فما عليهم لو ماتوا مقاتلين ؟ كان الرجل يعلم أنه إن كان هنالك أمل فى قتل الحيوان المارد فإنما فقط فى حرابه ، فما كانت هراوة

العملاق لتجدى فتيلا . ولا كانت كذلك مخالب الذئب . مضى يبحث متلهفا عن أغصان تصلح حرابا ، إذ لم يكن يحمل معه أكثر من حربتين ، ووجد بغيته سريعا إذ كانت الرياح العاصفة قد كسرت كثيرا من الأفرع والأغصان . وبدأ يعمل بهمة ، وجهد ليدبب رؤوس الحراب . واستمر الحيوان الضخم يرعى ، ويأكل الأغصان الصغيرة ، وأوراق الشجر الجافة . إنتهى الرجل من صنع حربتين أخريين ، ولم يكن يهمه أن تكون رأسيهما حادتين ، فقد إستقر رأيه على أن الجزء الوحيد الذى قد يصيب الحيوان بأى ضرر إنما يكن فى عينيه .

وابتدأت مجازفته الكبرى ، أعطى العملاق ثلاث حراب ، وحمل واحدة ، وتلصص متجها نحو الحيوان مشيرا إلى العملاق أن يتبعه ، ووقف الذئب ينظر إليهما فى حيرة ، غير متصور أن رفيقه قد قرر قتال هذا الحيوان الضخم ، لكنه تبعهما بغير تردد . وصعق العملاق إذ رأى الرجل يأتى الحيوان مواجهة . حتى قلبه الذى لا يعرف الخوف بدأ يخونه ، فترددت خطواته . لكنه لم يتوقف عن السير . كانت خطة الرجل تنحصر فى أن يقترب من الحيوان إلى أقصى حد ممكن ، بحيث لا يوجد مجال لأى خطأ فى إصابة الهدف ، وبحيث تكون الضربة من القوة لدرجة تكفى لأن يستقر الرمح فى عينيه ، ويدخل إلى غور بعيد فى رأسه . اختار أقرب شجرة من الحيوان . وإختفى وراءها مشيرا إلى رفيقيه بأن يستقرا خلف شجرتين أخرتين . وكادت أن تخونه شجاعته حينما رأى ضخامة غريمه عن كثب ، وتصور أى ركلة منه أو ضربة . لكنه كان يعلم أن هذه هى فرصة ثلاثتهم فى الحياة .

خرج من خلف الشجر فى بطء شديد حتى لا يلفت نظر الماموث إلا آخر لحظة . ومع هذا فقد توقف الحيوان عن الرعى ، وإستقرت عيناه عليه دون أن يرفع رأسه . جمد الرجل فى مكانه لحظات حتى عاد الحيوان إلى رعيه فازدادت قبضته على الرمح . وتقدم بضع خطوات أخرى . وللمرة الثانية توقف الحيوان عن الرعى . لكنه فى هذه المرة رفع رأسه ناظرا إلى المخلوق الحقير أمامه . وهال الرجل المنظر حتى كاد أن يطلق لساقيه العنان ، لكنه تسمر فى مكانه وبادل الماموث نظرة بنظرة . وأخيرا استقر رأى الحيوان على أن هذا المخلوق الحقير لا يمكن أن يكون منه ضرر ، فعاد إلى غذائه فى هدوء . ولم تبق بين الرجل وبينه سوى بضع خطوات ، فانتهز الفرصة وقطعها قفزا فى برهات

معدودات ، وصوب حربته ، ورماها قبل أن يفيق الماموث المذهول .
استقرت الحربة صادقة فى العين ، ودخلت إلى أكثر من ثلثها فى الرأس .
ورددت الغابة صرخة ألم وغضب ، كانت من الارتفاع لدرجة ارتجت معها
أنحاء الغابة . وهلع معها قلب الرجل فأطلق لساقيه العنان متجها نحو الأشجار .

اندفع الحيوان الهائج نحو غريمه يريد أن يسحقه سحقا ، وعلى الرغم من
ضخامة جسمه فإن حركته كانت خفيفة سريعة إلى درجة لا تكاد أن تصدق ،
حتى أنه لو تكن توجد الأشجار للحق الرجل فى لحظات . لكن الأشجار كانت
حماية كافية . وتعمد الرجل أن يجرى فى خط ملتو بحيث لا تسمح ضخامة الماموث
بسرعة الإلتواء بين الأشجار . ومع هذا فقد استمر فى المطاردة غير عابىء
باصطدامه بالجذوع الضخمة . استمر الرجل فى المراوغة عساه يفلت من عدوه
الرهيب ، لكن الماموث ظل يطارده بلا هوادة . وجرى العملاق والذئب
خلف الإثنين . وحاول الذئب مرات أن يهاجم الماموث من الخلف . لكن
الحيوان الهائج لم يشعر حتى بالمخالب القوية والأنياب الحادة ، واستمر فى
المطاردة . حاول العملاق من ناحية أخرى أن يقذفه بإحدى الحراب فى ظهره ،
لكن الحربة، على قوة الرمية ما كادت أن تمس جسد الحيوان حتى سقطت على الأرض
دون أن تجرحه . والتقطها العملاق واستمر يعدو وراء الإثنين .

بدأ الكلال يصيب الرجل ، لكنه كان يعلم أنها إن هى إلا خطوات ،
ويسحق سحقا تحت هذه الأقدام الضخمة . ضاعف من جهده وانطلق يعدو عدوا
ملتويا بين الأشجار مراعيا أن تكون وجهته المأوى ، حيث توجد المرأة .
لكن الماموث أيضا كان قد أنهكه العدو ، وزاد منه كثرة إرتطامه بالأشجار
ومحاولته اللحاق بالرجل ، كما أن الدماء لم تتوقف عن السيل من عينه المصابة .
وتوقف الحيوان الضخم يلتقط أنفاسه اللاهثة فى حين استمر الرجل فى العدو
الملتوى حتى أيقن أنه بعد عن الخطر الداهم فألقى بنفسه على الأرض لتسكين صدره
المتفجر . راقب العملاق الماموث ، ورآه يحاول أن يخرج الحربة من عينه
وخرطومه حتى أفلح بعد محاولات عدة . وازدادت آلامه من الجرح كما ازداد
تدفق الدماء ، وعلت صرخة أخرى تهز الغابة ، وترسل الرعب فى قلوب سكانها .
التقطت الذئاب الجائعة رائحة الدم فتردد عواؤها يقترب شيئا فشيئا ،

وكلما اقتربت كلما قويت رائحة الدماء ، وكلما ازداد هيجانها . وأخيرا كأنما كانت على ميعاد ، شاهد العملاق والذئب ، قطيعا من الذئاب يبرز بين الأشجار ويحيط بالحيوان المتألم . وسمع الرجل العواء ، ولاحظ إزدياد قربه ، وفهم معناه فهب من مكانه عائدا إلى حيث ترك الماموث ، فقد أبى أن تسلبه الذئاب فريسته .

فجأة سكت العواء . وران على الغابة على أثره صمت أكثر وحشة . وقفت الذئاب تحيط بالماموث هيابة أمام الضخامة الهائلة للوحش . وأبصرها الحيوان وفهم بغريزته أنها قد تجمعت للقتل ، وأنه هو غذاؤها ، فاندفع نحو أقربها إليه وتفرقت الجماعة . لكن جماعة أخرى خلفه إنتهزت الفرصة ، واستجمعت شجاعتها ، وراحت تهجم عليه . والتفت الماموث إليها وراح يضربها بخرطومه ويطأها بقدميه . وتطايرت الذئاب فى الهواء فى كل مكان ، وسحق منها إثنان ، وفر الباقون . اندفع الحيوان الضخم فى وسط الأشجار بعيدا عن مكان المعركة فى حين إنقضت الذئاب على ماقتل منها ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت قد إلتهمتها تماما ، ثم اندفعت فى أثر الماموث . وعدا خلفها الذئب ، وتبعه العملاق . ولم ير العملاق الرجل وهو يقف خلف إحدى الأشجار ، ولم يعلم بوجوده حتى أحس بيده تقبض على ذراعه . استدار رافعا هراوته ، لكنه سرعان ما خفضها حينما رأى رفيقه . وتناول الرجل منه رمحا آخر وأشار إليه أن يتبعه ، ثم انطلق يعدو وراء جماعة الذئاب .

كان الماموث ، على ضخامة جسمه خفيف الحركة إلى حد بعيد كما أن هذه الضخامة ذاتها وسعت من خطواته حتى أن الرجل والعملاق كانا يجاهدان كيما يلحقانه . ومضت ساعة وهما يعدوان تقودهما الرائحة حتى شاهدا الحيوان الضخم وهو يقف وسط ساحة خالية من الأشجار ، يجاهد حتى يسترد أنفاسه فى حين أحاطت به الذئاب من كل جانب . كان من الواضح أن الدماء النازفة من العين المصابة ، والعدو المستمر ، وقتال الذئاب قد بدأت تؤثر على قوى الحيوان المسكين ، لكنه كان ما يزال بعيدا جدا عن أن يكون فريسة سهلة . أطلق الرجل إحدى رماحه فسقط على أثره ذئب ما كادت باقى الذئاب أن تراه حتى هجمت عليه حتى قبل أن يموت ، ومزقته إربا . وانتهز الماموث الفرصة

ويبدأ عدوه من جديد . واعترض طريقه ذئب آخر كان مصيره الموت مسحقا تحت الأقدام الجبارة .

اندفع فريق آخر من الذئاب يقتطع قطعا منه ، ولم تمض دقائق حتى كان لا أثر له .

وقف العملاق دهشا ينظر إلى الرجل ويعجب عن فائدة قتل الذئاب ماداما لا يستطيعان أن يقتاتا على لحمها . وفجأة لاحظ ذئبا لم يتبينه فى أول الأمر يعدو نحوهما وفى فمه قطعة كبيرة من اللحم ، وشاهد ذئبان آخران يجريان خلفه . ووصل الذئب إليهما ، وألقى بقطعة اللحم أمامهما فى اللحظة التى هجم عليه الذئبان . وطار رمح ليسقط على أثره ذئب ، وهبطت الهراوة لتقصم ظهر آخر

وفى ثوان اختطف الرجل قطعة اللحم الملقاه على الأرض ، وجرى بأقصى سرعته يتبعه زميلاه وفى اللحظة التالية ، إمتلأ المكان بالذئاب تعوى وتنبح ، وتزمجر وهى تقضم فى جسدى الذئبين الجريحين . ولو كان الرجل والعملاق قد وقفا لقضت عليهما الذئاب الهائجة التى أعماها الدماء ، والجوع .

قطع الرجل قطعة اللحم إلى نصفين بخنجره ، وناول العملاق قطعة فى حين راح يأكل قطعته فى هدوء وهو يرقب الذئاب ، وهى تنهى وليمتها على زميليها . انتهت الذئاب من الوليمة فى دقائق أخرى ، وراحت تعدو خلف الماموث الذى كان قد إختفى منذ أمد طويل بين الأشجار . وسار الرجل وهو مازال يلتهم قطعة اللحم نحو مكان الذئاب ، التقط الرمحين ثم دار ببصره فى الغابة يبحث عن زميله الذئب ، لكنه لم يقف له على أثر ، فرجح أن يكون قد تبع الذئاب فى عدوها خلف الماموث .

لم يتعجل الرجل فى تتبع أثر الذئاب إذ كان يعلم أن الماموث وقد استرد بعض أنفاسه لن يكون فريسة سهلة ، وربما مضت أيام قبل أن تستطيع الذئاب التغلب عليه نهائيا واستمر يأكل ، ويتلذذ بغذائه غير عابىء بإشارات العملاق له زادت حيرة العملاق حين جلس الرجل على الأرض ليستريح بعد أن فرغ من تناول طعامه ، وأشار إليه بالجلوس . وترامت إليهما أصوات الذئاب تبعد وهى تقتفى أثر الماموث حتى كادت أن تتلاشى .

كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغروب حينما هب الرجل من مكانه

وأخذ يعدو فى أثر الجماعة ، المطاردة ، والمطارد . وتبعه العملاق . وأضاف الغذاء والراحة التى نعما بهما إلى قوتيهما فانطلقا كالسهمين ينهبان الأرض نهبا ومضت ساعة ، وهما يعدوان بلا توقف أو مهل . وراحت أصوات الذئاب تظهر ، ثم تعلو مع كل خطوة ، يخطوانها لكنهما لم يتوقفا عن العدو .

وفجأة قبض الرعب على قلب الرجل بيد من حديد ، فلم تتناهى إلى أنفه رائحة الحيوان الجريح والذئاب فحسب ، وإنما بدأت تظهر رائحة أخرى لا يمكن أن تتواجد إلا فى مكان واحد فى الغابة ، رائحة خشب يحترق . وخالج الرجل شعور بالدهشة إذ لم يكن يظن أنهم قد اقتربوا إلى هذه الدرجة من المأوى خاصة ، وأنه قد فارقه منذ أكثر من خمسة أيام، لكنه لم يكن قد حسب حسابا لأنهم لم يكونوا يعدون خلال الأيام الماضية ، كما أنهم لم يكونوا يسيرون فى خط شبه مستقيم ، بل كانوا يبحثون فى الغابة عن الطعام فيما يشبه الدوائر . وطفت فى رأسه أفكار سوداء . وتخيل الماموث وهو يطأ مأوى المرأة فى عدوه الجنونى . واختفت الصورة لتحل محلها صورة الذئاب وهى تقطع الجسد حيا .

الفصل السابع

قتال العمالقة

افترشت المرأة جلد الآيل ومدت جسدها العارى إلى جانب النيران تصطلى . شعرت بوحشة غريبة حينما تركها رجلها ، وذهب إلى الصيد . صحيح كان لديها مايكفيها من اللحم لأيام . وصحيح أيضا أنها كانت آمنة من تقلبات الجو وبرده ، كما أنها كانت تعلم أنها آمنة من الحيوانات الضارية طالما لم تفارق النيران أو تدعها تخمد ، ولم يكن هنالك خوف من هذا إذا كانت عندها كمية ضخمة من الأخشاب ، كما كان فى متناول يدها رصيد لاينتهى . لكنها مع كل هذا ، وهى لم تنعم بمثله مطلقا فى حياتها السابقة ، وجدت نفسها تشعر بوحشة شديدة ، وفزع كبير .

مضت الساعات الأولى من النهار بطيئة مملة لا أثر فيها لأية حياة . وحان وقت غذائها ولم تشعر بجوع أو رغبة فى الأكل ، وخطر فى بالها خاطر تقتل به بعض الوقت ، فراحت تقتطع من اللحم قطعا صغيرة وتشويها فى النيران ثم تأكلها . لاحظت أن أحسن القطع شيا هى ماجاورت الدهن ، أما غيرها فكان يكفيه أن يلمس النار . وطربت لما اعتقدته اكتشافا يذهل رجلها ، وأعطاها هذا بعض التفكير فى أن تفعل شيئا تفاجئه به حقيقة وتسعده . لكن النهار ولى ولم تفعل شيئا .

نامت الليل قلقة تخشى أن تنطفئ النار فلا تستطيع أن توقدها إذ كانت تعتقد أن رجلها ، ولا أحد سواه ، هو سيد النار . واستيقظت مرات فى وسط الليل لتغذى النار . وسمعت أكثر من مرة وقع أقدام بعض وحوش الغابة خارج مأوها ، لكن رائحة النار كانت كفيلة بأن تبعدهم . وأحست ذات مرة بجسد أحد الوحوش يكاد أن يلتصق بالأخشاب المتساندة ، وسمعت صوت تنفسه ، وخيل إليها أن جدار المأوى سوف ينهار ، لكن التنفس إنقطع بعد قليل ، وغاب الوحش فى أحشاء الغابة دون أن يحدث شيئا .

قامت من نومها مع طلوع الفجر ، وهى تشعر ببرد شديد . وحانت

عنها لفتة إلى النيران فوجدتها تكاد أن تنطفىء. فأسرعت تغذيها بالأخشاب لكنها لم تشتعل. ومضت الجذوة الخفيفة تخبو شيئًا فشيئًا، وهي تراقبها في هلع، ولا تدري كيف أشعلها. وتوالت في رأسها الأفكار المرعبة، وهي تراقب الجذوة تخبو. وارتعشت خوفًا حينما فكرت فيما سوف يفعله الرجل حين يعود ليرى النيران التي أشعلها وأمرها بأن تغذيها وقد انطفأت. ولم يخطر في بالها أن النار هي في الواقع حمايتها من البرد ومن الوحوش الليل. ولعل هذه كانت أشياء مألوفة في حياتها، لكن الرجل الإله سيد النار كان شيئًا آخر. الويل لها إن عاد ليجد ناره قد انطفأت. واستولى عليها رعب جنوني فمضت تضع في النار ما تصل إليه يداها. واستمرت الجذوة تخبو، ولعلها لو كانت تعرف الابتهال إلى الله في هذه اللحظات لفعلت. ووضعت فيما وضعت ورقة شجر جافة، ولامست الورقة النار فاشتعلت، وقفز قلب المرأة فرحًا، لكنه عاد فسقط حينما خبت النار ثانية، وبدت الجذوة أقل لمعانًا.

لكن المرأة كانت قد عرفت، فمضت تجمع ما وقع تحت يدها من أوراق الشجر الجافة لتلقيها على الجذوة حتى كادت أن تطفئها، لكنها لحسن حظها عادت ثانية إلى الاشتعال. أمسكت النيران في الأخشاب، واندلع لهيبها يتعالى المأوى. ولم تنم منذ هذه التجربة إلا لمامًا.

وعاد شعورها بالبرد أشدما كان فراحت تصطلي على النيران. وتدثرت الجلد حتى سرى الدفء في جسدها. وبدأت الساعات البطيئة تتوى بملة كئيبة. وهنا لاح الفارق بينها وبين قومها سكان الكهف الأول. فهم لم يكونوا يفكرون، إلا إذا دعت الضرورة إلى التفكير، أما إذا كان لديهم غذاؤهم، ولم يكن هنالك خطر يتهددهم، فكان يكفيهم أن يبقوا الساعات الطوال جالسين، أو نائمين. بلا تفكير أو ملال. قامت تشوي لنفسها بعض قطع اللحم، ولم تستطع ذات مرة أن تخرج قطعة ألقتها داخل النار أكثر مما يجب ومدت يدها إلى الحربة لتلتقطها بها ثم تأكلها. ومضى عقلها يفكر، فكررت العملية مرة ثانية، لكنها في هذه المرة لم تتناول اللحم بيدها، وإنما أكلت من الحربة مباشرة. وانتهت من أكلها. وعادت الساعات المملة الكئيبة تتتالى ببطء. غذت النار ببعض الأخشاب وفكرت في أن تخرج من المأوى ولو لحظات، تستغل فيها أشعة الشمس،

ولفح الهواء الطبيعى . . فارتدت الحذاء الذى صنعه له رجلها . ولفت جسدها بجلد الأيل وخرجت من باب المأوى . ولفحها لحظة خروجها هواء قارس فأحست بقشعريرة تسرى فى سائر أنحاء جسدها ، لكنها مع هذا كانت سعيدة . إذ تركت المأوى . ومضت تتطلع إلى الأشجار ، وإلى السماء كما لو كانت تراها لأول مرة . وسقطت عليها أشعة الشمس من خلال الأشجار ، لكنها كانت باردة لا حرارة فيها . وقفت برهة ثم جرت بخفة المرة إلى داخل المأوى ، وتناولت حربتين ، ثانية وانطلقت تعدو بين الأشجار فى مرح . ولم تجرؤ على أن تبتعد عن المأوى كثيرا إذ كانت فى رعب من أن تخبو النار ولا تستطيع لها إيقادا . ولم تكن تعلم أنه سوف يكون فى هذا نجاتها من موت محقق .

تهدل الجلد على جسمها أكثر من مرة وهى تسير ، فكانت تصلحه لكن بعد أن يلفح البرد جسدها . وازداد شعورها بالبرد . لكنها ما كانت تأبه له فى مرحها وسعادتها بقتل بعض الوقت خارج المأوى ، ولمحت أرنبا يجرى بين الأشجار فألقت رمحا عليه ، لكنها لم تصبه ، واختفى الأرنب . وسارت إلى الرمح تلتقطه ، ولم تلحظ وهى تفعل هذا عينين ترقبانها من وراء الشجرة اعتدلت فى وقفتها ثم استدارت لتعود ادراجها إلى المأوى وهى فى خشية من أن تنطفىء النيران . وتبعتها العينان المتوحشتان . واسترق صاحبهما الخطى فى بطء الواثق ، ولم تسمع المرأة وقع الخطوات خلفها ، فقد كان الجليد يكون طبقة على الأرض تكتم الصوت . وصلت رائحة الدخان إلى أنف المرأة فارتاحت لأن النيران لم تخب بعد ، وتمهلت فى سيرها ، غير شاعرة بالخطر الداهم الجاثم خلفها .

راقبتها العينان بنهم زائد . لم يكن صاحبهما فى عجلة من أمره إذ كان واثقا من قوته ، وقدرته على الفتك بالفريسة أمامه فى أية لحظة رغب . فراح ينظر إليها وكأنما يتسلى بمنظرها ، وهى غافلة عنه وهو على قيد خطوات منها . ونمى إلى سمع المرأة الغافلة صوت تكسر غصن صغير فالتفتت خلفها مذعورة لترى عينى الدب تنظران إليها بنهم وشراسة .

سمرت فى مكانها لحظات ، وارتفعت صرخة الوحش تهز أرجاء الغابة تعلن أنه عثر على فريسته . وفى اللحظة التالية اندفع نحوها واستعد للقفزة القاتلة ، لكن المرأة كانت قد استعادت رباطة جأشها ، وأطلقت لساقيها الريح نحو المأوى وسقط الجلد من جسدها لكنها لم تشعر به ، ولا شعرت بالبرد القارس الذى يبرأ

الأجساد . نظرت المرأة خلفها وهى تعدو لترى الدب قد أضحى على بعد خطوات قليلة منها ، لكنها أمامها أيضا كان المأوى ، وإن تكن تعلم أنها إن جرت رأسا إليه فإن الوحش لابد قاتلها قبل أن تبلغه ، فراحت تنحرف فى طريقها ، وتراوغه الخطوات القليلة الباقية ، حتى وصلت إلى المدخل فدلفت منه. وأطل الدب برأسه . وقابلته النيران فزمجر غاضبا . وراحت عيناه تنظران إليها وهما تقدحان شررا دون أن يجرؤ على التقدم خطوة .

أسرعت المرأة تغذى النيران فازداد اشتعالها ، وتراجع الدب إلى الوراء حانقا . لكنه لم يكن ليدع فريسته تفلت بمثل هذه السهولة وقد أضناه الجوع ، فراح يدور حول المأوى ، والفجوة عساه أن يجد مدخلا آخر لا تقف دونه النيران . انبطحت المرأة على الأرض وهى تلهث تعبا ، وترتعد خوفا . تناولت بين يديها حربة من الحراب الكثيرة الملقاة على الأرض ، وراحت تدور مع خطوات الدب إستعدادا للقيام بجولة أخرى . واحتك الجسد الضخم بالأخشاب المتراصة ، فئنت تحت قوة الجسد ، وسقط أحدها على الأرض . نظرت المرأة فى رعب لترى عينى الوحش تحدقان فيها من خلال الفرجة الضيقة ، فمدت يدها بسرعة لتطعنه فى وجهه . صرخ الدب صرخة عالية من الألم ، وتراجع إلى الخلف خطوات ، ثم بدأ يحوم حول المأوى على مسافة تطمئنه إلى أن الحراب لن تلحقه بأذى ، ومع هذا فلم يكن ليدع فريسته . حاولت المرأة أن تعدل من الفرع الذى سقط لكنها لم تفلح ، فتركته ، وجلست تراقب الحيوان وهو يروح جيئة وذهابا غير عابىء بالدماء التى كانت ماتزال تنزف من جسده .

إندفع الهواء باردا من خلال الفجوة ، وأحال جو المأوى إلى صقيع لم تفد النيران فى أن تخفف من حدته . واقتربت المرأة من النيران حتى كادت تلامسها ، لكنها لم تشعر بدفء إلا فى الناحية التى كانت تواجهه النار مباشرة ، أما باقى جسدها فكان يكاد أن يتجمد من البرد ، فراحت تعرض أجزاءها بالتناوب على النيران . ذكرت الجلد الذى سقط منها فى العراء وتمنت لو إستطاعت أن تخرج لتلتقطه . لكن أنى كان لها هذا . جال بخاطرها أن الجلد لو كان مقيدا على جسدها لما سقط منها حينما كانت تقاتل الدب ، ولكانت الآن تجلس هادئة

دافئة غير عابئة بوجوده فى الخارج . انتهز الحيوان فرصة انشغال المرأة بتدفئة نفسها وحاول أن يولج رأسه من الفرجة . ـ ووقع غصنان على الأرض من قوة الضغط فالتفتت بسرعة دافعة الحربة نحو وجهه . تراجع بعيدا عن السلاح ، لكن الفرجة كانت قد اتسعت فعلا ، واندفع الهواء باردا يبرأ الجسد العارى ، وتمايلت النيران مع شدة التيار . نسيت المرأة البرد لحظات ، وانتابها رعب شديد من أن تنطفىء النيران ، وما درت أن الهواء إنما كان يزيدها إشتعالا . اندفعت نحو الفجوة محاولة رفع الأغصان الساقطة ، وأمكنها فعلا أن تثبت بعضها إلى درجة خففت من وطء الرياح العاصفة . لكن الدب كان مايزال بالخارج يروح جيئة وذهابا ، فاضطرت إلى البقاء بحربتها بجوار الجدار الخشبى محاولة أن تبقيه بعيداً . تخلل الهواء الفتحات ، وبدأ فعل البرد يؤثر على جسدها فأخذت ترتعد ، ومع هـــذا فلم تكن تجرؤ على ترك السياج والإقتراب من النيران .

وجاءتها المعونة من حيث لاتحتسب ، ترامت إلى سمعها أصوات عواء الذئاب التى إلتقطت رائحة الدم الذى كان مايزال ينزف من جرح الدب . وسمع الدب بدوره هذه الأصوات ، وعرف معناها ، فلم يتردد لحظة واحدة وإنما اندفع يختفى بين الأشجار هاربا من موت محتوم . وجلست المرأة فترة قبل أن ترى الذئاب وهى تندفع وراء فريستها فى أثر رائحة الدماء . ومضت فترة أخرى قبل أن تقوم من مكانها ، وتندفع إلى الخارج حتى وصلت عدوا إلى حيث تركت جلد الآيل ، وعادت به بالسرعة نفسها دون توقف إلى أن دخلت المأوى وهى تلهث . لم تضع الجلد على جسدها إذ كانت الثلوج تكاد أن تغطيه، وإنما قربته إلى النيران حتى أضحى دافئا ، ثم لفته حولها ناعمة ، حتى عادت الدماء تجرى فى عروقها . بدأت تحاول فى هدوء إصلاح الثغرات التى حدثت فى السياج حتى أتمتها ، وإن كانت قد اضطرت أكثر من مرة أن تتخلى عن حماية الجلد لجسدها . وجلست إلى النيران أخيراً متدثرة الجلد ، لكنه أيضاً ظل ينزلق مع كل حركة تأتيها . واتجه تفكيرها إلى محاولة ربطه بجسدها ، لكن الرباط لم يكن محكما . وظل الحال على ماهو عليه حتى هداها تفكيرها إلى عمل فتحتين فيه لتخرج يديها منها . واستعملت الخنجر حتى أتمتهما .

واضحى الجلد أول رداء يستعمله الإنسان ، وإن كان مازال مفتوحا من الأمام وأخيرا قطعت سيورا متقابلة من طرفى الجلد الأماميين وربطتهما ببعضهما فأضحى رداء كاملا ، وإن يكن غير محكم تماما .

استغرق عملها كل تفكيرها حتى أنها نسيت غذاءها بل ولم تكن تحرك رأسها من عملها إلا لتضع بين الحين والآخر بعض الأخشاب فى النيران . ومضى الوقت سريعاً لم تشعر به إلا بعد أن انتهت من صنع أول رداء كامل على الأرض إذ لاحظت أن الشمس قد غابت وأن الظلام حل . وداهمها جوع شديد فدت يدها إلى اللحم فى جانب المأوى لتجده قد تجمد ، لكنها وضعته فى النيران ، وراحت تأكل بشراهة حتى شبعت . ونامت إلى جانب النار ، تستيقظ كلما شعرت ببعض البرد فتغذيها .

وجاء صباح ثالث يوم يتغيب فيه رجلها ، ومضت نهارها كله فى المأوى تحاول أن تصنع من الحذاء كما فعلت بالرداء . ولم تخرج إلا لفترة قصيرة جدا لتجمع بعض الأخشاب إذ لاحظت أن الكمية التى كانت موجودة لديها قد تناقصت إلى حد مزعج . وبدأ القلق ينتابها حينما حل رابع يوم ، ولم يظهر فيه الرجل أو أحد رفيقيه أى أثر . وازداد انزعاجها حينما لاحظت أن قطعة اللحم التى تركها لها لن تكفيها لأكثر من يوم آخر ، فراحت تقلل من الكمية التى تأكلها آملة أن يكفى اللحم أكثر من يوم أو يومين . انتصف النهار ، وتناهى إلى سمعها عواء الذئاب آتية من بعيد . عجبت منها إذ لاحظت أنها تزداد اقترابا فى كل لحظة وانتقل ذهنها إلى الدب وتساءلت عما إذا كانت الذئاب ماتزال تطارده حتى الآن لكنها استبعدت هذا الفرض ، إذ ما كان يمكن لأى حيوان أن يقاوم عشرات الذئاب لأيام ثلاثة متتالية . وبدأ الجزع يعتصر قلبها وهى تستمع إلى العواء يقترب ، وأيقنت أن الذئاب ، وفريستها إنما تندفع فى اتجاه مستقيم نحو المأوى

جالت فى رأسها عشرات الأسئلة ، وإن لم تستطع أن تجيب على أيها : هل تقصدها الذئاب بالذات ، أم تراها تطارد حيوانا آخر ؟ وحتى إذا كانت تطارد حيوانا آخر فهل ستدعها آمنة إذا ما كان المأوى يعترض طريقها ، وهل سوف يكون المأوى ، وتكون النيران حماية كافية من الحيوان المطارد ، والكفاية المطاردة ؟ أم هل كان المطارد هو رجلها ورفيقاه ؟

وازدادت أصوات الذئاب ارتفاعا ، كما ازدادت اقترابا . وتملك الذعر قلب المرأة ، وهمت أكثر من مرة أن تترك المأوى هاربة إلى قلب الغابة ، لكنها كانت تنكص فى كل مرة حينما تفكر فى أن رجلها قد أمرها أن تبقى حيث هى ، ولعلها أن تركت المأوى لايلتقيان ، أو لعلها تموت بردا وجوعا ، أو تذهب وليمة لوحش مفترس . لم تفعل شيئا طوال النهار سوى أن تنصت إلى عواء الذئاب الذى كاد أن يصم أذنيها ، بل أنها لم تكد تأكل إلا القدر اليسير من اللحم . وراحت تسلى نفسها بتغذية النيران ، ومراقبتها وهى تندلع . وعلت أصوات الذئاب حتى خيل إليها أنها أضحت تحيط بالمأوى .

وفجأة اخترق الليل صوت ارتفع حتى علا العواء ، صوت آدمى لم تشك المرأة لحظة فى أنه صوت رجلها . اندفعت تمسك بالحراب فى يدها وهى تنتفض من الخوف ، والجزع . وحارت فيم تفعل ، وفى تفسير الصرخة التى أطلقها الرجل . لم تداخلها أدنى ريبة فى أن الصرخة لم تكن للاستغاثة ، كما أنها لم تكن نداء ، ولا لسكرها . فهل كانت للتحذير من أن تخرج من مأواها ، أم كانت لغرض آخر لم تفهمه . راحت تطل من بين السياج بعساها ترى مايحـــدث فى الخارج ، لكن الظلمة كانت شديدة ، ولم يكن القمر قد بزغ ، فلم تتمكن من تقرية شىء .

بغتة ، أحست بأن عينين تنظران إلى ظهرها ، فاستدارت لترى ذئبا ضخما يطل برأسه من فتحة المأوى ، وقد انعكس ضوء النيران على وجهه فزاده بشاعة وشراسة . واندفع جسد آخر من وسط الظلام ليقع على الذئب ويدفعه بعيدا عن المدخل ، ودارت معركة فى الخارج لم تجرؤ المرأة على أن تخرج رأسها لتراها . وتناهت إلى أذنيها أصوات زمجرات وحشية لقتال مرير يقع على قيد خطوات منها ، كان الجسمان كثيرا مايرتطمان بالجدار الخشبى حتى خشيت المرأة أن يقع . ولم ينقطع العواء فى الخارج ، كما لم ينقطع صوت القتال الدائر .

تملك المرأة الرعب ، على رجلها ونفسها . وودت لو فرت معه من كل هذا الصقيع البارد إلى حيث كانت تقطن فى الكهوف آمنة مع قومها . وانتهى صوت القتال وإن لم ينته عواء الذئاب ، بل لعله ازداد اقترابا ، وازداد علوا .

وظهر بالمدخل رأس ذئب يقبض بين فكيه على جثة ذئب آخر يجرجرها إلى الداخل . وقفز قلب المرأة من الفرح حين تبينت رفيق رجلها وهو يدخل المأوى ملقيا بين يديها جثة ذئب ضخم . ولم تشعر المرأة بما تفعل وهى تمد يدها إلى الذئب تحضنه . وزمجر الذئب ، لكنه لم يتحرك من مكانه ، بل لعله إرتاح إلى اليد الرقيقة وهى تمسح على فرائه فى حنو وحب ، فتركها تداعبه ، آنسا إليها ، وديعاً كالحمل .

مدت المرأة يدها تسحب الجثة إلى الداخل بعيداً عن المدخل فى حين ربض الذئب إلى جانب النيران وقد إتجه بنظره إلى الخارج يرقب مالا تراه رفيقته ، وقد انتصبت أذناه تتسمعان عواء بنى جلدته ، وتتميزان الأصوات ، محاولة تفسيرها ، بحثا عن سيده ورفيقه . وعلا فى الغابة صوت مرعب لحيوان يتألم وقبضت يد من حديد على قلب المرأة ، فى حين هب الذئب واقفا ، واندفع إلى الخارج ليختفى فى الظلام .

إنتاب الرجل فزع هائل وهو يرى الماموث يندفع هاربا من الذئاب فى طريق مستقيم يقوده بلا شك نحو المأوى . علم أن عليه أن يفعل شيئا سريعاً ليوقف به هذا الاندفاع ، وليحذر المرأة من أن تخرج من المأوى ، وإلا كانت نهبا للذئاب الجائعة ، بل لربما دهمتها أقدام الماموث الضخمة . عدا الرجل وراء الماموث بأقصى سرعته ، وتبعه العملاق متعجبا مما يريد أن يفعل . وشاهد الرجل النيران ترسل ضوءاً خافتا بين الأشجار فعلم أن الساعة الحاسمة قد دنت ، وأطلق صيحة إنذار إلى المرأة لتسمعها ، ولا تخرج من المأوى . وقبضت يده بشدة على أحد الرمحين ، وواجه الوحش الضخم ثم أطلق الرمح بكل قواه ليستقر فى العين السليمة . أطلق الوحش صرخة مدوية إهتزت لها أرجاء الغابة ، وجرى كمن يتخبطه المس ، يرتطم بالأشجار فيهزها هزاً يكاد أن يقتلعها من جذورها واندفعت الذئاب الجائعة وقد اطمأنت إلى أنه لن يراها لتقطع من الجسد الذى راح يدور على غير هدى فى فسحة من الأشجار يرتطم بكل منها فى محاولة الهرب .

أخيراً ذهبت الحيوية ، ووقف الحيوان يترنح غير محاول الدفاع عن نفسه ضد هجمات الذئاب التى تكاثرت عليه تقفز عالية محاولة أن تمتطيه لتقع على الأرض

دون بغيتها ، ولتكرر المحاولة بالنتيجة نفسها ، لكنها فى كل مرة تنشب مخالبها فى الجلد السميك ، ولا تدعه إلا وسيول من الدماء تختلط بالشعر الغزير . وازداد ضعف الوحش فهبط على ركبتيه كأنما يطلب الرحمة . ولم تزد هذه الفعلة الذئاب إلا توحشا إذ أدركت أن النهاية قد حانت فتكاثرت عليه تقتله . صدرت حشرجات من الحيوان . وكست دماؤه الأرض فأحالت بياضها أحمر قانيا . وسقط الجسد الضخم نهبا للذئاب التى بدأت تلتهم قطعا منه ، وترتوى بالدماء السائلة غير منتظرة أن تفارق ضحيتها الحياة .

لكن الرجل لم يكن ليدع فريسته تلتهم أمام عينيه دون أن يحاول شيئا . رآه العملاق ينقل الرمح الثانى إلى يده ، ويصوبه نحو أقرب الذئاب إليه . وصرخ الذئب وقفز فى الهواء ليهوى على الأرض متخبطا فى دمائه . واندفعت إليه الذئاب القريبة منه تلتهمه فى لحظات . وتناول الرجل غصنا ضخما واندفع به إلى المعركة . وتبعه العملاق ، يطوح بهراوته وقد غلى فى عروقه دم القتال . وهبط الغصن الضخم على رأس أقرب الذئاب ، وتلته الهراوة على رأس آخر ، وتهشمت رءوس أربعة من الذئاب قبل أن تفيق باقيها إلى هذا العدو الجديد ، وتندفع إلى الغابة بعيداً عن السلاحين القاتلين .

وقف الرجل والعملاق على جثة الماموث ينظران إلى الذئاب وهى ترقبهما . وصدرت من العملاق زمجرة تحد ، فى حين وقف الرجل متأهبا للنزال . وراحت الذئاب ترقبهما غاضبة . كانت أربعون ذئبا أو تزيد ، وكان يمكنها أن تقضى على الاثنين لو أنها جمعت نفسها عليهما ، ولكن نهمها كان فيه هزيمتها . ولعل الذئاب قد دهشت وهى ترى أحدها يندفع من بين الأشجار كالسهم المارق ليقف إلى جانب الاثنين وينظر إليها مزمجرا بتحد .

ولعل العملاق قد تعجب أيضاً وهو يرى الرجل يضع الفرع على الأرض ، ويستل خنجره ، ثم يبدأ فى هدوء فى إقتطاع اللحم من الجسد المسجى ، ويفصل جلده . كان الرجل يعلم أن ثلاثتهم لن يستطيعوا الصمود طويلا أمام تكرار الهجوم . كما كان يخشى أن تجذب الدماء مزيداً من الذئاب ، فانتهز فرصة السكون ليبدأ فى اقتطاع كميات من اللحم ، وليفصل أجزاء ضخمة من الجلد تستخدم هو وزميله بدلا من تلك التى سقطت عنهما وهما يعدوان .

وأثار منظر اللحم ، والدماء الذئاب فاستجمعت شجاعتها واندفعت مهاجمة . وأسند الرجل ظهره إلى العملاق ومضى الإثنان يدفعان الهجوم ، فى حين قفز الذئب فى وسط المعركة يثير الفزع بين بنى جنسه . وارتفع الفرع الضخم وهبط بسرعة فائقة ليحطم رأس ذئب ، ثم آخر ، وآخر ، وآخر . ولعبت الهراوة دوراً هائلا فى تهشيم الرؤوس ، وقصم الظهور . ولم تستمر المعركة سوى دقائق قليلة آثرت الذئاب بعدها أن تلوذ بأحضان الغابة لتجمع شتاتها ، إستعداداً لهجوم آخر ، تاركة خلفها عشرة ضحايا .

التفت العملاق إلى الرجل . ولعل تعجبه عما يفعل قد كثر حتى توقف التعجب . رآه وهو يقبض على قدمى أحد الذئاب القتيلة ويطوحه بشدة بعيداً عنه ، نحو الغابة . واندفعت الذئاب نحو الضحية تلتهمها . وسقطت بينها ضحية أخرى ، وثالثة . ونظر العملاق إلى الرجل ، فأشار إليه أن يفعل مثلما فعل . وأطاع العملاق فألقى إلى الذئاب الجائعة بجثث ثلاثة من زملائها فى حين بدأ الرجل فى مهمته ، يسلخ جلد الماموث ، ويقتطع قطعا من اللحم . ومضت فترة طويلة قبل أن تنتهى الذئاب من الجثث الست التى ألقيت لها ، ووقفت تنتظر وترقب . وأشار الرجل إلى العملاق فطوح الجثث الأربع الباقية فإنقضت عليها إخواتها النهمة تلتهمها فى حين مضى الرجل فى عمله .

وعلى حين غرة تسمعت أذناه أصوات عواء بعيد . تلقفته الغابة فراح يردد الصدى من جميع الجهات . وعلم الرجل أن ذئابا أخرى قد التقطت الرائحة ، وأنها تنادى بعضها لتتجمع على الفريسة . وتنبه إلى الخطر ، فراح يعمل بسرعة فائقة حتى اقتطع كمية ضخمة من اللحم ، وأشار إلى العملاق فاقترب منه فحمله ، وحمل مابقى وتراجع الاثنان صوب المأوى ، فى حين راح الذئب يتبعهما وهو يرقب باقى الذئاب .

لم يكن المأوى يبعد بأكثر من مائة خطوة ، لكنهم قطعوها فى دقائق مليئة بالخوف وتوقع الهجوم . وكادوا يبلغون المدخل حينما اندفعت من الاتجاه المضاد ذئاب عديدة التقت بالرجل على الأرض ليسقط عنه حمله ويبدأ الدفاع بيديه المجردتين . وألقى العملاق بحمله وتناول هراوته فى سرعة وراح يهبط بها على رؤوس الذئاب فى جنون . واندفع الذئب يهجم على الذئاب يبعدها عن سيده

حتى تمكن من تناول الفرع ، والوقوف على قدميه يقاتل المهاجمين .

وسمعت المرأة صوت القتال الدائر فتناولت بعض الرماح ، وخرجت من المأوى لتلقى بها الواحد تلو الآخر على الذئاب المهاجمة . ومضت لحظات تأرجح فيها القتال لصالح الفريقين ، لكن الهراوة كان مفعولها رهيبا ، وما أن انضم إليها الفرع والرماح حتى انتهت المعركة بالسرعة نفسها التى بدأت بها . وهرب الأحياء تاركين جثث ستة قتلى ، غير جرحى مضوا يلعقون جراحهم . وتناول المنتصرون غنيمتهم وأدخلوها المأوى ، وربضوا بها قانعين بالدفء ، والأمان إلى جانب النار ، وقد أيقنوا أن لديهم من الطعام ما يكفيهم لأمد طويل .

قبع العملاق فى ركن المأوى ، وربض الذئب فى المدخل . وراحت المرأة تتحسس جسد الرجل ، وتضع بعض الطين على جراحه . وتناهت إلى أذن الجميع أصوات عشرات الذئاب تتقاتل فوق بقايا جثة الماموث . واستمرت الأصوات فترة طويلة من الليل ، لكنها بدأت تخفت شيئاً فشيئاً كلما إمتلأ أحد الذئاب وتنحى عن القتال ليختفى فى الغابة . ونام الجميع من الإرهاق والتعب ، وحينما أصبحوا ، كانت أشعة الشمس تغطى الغابة الهادئة ، ولم يكن هنالك أدنى صوت ، سوى أصوات بعض الطيور المغردة .

الفصل الثامن

الجحيم البارد

كان صباح اليوم التالى مليئاً لعمل . فما كاد الجمع أن ينتهى من مأكله حتى بدأ الرجل فى سلخ فراء الذئاب ، وفصل اللحم ، والعظام . كان العمل طويلا ، وشاقا نظراً لوفرة العدد الذى أصابوه ، لكنه مضى فيه بلا كلال أو ملل . وعرضت المرأة ملابسها على رجلها ، فراح ينظر إليها فى تعجب أولا ، ثم فى فرح ثانيا ، جعله يضاعف من مجهوده لفصل مايرغبه من فراء . ومضى خياله يصور له الفراء وقد صنعته يد المرأة ، وارتداه . تركته المرأة سعيدة بغبطته ، وخرجت تجمع الأغصان ، والأخشاب لتغـــذى بها النار . وتبعها الذئب فى رواحها ومجيئها .

تناول العملاق هراوته ، ودلف من المخرج يتمتع بشمس النهار ، لكن سرعان ماعاد وهو يهلل كمن عثر على كنز . نظر إليه الرجل فرآه يطوح فى الهواء بقطعة ضخمة من العظم ، كانت فى استطالتها ورأسها الملىء أشبه بالهراوة ، وإن كان من الواضح أنها أصلب منها بمراحل وأكثر فاعلية . ولاحت على شفتى الرجل شبح ابتسامة مالبثت أن تلاشت حينما تذكر نابى الماموث الضخمين المدببين ، فهرع إلى الخارج وعـــدا إلى الهيكل العظمى الهائل الذى بدأ يختفى تحت بعض الثلوج المتساقطة . وقف ينظر إلى النابين الضخمين حائراً فى كيفية انتزاعهما ثم كيفية إستعمالها . وأخيراً أعجزه الأمر فترك النابين ومضى ينتقى بعض العظام التى ظن أنها قد تفيده فى صنع بعض الأدوات ، والأسلحة .

مضت الأيام تتوالى . وصنع بعض الحراب من العظام ، كما صنع أكثر من خنجر . وقامت المرأة بصنع رداء لرجلها ، وآخر للعملاق . واضطرت بالنسبة لها أن تستعمل أكثر من قطعة من فراء الذئاب ربطتها بسيور من الجلد ، وأضحى الأمر بالنسبة إليها وقد علمت ماتريد ، مسألة تعديل لحسب ، فكان تطوراً أيضا فى صناعة الملابس . أما العملاق فكان يقضى معظم وقته قابعا فى ركن

لايحاول شيئا . كان مايزال فى إحدى مراحل التطور . ولم يكن عقله من النشاط بحيث يشعر بالملل أو السأم ، بل كان قانعا بالأمان ، والدفء ، والشبع .

ومضى الرجل يبحث فى الغابة عن بعض الأغصان ، والأفرع الجافة . كان يريد بعضها بأحجام معينة ، لصنع أوانى وأوعية ، وأخرى بأشكال محددة لصنع حراب أو خناجر . راح يوسع من دائرة سعيه بحثا عن بغيته . وذات يوم خرج فى الصباح . واستلقت المرأة متكئة على ذراعها إلى جانب النيران تتلاعب ببعض الفراء ، والجلد ، وتفكر فى طرق مختلفة لتشكيلها وصناعتها . وأحست بحركة عند مدخل المأوى ، فرفعت رأسها وجلة لتتبين أن العملاق قد دلف داخلها . اعتدلت فى جلستها ومضت تنظر إليه . لم يكن هنالك شك فيما يبتغيه . والواقع أنه لم يكن غريبا أن يأخذ أى رجل ، أية امرأة . لم تكن هنالك أسرة بالمعنى الذى نعرفه الآن . كانت النساء عادة مشاعا للرجال . أى رجل أراد أية امرأة نال منها وطره . أما الأشقاء ، والأخوات ، والأمهات ، والآباء ، والأزواج ، لم يكونوا كذلك بالمعنى المفهوم ، وإنما كانوا مجرد أفراد ، رجال أو نساء ، وبالرغم من أن المرأة كانت تعلم هذا الوضع ولا تعلم سواه إلا أن شيئا ما فى داخلها جعلها تتراجع . لم تكن تبغى أن تكون لغير الرجل ، مولاها وسيدها . لم يخطر فى بالها أن تصرخ أو تستغيث فلم يكن هذا هجوما أو عدوانا . كما أنها كانت تعلم أن العملاق لايقصد بها شرا . أنه يريد ببساطة أن يشبع غريزة جنسية . ولما كانت هى المرأة الوحيدة فى المأوى فإنه من البدهى أن يشارك الرجل فيها .

انكمشت المرأة فى ركن المأوى ، وامتدت يد العملاق تقبض على قدمها وتسحبها إلى جوار النار . حاولت المقاومة لكن اليد الحديدية لم تأبه للمقاومة . وامتدت اليد الأخرى إلى الدثار الذى ترتديه لتمزقه وتنتزعه انتزاعا . أحست بالصدر الضخم يطبق على صدرها ، وبالأسنان الحادة تغرس فى كتفها ورقبتها . استمرت تقاوم ولم يشعر العملاق بالمقاومة وكأنها كانت ألعوبة صغيرة يلهو بها . راحت اليدان القويتان تتحسسان الجسد البض وانغرست الأصابع تترك آثارها فى كل جزء منها . وتأوهت المرأة ألما وضعفا ، وحاولت التملص من الجسد الجاثم فوقها ، لكن القوة الهرقلية لم تدع لها أية فرصة . راحت تقاوم ماتستطيع من قوة وأفلحت مرة فى الانفلات منه ، لكن اليد الحديدية

أعادتها بسهولة إلى حيث كانت . وازدادت مقاومتها من ثائرته ، وخيل إليها أن قوته قد تضاعفت فى حين راحت قوتها توهن شيئا فشيئا .

ولم يشعر الإثنان بالرجل وهو يدخل المأوى . أحس العملاق بيدين تطبقان على رقبته ، وتنتزعانه من فوق المرأة . التفت مزمجرا غاضبا ليرى الرجل يشده شدا إلى الخارج . واعتدلت المرأة فى جلستها وأسرعت وراءهما لترى الرجل وهو مازال يجر العملاق على الجليد ، قابضا على رقبته بكلتا يديه . راح العملاق يجدف بيديه فى الهواء محاولا الوصول إلى الرجل . لكن هذا لم يدع له فرصة ، واستمر يضغط بكل قوته . ولم تر المرأة الرجل من قبل فى مثل هذه الحالة . حتى وهو يصارع الحيوانات ، والرجال لم يكن وجهه يمثل هذه الوحشية البادية . اكتست وجنتاه بحمرة قانية ، واتسعت حدقتا عينيه ، وبدا جليا عليهما الرغبة فى القتل .

توقف العملاق عن الاطاحة بيديه فى الهواء ، وانثنت يداه إلى الخلف لتقبضان على يدى الرجل ، وبقوته الهرقلية بدأ يبعدهما عن رقبته . ودام الصراع بينهما لحظات . واضطر الرجل أن يبعد يديه ، وهب العملاق واقفا . تراجع الرجل بضع خطوات ووقف متأهبا للقتال ، لكن العملاق لم يكن يريد أن يقاتل ، وإنما وقف مشدوها ينظر إلى رفيقه متسائلا عن السبب الذى جعله يريد قتله . إنه لم يقترف إثما أو جناية ، فما الذى دعاه إلى محاولة قتله . ولاحظ الرجل نظرة التساؤل ، والتعجب المرتسمة على وجه زميله . وبدأ الهدوء يعود إليه . ولو سأله عن السبب فى ثورته العارمة ما استطاع أن يجيب . وبدأ العملاق يتراجع وهو ينظر إليه ليستطلع مايفعله ، لكنه لم يتحرك من مكانه ووقف كأنما يقاوم قوة عارمة تعتمل داخله .

تقدمت المرأة فى استكانة ولمست ذراعه . وكأنمـــا تجمعت العاصفة كلـــها فى هذه اللمسة إستدار الرجل ، وهوت قبضته على وجه المرأة لتطيح بها بعيدا ، وتلقى بهـــا على الأرض وقد تضرج وجهها بالدماء . صرخت المرأة ألما . وبقيت قابعة حيث هى تقاوم الغشية التى انتابتها . ومع ما ألم بها من ألم فقد داخلها شعور غريب من الفخر ، والفرح . لم تكن تدرى سبب هذه الثورة العارمة ، ولم تكن تدرى سببا لتلك الضربة القاسية التى أصابتها ، لكنها كانت تعلم أنها فرحة مبتهجة بالإثنين . توقف العملاق عن

أصحابه، ونظر إلى المرأة، ثم إلى الرجل. كانت الحقيقة البسيطة التى لم يعلمها الإثنان قد بدأت تدخل عقله البطىء. إن الرجل يريد هذه المرأة أن تكون له دون سواه. وعلى غرابة هذه الرغبة بالنسبة للعملاق، وعلى أنه لم يفهمها، إلا أنه يبدو أنها إرادة الرجل، وليكن له مايريد.

ولم يعلم الثلاثة أنهم بذلك قد أرسوا أولى القواعد التى منها تكونت الأسرة بعد ذلك بمئات السنين.

فى الأيام التالية لم يكن الرجل كعادته مع المرأة. لاحظت أنه يبتعد عنها ولم يطلب منها طعاما كما كان يفعل بل كان يأكل ما يريد، ويقوم بحاجياته البسيطة بنفسه. حاولت أكثر من مرة أن تقترب منه، لكن زجرته كانت كافية لأن تبعدها وهى تتذكر اللطمة التى أرهبتها والتى كانت آثارها مازالت ظاهرة على شفتيها المتورمتين. وبدا لها أن الرجل قد ازداد إنهماكا فيما يقوم به من أعمال، وأنه أكثر قلقا من ذى قبل، وأكثر رغبة فى هجر السجن الاضطرارى، الذى وجد نفسه فيه، وأكثر ضجرا، كان يختفى فجأة دون صوت، أو إنذار، ثم يعود فى صمت كما ذهب.

لم تفهم فى بادىء الأمر سببا لهذا الانقلاب الفجائى، ولهذه الحركات الصامتة المفاجئة، أو لعلها أحست بأنها الغيرة تأكل فى قلبه. لكنها لم تكن تعرف الغيرة كشعور، وإحساس. وإنما هى الغريزة تدلها على أن مصدر ما أحاط بالرجل من وجوم وضجر وقلق، هو ما حدث بينها، وبين العملاق. وما كان يمكن لمثل هذه الحالة أن تدوم. فكانت المرأة تهرع إليه لتقرب الطعام، وتسرع لتناوله قطعة من الخشب، أو لتغذى النيران، كانت تفعل هذا وغيره فى صمت، وهى وجلة خائفة، تتوقع لطمة فى كل حركة. وبغريزتها كانت تحاذر حتى من مجرد النظر ناحية العملاق، الذى ابتعد بدوره، وبدا عليه أنه قد نسى الواقعة كلها ولم يعد يذكر إلا أن الرجل لايريد شخصا آخر أن يمس المرأة. وذات ليلة تغلبت الطبيعة، كما يحدث دائما وعادت الحياة الى مجاريها.

جاء وقت فرغ الرجل فيه من جميع ما يريد صنعه، وكسى المأوى الخارجى بقطعة الجلد التى انتزعها من الماموث حتى يمنع تسرب الأمطار، وتخلل الهواء، الأخشاب المتساندة، فكأنه بهذا صنع أول خيمة فى التاريخ. ولم يستطع العقل

النشيط الذى اعتاد الصناعة ، والحركة ، البقاء طويلا بلا عمل أو تفكير ، فمضى يفكر فى موقفه . تمنى أن يكون فى استطاعته الرحيل والعودة إلى غابته الحبيبة الدافئة . ونظر أكثر من مرة إلى السماء يستطلع الجو ، لكنه كان قد بعد جدا عن منطقته الأصلية . كان لا يعلم شيئاً عن الجو ، ولا عن الوقت الذى سوف يقف فيه تساقط الجليد .

كان يعلم أنه إذا شاء أن ينتقل إلى حيث أتى ، فإن عليه أن يخترق سلسلة الجبال التى وفد منها . لكن الجبل كانت تكسوه طبقة سميكة من الثلوج ، وكان عليه أن يقضى أياما حتى يصله ، وأياما أخرى حتى يرتقيه ثم يهبط منه . ومعنى هذا أنه كان عليه أن يترك المأوى لمدة طويلة هو ورفاقه ، وأن عليه أيضا أن يترك حماية النار ودفئها . ولن يستطيع أن يوقدها فى الأوقات البسيطة التى سوف يقضيها فى العراء ، فإيقادها عمل شاق يستغرق ساعات . راح عقله يطرح الأسئلة . لو كان فى استطاعه أن ينتقل بالمأوى وبالنار ، إذا لهان على الجميع حتى تسلق ذلك الجبل الثلجى . وحانت منه لفتة إلى جلد الماموث الضخم وفجأة لمع فى ذهنه حل احدى المشكلتين . راقبه العملاق فى دهشة وأجمه من تحت أهداب عينين ناعستين ، وهو يهب من مكانه ، ثم يخرج خارج المأوى .

صدر من الرجل صوت اعتادت المرأة عليه كنداء لها . فخرجت بدورها لتراه وقد التقط فرعا طويلا وغرسه فى الأرض ، ثم رأته ينتزع الجلد من على المأوى ، ويشير إليها أن تساعده ، فأطاعت متعجبة عما يبغى . ساعدته فى تعليق الجلد على الفرع حتى تهدل حوله ، ثم رأته وهو ينتقى أفرعا متعددة تكاد أن تتماثل فى الطول ليغرسها على مسافات متساوية من الفرع الأوسط ثم يرفع الجلد عليها . وهكذا صنعت أول خيمة حقيقية فى التاريخ . ولم تكن قطعة الجلد التى اقتلعها الرجل كبيرة بحيث تكون خيمة كاملة بل أن معظم الأركان كان خاليا ، لكنها كانت بداية ، وكانت نوعا من المأوى على أى حال .

فهمت المرأة مراده ، وعلمت أنه إنما يبغى الرحيل ، ويعد له ، فبدأ عقلها الأنثوى يعمل بدوره . أشارت إليه أنه لو كان هنالك جلد كاف لأمكنها أن تربطه ببعضه ليتسدل على الأرض مكونا مأوى ، لكن الرجل إستبعد هذا الرأى بإشارة من يده إذ أن معنى هذا أن يخرج مرة ثانية ليصيد حيوانات

ضخمة ، لاتقل عن الوعول حجما ، وبالتالى يكون معناه البقاء إلى أمد غير معروف . بل ومعناه أيضاً أن تكون الخيمة كبيرة لا يسهل على شخص واحد حملها لمسافات بعيدة . واتجه تفكيره إلى ناحية أخرى . ماذا لو كانت الفروع أقصر من هذا ، وما عليهم إلا أن يستعملوها للنوم فقط ، والمأوى على أى حال لن يستعمل إلا لهذا الغرض . قام بتنفيذ فكرته فورا . وراح ينتقى بعض الأفرع القصيرة نسبيا ، ويعمل فيها ، ويستبعد منها مايمكن الاستغناء عنه . لكن الجلد ، وإن كان قد استقر على الأرض مكونا خيمة تامة ، إلا أنها أضحت بالكاد تكفيه والمرأة ، ولم تكن لتسع العملاق معهما . وحلت المرأة المشكلة بأن ربطت ثلاث قطع من الفراء إلى بعضها لتكون قطعة واحدة كبيرة ، اتضح حين جربتها أنها تسع الذئب والعملاق معاً . وما كان العملاق ولا الذئب في الواقع فى حاجة إليها ، إذ أن الأخير كان يغنيه فراؤه ، فى حين كان الأول من سكان المنطقة وقد اعتاد نسبيا على جوها ، وكان يكفيه الرداء الذى صنعته المرأة .

ولم يستطع الرجل أن يحل المشكلة الثانية . حاول أن يضع الأخشاب المشتعلة الصغيرة فى أحد الأوعية الخشبية ، لكن سرعان مابدأ الوعاء يحترق . وأخيرا فضل أن ينتظر قليلا ، مؤملا أن يتحسن الجو ، ولم يكن يعلم أن الشتاء سوف يطول إلى شهور . ومرت أيام وهو جالس لا يكاد أن يتحرك . وتململ العقل المتكامل من السكون . بدأ الأثر يظهر فى طباع الرجل ، وأخلاقه . فى حين كان عقل العملاق المتبلد نسبيا ساكنا لا يفكر فيما وراء الغذاء ، والدفء ، والأمان ، كان العقل البشرى يسعى ، ويفكر فى تحسين حاله ، والقيام بأعمال جديدة . كان عقلا قلقا لا يستطيع أن يخلد إلى الراحة ، لكن ما كان فى إستطاعته شيئا وهو مقيد فى مكانه لا يكاد أن يملك حراكا . ازداد الرجل تأففا ، ومللا ، وسأما كلما مرت الأيام . وظهر الضجر عليه فى حركاته وتصرفاته ، بل فى غذائه . وتوقف عقله عن التفكير فى أى شىء ، سوى الخروج من السجن الذى وجد نفسه حبيسة فيه .

لكن هذه الأيام التى قضاها حبيسا ، أو يكاد ، فى المأوى الصغير قدمت خدمة جليلة إلى العالم لم يشعر هو بها . كانت هى الفرصة الوحيدة التى بقى فيها

رجل عاقل متكامل ، مع امرأة متكاملة عاقلة حبيسين لمدة طويلة فى مكان ضيق . كانت المرأة تراقب رجلها فى كل تصرفاته ، فكانت تكاد أن تقرأ ما يفكر فيه . وعى عقلها رغباته ، وكيف يعبر عنها ، بالاشارة ، والوجه ، والصوت . علمت نبراته حينما يكون جائعا ، وحينما يكون عطشا . أمكنها أن تفرق بين نبراته وأشارته وهو حانق ، أو غاضب ، أو سعيد . بل لعلها بدأت تمى فى عقلها من مجرد سماع الصوت ، دون أن يقترن بالاشارة .

وبدأ الرجل يكون صريع العادة . فأصبحت إشارته وأهم مخارج صوته ، تؤدى تلقائيا بالشكل نفسه فى الموقف نفسه . والتقطت عين المرأة النفاذة الاشارات ، وترجمها عقلها ، كما التقطت الأذن الإنسانية الأصوات ، وفرقت بينها . لكنها كانت على أى حال أصواتا بدائية ، ولم تكن لتكون لغة بأى شكل ، ولا حتى مع التساهل . ولعل الأصح أن يقال أنها كانت بداية مناقلة ، نقل للرغبات آمرة فى كل الأحيان ، مطالبة برغبات ، واحتياجات . أريد أن آكل . أريد أن أشرب . يلزم احضار خشب للنار . ادخلى أو اخرجى . بمجرد أشارات مختلفة ، تصحبها طبقات صوتية متباينة . ولم تكن حياة المرأة قبلا مع قبيلتها خلوا من الاشارات المصحوبة بالأصوات ، لكنها كانت تفترق كثيرا من جميع النواحى . فلم تكن الموضوعات التى تتبادلها المناقلة فى مثل هذا التعدد الذى خبرته مع رجلها ، وبالتالى كانت الاشارات محدودة فى نطاق ضيق أما الأصوات ، وكثيرا ما صحبتها ، فقد كانت غالبا واحدة لا تكاد أن تتغير ، أقرب إلى الحشرجة منها الى أصوات ذات مغزى أو هدف . ولم تكن الحبال الصوتية لحناجر قومها من التكامل لدرجة أن تعطى طبقات صوتية مختلفة كثيرة . وإنما كانت ، شأنها شأن الحيوانات ، محصورة فى سلم ضيق ، لا تكاد أن تتغير .

اختلف الحال تماما مع رجلها ، فقد تعددت الأصوات تعددا كبيرا بالنسبة لما ألفته سابقا ، وتبع ذلك تعدد الاشارات وتنوعها ، وتنوع ما صحبها من أصوات . ومع مرور الأيام ، وشيئا فشيئا ، بدأت الأصوات ، نفسها ، منفصلة عن الاشارات تعطى معانى متباينة ، كما بدأت تأخذ صورة مستقلة قائمة بذاتها . وبالرغم من أن الاشارات كانت مازالت هى السائدة ، وهى الأصل ، إلا أنه فى بعض الأحيان القليلة المتباعدة ، كان الصوت فى حد ذاته ، غير مصحوب

بإشارة يعطى المعنى الذى يهدف إليه الرجل ، أو الذى تهدف هى إليه . وتحددت أصوات بعض الأشياء التى كثر ترددها الماء ، والغذاء ، الذئب ، العملاق، النار، الأخشاب ، فلم تعد فى حاجة إلى الإشارة مع سماع الأصوات فى مثل هـــذه الموضوعات ، وأضرابها من الأوامر ، والنواهى ، والتحذيرات . ومن هنا بدأت أول لغة صحيحة متكاملة .

لم تقف الفائدة الخفية فى الحبس على مجرد المناقلة الصوتية . لمكن الرجل كان كثيرا مايمضى الوقت وهو يلعب بالأخشاب ، بلاغرض إلا لقتل الوقت من السأم . وكثيرا مايجلس على الأرض . ويخط خطوطا لا هدف لها ، ولامعنى . وجاء وقت كان يمارس هوايته ، وهو يفكر فى مخرج للسجن الذى لامفر منه . واستقر ناظراه على ماخطت يده على الأرض ، وخيل إليه أنه يرى الأشجار . وخطت ـــه الخطوط من أفكاره فراح يعدل فيها حتى بدا على الأرض رسم لشجرة .

ندت من بين شفتيه ضحكة ، أو هى أقرب مايكون إليها . وتعجبت المرأة ، ونظرت إليه لتنظر ماصنعت يداه ولم يمكنها فى أول الأمر أن تميز الرسم . لكن الرجل أشار إليها ، وعدل من موقفها حتى رأته ، وتبينته . وضحكت المرأة بدورها ، أو كادت ، وأمسكت بقطعة من الخشب ، وحاولت أن تقلد سيدها . وفى الأيام التالية أضحى الرسم هوايتهما وتسليتهما . رسما أشجارا كثيرة ، وحيوانا ، وحاولا رسم الذئب والعملاق ، وكل شىء يفكران فيه . وما كان يدور فى خلديهما أنهما قد خطا بهذه الهوية الخوط الرئيسية لبداية حضارة الإنسان الحقيقية - الكتابة .

ومرت أيام أخرى إزداد توترأعصاب الرجل فيها . وأضناه التفكير فى كيفية نقل ما كان يعلم أنهم بغيرها لن يستطيعوا أن يناموا ليلة واحدة ، ولاحماية لهم فى حبسهم . وراحت المرأة تراقبه . كانت تعلم مايدور فى خلده ، وأنه يحاول أن يخرج من هذا السجن الإضطرارى الذى أرغمته عليه الظروف ، والذى لا يعرف مداه . بل أنه كان يلوح أن الثلوج تزداد تراكما يوما بعد يوم ، وأن البرد يزداد شدة ، ولم يكن يبدو هنالك أى فى تحسن الجو ، على الأقل لمدة طويلة ولكن هل يستطيع الرجل احتمال هذه المدة الطويلة حبيسا داخل المأوى

لا يملك حراكا ؟ ولعلها لاحظت أن توتر أعصابه كان يزداد كل يوم صباحاً حينما يهب من نومه ليطل فى الخارج ليرى حالة الجو ، ثم ينكمش ثانية وقد فاض به الحنين . وحتى لونه كان قد بدأ يفقد تلك النضرة التى تنبىء من اكتمال صحته ، ووفرة قوته . راح يسلى نفسه بصنع أوعية وحراب ، وخناجر لا لزوم لها . صنع اوعية مختلفة الأحجام القاها فى النار . وصنع حرابا متباينة الطول ، والق معظمها فى النار . ورسم رسومات مختلفة يمحوها ويخط غيرها ، ونحت اشكالا شتى من الخشب ، وشمها ، والق بها جانبا .

وكان صباح يوم يعمل فى وعاء كبير من الخشب حينما توقف فجأة وراح يفكر ، وينظر إلى النار . ماذا لو وضع فى الوعاء بعضا من طين الأرض ثم وضع فوقه النار ؟ ابهذه البساطة يمكن أن يكون الحل الذى قضى فى التفكير فيه اياما قلقة ، وليال مؤرقة ؟ ترك الوعاء الكبير الذى كان يعمل فيه ، وقفز الى ركن المأوى قفزة ايقظت العملاق من نعاسه ، وجعلته يراقبه فيما يشبه البلاهة ، وهو يتناول أول وعاء لمسته يده . وراقبته المرأة . ولاحظت أن وجهه قد تهلل فرحا ، واختفت من عينيه تلك النظرة الكئيبة ، وعاد إليهما لمعانهما الذى يضفى عليه نوعا من الحيوية لم تكن تجدها فى غيره .

دهشت المرأة وهى تراه يغترف من طين الأرض ، ويضع ما اغترفه فى الوعاء ، راقبته وهو يلمس جوانب الوعاء بالطين . وشاهدته ، وهو يتناول قطعتى خشب ويرفع بهما بعض الأخشاب الصغيرة المحترقة ويضعها فى الوعاء . ثم يجلس أمامها على الأرض ليراقب الأخشاب وهى تحترق داخل الوعاء دون أن تحرقه . ولم يكتف الرجل بهذا ، إذ كان يعلم أن عليه أن يتأكد من أن النار سوف تستمر فى الوعاء أياما دون أن تمسه بسوء ، فراح يغذيها بين الفينة والأخرى . وجف الطين ليكون طبقة صلدة تحمى الوعاء الخشبى ، واستمرت النار ملتهبة داخله دون أن تحرقه .

تبدل حال الرجل تماما منذ هذه اللحظة ، فقد أخذ يعمل بجد ليجوف وعاء أكبر . واستقر رأيه على أن حماية النار ، وحملها ، يجب أن يكون من اختصاص المرأة ، فى حين يقوم هو العملاق بحمل المأوى ، والأوعية ، والجلود والغذاء . ولاحظ أن يكون الوعاء مما تستطيع المرأة حمله لمسافات طويلة دون إرهاق .

ومضى يكسر قطعا صغيرة من الأخشاب لتغذية النيران أثناء السير . وأتم عمله فى اليوم التالى . وراقب النار فى الوعاء الأول ، وكاد أن يرقص طربا وهو يجدها مازالت مشتعلة ، وأن الوعاء لم يلتهب . تناول الوعاء فلاحظ أنه كان شديد السخونة ، وأنه إن احتمل قليلا فسوف يخفف البرد فى الخارج ، ومضى يسير خارج المأوى بالوعاء ، ويراقب النار فيها وما يحدث من تغيرات . وفكر فى احتمال سقوط الثلج وهم سائرون . فغطى النار بالجلد ولكن الجلد كاد أن يحترق كما كادت النيران أن تخمد . غرس عددا من أعواد الخشب فى الطين داخل الوعاء ، وربط الجلد فى منتهاها ، وبقيت النار مشتعلة ، ولم يمس الجلد سوء . وكانت هـذه آخر تجربة يقوم بها قبل أن يقرر الرحيل .

بدأت الجماعة تستعد للسير مع أول النهار . تدثر الثلاثة بملابسهم ، ولبسوا أحذيتهم ، كما وضعوا أغطية رؤوسهم . وحملت المرأة وعاء النار . كما حملت بعض الأخشاب الصغيرة فى كيس كانت قد صنعته ، وعلقته بسير جلدى إلى جانبها . ولم تكن تغذية النار مشكلة فما كان أكثر من الأخشاب الجافة فى الغابة . وقسم الرجل ما يريد حمله بينه وبين العملاق ، فحمل هو بعض الأوعية ، والحراب ، والجلود فى حين أعطى لزميله اللحم أساسا . واستغنى عن الأعمدة التى قد أعدها لترفع المأوى ، مكتفيا بالحراب . وتناول بعض السيور الجلدية ليربط بها الحراب وراء ظهره فى حين ألقى ما تبقى من الجلود على كتفه .

تحرك الركب الغريب . رجل ، وامرأة ، وعملاق ، وذئب . كانت السماء صافية لا أثر فيها للغيوم أو السحاب . وسطعت الشمس ، لكن أشعتها كانت فاترة باردة لا أثر فيها للحرارة . وبدأ الأربعة سيرهم يقودهم الرجل . كان قد غير من اتجاهه فى الأيام السابقة أكثر من مرة . وامتدت الغابة أمامه متماثلة لا يرى دليلا فيها . أشجار باسقة خالية من الأوراق أو تكاد ، وأرض بيضاء تكسوها الثلوج ، وأغصان جافة متساقطة . وجال فى ذهنه أن يتسلق إحدى الأشجار ليرى موقع الجبال ويختار أقصر الطرق إليها . لكن الأشجار كانت عالية ملساء من العسير جدا تسلقها . وراح عقله النشط يفكر فى أى الطرق يسلك . لم يكن قد لاحظ فى تنقلاته السابقة مسار الشمس ، أو النجوم ، وإنما كان تفكيره

كله منصبا على الحوادث المتتالية التى حدثت . لكنه الآن بدأ يسترجع الحوادث . ويحدد الأماكن فى ذاكرته .

لا شك فى أنه كان عليه أن يبتعد عن الطريق الذى أتى منه ، بعد قتاله مع أفراد قبيلة العملاق . لكن أين كان ذلك ؟ وأى طريق أتخذه ؟ دارت عيناه ثانية فى الغابة ، ولم يجد أية اشارة تدله ، ونظر الى العملاق . ترى هل يعلم الطريق ؟ وكيف يستطيع أن يسأله ؟ لا بد أن هنالك لغة ما من الاشارات يستعملها هو وقومه ، والا لما ارتحلوا كل هذه المسافة البعيدة لقتال عائلة الفتاة كما لا بد أنهم غيروا الطريق مرات عديدة . لكنهم فى هربهم وقتالهم قد اتخذوا طرقا أخرى مختلفة . فهل يعرف العملاق أين هم الآن ؟ وهل يستطيع أن يخرجهم من هذه الغابة الملعونة ؟

شعر العملاق بنظرة فرفع إليه عينيه فى بلاهة جعلته يترك مجرد محاولة سؤاله. وسار الركب فى بطء شديد إذ كانت الثلوج قد تراكمت على الأرض ، وكان السير عليها عسيرا . ومضى الرجل يفكر . لم يكن فى حماسه الأول قد ظن أن اتجاه سيرهم مشكلة ، فهو سوف يتم مباشرة إلى الجبال . ويتسلقها ثم يهبط من الناحية الأخرى ، لكنه الآن وقد بدأ فعلا تحركه كان يشك فى أى الاتجاهات توجد الجبال . كان يتصور أنه سلك الطريق الصحيح ، لكن هل فعل ذلك حقا ؟ لم يكن أمامه سبيل للتأكد ، سوى التجربة . وعليه الآن أن يراقب مسار الشمس ، وأن يتخذ إتجاها واحدا لا يحيد عنه حتى يعرف تماما أين الجبال . ولم يكن يعلم انه يسير فعلا فى إتجاه الجبال ، ولكنها جبال اخرى مغايرة تماما للتلال التى سبق له ان تخطاها فى مغامراته السابقة .

مضت ساعات . ولم تتغير المناظر حول الجمع إلا قليلا حتى أنه كان من العسير القول بأنهم قد انتقلوا من مكانهم . ارض بيضاء تكسوها الثلوج ، واشجار باسقة تكاد ان تتشابه جميعها ، فكأنما قدت فى قالب واحد .
وبدأ الكلال يدب فى جسد المرأة ، لكنها لم تحاول ان تقف او تشعر رجلها بأن التعب قد نال منها . أخذت تنقل قدميها بثقل حتى نخيل إليها أنها كانت تنتزعهما من الأرض انتزاعا . وجاء وقت تعثرت فيه خطواتها حتى ان النار اوشكت ان تفلت منها ، لكنها سرعان ما تماسكت ، واحتفظت بتوازنها ، وعاودت المسير .

لاحظ الرجل ما اعترى المرأة فاختار مكانا وسط الأشجار وجد به شجرة ساقطة على الأرض وأشار بالوقوف . وجلست المرأة على الشجرة ، وقبع الذئب إلى جوارها . ووقف العملاق يرقب الرجل . رآه يدور بنظره فى أرجاء الغابة كأنما يبحث عن شيء ، وارتد البصر حاسرا . لم يجد دليلا واحدا يمكنه أن يستدل منه على الطريق . واستقرت عيناه على وجه العملاق ثم أشار إليه ، وتقدم العملاق . واحتار الرجل كيف يفسر مبتغاه . أخيرا لمعت فى رأسه فكرة . خط على الأرض خطوطا سريعة ، وانفرجت الثلوج لتوضح رسما . لم يكن هنالك شك فى أنه يمثل جبالا ، وطريقا إليها .

كانت هذه ثانى خطوة نحو الكتابة ، إستعمال الرسم المتناقلة : نظر العملاق إلى الرسم فى بلاهة ، ولم يبد عليه أنه قد فهم شيئا . وتقدمت المرأة ، ونظرت إلى الرسم ، وفهم عقلها الناضج مايريد الرجل . لكنها هزت رأسها نفيا ، لم تكن تدرى أين هى ؟ حاول الرجل مرة ثانية مع العملاق ، راح يجمع الثلج فى أكوام تشابه الجبال ، ثم خط طريقا إليها ، وأشار إلى الجمع كأنما هم يسيرون فى هذا الاتجاه . ولم يتقدم فهم العملاق . كان جائعا وكان يفكر متى سوف يسمح لهم الرجل بالغذاء .

يئس الرجل من المحاولة . وجلس إلى جوار المرأة على جذع الشجرة فى حين ألقى العملاق حمله من اللحم على الأرض وجلس إلى جواره . وتقدم الرجل من اللحم ، واستل خنجره ومضى يقطع قطعا صغيرة نسبيا ، ألقى بجزء منها إلى الذئب ، وأعطى العملاق ، والمرأة جزأين آخرين ، وتناول هو نصيبه . بصيرة أخرى بزغ العقل البشرى . لم يكن الرجل يعلم إلى متى يظلون فى هذه الصحراء الثلجية . ولا متى سوف يتيسر لهم الصيد .

لهذا فقد كان عليه أن يوفر الأكل قدر استطاعته . كان نصيب الذئب من اللحم أكبرهم ، فهو لا يأكل سوى اللحم ، فى حين مضى الرجل يبحث عن جذور الشجر . وراح يمضغ بعضها ، وناول المرأة والعملاق بعضا آخر . وعاف العملاق تناول الأمر الجذور ، لكنه حينما رأى الرجل والمرأة يمضغانها بدأ يمضغ هو الآخر فى تأفف ظاهر .

عاودوا السير بعد فترة ، فى الاتجاه نفسه ومضت ساعات أخرى ، ومالت الشمس نحو المغيب . ونصبوا الخيمتين ، وأخذ الرجل بعضا من قطع الأخشاب المحترقة ووضعها فى وعاء آخر ، ووضعه فى خيمة العملاق والذئب . أحضر لها بعض الأخشاب الجافة وأشار إلى العملاق فقد رأى المرأة وهى تفعل ذلك مرارا . وعاود العملاق الجوع ، فأشار إلى الرجل ، لكن الأخير أعطاه بعض الجذور فقط ، وأشار إليه بالامتناع عن أكل اللحم .

هب الرجل من نومه فزعا . كانت هنالك أصوات صادرة من الخيمة المجاورة ، كان الذئب يزمجر غاضبا ، والعملاق يتحدى . وأسرع الرجل ودلف إلى الخيمة ليرى الذئب يحاول أن يقضم من اللحم ، والعملاق يحاول أن يمنعه قابضا على هراوته متوعدا . كان الذئب جائعا ، ولم يكن يفهم كيف يظل كذلك فى حين أن اللحم على قيد خطوات منه . ولم يكن العملاق بدوره يفهم ذلك ، لكنه كان قد تلقى امرا من الرجل ، وكانت طاعته عمياء ، لا مجال فيها للمناقشة . علم الرجل ان الذئب جائع ، لكنه كان يعلم ايضا ان قطعة اللحم التى أعطاها له كانت تكفيه يوما كاملا دون ان يضار ضررا حقيقيا . وتدخل بسرعة مبعدا الذئب : وكشر الذئب عن انيابه لكنه عاد وقبع ساكنا ، وحمل اللحم الرجل ، وخرج به ثم دلف إلى خيمته . واستقر السكون فى الغابة إلا من عواء الذئاب يتردد من بعيد .

وعاودوا السير مع اول خيوط النهار . كان السير اشق من اليوم السابق إذ أن الجليد كان قد إزداد تراكمه خلال الليل . ومضت الجماعة تنقل الخطى متثاقلة . واختفى الذئب ليعود بعد ساعات ، كان قد ذهب يبحث عن صيد ، لكنه عاد بخفى حنين . وتناولوا وجبتهم الوحيدة فى صمت ، وفى هذه المرة امتنع الرجل عن اللحم ، واكتفى بما عثر عليه من جذور النباتات والأشجار استخرجها بعد أن حفر تحت الجليد . وجن عليهم الليل ، وقبعوا فى الخيمتين والريح تصفر ، والذئاب تعوى .

مضت ايام ، لم يصادفوا فيها صيدا سوى ارنب واحدا عاد به الذئب . ولم تتغير المناظر حولهم . الجليد نفسه ، والأشجار نفسها . عواء الذئاب ، وصفير الرياح ، ومن وقت لآخر زئير النمر يتحدى . أما الطيور المغردة فكانت قد هاجرت منذ زمن بعيد ، ولم يعد احد يسمع لها صوتا . وتناقص اللحم بصورة رهيبة بالرغم من ان الرجل كان قد قصر تناوله على مرة واحدة كل يوم .

وكثر هجوم الذئب على العملاق حتى اضطر الرجل أخيرا أن يحتمل كمية اللحم القليلة الباقية .

وجاء يوم تنبه الرجل فيه أن ما معهم من اللحم لن يكفيهم لأكثر من وجبتين أو ثلاث . كان عليهم أن يبحثوا عن الصيد بأى ثمن ، وإلا هلكوا . صحيح أن جذور النباتات وشميرات الأشجار كانت تمدهم ببعض الغذاء ، لكنها لن تغنيهم عن اللحم . أما الذئب فكان لابد له من اللحم وإلا هلك جوعا . وزاد البرد والحركة المستمرة من وطأة الجوع . وبدا على الجميع الهزال والشحوب . كانوا صورة بائسة للجماعة التى بدأت السير منذ أسبوعين أو أكثر . وقرر الرجل أن يتوقف ، وأن يقيم فترة من الوقت يتفرغ فيها للصيد . اختار بقعة تحميها الأشجار من الرياح العاصفة وأقام فيها خيميه . ومضى يوم كامل وهو يجمع الحطب ليغذى النيران أطول فترة ممكنة . كان يعلم أن النار هى حمايتهم الوحيدة من أخطار الغابة . وهى ملاذهم ضد البرد والحيوان . بدونها لم يكن هنالك شك فى موتهم . وبدونها ما كان يمكن أن تحميهم حرابهم ، ولا هراوة العملاق من هجوم الذئاب الجائعة ، ولهذا لم يدخر وسعا فى جمع الأخشاب طوال اليوم وساعدته المرأة . وساعده العملاق . وتكدست أكوام من الأفرع الجافة والأغصان حول الخيمتين . واختفى الذئب حينما لاحظ أن الجماعة لاتنوى الرحيل ، وأنها سوف تقيم . ولم يعد حتى المساء .

فى تلك الليلة بات الجميع فى دفء حقيقى . وسمح لهم الرجل بقطع صغيرة من اللحم : وقربت المرأة اللحم المتجمد من النار ، وكذلك فعل الرجل . وبعد فترة كانا يأكلان لحما مشويا ساخنا زاد من شعورهما بالدفء والشبع . واستلقت المرأة على ظهرها بين الفراء ، وبدا جسمها جميلا فى ضوء النيران . كانت أعراض الحمل قد بدأت تظهر عليها . وتضخم بطنها قليلا ، لكن هذا لم يغير كثيرا فى القوام الممشوق . ودلف الرجل إلى جانبها .

واستيقظ بعد فترة قصيرة وهو يكاد ان يختنق . لم تكن الخيمة محكمة تماما وكان الهواء عادة يدخلها من اسفلها ولم يكن قد صنع بابا ، وإنما كان يدلف من تحت الغطاء الجلدى ، إذ كان هذا يعطيهم دفئا اكثر ، ويمنع غائلة الوحوش كانت النيران التى اوقدها هذه الليلة اشد من أية نيران أخرى ، وكان الجليد

يتساقط كثيرا ، ويستقر بعضه على الخيمة ليلتقى بحرارة الخيمة فيتحول إلى ماء ينحدر ليتجمد ثانية سريعا حينما يلامس الأرض . وشيئا فشيئا منع الجليد الهواء من الدخول إلى الخيمة ، وكادت النيران أن تنطفىء كما أوشك النائمان على الموت اختناقا .

أحس بحاجته الشديدة إلى الهواء فأسرع يزيح الجلد من أحد الجوانب . ولم يسعفه هذا فمد يده إلى خنجره واقتطع من الجلد قطعة تعلو عن الأرض قليلا . دخل الهواء البارد إلى الخيمة ليوقظ المرأة . ولتعود النار إلى الاشتعال . وملأ رئتيه بالهواء النقى ، ووسع الفتحة قليلا وأكملها إلى الأرض لتصبح بابا صغيرا يمكنه أن يدلف منه بيسر . وأسرع إلى الخيمة الثانية ليفعل بها ، كما فعل بخيمته . ورأى النيران قد خمدت تماما إلا من جذوات صغيرة فى حين لم يتحرك العملاق ولا الذئب .

واعتقد فى مبدأ الأمر انهما ماتا ، لكن العملاق بدأ يسعل ، حمل الرجل الذئب بين يديه . واحس بأنفاسه تتردد فى ضعف شديد ، فخرج به إلى الهواء البارد بينما راحت يداه تدلكان الجسد الهامد فى حركات لاشعورية . وارسل الهواء رعشة فى الجسد ، وتململ الذئب قليلا ، ثم فتح عينيه بعد دقائق قليلة ، وانتظم تنفسه . ووضعه الرجل على الأرض برفق ، فراح يحاول ان يعتدل فى وقفته حتى تماسك ، وتقدم من قدمى الرجل يتمسح فيهما كأنما يشكره .

فجأة شعر الرجل بالصقيع يهرأ بدنه . كان فى لهفته على صديقيه قد نسى أنه عار تماما ، أما الآن وقد اطمأن عليهما فقد شعر فجأة بلسعة البرد . أطل العملاق برأسه الضخم من الفرجة التى فتحها الرجل وراح يستنشق هواء الليل بلهفة . وأشار إليه الرجل ان يعيد النيران إلى حالتها الأولى ، وان يضع فيها بضعة اخشاب ، ثم هرع إلى داخل خيمته وهو ينتفض من البرد . أسرع إلى جانب النيران يستدفىء بها . ولاحظت المرأة ان جسده يرتعد فتناولت اقرب الفراء تلفه حول كتفيه ، وصدره ومع هذا فقد ظلت الرعدة كما هى .

حينما طلع النهار كانت الحمى قد تمكنت تماما من الجسد المسجى . وشاهدت المرأة والعرق يتصبب من جبينه ، وسائر جسمه ، ومع هذا فقد كان ينتفض . جلست إلى جواره تحتار فيما تفعل . كان كل تصورها أنه يلزم تدفئته

الرجل : ورأ،ه لابد له من الغذاء . حاولت أن تقرب لحما من فمه ، لكنه عافه ، بل أنه كان فى شبه غيبوبة لا مكان معها لأن تدخل الأكل إلى فمه . وأطل رأس العملاق من الفرجة . وأطل الذئب . كانا قد استيقظا بدورهما ولما لم يخرج الرجل جاءا ليوقظاه ، فلم يكونا قد إعتادا على أن يتأخر عليهما .

استمر الرأسان برهة طويلة ينظران إلى الجسد الذى لا يكاد أن يتحرك ثم ، وكأنما باتفاق سابق انسحبا ، ووقف العملاق برهة وكأنه يفكر . ولعله كان يتصور أن الغذاء هو مايلزم الجسد المسجى . ولكن من أين ؟ إن اللحم ، لما تبق منه بالداخل ، ولا يوجد أى أثر لغذاء غير ذلك . وفجأة تذكر . ركع على الأرض ، وراح يزيح الجليد بسرعة . ويحفر الأرض يستخرج شعيرات الجذور . كان قد شاهد الرجل يفعل هذا ويمضغ الجذور . وعلى أن طعمها لم يكن مستساغا بالنسبة له إلا أنه يبدو أنها تشفى من غائلة الجوع ، ولو قليلا . راقبه الذئب متعجبا ، ورآه وهو يجمع كمية من الجذور ليدلف بها خيمة الرجل ويلقيها هناك ، ويخرج ثانيه . وتناول العملاق هراوته ، ثم نظر إلى الذئب . وبتفاهم غريب صامت إنطلق الاثنان معا فى الغابة . كان يلزم اللحم وكان عليهما بالتالى أن يخرجا للصيد . ولم يفكر أحدهما فى أن يتزود باللحم الموجود بالخيمة أو بجزء منه .

أحست المرأة برحيلهما ، وعلمت أنها بقيت بفردها مع الرجل المريض ، ولا حماية لهما إلا النيران ، والحراب . لكنها كانت تعلم أيضا أن النيران حماية كافية بمفردها ، وأنه لا حاجة لها فى الواقع إلى الخروج من الخيمة إلا لتلتقط بعض الأخشاب القريبة التى تكاد أن تكون فى متناول يدها . كانت تعلم كذلك أن لديها كمية من اللحم تكفيها والرجل بضعة أيام ، خاصة وقد ترك العملاق والذئب نصيبيهما . لكن المشكلة كانت فى هذا المريض الذى بدأ وكأنه يحارب أعداء لا وجود لهم ، الذى يرفض تناول أى طعام . لم تستطع أن تغذيه باللحم ، ولم تستطع أن تجعله يتناول بعض الجذور .

مضت ساعات وهى جالسة إلى جواره تمسح عنه العرق ولا تدرى ماذا تفعل . جلبت بعض الجليد ، ووضعتها على شفتيه ، ودخلت قطرات من المياه فى الفم . وخيل إليها أن الجسد سادة بعض الهدوء . نشفت قطرات العرق

من على الجبهة ، ومست يداها الباردتان الوجه ، وخيل إليها أن الهدوء قد ازداد .

جلبت مزيداً من الثلج . ومسحت به الوجه والجبهة ، والفم . وازداد هدوء المريض ، وخفت حدة الحرارة . ولم تفكر المرأة أثناء اليوم كله أن تتناول غذاء ، وإنما مكثت تحاول المرة تلو الأخرى أن تطعم الرجل المسجى . وباءت محاولاتها جميعاً بالفشل . لم تتحرك من مكانها إلى جواره مرة إلا لتجلب الثلج ، أو الأخشاب ، أما بقية الوقت فكانت تمضيه في النظر إلى رجلها ، أو تجفف العرق من جسده ، أو تضمه إلى صدرها إذا مارأت الحمى قد ارتفعت إلى درجة الهذيان . وجن عليهما الليل ، ولم تأكل شيئاً ، كما لم تتحرك من مكانها . كان كل تفكيرها في الرجل ، وفي أنه لم يتناول غذاء طوال يومه ، ولم تتمكن من أن تعطيه شيئاً سوى بعض الجليد يذوب على شفتيه . ومضى الليل ولم تنم إلا غفوات وهي جالسة ، تجفف العرق ، وتضم الرجل ، وتجلب الثلج وتغذي النيران .

وجاء الصباح ليجدها في جلستها تفكر مرهقة . لو أنها استطاعت فقط أن تغذي الرجل المريض . لم يكن حاله قد تحسن أو تغير كانت الحمى مازالت على أشدها ، وكان الجسم القوي يقاوم ولكنه كان ينقصه الغذاء . وفي الفترات القليلة التي كان يتنبه فيها المريض لم يكن يتكلم أو يشير . وإنما كان ينظر إليها كأنما يرجو شيئاً . وتقدم المرأة إليه الطعام ، لحماً وجذوراً ، ولكنه كان يرفضها ويطلب ماء . ومضت المرأة تفكر ، هل تستطيع أن تحول الجذور واللحم إلى ماء ؟ ماذا لو أعطت رجلها بعض الماء الساخن ليدفىء من جسده الذي لم تزايله الرعدة ؟

قامت من مجلسها لتجمع بعض الجليد ، وتضعه في أحد الأوعية ثم لتحاول أن تضع الوعاء في النار . وأحرقت النار الخشب ومست يداها ، وسقط منها الوعاء في النار ليحترق الخشب الخارجي ويبقى الطين الذي تحول إلى فخار . رجعت إلى مجلسها إلى جوار الرجل يائسة ومضت في جلستها فترة ثم حانت منها التفاتة إلى النيران . رأت الفخار وقد احترق لكنه لم يشتعل . لاحظت أنه قد بدأ يتشقق من شدة الحرارة ، لكنه لم يشتعل . ودارت في رأسها الأفكار . إن

الطين يتجمد ويتشقق ، لكنه لا يشتعل . إن لونه يسود ، ويتكسر ، لكنه لا يشتعل . كيف يمكنها أن تستفيد من هذا ؟ مدت يدها تتناول وعاء ثانيا ، ودلكت خارجه بالطين وابتدأت تعرضه للنيران . ولم تكن الكمية التى دلكتها كافية . فسرعان ماجفت ، وتشققت وتساقطت من الجدار الخارجى للوعاء . يئست من المحاولة فنحت الوعاء جانبا . وأحست بشدة الجوع . كان قد مضى عليها يومان لم تذق فيهما طعاما ، فمدت يدها وتناولت قطعة صغيرة من اللحم المتجمد وقربتها من النيران حتى دفئت وتساقطت قطرات من الثلج المذاب فى النيران وجف اللحم فراحت تلتهمه .

نظرت إلى رجلها نظرة يائسة ، وهى تراه يذوى دون أن تستطيع أن تعمل شيئا . جلست يائسة عاجزة وقد أعيتها الحيلة ، وفجأة تذكرت المياه المتساقط من قطعة اللحم . وقامت من مجلسها لتقطع قطعة أخرى من اللحم المتجمد ، وجاهدت حتى أمكنها أن تغرس فيها حربه قربتها من النيران ، فى حين أمسكت فى اليد الأخرى بوعاء خال تلتقط فيه الثلج المذاب . وتكونت لديها كمية من الماء الدافىء . لم يكن ساخنا ، لكنه أيضا لم يكن باردا . تناولت بعض الشعيرات النباتية والجذور ، وقربتها بدورها من النار حتى ذاب الثلج وسالت المياه منها . ومضت تمضغ بعض الجذور والشعيرات لتفتتها بأسنانها . ثم تضعها فى الماء . وكان أول حساء فى التاريخ .

لاحظت أن النار بدأت تخبو فقامت تستحضر بعض الأخشاب الجافة من الخارج ، ونحت الوعاء بعيدا عن النار . وقفت فترة وهى تزيل الثلوج المتراكمة على الأخشاب حتى أمكنها أن تنقل إلى الداخل كمية منها تكفيها ليومين أو ثلاثة . وراحت تغذى النيران . وارتفع اللهيب مرة ثانية ليضىء المأوى ، ووصل الدفء إلى المريض . وحانت من المرأة إلتفاته إلى الوعاء ، وكادت أن تصرخ يأسا وكمدا حينما رأت المياه بداخله وقد تحولت إلى جليد ، وأن كل شىء بداخله قد تجمد . كان الهواء البارد يدخل من الباب الذى صنعه الرجل ، وكان يجمد أى شىء يبعد عن النار قليلا .

تنبهت المرأة إلى أنه يجب أن تغلق هذا الباب . لكنها عادت وتذكرت أن فى غلقه موتا لهما وترددت محتارة . أخيرا دلفت إلى الخارج وتركت مسافة

صغيرة من الباب تكفى لأن يخرج منها الشخص العادى ، وراحت تقيم جدارا من الجليد . وتماسكت الثلوج بسرعة لتكون ساترا يصد الرياح عن المأوى ، ويحتفظ له بحرارة النيران تشع فى ارجائه . وبالرغم من أن اقامة الجدار لم تستغرق وقتا طويلا ، وبالرغم من أن المرأة كانت ترتدى الفراء ، الا أن أسنانها كانت تصطك ، وهى تهرع إلى الداخل تحاول أن تدفىء نفسها إلى جوار النار .

عادت الدماء تجرى فى عروقها ، وسرى الدفء فى جسدها ، فالتفتت ثانية إلى الرجل المسجى . تناولت الوعاء بما فيه من ماء ، وجذور ، ولحم متجمد وقربته من النار دون أن تضعه فعلا عليها ، وشيئا فشيئا بدأ الجليد فى الذوبان . ولم تتعجل الأمور ، وإنما تركت الحساء يدفأ قدر ما استطاعت ، ثم بدأت فى محاولة إعطائه للرجل .

تناول الرجل الحساء ، وكان مفعوله كالسحر . لم تمض لحظات حتى كان قد نام نوما عميقا ، والعرق يتصبب منه . لم يكن الجسد الحديدى فى حاجة لأكثر من هذه الدفعة ليتغلب على المرض . ومنذ هذه اللحظة بدأت الصحه تعود سريعا إلى الجسم المريض . ومضى يومان ، كانت المرأة لا تكاد أن تأكل إلا ما يكفى أودها ، فى حين راحت تطعم الرجل من اللحم والجذور ما استطاع أكله . وتناقصت كمية اللحم بدرجة مرعبة ، ومع هذا فلم تفكر المرأة سوى أن عليها أن تطعم الرجل ليسترد كامل قواه . لم يظهر أثر العملاق أو الذئب فى هذه الفترة ، وبدأت المرأة تشك فى أنهما قد هلكا جوعا ، وبردا ، فى هذا الجحيم البارد .

كانت تعلم أن الرجل لن يستعيد كامل قواه إلا بعد مدة طويلة ، وأنه فى هذه الاثناء يلزمه أن يأكل كمية كبيرة من اللحم والجذور . لم يكن فى استطاعة الرجل أن يخرج للصيد ، وبذلك ألقيت المسئولية عليها ، على الأقل لتجمع كمية من الجذور والشعيرات تقيهما شر الموت جوعا .

وجاء صباح اليوم الذى رأت فيه أن كمية اللحم لن تكفى لأكثر من يوم أو اثنين ، كما أن ما بقى من الجذور كان يماثل هذا . واستقر رأيها على أن تخرج إلى الغابة لتجمع الجذور ، وتحاول الصيد . تحركت بخفة حتى لا توقظ النائم ، وجمعت ما بقى من طعام ووضعته إلى جواره ، ثم خرجت من المأوى ليقابلها

صقيع الصباح . نحت الثلوج المتراكمة على الأخشاب ، وحملت منها ما استطاعت وعادت لتضعها إلى جوار الرجل المريض . وكررت العملية أكثر من مرة حتى اقتنعت بأنه سوف يكون لديه كمية تكفيه لتغذية النار أياما . لم يكن فى نيتها أن تبتعد عن المأوى ، ولا أن تبيت خارجة ، لكنها كانت تعلم أن فى خروجها مخاطرة جسيمة ، وربما لن تعود، ولهذا وفرت لرجلها ما استطاعت ، من غذاء ووقود ، حتى تعطيه أكبر فرصة للحياة . نظرت إلى الرجل النائم نظرة طويلة ثم دلفت خارجة من المأوى لتواجه الجحيم البارد .

تململ الرجل فى رقدته ، وفتح عينيه . وبقى فترة قصيرة لا يتحرك ، وكأنما هو فى شبه غيبوبه . ثم حرك رأسه ودار بنظره فى المأوى . لم ير للمرأه أثرا . لم يكترث فى بادىء الأمر ، فلعلها فى الخارج تقضى حاجة . شعر بأن جسده قد بدأت الصحة تدب فيه ، فحاول الجلوس فى مكانه . اعتدل فى جلسته وراحت عيناه تفحصان ما حوله ، لاحظ أنه توجد كميات كبيرة من الأخشاب للوقود ، وانها قد وضعت فى تناول يده ، كما لاحظ وجود ما بقى من غذاء إلى جواره . وبدأت الحقيقة تتضح . صرخ مناديا على المرأة ، وجاوبه الصمت . علا صوته مرة ثانية مناديا الذئب والعملاق. انتظر برهة . لكنه لم يسمع ردا على ندائه ، ولا وصل إلى أذنيه صوت حركة .

دارت الأفكار فى رأسه . هل إرتحل ثلاثتهم ، وتركوه لمصيره ؟ كلا . أنه فى فترات صحوة اليسيرة خلال الأيام الماضية لم ير الذئب أو العملاق ، ولم يسمع لهما حسا ، أما المرأة فقد كانت نائمة إلى جواره فى الليلة الماضية ، وقد شعر بها أكثر من مرة أثناء تململه . إذا فقد ذهب العملاق والذئب اولا . منذ أيام ، لكنهما ذهبا يبحثان عن صيد ولما لم يعودا ، رأت المراة ان الغذاء لن يكفيها ، ورجلها ، ارتحلت هى الأخرى ، وراء المأكل . للحظات إنتابه هلع شديد ، وحاول النهوض من مكانه ، لكنه كان ما يزال اضعف من ان يقوم بمجهود. لقد إعتدل واقفا لبرهة، ثم دارت به الأرض ، وخيل إليه انه سيسقط فاضطر إلى الجلوس ثانية .

مضت فترة قبل ان يسترد انفاسه اللاهثة ، وتمالك جأشه ، وعاود التفكير بهدوء . إن المراة كانت إلى جواره فى المساء . ولم يكن من الممكن ان تخرج

بها المأوى ليلا ، إذا فهى قد خرجت فى الصباح . وقد أعادت ترتيب المأوى وجلبت أخشابا من الخارج . وبالتالى تكون قد قضت فترة من الصباح ، وحتى هذا أيضاً أنها لم تترك المأوى الا منذ مدة بسيطة ، وأنها لا يمكن أن تكون بعيدة الآن . زحف من مكانه حتى أطل من فتحة المأوى وأطلق صيحة تنادى بأعلى ما تستطيع رئتاه المنهوكتان . وكرر الصيحة ثلاث مرات ، ولم يجبه أحد . لو كان يعلم فى أى اتجاه ذهبت ، ولو كانت لديه قوة كافية ، إذا لأمكنه أن يلحق بها ، أما وهو فى هذه الحالة .!؟ وألقى بنفسه على الأرض يائساً . وفجأة شعر بفراغ كبير يلتابه ، وأحس بيد من حديد تقبض على قلبه ، ولو كان يعرف ما البكاء لبكى .

قفل راجعا إلى جوار النيران . زحفا على يديه ورجليه وقد تملكه خاطر واحد ، يجب أن يأكل ، وأن يسترد قوته بأسرع ما يمكن ، والا فلا أمل له أن يرى رفيقته مرة أخرى . تذكر الذئب والعملاق ، وتساءل فى نفسه إن كانا مازالا الآن على قيد الحياة . ولكنه سرعان ما استبعد أن يكون قد جرى لهما حادث إذ هما من الصلابة والقوة بحيث يتغلبان على أى أنواع المخاطر . ومد يده إلى الوعاء يتناول ما بقى به من حساء . ثم إقتطع من اللحم قطعة وقربها من النيران . ولم ينتظر حتى تشوى ، وإنما راح يلتهم ما استطاع . شعر بالقوة تدب جسده ، لكنه حينما حاول أن يتحرك من مكانه شعر بركبتيه لا تقويان على حمله ، وعلم أنه أضعف من أن يقوم بعمل جدى . تملكه قنوط شديد وهو يفكر ان عليه ان ينتظر يوما او اياما حتى يستعيد قوة كافية للحركة الفعالة ، وفى هذه الأثناء سوف تكون رفيقته فى عداد الأموات

الفصل التاسع

المرأة الصائدة

تلقت المرأة الهواء البارد يلفح وجنتيها ، وتطلعت إلى السماء الملبدة بالغيوم. ترددت لحظات فى خطاها ، بعد أن تركت المأوى ، كان الصمت يرنو على الغابة، وكأنما ليس فيها أحياء . شعرت بالبرد القارس يتخلل دثارها فأحكمته حول جسدها بحركة لاشعورية . واحتارت أى اتجاه تأخذ ، فدارت عيناها تتطلعان فى كل ناحية . لم يكن هناك فارق فى الواقع بين المناظر حولها ، وبالتالى فلم يكن يوجد مجال للاختيار ، ومع هذا فقد كانت تعلم أن عليها أن تعود ، إذا كتبت لها الحياة ، وأنها بالتالى عليها أن تكون على ثقة من علامات مميزة لمكان المأوى ، وإلا فإنها لاشك سوف تضل الطريق ، وان يكون لها أمل فى الحياة . ترددت قليلا . كانت الغابة أمامها تتناهى إلى أقصى ما يمتد إليه الطرف ويكاد شجرها أن يكون على نمط واحد لافارق بين شجرة وأخرى . أشجار باسقة تتطاول إلى السماء ، لا أفرع صغيرة على ساقها حتى القمة . ولم تكن الأرض أحسن حالا ، فقد كساها الجليد فأضحت بيضاء ناصعة لا أثر فيها لأية علامة مميزة ؛ ولو وضعت العلامة اليوم فلن تكون إلا ساعات قلائل حتى تطمس تماما .

استقر رأيها على الاتجاه جنوبا ، وأخرجت من منطقتها خنجرا حادا ، ومضت تضع فى طريقها علامات بين كل شجرة وأخرى على أبعاد معقولة . كان سيرها بطيئا ثقيلا ، فقد كان الثلج تحت قدميها هشا يجعل من العسير السير عليه ، فى حين أن وقتا طويلا كان يضيع عليها وهى تضع علامات واضحة بين الفينة والأخرى . لم تكن قد ابتعدت كثيرا عن المأوى حينما سمعت صيحة الرجل . وتوقفت عن السير . جال فى خاطرها أن تعود أدراجها إلى المأوى . إن الرجل يناديها ، وما اعتادت أن تعصى له أمرا ، لكنها كانت أيضا تتصور أن فى العودة قضاء عليه وعليها . وترددت لحظات ، وأخيرا عقدت العزم ، فاتجهت نحو الغابة بخطى متثاقلة ، وصيحات الرجل ترن فى أذنيها .

لم يكن هناك شك فى أن المرأة لم تكن تقدر تماما ماينتظرها فى الغابة .
ولم تشعر بشىء فى الساعات الأولى من تحركها من المأوى فقد كانت تدفعها عاطفة
نبيلة فى إنقاذ رجلها ، ولو على حساب حياتها . لكن الساعة مضت تلو الأخرى ،
وهى سائرة فى إتجاه واحد ، وتتالت عليها المناظر متكررة لاحياة فيها ،
ولاتغير . كانت تتلفت فى كل اتجاه حولها عسى أن تجد صيدا . رأت ذات
مرة أرنبا يدلف بين الأشجار ، ولما همت بالاتجاه نحوه كان قد اختفى عن ناظريها .
وعادت فى سيرها يائسة .

انتصف النهار وهى ماتزال فى اتجاهها لم تغيره : وأصابها الكلال فجلست
على الأرض . وشعرت بجوع هائل فراحت تعبث بيديها فى الجليد تريد أن
تصيب بعض الجذور لكن لم تمض دقائق حتى علمت أن الأمر أعسر كثيرا
مما ظنت . فيما عدا الطبقة الأولى كانت الطبقات التالية قد تجمدت تماما حتى
أضحت أقوى من الصلب ، ولم يكن من الممكن أن تعبث بها بيديها . وحتى حينما
اخرجت الخنجر ، وجدت أنه بدوره لا أثر فعال له . وبعد عدة محاولات تركت
المحاولة يائسة فقد كان الأمر يحتاج إلى قوة جبارة .

كانت هذه أول مرة تنفرد فيها بنفسها ، دون حركة ، أو عمل . ولاحت لها
الغابة كئيبة موحشة . وشعرت بالصمت حولها رهيبا ، وحتى حفيف الرياح
وهى تداعب أوراق الشجر لم يكن يقطع الصمت ، وإنما بدا أنه يزيده رهبة .
خيل إليها أن وراء كل شجرة فى الغابة يكمن خطر لاتدرى كنهه . وبالرغم
من الدثار المحكم حول جسدها فإنها وقد توقفت عن الحركة بدأت تشعر بالبرد
القارس يبرا أعضاءها . بحركات لاشعورية راحت تضرب بيديها على جسدها ،
وقدميها فى محاولة لأن يجرى الدم فيها . وطاف بذهنها سؤال . ماذا سوف تفعل
إذا ماجن الليل ؟؟ كيف ستنام فى هذا الخلاء المريع ، وهذا البرد القارس ؟ إنها
إذا نامت فلن تستيقظ إذ سوف يتجمد الدم فى عروقها .

أصابها فزع كاد ان يدفعها إلى العودة إلى الملجأ سريعا . لكنها عادت
وتمالكت نفسها ، وتذكرت ان عليها ان تجد صيدا تتغذى به وتغذى رجلها .
تلفتت حولها تبحث عن وسيلة تدفع عنها اذى الليل وبرده . لم تر سوى
الشجر ، والجليد الابيض يمتد امام ناظريها ، واغصان متكسرة ، وبعض اوراق

الشجر الجافة . وتمنت لو أنها قد تعلمت من سيدها كيف تصنع النار ، أو أنها كانت قد حملت معها بعضا منها ، إذاً لتغير الحال تماما .

وذكرتها معدتها بحاجاتها إلى طعام ، وتثاقلت وهى تقوم من مجلسها ، وبدأت قيامها بحثا عن الغذاء. تنقلت عيناها من مكان إلى آخر. وطالعها الجليد يبرق تحت أشعة الشمس. ولم تكن تعلم شيئا عن الجليد وحينما بدأت تشعر بأن عينيها لا تريان حينا أغمضتهما ، وبغير شعور تحولت إلى الأشجار تنظر إليها ، إلى الخضرة، وكفاها هذا شر العمى المؤقت ، وأعطاها درسا ألا تستمر فى إدمان النظر الدائم إلى الجليد . ومضت ساعات ، وزاد عليها الجوع ، وأرهقها السير. وبدأت الظلال تمتد فى الغابة تزيد من وحشتها. وتوقفت المرأة تتطلع حولها بحثا عن مكان تبيت فيه . وطالعتها الأشجار حولها ، ملساء لا تجويف ولا انحناء باسقة لا أفرع قريبة من الأرض. حارت فى أمرها، ومضى عقلها المكدود يبحث عن وسيلة تقيها برد الليل . وفجأة تذكرت ما فعله الرجل حينما كانت الجماعة عند النهر ، لقد استعمل جذع شجرة كمأوى غطاه بالأفرع المتكسرة جاورها إلى بعضها .

اندفعت بلا توقف ولا هوادة تجمع كل ما استطاعت من الأغصان المتكسرة . وانتقت شجرة ضخمة ثم راحت تسابق الزمن وهى تغرس الأغصان فى الجليد بوضع مائل على جذع الشجرة . رصت الأغصان إلى جوار بعضها ما استطاعت ، وحاولت ألا تترك فجوات واسعة بينها ، ثم مضت تغطيها بالجليد . ولم تكتف بهذا ، بل راحت تجمع من أوراق الشجر ، وتفرشها على أرض المأوى الصغير . ولم يستغرق صنع المأوى وقتا طويلا ، ومع هذا فما كادت أن تنتهى منه حتى كان الظلام قد خيم على الغابة تماما .

دلفت إلى الداخل ، وكان المأوى صغيرا حتى أنها اضطرت إلى حشر نفسها حشرا . ولم يكن يسهل عليها الحركة . ومع هذا فما أن استقرت حتى شعرت بفرق كبير فى الحرارة . وصدرت عنها تنهيدة من لم يذق طعم الراحة أو الأمن طوال يومه : أمضها الجوع ، فراحت تعبث بيدها فى الجليد محاولة استخراج بعض الجذور ، لكن محاولتها باءت بالفشل فأغمضت عينيها . واستسلمت للنوم . وهبت من نومها فزعة على أصوات الذئاب تتردد فى أنحاء الغابة . أصوات موحشة ترسل الرعب فى القلوب ، وبالرغم من أن نومها كان عميقا

فإن يقظتها نقلتها دفعة واحدة إلى الانتباه الكامل . وفتحت عينيها تحملق فى الظلام الدامس الذى لم يكن يخفف من حدته أى ضوء .

حاولت أن تخرج رأسها من مأواها المؤقت لتلقى نظرة إلى العالم حولها . لكنها وجدت أنه بالرغم من أن الفترة التى نامتها لم تكن طويلة إلا أن الجليد قد تراكم بحيث كاد أن يغلق عليها المأوى . وبأصابع ترتجف أخذت تزيح ببطء الثلوج الهشة ، التى تجمعت ، حتى أمكنها أن تخرج رأسها بحذر . ولم تكن الظلمة فى الخارج أقل شدة منها بالداخل فإن الغيوم الكثيفة كانت تغطى وجه السماء تماما فحجبت ضوء القمر ، والنجوم ، وساعدت أغصان الأشجار العالية الكثيفة على أن تطمس ما بقى من ضوء ، أدخلت رأسها ثانية ، واستلقت فى مكانها لا يأتيها النوم ، وبقيت سائر ليلتها مسهدة يتنازعها الخوف ، والجوع ، والبرد . شر رفاق فى ظلمة كثيبة دامسه لا تسمع فيها إلا عواء الذئاب يقطع السكوت المطبق بأصوات حزينة نائية .

لعلها نامت ، أو لعلها غفت ، أو عساها أن تكون قد انتابتها غيبوبة مؤقتة ، على أى حال هى الآن قد انتبهت تماما . أرهفت حواسها جميعا . تتلمس الخطر الذى تنذر به تلك الحاسة الغامضة التى لا تعرف مصدرها . ربما صدر صوت ضعيف لا يكاد أن يسمع ، ومع هذا فقد تلقفته أذناها ، أو ربما حمل النسيم رائحة غريبة التقطها أنفها . أو لعله ذلك السكون المطبق الذى خيم على الغابة أيا كان هى الآن مرهفة جميع حواسها . إعتدلت فى رقدتها على قدر ما تسمح به سعة المأوى وقد أمسكت بيدها خنجرها متأهبة لوقوع كارثة .

مضت الثوانى طويلة ، وتلتها الدقائق ، لكنها لم تتحرك من مكانها أو تصدر أية حركة . حتى أنفاسها حبستها على قدر استطاعتها . لقد تعلمت أن الصمت والسكون خادعان ، يخدعان الصائد ، فيغفل عن الفريسة ، ويخدعان الفريسة فتطمئن حيث الموت يقبع . كانت تعلم أنها ليست ندا لأضعف حيوانات الغابة ، وأقلها حيلة ، ولم يكن فى استطاعتها أن تتهاون فى إستعمال مثل هذين السلاحين . وبدأت اطرافها تؤلمها من لسعة البرد ، وضغطت على اسنانها ان تصطك ، وتسارعت دقات قلبها ، خوفا ، وتوقعا ، لكنها ظلت صابرة ساكنة سكون الموتى .

بدأت أول ملامح النهار فى الظهور وداف بصيص الضوء إلى المأوى من خلال الفجوة التى تركتها دون إحكام لتخرج منها ، وليدخل الهواء النقى إليها . ولاحظت مرتاحة فى بادىء الامر أن الجليد قد غطى الفجوة أو كاد كما أنه كان قد طمس تماما معالم المأوى ، فكأنها مدفونة فى قبر من الثلوج . وتساقط البرد خفيفا كالعهن لايسمع له أى صوت عند ارتطامه بالارض . وظلت المرأة فى مكانها ساكنة تراقبه وهو يسد عليها مابقى من الفجوة شيئا فشيئا فى حين لم تواتها الجرأة على أن تزيح بعضا منه . ومضت فترة أخرى، وبدأ الهواء فى المأوى الصغير يزداد ثقلا ، ويزداد معه تنفسها صعوبة . وداخلها رعب جديد إذ أحست أنها إن حاولت أن تزيح بعض الجليد ليدخل إليها الهواء النقى فإن العدو المتربص سوف يعلم مكانها وفى هذا موتها الذى لاشك فيه . وإن هى من ناحية أخرى ظلت على حالها دون حراك فإن الفجوة سرعان ماسوف تغلق تماما وستموت اختناقا .

احتارت أى السبيلين تأخذ، ومرت عليها الدقائق كالدهور ، وتتالت أنفاسها سريعة متلاحقة ، وشعرت كأن صدرها قد التف حوله قفص حديدى يتزايد ضغطه فى بطء . وعلمت أنها لن تستطيع الصبر طويلا بعد هذا . تجاسرت فقربت أنفها وفمها من الجزء الصغير المتبقى من الفجوة لتستنشق الهواء النقى : ولم تبال بلسعة البرد القارص الذى كاد أن يجمد دماءها . وأزرقت شفتاها ، ولم تشعر بذبابة أنفها ، ومع هذا فقد أرغمت نفسها على الاحتمال .

وبلا مقدمات انتهت لعبة الصبر لتبدأ لعبة الموت . كانت هنالك أنفاس تشم الجليد الذى يغطى المأوى . راحت مخالب قوية تعبث ، ثم تحفر بشدة وبسرعة . وتعجبت المرأة فى بادىء الأمر فى من أن الوحش قد طرح كل حذر جانبا ، ثم مالبث أن فهمت أنه اعتقد أن ماهو مدفون تحت الثلوج مجرد حيوان ميت ، مجرد لحم حيوان ميت ، ولم يخطر فى باله أن يكون هنالك كائن حى يتربص به . لقد كسبت معركة الانتظار والصبر . وببطء شديد تحولت إلى الناحية التى يحفر فيها الوحش محاذرة ان تصدر اى صوت . وما كانت فى حاجة إلى كل هذه الحيطة وقد طرح الحيوان الحذر جانبا . اشتدت قبضتها على الخنجر وتأهبت لطعنة نجلاء . كانت تعلم ان لها فرصة واحدة إن إضاعتها ضاعت معها .

انزاح كثير من الجليد ، واشتدت رائحة اللحم فى انف الوحش الجائع فإزداد معها نشاطه . وتراءى له الفراء الذى تتدثر به المراة ، واخطأ تقديره فضاعف من حفره . وظلت المراة فى مكانها جامدة تنتظر اللحظة المناسبة التى تطعن فيها طعنتها . واتسعت الفجوة التى حفرها الوحش شيئا فشيئا حتى اضحت كافية لأن يدخل رأسه ويمد عنقه . وجاءت اللحظة التى انتظرتها المراة بصبر بالغ ، لم يتوقف الوحش حتى يوسع الفجوة بدرجة تسمح له بأن يكشف الجسد المسجى فى الجليد ، وإنما دفعه جوعه إلى ان ينسى حذره تماما ويدخل راسه من الفجوة بمجرد أن سمح له اتساعها بذلك .

بسرعة هوى الخنجر فى ضربة قاتلة على عنقه . وكان يمكن أن تكون الطعنة قاتلة حقا لو تمت كما رغبت المرأة . لكنها كانت بدورها قد تعجلت ، ولم تجعل فى حسابها ضيق المكان . ولا أنها هى نفسها قد مكثت مدة طويلة بلا حراك وقد جمد البرد أطرافها ، فجاءت حركتها بطيئة نسبيا ، والطعنة غير قوية بدرجة كافية . وجاء رد فعل الوحش سريعا سرعة مذهلة فصدرت منه صرخة تعجب وألم ، وانسحب الراس قبل ان تستطيع المراة ان تعاود الطعنة . وارتد الوحش بعيدا عن متناول يدها . وبسرعة عاثلة دلفت المرأة من المأوى نافضة عنها ما بقى من الفجوة من جليد ووقفت فى مواجهة ذئب أشعث اغبر ضخم .

تراجع الذئب مرة أخرى حينما هب من بين الجليد ما كان يحسبه ميتا . وتساقطت الدماء ثانية من الجرح الغائر فى رقبته لتسقط على الأرض الناصعة البياض . وتقدمت المرأة بضع خطوات وهى مشهرة الخنجر ، وما كان فى نيتها أن تهاجم الوحش . وإنما كانت كل رغبتها أن تحرك أطرافها التى كاد البرد أن يجمدها حتى تسرى الدماء فيها ، وتستعيد مرونتها . كانت تعلم أن الذئب بالرغم من الدماء التى راحت تنزف بغزارة منه فتزيده ضعفا كفء لها ، ومن اليسير جدا أن يقتلها لو صدر منها أى خطأ .

لم تتحول عيناها عن الوحش المكشر عن أنيابه أمامها . واستمرت فى وقفتها لاتتقدم ، وان لم تتوقف كذلك عن تحريك أطرافها حركات سريعة قوية . ومضى الذئب ينظر إليها برهة وهو يزمجر . ثم بدأ يتحرك ملتفا حولها بغية

الابتعاد عن الخنجر المشهر . ودارت المرأة مع دوران الذئب . لم تحاول أن تتعجل ، فقد كانت تعلم أن كل دقيقة تمر يزداد فيها الحيوان ضعفا فلم تزل الدماء تتساقط من جرحه لتقع متجمدة على الأرض ، فى حين أنها كانت تزداد قوة ، ونشاطا ، وتعاود الدماء سريانها الطبيعى فى جسدها .

دار الذئب نصف دورة حولها ، ودارت معه المرأة تواجهه . وارتد قليلا وجابهته المرأة . وبغتة ، وبسرعة مذهلة انقض الذئب قافزا فى الهواء مندفعا نحو رقبتها . وبخفة مماثلة تراجعت المرأة بعيدا عن الأنياب الحادة ، وطوحت بخنجرها تغمده فى الجسد المندفع . لكن الحيوان كان يترقب هذه الطعنة فمال بجسده فى حركة بهلوانية مبتعدا ، فى حين ضربت مخالبه فى الفراء الذى تتدثر به المرأة . وبالرغم من أن الفراء كان سميكا ، كما أن ضربة الذئب كانت سريعة ، سطحية نسبيا ، إلا أن المرأة أحست بخيوط من نار تلهب كتفها . ووقع الذئب على الأرض بعيدا ، لكنه لم يتوقف .

سرعان ما استرد توازنه وجاء الهجوم الثانى مفاجأة كاملة لها . لكنها من ناحية أخرى كانت بنت الغابة ، وكم تعرضت فى حياتها للمخاطر ، ولولا سرعة حركتها وخفتها ورباطة جأشها ، ما كان يمكن أن تعيش فى ظل حياة يحوطها الموت من كل جانب . بحركة خاطفة استدارت المرأة لتتفادى الهجمة القاتلة ، لكنها لم تكن بالسرعة الكافية . لقد تفادت فكا الوحش وأنيابه ، فأطبق على الهواء ، لكن جسده إرتطم بها بقوة قذفت بها إلى مسافة بضعة أمتار ، وألقتها على الأرض . وأطارت الخنجر من يدها . وأذهلتها الصدمة فاستمرت فى موضعها لحظات ، لكن هذه الفترة القصيرة كانت كافية لأن تجد الذئب قابعا فوقها ، تمزق مخالبه الحادة رداءها ، ويحاول بأنيابه أن ينقض على رقبتها . وأنقذها جلد الماموث السميك من أن يتمزق جلدها تماما ، ومع هذا فلم تنج من خدوش وتمزيق .

جاهدت المرأة أن تبعد أنياب الذئب عن رقبتها ، وراحت تدفعه عنها بكلتا يديها . أحست بأنفاسه حارة تلفح وجهها ، وسقطت قطرات من لعابه على وجنتيها ، وبهرتها عيناه المليئتان بالوحشية المجردة فلم تستطع أن تحول

نظرها عنها . شعرت بسائل دافىء لزج يغطى يديها وهى تدفع الوحش وتمسك برقبته لتبعد وجهه عنها . علمت أن الجرح الغائر الذى أصابه فعلا قد أخذ ينزف بشدة . وضاعف هذا من شجاعتها ، وأعطاها أملا كانت أبعد ما تكون عنه منذ لحظات . ودام الصراع بينهما دقائق أو لعلها ثوان . وأفلحت مرة أن تطرحه من عليها ، وسرعان ماعاد يمتطيها . وفجأة انقلب الموقف تماما ، فقد استنزف الذئب آخر قطرات الحيوية فى هجومه عليها وصراعه معها ، وبدأت الحياة تنسحب من أعضائه رويدا رويدا . وسهل على المرأة أن تدفعه عنها ، وأن تطرحه على الأرض . جرت تلتقط الخنجر لتندفع نحو الذئب وتطعنه فى كل موضع فى جسده المرة تلو الأخرى . وحاول الوحش عدة مرات أن ينهض من كبوته ، لكن كل محاولة كانت أضعف من سابقتها . أخيرا إنطفأ لمعان العينين الوحشيتين ، وخمدت حركة الجسم الضخم .

وقفت المرأة تنظر لاهثة إلى الذئب وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . وأحست بالدماء تلوث جسدها جميعه ، وإن لم تكن تعرف تماما من أين تنزف . كان جسدها جميعه يؤلمها ، ولم تستطع رجلاها أن تحملاها فخرت ببطء على الأرض إلى جوار الجسد الهامد . مكثت فترة قصيرة وهى تحاول أن تتمالك جأشها ، ولم تتحرك من مكانها حتى عاد إليها هدوءها تماما وارتد إليها رشدها . وبدأ إحساسها بالآلام يتزايد . كانت الخدوش والجروح تملأ جسمها ، خاصة ذراعيها ، إذ كانت مخالب الذئب قد مزقت الرداء وغارت فى كتفها الأيمن . مدت يدها تضع بعض الجليد على أماكن الجروح المختلفة حتى توقف نزيف الدماء تماما . ثم تحاملت على نفسها ووقفت مترنحة تنظر إلى الجثة فى بلاهة وقد وقف عقلها عن التفكير .

مضت دقائق تمالكت المرأة فيها نفسها . وعلى الرغم مما كانت تشعر به من الآلام فانها لم تتوان عن أن تقطع لنفسها أجزاء طرية من اللحم ، راحت تنهشها فى نهم حتى أحست بالشبع . وشعرت بالحياة تعود إلى أعضائها قوية متدفقة . وغمرها شعور بالراحة ، ودت معه لو نامت ساعات ، لكنها كانت تعلم أن عليها أن تعود سريعا إلى رجلها ، تحمل إليه الطعام . لقد قطعت يوما كاملا فى مسيرتها بعيدا عن مأواهما ، وكانت ماتزال قوية لم تصبها جروح ولم تنزف

... كما أنها لم تكن تحمل شيئاً ، أما الآن فإن عليها أن تجر وراءها ... الضخم ، بالإضافة إلى أنها منهكة ، مكدودة وقد تمزق جلدها فى أكثر ... ولن تستطيع أن تقطع المسافة فى أقل من ضعف المدة . خامرها ... إذا أنها علمت أن عليها أن تقضى ليلة أخرى فريدة فى هذه الغابة الموحشة ... مؤقت لا يتوافر فيه الدفء والأمان .

... عنها التعب . وهبت واقفة ، وأمسكت بذيل الذئب وبدأت تجره ... سائرة متجهة صوب رجلها . ووجدت أن المهمة أيسر كثيرا عما ... إذ كانت الجثة تنزلق خلفها على الثلوج بلا عناء أو مجهود كبير . ... فى سيرها ساعات ، ومع هذا فلم تقطع شوطا بعيداً إذ كان عليها أن ... كثيرا لتتأكد من العلامات التى تركتها على الأشجار فى رحلتها الأولى . ... فى جسمها فتحاملت على نفسها . كم من مرة جال فى خاطرها أن ... . لكنها كانت تطرح الرأى جانبا وتستمر فى سيرها المكدود . ... النهار ، وأحست بأن قواها تخور ، فاضطرت إلى الراحة . جلست على ... إلى جذع شجرة ضخم ، وقربت جثة الذئب منها تطلب الدفء ... السميك ، واسترخت أعضاؤها بعد المجهود الشاق الذى بذلته . ولأول ... المرأة تلاحظ أن السماء ملبدة بالغيوم ، وأن ضوء النهار لا يكاد أن ... من ثنايا الأشجار . وهبت نسمات من الهواء البارد بدأت تشتد شيئا ... وراحت الثلوج تنهال من السماء .

... المرأة من مكانها فزعة ، ومضت بسرعة تبحث عن الأغصان الجافة ... وتجمعها لتكون مأوى يحميها من زمجرة الرياح ، والثلوج المتساقطة . ... تكاد أن تجمع ، الأغصان تسندها إلى جذع الشجرة إلا ويغطيها الجليد ... . فى أقل من نصف ساعة كانت قد إبتنت لنفسها مأوى من الأغصان ... . لكنها فى هذه المرة لم تكن قد جمعت من الأغصان ما يكفى فاضطرت ... جوانب المأوى من الجليد المتساقط ثم غطته بالأفرع . والأغصان التى ... تجمعها فكان المأوى من ثلاثة جدران من جذع الشجرة أما سقفه ... الأغصان مغطاة بالجليد . واعتنت أن تكون الفتحة فى الناحية العكسية ... حتى لا تسده الثلوج سريعا .

زحفت إلى داخل المأوى ، وجرت خلفها جثة الذئب حتى أدخلتها . كان بالكاد يسعها ، لكن هذا زودها بدفء كانت فى أشد الحاجة إليه . دوى صوت الرياح فى الخارج . ولم تمض ساعة إلا وكانت العاصفة على أشدها ، وبالرغم من أنها أحسنت اختيار مكان الفرجة التى تركتها تمدها بالهواء فإن الثلوج كانت تتراكم بسرعة وتكاد أن تغلقها لولا أن المرأة كانت تزيحها بين الفينة والأخرى . استمر هبوب العاصفة ، وسقوط الجليد ، ولم تخف حدتها مع مرور الساعات . وولى ضوء النهار ، وجن الليل . حاولت أن تنام ، لكنها كانت تهب من نومها فزعة فى كل مرة بعد فترة قصيرة لترى أن الفرجة كادت أن تغلق عليها لتدفنها حية إلى جوار الجثة المسجاة . وطالت غفوتها ذات مرة وانتبهت فجأة لترى الفجوة قد سدت تماما . بلهفة وسرعة حاولت أن تنزع الجليد . وأزعجتها الظلمة الدامسة فى المأوى . فبالرغم من أن الليل فى الخارج كان مظلما إلا أنها كانت تشعر بأن هنالك نوعا من الضوء يصلها بالعالم الخارجى أما فى هذه المرة فإن الظلام لم يكن يتخلله أى نور .

لم تستطع فى مبدأ الأمر أن تحرك ذراعها . وظنت أنه قد تجمد ، وتملكها ذعر رهيب فبذلت مجهودا جبارا حتى بدأ الدم يجرى فى عروقها ، ثم أخذت تضرب جسدها وذراعها بالذراع الأخرى . لم يخفها الرعب فى كل هذه المدة ، ومضت دقائق وهى مذعورة تماما ولم تتوقف عن خوفها بعد أن استعادت أطرافها حركتها ، بل راحت فى لهفة تجهد فى أن تعيد فتحة الفرجة . هرأ الجليد اصابعها ، لكنها لم تأبه ، واستمرت تعمل فى سرعة . واستغرق المجهود الذى بذلته كمية الهواء النقى داخل المأوى الصغير . وضاق صدرها وشعرت بآلام حادة فى حلقها ، وخيل إليها ان عينيها لا تريان ، حتى الظلمة لم تمكن تراها . بدأت تفقد شعورها وتراخت قوتها ، وأحست نفسها بالغيبوبة تدهمها ، استسلمت فى دعه وسكون وراحة لم تشعر بمثلها طوال الأيام الماضية .

فجأة ، وكأنما قد امتدت يد لتوقظها من سبات عميق جميل عادت إليها حواسها . وداعبت وجهها نسمة باردة تحمل إليها الحياة ، ويبدو إنها كانت قد فتحت فعلا جزءا صغيرا من الفرجة قبل ان يغشى عليها ، ودخل الهواء النقى

بعيشها من أن تدفن حية، وتموت اختناقا . مع دخول الهواء إمتلأت أملا، وبحت توسع فى الفرجة، وتملأ رئتيها على ما وسعت . لم تتوقف عن العمل حتى اطمأنت تماما إلى أن الجليد لن يغمر الفرجة إلا بعد فترة طويلة، وأمسكت أنفاسها اللاهثة وبدأت تنظر إلى العالم الخارجى حولها . كانت العاصفة مازالت على أشدها ، ولم يتوقف هطول الجليد ، لكن خيل إليها أن ضوءا يسيرا من الشروق قد بدأ يتسرب خلال الظلام الدامس ، كما رأت خيالات للأشجار تتراقص أمامها وتترنح تحت لطمات الرياح .

شعرت بجوع شديد فمدت يدها إلى خنجرها ، وحاولت أن تقتطع لنفسها قطعة من اللحم المسجى إلى جوارها ، لكنها وجدت أنه قد تجمد حتى أضحى صلدا كالحجر . كررت محاولاتها فى أكثر من جزء لكن النتيجة كانت واحدة دائما . تركت محاولاتها يائسة ، وراحت تنصت إلى صوت العاصفة عساها تتلمس بعض الهدوء فيها ، لكن الرياح كانت مازالت مستمرة والثلوج مازالت تتساقط بالشدة نفسها . وازداد شعورها بالبرد ، فأخذت تحرك أطرافها وجسدها بصفة مستمرة لا تهدأ فى الحيز الضيق الذى حبست نفسها فيه . وتمنت لو أنها كانت قد جعلته أكبر مساحة من ذلك بل لقد خطر فى بالها أن تجابه العاصفة لتحاول أن توسع من ضيق المكان ، لكنها راجعت رأيها فما اطمأنت إلى نفسها لحظات مع هذه الرياح الهوجاء .

علمت أن أملها فى الحياة ضئيل، وأن عليها أن تلعب لعبة الصبر مرة ثانية . لكنها فى هذه المرة كانت تلعبها ضد الطبيعة، ضد الجوع، والبرد، والنوم .

مضت ساعات ، وبزغ ضوء النهار ، وما زالت العاصفة تدوى على أشدها وازدادت وطأة الجوع على المرأة فحاولت مرات أخرى أن تقتطع من اللحم الملقى إلى جوارها ، لكنها فشلت فى كل محاولة ، ولم يستطع خنجرها البدائى أن يخترق اللحم المتجمد . داهمها البرد ، ولم تعد تفلح الحركات البسيطة التى كانت تأتيها داخل المأوى فى أن تطرده عنها . بدأت تشعر أن أطرافها وجسدها كله يتجمد شيئا فشيئا ، وأن عليها ان تخرج من سجنها الإختيارى لتقوم بحركات أكثر جدية مما تفعله ، ومع هذا فلم تجرؤ على مواجهة العاصفة وداخلها خوف شديد من انها قد خسرت لعبة الصبر هذه المرة كانت القوى

التى تحاربها اكبر كثيراً من قواها الخائرة ، وربما ظلت العاصفة على عنفوانها أياما برمتها . لم تكن تعتقد انها تستطيع ان تستمر على هذه الحال ليلة ثالثة . دب اليأس إلى قلبها ، وكادت ان تستلم الموت واوقفت حركتها فعلا .

فجأة لم تعد تسمع شيئاً . صمتت الرياح العاصفة ، وتوقف الثلج عن الهطول ، وبزغت اشعة الشمس ضعيفة تتخلل الاشجار . وقفز قلب المرأة بين ضلوعها ، وملأها الأمل قوة ، ونشاطا فزحفت خارج المأوى إلى حيث الشمس والأشجار ، والضوء . حاولت أن تقف على قدميها ، لكن ركبتيها خذلتاها . راحت تحرك رجليها وذراعيها ، وضربت جسدها بجنون فى محاولة مذعورة إلى إعادة الدماء . وأخيراً أفلحت فى النهوض . آلمتها مفاصلها فى كل حركة ، لكنها لم تعبأ ، واستمرت فى ضربها لجسدها كما استمرت فى تحريك سائر بدنها بالرغم من شعورها بأن خناجر كانت تمزق أطرافها ، ومفاصلها . رويدا بدأت الآلام تزول ، وتسرى الدماء حارة تبعث الدفء . وزادت حركتها حتى أضحت تجرى ، وتدور حول الشجرة كمن به مس ، لكنها كانت فرحة مغتبطة بالحياة ، وبالحرية خارجا من المأوى الضيق الذى كاد أن يكون مثواها الأخير .

وطرأ عليها خاطر ، فأخرجت جثة الذئب من المأوى ، وعرضتها إلى أشعة الشمس . لكن الشمس ، كانت أضعف كثيراً من أن تزيل الجليد من اللحم أو حتى تخفف من درجة تجمده . نظرت حولها حتى رأت غصنا قويا ملقى على الجليد فتناولته ، وراحت تضرب بكل قوتها فى مكان واحد من الفخذ . واستمرت مدة تضرب قبل أن تشعر بأن الجد بدأ يلين ، وما كاد يفعل حتى إستلت خنجرها ، واقتطعت لنفسها قطعة كبيرة من اللحم وراحت تقطعها بجنون وشره . لقد عاد الدفء إليها ، وعاد الشبع . على أنها رأت أن النهار يولى مريعا . كانت تخاف الليل ، وتخشى إن غلبها النوم أن تتجمد أطرافها وتخسر الجولة الأخيرة . لو أنها استطاعت فقط أن تبقى متيقظة هذه الليلة لأمكنها أن تبدأ رحلتها مع أول خيوط النهار ، ولوصلت إلى رجلها قبل أن يجن الليل مرة أخرى . وداعبتها الأفكار السعيدة وتخيلت رجلها وهو يستقبلها فى المأوى الدافىء . وتذكرت النيران والسنتها تتطـاول مرسلة الضوء ، والحرارة والأمان .

ولم تطل بها الانفعالات وراء الخيال إذ سرعان ما عادت إليها طبيعتها العملية . جرت بقايا جثة الذئب إلى داخل المأوى، ثم وقفت تحرك أطرافها حتى بعد أن اختفت أشعة الشمس ، وتراقصت خيالات الظلام . ولم تدلف من الفجوة إلى الداخل إلا بعد أن هجم الظلام تماما . حتى بعد ذلك ، بقيت مدة يسيرة وهى تنظر إلى النجوم من خلال الأغصان العالية . وجدت أن من العسير جدا عليها أن تبقى فى المأوى الضيق دون أن يغالبها النعاس . غفلت عيناها أكثر من مرة ، لكنها كانت تهب قبل أن تستغرق فى النوم . وحينما كانت ترى أنها لن تستطيع الاستمرار فى اليقظة كانت تخرج من الفجوة لتحرك أطرافها قليلا ، ثم تعود . بزغ القمر ، والتمعت الأرض البيضاء بأشعته الفضية . فكرت أكثر من مرة أن تبدأ رحلة العودة دون انتظار لنور الصباح لكنها كانت تشك فى قدرتها على العثور على العلامات التى تخرتها فى الأشجار، وتخشى ان تضل طريقها فاقنعت نفسها بالصبر .

كانت هذه ثالث ليلة لها دون نوم حقيقى ، أو راحة لبدنها المكدود ، بل ودون دفء يسرى فى بدنها . وكان التعب والاجهاد قد نالا منها ومن أعصابها ومع هذا فقد إستمرت تقاوم، وتغالب، إذ كان الأمل يراودها فى لقاء رجلها حيث الدفء والأمان ، والراحة . خرجت ذات مرة من المأوى وسارت بين الأشجار القريبة تتلمس العلامة التالية على ضوء القمر . وطار بها الفرح حينما وجدت أنها لا تبعد عنها سوى أمتار قلائل ، وحينما عادت إلى المأوى كان قلبها فى هذه المرة غامرا بالأمل والثقة . ظلت تنتظر بزوغ أول خيوط النهار بصبر نافذ . وفكرت فى أن تقضى الساعات الباقية من الليل فى سلخ فراء الذئب حتى يمكنها أن تتدثر به وتزداد دفئا ، وربما استطاعت أن تنام . وأغمدت خنجرها فى الجثة محاولة أن تفصل الفراء ، ثم توقفت بعد أن علمت أن خنجرها كان أضعف من أن يقوم بالعملية .

أخيراً بانت تباشير الضوء . وتميزت الأشياء أمامها فى خيالات واضحة ولم تتوانى عن البدء فى سيرها وهى تجر الجثة خلفها . ومضت ساعة أو تزيد . وبزغت الشمس ترسل أشعتها أكثر دفئا من سماء صحو ليس فيها غيوم ولم تكن المرأة تعلم أن عاصفة اليوم الماضى كانت وداع الشتاء للأرض ، لكنه

وداع ترك أثره على كل شجرة فى الغابة ، وعلى الكثير من أحيائها . شاهدت بعض هذه الآثار فى الأغصان الكثيرة الملقاة ، بل وبعض الأشجار الصغيرة التى تكسرت كأنما بيد عملاق . لكن كل هذا فى الواقع لم يكن يعنيها إذ أن قلبها كان عامراً بالفرح والأمل ، فكل خطوة تخطوها كانت تدنيها من رجلها ، ومن الدفء ، والأمان ، والراحة .

ولعل هذه الطمأنينة التى داخلتها ، وهذا الفرح الذى عمها كانا هما السبب فى أنها كانت أقل حيطة ، وحذرا مما ينبغى ، فلم تلحظ العينين النهمتين وهما تنظران إليها ، ترقبانها فى صمت وهى تقترب . ولعل الجليد أيضا ساعد على ألا ترى الجسد الأبيض الضخم ، وألا تشعر بوجوده إلا حينما دوى صوته مرعبا فى أرجاء الغابة ، واندفع كالسيل الجارف نحوها .

الفصل العاشر

صراع البقـــاء

جلس الرجل إلى النيران مهموما مكدودا . كانت قد مرت عليه ساعات وهو فى مكانه لايتحرك . لأول مرة شعر بمدى ضعفه ، وبأنه مامن شىء يستطيع أن يقوم به لينقذ رفيقته . هناك فى العراء ، ووسط الجليد ، فى مكان مامن الغابة ، لم يكن يشك فى أن المرأة قد لاقت حتفها ، وأن الثلوج الآن تغطيها . لقد كاد النهار أن يولى ولم تعد ، وإذا ماجن الليل دون أن تعود فما من قوة يمكن أن تمنع عنها الموت .

كم من مرة حاول أن ينهض ليخرج إلى العراء سعيا وراء المرأة ، وفى كل مرة كان لايستطيع أن يقف مستقيما على قدميه . غالبه الجوع . لكنه لم يجد فى نفسه رغبة إلى الطعام . كان ضعيفا يحتاج إلى غــذاء يقويه ، ومع أنه شعر بمعدته تصرخ فى سبيل الطعام فإنه لم يعرها التفاتا . كانت الأفكار تدور فى رأسه سوداء يتمثل فيها المرأة وسط الصقيع ، وقد تجمدت أطرافها . يمثلها ملقاة على الأرض والثلوج تهطل عليها لتغطيها . ثم تلوح له بارقة أمل حينما يتذكر أن المملاق والذئب هنالك أيضا ، وربما قابلاها ، وربماهى الآن معهما سليمة معافاة . ويعاوده التفكير ليستعيد ذلك اللقاء . إن الغابة واسعة مترامية الأطراف ، ومن المستبعد جدا أن تلتقى المرأة بهما . وحتى إذا هى كانت معهما ، فكيف تحمى من الصقيع . ان جسدها ليس مثل الذئب ، وليس مثل المملاق ، فهى لاتستطيع أن تتحمل البرد كما يتحملان .

جن عليه الظلام ، وبدأت النيران تخمد فمد يده إلى الأخشاب يغذيها . تلك الأخشاب التى جاءته بها المرأة ، حتى يستدفىء ، وخرجت هى لتموت فى الصقيع . وزادته معدته جوعا ، فاضطر أخيرا أن يمدها ببعض طعام . ومضى الليل ولم ينم فيه إلا كدا وتعبا . ساعات قليلة اختطفها جسده المنهوك . ساعات قليلة استيقظ

فيها عدة مرات لتهاجمه الأفكار السوداء . وجاء طيف المرأة فى أحلامه باهتا تغطيه الثلوج . وهب من نومه فزعا . نمى إلى أذنيه صوت عواء ذئب . ورأى النيران تكاد أن تخمد فغذاها .

وجاء أول خيوط ضوء الصباح ليجده مستيقظا متنبها . ومع أن النوم كان قد جافاه معظم الليل إلا أن المدة القصيرة التى نالها أعطت الجسد الحديدى دفعة قوية نحو الصحة . شعر بالقوة تعود إليه لتعطيه أملا جـــديدا حتى أنه إنتزع قطعة من اللحم ومضى يشويها على النار حتى نضجت ، فأخذ يلتهمها بشراهة . وإزداد شعوره بالقوة ، فارتدى دثاره وخرج زاحفا إلى العراء . قابله هواء الصباح البارد لتسرى رعشة قوية فى جسده . وقف متوثبا ينظر حوله . لكن الغابة كانت صامتة إلا من حفيف أوراق الأشجار . راح يدقق النظر فى كل اتجاه عساه أن يرى أثراً للمرأة . آمال تتجاذبه لتتخلى عنه بعـــد لحظات وتتركه حزينا مهموما .

كان يعلم أن عليه أن يسرع فى الحركة ، وإقتفاء أثر المرأة إن كانت هنالك بقية من أمل فى إنقاذها . ومع هذا فإن أعضاءه وسائر جسده كانا مايزالان أضعف من أن يقوما بحركة جدية . كانت حركته ضعيفة بطيئة لاحيوية فيها ، ولن يفيد المرأة إذا هو ذهب بدوره فريسة سهلة لوحوش الغابة ، أو لهذا البرد اللعين . شعر برعدة تسرى فى جسده . ولفحت وجهه نسمة باردة جعلته يرفع بصره إلى السماء ، وهاله ما رأى . كانت الغيوم تتجمع بسرعة مخيفة لتحجب ضوء الشمس . لاحظ أن نسمة الصباح قد بدأت تتحول إلى رياح . وجاء حفيف أوراق الأشجار العالية منذرا بأن الجو سوف يزداد سوءا ، ومع هذا فقد رفض أن يدخل فى المأوى ليحتمى . كان عليه يعرف أولا أى اتجاه اتخذته المرأة فى رحيلها . تحامل على نفسه ، وراح يجول حول المأوى فلم يكن يتصور أنها تتخذ طريقا دون أن تترك لنفسها أثرا تهتدى به إن هى أرادت العودة ، كما لم يكن من سبيل إلى ترك أثر فى الغابة العينة إلا عن طريق الأشجار .

إزدادت الرياح شدة . وتكاثرت الغيوم فى السماء ومازال الرجل لاهيا عنها يوسع من دورته حول المأوى متفحصا الأشجار . وتطاير قلبه من الفرح حينما رأى خدشا على جذع إحدى الأشجار لم يشك لحظة فى أنه تم بفعل المرأة .

وفظر إلى المأوى . إذاً فقد اتخذت المرأة هذا الاتجاه وجعلت الشمس على يمينها .
سار بضعة خطوات وهو يتفحص الأشجار ، وبعد مدة يسيرة رأى
خدشا آخر على شجرة أخرى ولم يعد لديه شك أن المرأة قد إتخذت هذا
الاتجاه . وقف لحظات يفكر فى أن يتعقب المرأة بالرغم مما كان يشعر به من تعب
واعياء . كان النهار قد جاوز الانتصاف ، كان هو قد بعد أكثر مما قدر من
المأوى . ومع هذا فقد تنازعته الأفكار والآمال .

واستقر رأيه على الاستمرار فى تعقب المرأة . تحرك من مكانه متثاقلا متخذا
الاتجاه الذى إكتشفه . لكن قبل أن يخطو خطوات تهاوى فرع شجرة ليقع
أمامه مباشرة . انتبه من تفكيره ، ولاحظ أن الرياح قد إزدادت شدتها
حتى أضحت تعصف بالأشجار ، كما أن الثلوج كانت تتساقط بكثرة جعلت منها
مايشبه الحائط الأبيض الضخم . سرت البرودة فى أنحاء جسده ، فضم إليه
دثاره فى محاولة يائسة للدفء . واختفت السماء تماما وراء ستارة كثيفة من
الغيوم . تردد فى موقفه لحظات ، ولكن أصوات الرياح وهى تزمجر ، وما شعر به
من ضعف متزايد قطع رأيه ، فعاد أدراجه إلى المأوى . لم يكن الأمر بالسهولة
التى تصورها . صحيح أنه لم يبعد كثيرا ، لكن جسده كان ضعيفا منهوكا من أثر
الحمى ، كما كانت الرياح شديدة ألقت به إلى الأرض أكثر من مرة ، فى حين كان
الجليد يتساقط عليه كأنما هو الحجارة المتوالية ، يكاد أن يحجب الرؤية
إلا لأمتار معدودات .

كثر تساقط الأفرع ، والأغصان الصغيرة . وقذفته الرياح العاصفة بغصن
صغير ، وكانت الضربة من الشدة بحيث ألقت به على الأرض . حاول أن يتمالك
نفسه ويقوم ، إلا أنه شعر بقواه تخور ولا تساعده . ازدادت شدة الرياح ،
وازداد هطول الجليد كان يعلم أن المأوى ليس بعيدا ، وإن عليه أن يبلغه
سريعا وإلا هلك فى العاصفة . إستجمع قواه ، وأخذ يزحف على الجليد . وأحس
بأطرافه تتجمد ، لكنه لم يتوقف . احتمى بشجرة كبيرة ، وامتدت يداه
إليها فى محاولة أن يستند عليها ليقف . واتكأ على غصن ملق على الأرض حتى
تمكن من الوقوف . ومكث برهة يلتقط أنفاسه ، ويتمالك قواه ، ثم استأنف
العودة إلى المأوى .

حينما وصل الرجل كان المأوى قد غطته الثلوج تماما ، وكان من الممكن

أن لايراه ، أو أن يحسبه تلا آخر من الثلوج ، لولا أكوام الأذرع والغصون إلى جانبه والتى كان قد جمعها فى مبدأ الأمر وظهر بعضها من تحت الجليد .

كان المدخل قد سد تماما فى هذه الفترة القصيرة . وركع الرجل على ركبتيه ، وأخذ يزيح الجليد بكلتا يديه أحيانا ، وبالغصن أحيانا أخرى حتى كشف المدخل ، ودلف إلى الداخل منهوكا لايستطيع حراكا . لكن عمله لم يكن قد انتهى ، فإن النيران كانت قد استنفذت جميع الهواء فى الداخل وخبت ، أو كادت . تحامل على نفسه ، وزحف إليها وراح يقلبها بالغصن فى يده بلهفة ، وسرعة يحاول أن يوقد جذوتها . ومضت فترة كاد فيها أن يستسلم لليأس . وفجأة أمسكت النار بأحد الأغصان الصغيرة الذى غطته بعض الأوراق الجافة ، ثم اندلعت وشع الدفء ، والنور فى المأوى الصغير .

كان المجهود الذى بذله الرجل قد استنفذ قواه تماما فبقى فى مكانه إلى جوار النيران يستمد منها الحرارة . وراح صدره ينخفض ويرتفع فى تنفس سريع منقطع لاهث بينما غاب عقله فى شبه غيبوبة . دفعت النار الحرارة فى جسده ، ووهبته الحيوية التى كان قد فقدها فى المجهود الجبار الذى بذله . ولم يطل به البقاء فى مكانه . تحرك ببطء شديد ليغذى النار ، لتزداد اشتعالا ، واتجه إلى مدخل المأوى يزيح عنه الثلوج التى تراكمت ، وكادت أن تغلقه ثانية . وارتفع صوت العاصفة يكاد أن يصم الآذان . وهبط ظلام دامس دثر الكون حوله فى سواد قاتم لم يخفف من حدته الجليد الأبيض . وعاد الرجل إلى النار يستدفىء بها . اقتطع لنفسه قطعة من بقايا اللحم الضئيل الذى بقى ، وقربها من النار ، ثم مضى يلتهمها فى نهم .

لم يستطع النوم إلا غفوات قليلة . كان عليه أن يغذى النار دائما ، كما كان عليه أن يزيح الجليد المتراكم على المدخل . وتذكر أنه كان يرى المرأة إبان مرضه تمزج بعض الجذور التى تركتها إلى جواره بالجليد لتضعها فى وعاء وتقربه من النيران حتى يدفأ ثم تلقمه إياها ، فراح يقطع الوقت فى طبخ الحساء . تركه مدة طويلة على النيران حتى شعر بأن الوعاء بدأ يحترق ، ثم تناول الحساء . أحس بالدفء يسرى داخله ، وبالقوة تعود إليه . وقبع إلى جوار النيران يفكر فى المرأة . لم يعد لديه أمل فى أنها مازالت على قيد الحياة ، فإن كانت

قد نجت من وحوش الغابة ، ومن برد الليلة الماضية . فإن هذه العاصفة قد قضت عليها ، فما كان يتصور أن يتمكن مخلوق ، خاصة امرأة ، أن يبقى على قيد الحياة وسط الغابة دون مأوى ، ودون نيران . كلا انها ماتت . نامت ذلك النوم الذى لا إستيقاظ بعده . هى الآن فى الخارج مدفونة تحت أكوام من الجليد .

من العسير أن يتصور المرء شعور الرجل فى هذه الحالة ، كان الموت جزءا من حياته ، رآه فى شتى صوره وأشكاله ، واعتاد أن يتقبله دون مبالاة . رأى بعض اعضاء أسرته يأكلون الآباء ، أو الامهات ، والآباء يأكلون أولادهم ، والرجل يأكل رفيقته ، والرفيقه تأكل رجلها . صحيح أنهم لم يكونوا يقتلون بعضهم بعضا ، وإن كان قد رأى قبيلة العملاق تفعل ذلك ، لكنهم كانوا يرون أن من العبث أن تترك لحوم موتاهم للوحوش تنهشها . كانوا هم أولى بلحوم ذوى قرباهم . ولم يكن الرجل ، وهو مازال صغيرا ، ثم شابا يعيش مع أسرته ، ليرى فى ذلك أية غرابة ، بل ولم يكن يفكر فيه أصلا فقد نشأ عليه ، وأضحى عاديا لديه شأن النوم ، والطعام ، والشراب . ولأول مرة فى حياته داخله ذلك الشعور الغريب بالنسبة للموت ، شعور بالأسى ، والحزن ، وبأنه لن يرى المرأة ثانية ، ولن يشعر بجسدها يدفىء جسده . إنها لم تكن مثل سائر الأشخاص الذين عاش معهم . إنها كانت مثله هو . كانا غريبين فى عالم من الغرباء لايجمع بينهم حتى التشابه فى الخلقة . والآن وقد ماتت فقد أصبح فريدا فى عالم الأغراب . كانت بذور الانانية عميقة فيه ، أنانية الرجل ، وأنانية الوحش ، وهو يفكر فى نفسه ووحدته ، ولا يفكر فى تلك التى لقيت مصرعها على حد تصوره مدفونة فى الجليد . لكن أنانيته لم تكن مجردة . كان يخالطها الأسى على فراق رفيقته ، والحزن لعلمه بأنه لن يراها بعد ذلك .

مضى الليل ، وبزغ الفجر ، ومازالت العاصفة على أشدها . واستمر الرجل قابعا فى مأواه الضيق ، ، يقوم بالأعمال الطفيفة التى يلزمه القيام بها ، من تغذية النار ، أو طهو الحساء ، أو تناول قطعة صغيرة من اللحم ، أو إزاحة بعض الجليد من المدخل . وعاوده التفكير فى المرأة أكثر من مرة . كان يتعلق ببصيص ضئيل

من الأمل ، لكن حياته العملية ظلت تطرح هذا السراب جانبا . كانت الحياة بالنسبة إليه قوية عملاقة أقوى ممن يحياها . كانت هدفا فى حد ذاتها بغض النظر عما يحيط بها .

ظلت العاصفة على أشدها تهدر فى الخارج ، وظل هو حبيس المأوى . وبالرغم من أنه لم ينل قسطا كبيرا من النوم إلا أن الراحة، والطعام كانا كفيلين بأن يردا إليه الكثير من قوته الضائعة . نظر إلى قطعة اللحم الصغير الباقية . كانت لا تكاد تكفيه وجبة واحدة، وعلم أن عليه أن يخرج للبحث عن صيد، وأن جذور النباتات الباقية لن تكفيه غذاء الا أياما قليلة . ولم يكن على أى الأحوال يستسيغها ، وما يعتقد أن فى استطاعته الحياة عليها إلى أمد طويل .

واستقر رأيه على أن يخرج إلى الصيد بمجرد أن تهدأ العاصفة . وصمم على أن يتجه فى بحثه إلى الوجهة التى اتخذتها المرأة عند تركها المأوى . وعاوده خيط الأمل ضئيلا باهتاً . ترى هل يمكن أن تكون مازالت على قيد الحياة ؟ هل يمكن أن تكون قد تغلبت على البرد ، والظلام ، والوحوش ، والعاصفة ، والجوع ، والنوم ثلاث ليالى، وأيام بأكملها ؟ وبدا له استحالة الفرض . كلا إنها ماتت وانتهى أمرها . لكنه مع هذا كان قد عقد العزم على أن يتتبع أثرها . وإذا كان لا بد له من الصيد ، والبحث عن فريسة فإن أى اتجاه يتخذه سواء ، فلم لا يأخذ الاتجاه الذى سبقته إليه المرأة ، خاصة وأن هذا سوف يكفيه مؤونة ترك علامات يهتدى بها عند عودته . وطار خياله إلى الذئب، والعملاق. تعجب إن كانا لا يزالان على قيد الحياة . إن فرصتهما فى الحياة أكبر كثيراً من المرأة . خاصة الذئب . وتساءل فى تفكيره عما إذا كانا سوف يعودان إلى المأوى . وعلم أنهما إن لم يكونا قد ماتا فسوف يعودان بالغريزة إليه ، حيث الدفء والنور، والطمأنينة .

وانتبه من أفكاره على صوت العاصفة . خيل إليه أن الرياح قد هدأت قليلا، وأن زمجرتها قد خفت عن ذى قبل . اندفع إلى المدخل ، وأطل برأسه منه . أجل لا شك فى أن حدة العاصفة قد خفت . وتملكه شعور بالقلق . كان يريد أن يخرج ، لكنه كان لا يعلم إن كانت العاصفة قد انتهت، أم أنها سوف تعود مرة أخرى . ثم أن النهار قد مضى منه نصفه أو أكثر قليلا . حتى إن هدأت

العاصفة فسرعان ما سوف يحل الظلام ، ولن يستطيع أن يفعل شيئاً ، بل لعله لن يستطيع أن يحيا فى البرد القارس ، وقوته لم تكتمل بعد . دلف ثانية إلى الداخل ، وقبع إلى جوار النيران يستدفىء على مضض .

هدأت العاصفة تماماً . وبزغت الشمس باهتة تودع الكون إلى لقاء . وخرج الرجل من المأوى ، ومضى يحرك أطرافه . لاحظ أن الجو أقل برودة مما كان قبل العاصفة . ومضى يتأكد من العلامات التى رآها على الأشجار والتى يعتقد أن المرأة لا شك قد فعلتها بخنجرها . وبدأ الظلام يحل سريعاً فاضطر إلى العودة إلى المأوى ، ازاح الجليد عن بعض الأغصان المتكسرة ، واحتملها معه إلى الداخل يغذى بها النيران حتى تأكد انها سوف تبقى مشتعلة لمدة طويلة . واستلقى إلى جانبها ، وراح فى سبات عميق .

إستيقظ بعد ساعات والبرد يكاد ان يبرأ جسده ، لم يتساقط جليد اثناء المدة التى نامها ، وبقيت فجوة المأوى مفتوحة تدخل الهواء البارد . وخفت حدة النيران رويدا رويدا ، وحينما استيقظ الرجل كانت آخر قطعة من الاخشاب تحترق . اسرع يلقم النيران بالأخشاب الصغيرة ، واوراق الأشجار الجافة . وعاد اللهيب يتطاول ، وعاد معه الدفء إلى المأوى . شعر الرجل بنشاط شديد وبقواه وقد عادت إليه . فدلف إلى الخارج يستطلع . كان الوقت مايزال ليلا وقد بزغ القمر فى اكمل بهائه يتلألأ الجليد تحت اشعته ، ووقفت الأشجار رشيقة باسقة ، وما كان احد يتصور ان الهدوء الذى ساد الغابة كان منذ ساعات قلائل مسرحا لعبث عاصفة هوجاء . سار الرجل خطوات ، ثم قفز فى الهواء . وشعر بأن ساقيه قويتان تحتملان جسمه وحركته ، وانه على مافيه من نحول كان صلبا قويا . استمر يؤدى حركات متباينة مدة من الزمن فى ضوء القمر حتى تأكد من ان فى مكنته الرحيل متى اعتزم .

عاد إلى داخل المأوى ، وراح متلهفا يقطع الوقت الباقى قبل ظهور طلائع النهار فى إعداد وجبة دسمة إستهلكفيها كل ما بقى من لحم ، والكثير من جذور النباتات . وما التهم وجبته ، حتى أحس فورا بقوة إضافيـــة تسرى فى عروقه . ابتدأ يتنقى بعض الحراب ، كما تمنطق بخنجره . وغذى النار بكمية كبيرة من الأخشاب ، ولن كان يعلم أنه إن تأخر فى العودة فعليه أن يقوم بعملية ايقاد النار

المضنية . وهداه تفكيره إلى جمع كثير من الاوراق الجافة المتساقطة من الأشجار ، فراح ينتقى بعض الأخشاب الجديدة الجافة ويعدها لإيقاد نار جديدة إذا ماخمدت النيران . فمن يدرى ربما عاد إلى المأوى يحمل رفيقته وهى أحوج ماتكون إلى الدفء ليجد أن النيران قد إنطفأت . ولما أتم جميع استعداداته وتأكد من أن النار لن تنطفىء إلا بعد ساعات قادمة أطل برأسه من الفرجة ليرى أن النور قد بدأ يلوح ، وأن فى استطاعته أن يميز العلامات على الأشجار .

لم يتوان لحظات جمع فيها حاجياته ، واندفع خارجا من المأوى يتبع آثار المرأة . ومن الغريب أن أملا جديدا حل به ، ولو سئل هل هنالك أى شك فى وفاتها ، لما أمكنه إلا أن يجيب بالنفى ، ومع هذا ملأ الأمل قلبه ، ولم يعد يفكر فى أنها قد ماتت مدفونة تحت الجليد . كان من اليسير عليه أن يقتفى الأثر سريعا وقد علم إتجاه العلامات ، ولم يكن يتوقف إلا الفينة والأخرى ليتأكد من أن المرأة لم تغير اتجاهها ، فإذا ما اطمأن إلى أنها لازالت تسير فيه إندفع سريعا .

وفجأة توقف . لقد حملت إليه الرياح رائحة إنسان ، وحيوان . وحيثما إجتمعت الرائحتان فلابد أن الإنسان فى خطر . أم هل هى رائحة العملاق والذئب عائدين ؟ لم يطل تردده ، وأطلق ساقيه يسابقان الرياح . لم يعد يفكر فى العلامات أو غيرها ، وإنما إقتصر تفكيره فى أن إنسانا ، وربما تكون المرأة ، فى خطر الموت . واشتدت الرائحة كلما اقترب ، فأيقن أنه يسير فى الاتجاه الصحيح . وقطع صمت الغابة صرخة عالية . كانت صرخة تحمل كل معانى الخوف والفزع . ولم يعد لدى الرجل أدنى شك فى أن الصرخة صدرت من رفيقته ، وأنها فى خطر قاتل . ضاعف من سرعته . ولم يأبه للأغصان المتكسرة على الأرض حتى أن أحدها جرحه وهو يجرى فتعثر .

رأى من بين الأشجار منظرا كاد أن يفقده شعوره . كانت المرأة تجرى بأقصى سرعتها ، متجهة إلى ناحيته ، فى حين اندفع وراءها جبل أبيض . بدا للرجل بوضوح أن الوحش أسرع كثيرا من المرأة إذ كان على ضخامة جسمه يتحرك بخفة لامثيل لها ، بنظرة واحدة رأى أن المرأة مائتة لامحالة إذا لم يتدخل . كانت المسافة بينها وبينه تزيد على عشرين خطوة ، فى حين كان بينها وبين الدب

أقل من عشر خطوات . ولن تنقضى لحظات إلا ويكون قد أطبق عليها . لم تره المرأة وهى تندفع فى ذعر ، كما لم يظهر على الدب أنه قد رآه . قبضت يده على إحدى الحربتين معه ، وألقاها بكل ما أوتى من قوة من فوق رأس المرأة . كانت المسافة أقرب إلى ثلاثين خطوة ، وكان يعلم أن الحربة ، حتى أن أصابت الدب فلن يكون لها أثر فعال . لكن كل أمله كان ان يبتعد الدب عن المرأة ، ليوجه إليه هو الهجوم . اصابت الحربة كتف الدب ، ثم وقعت على الأرض . لم تكن الضربة من القوة بحيث توقف هجومه ، او تؤثر فى قوته ، ومع هذا فإنه يبدو انها قد آلمته إذ توقف عن متابعة المرأة لتستقر عيناه على الرجل ، واندفع نحوه .

لم يتوقف الرجل بعد ان القى رمحه الأول . إستمر فى اندفاعه تجاه الدب مشهرا الحربة الثانية ، وحينما اصبح على قيد خطوات قليلة منه دفعها بكل قوته لتستقر فى الكتف وتبقى ، ثم عرج فى طريقه مبتعدا عن اللطمة القوية التى سددها الوحش إليه . كان الرجل يهدف إلى ان تستقر الحربة بين عينى الدب ، لتكون الضربة قاتلة . لكنه فى اندفاعه وسرعته ، اخطأ التقدير فحادت الحربة لتستقر فى الكتف . وندت من الدب صرخة موحشة . وتوقف لحظة ضرب فيها الحربة باحدى قدميه الأماميتين لتقع على الأرض . انتهز الرجل الفرصة . ولم يترك الوحش وقتا يستجمع فيه تفكيره بل اندفع ناحيته محاذرا ان تناله إحدى ضرباته ، واعتلاه ليدفع خنجره فى جسده مرات .

صرخ الوحش من الألم والغضب . لم يكن مثل هذا الخنجر ليؤثر فيه ، ولا مثل هذه الطعنات لتشل من حركته ، او تضعف من قوته . فى حركة مفاجئة ، إستدار متوسدا ظهره ليلقى الرجل على الأرض ، وبسرعة مذهلة إرتفعت إحدى قدميه الأماميتين لتهبط على الجســد الملقى فى ضربة لو انها اصابت الرجل لكانت فيها حتما نهايته . لكن الرجل لم يكن فى المكان الذى هبطت فيه قدم الدب . على قدر ما كان الوحش سريعا ، كان هو اسرع إذ تدحرج على الجليد مبتعدا من المخالب الحادة ، والأرجل القوية .

توقفت المرأة عن العدو حينما سمعت صوت العراك . وحينما علت صرخة الدب تعجبت من الخصم الذى تجرأ ان يجابه مثل هذا العدو . كانت فى عدوها المذعور

م تلحظ الرجل وهو يقذف الرمح ، كما أضحت المسافة بينها ، وبين موقع القتال بعيدة بحيث أخفت الأشجار المتقاتلين . أصاخت السمع برهة ، ولما لم يصلها أى صوت آخر سوى زمجرة الوحش كادت أن تكمل عدوها إلى المأوى ، لكن نسمة خفيفة حملت إليها رائحة الرجل مختلطة برائحة الوحش .

تملكها ذعر حقيق أطاش صوابها ، ودفعها إلى أن تعود أدراجها عدوا كالمجنونة . تسارعت الأفكار تسابق قدميها . أنها تعلم أن الرجل كان مازال ضعيفا ، ما كاد يبل من مرضه . وعلى أحسن الأحوال لا يمكن أن تتصور أن فى استطاعته مغالبة الوحش الضخم الذى رأته . كاد عقلها أن يطير حينما تصورت أن كل ما فعلته من أجل الرجل سوف يذهب هباء فى ضربة واحدة غادرة . لقد مكثت ثلاثة أيام وليالى فى هذا الجحيم البارد تصارع الوحوش ، والطبيعة ، لتعود إليه بما يقيم أوده . ثم ما كادت أن تكون قاب قوسين إلا لقاه يهاجم وحشا ضخما لا بد أن يقضى عليه ، مضحيا بنفسه لكى يعطيها فرصة النجاة . وظهر المنظر المرعب أمامها .

كان الدب يقف على خلفيتيه وقد إستقر عجزه على الأرض فى حين راح يطوح بقدميه الأماميتين فى الهواء فى حركات غاضبة . وعلى بعد يسير منه وقف الرجل ، قابضا على خنجره الحقير مهددا ومتحفزا . بدا ضئيلا بالنسبة إلى الوحش أمامه ، فكأنه طفل يصارع عملاقا . ولمحها الرجل بطرف عينيه . فأشار لها بيده صارخا أن ابتعدى ، وفى هذه اللحظة إعتدل الدب وقفز عليه . كانت خفته عجيبة لا يمكن أن تتصور من مثل هذا الجسد الضخم . وكادت تلك الثانية التى انقسم فيها انتباه الرجل أن تكون القاضية إذ أصابته ضربة قوية ألقت به عدة أمتار . وصرخت المرأة من الرعب حينما رأته ملقى على الأرض والدماء تسيل بغزارة منه . لم تكن تدرى من أين تنزف الدماء . لكنها سرعان ما كست الجسد وكأنما قد تسربل جميعه باللون القانى .

كان الرجل قد رأى الدب وهو يهجم ، وحاول أن يتفادى القبضة القوية ، والمخالب الحادة ، فتحرك بسرعة شديدة لكنها لم تكن كافية . شعر بكتفه كأنما قد خلع من مكانه ، والهبت جلده أسياخ من نار ، ثم اندفعت الدماء من أكثر من مكان كأنما هى من آثار سياط تمزقه . أحس بنفسه يرتفع عن الأرض ،

ليطير فى الهواء ثم صعدت الأرض إليه ، أو هبط هو إليها ، ليتم اللقاء بينهما . لكنه لقاء أليم رض ضلوعه فى كتفه .

أذهلته الضربة ، وأفقدته الصدمة بعض شعوره لحظات . كان من حسن حظه أن قوة الضربة ألقته بعيدا ، وأن الدب كان يندفع إلى الناحية الأخرى ولم يتوقف إلا بعد أن قطع مسافة قصيرة . وحينما ارتد ، واتجه مرة ثانية إلى الرجل كان هذا واقفا منتصبا ينتظره . لم يتعجل الدب فى هجمته التالية ، وكأنما قد اطمأن إلى أن الضربة التى أصابت خصمه كانت تكفى لإنهاء المعركة . ولم يعد يفكر فى قتال ، وإنما فى التهام الفريسة ، ووقف الرجل متأهبا . كان خنجره قد سقط منه أثناء الضربة التى أطاحت به ، وبذلك تجرد من كل سلاح ، ومع هذا فلم يتملكه الرعب ، بل ربما كان تمالكه لأعصابه أشد . وضح له تماما تفوق خصمه الساحق عليه فى القوة ، وحتى مع وجود الخنجر أو الرمح لم يكن هناك أمل ، وكان عليه أن يستعمل السلاح الوحيد الذى بقى له ألا وهو عقله .

راح تفكيره يسابق الموت المتقدم ، إن الدب قد أصيب بعدة طعنات ، وهى لم تؤثر فيه قطعا ، لكن الدماء ماتزال تنزف من بعضها ، خاصة طعنة الرمح فى الكتف ، لاحظ أن الوحش يكاد ألا يضع قدمه ، أدنى الكتف المجروح ، على الأرض . ولم يكن الرجل بأحسن حالا كثيرا فإنه قد أبل لتوه من مرضه ، ولم يسترد قوته تماما ، كما أن ضربة الدب قد مزقت عضلات كتفه الأيمن وأسالت كثيرا من الدماء . أحس بأنه لا يكاد يستطيع تحريك ذراعه ، كما أن الآلام تسيطر على كل جسده ، ومع هذا فقد كان عليه يقاتل . إنتظر فى مكانه حتى اقترب الدب منه كثيرا ، ثم تحرك حركة مفاجئة إلى الجانب الأيسر ، وأطلق ساقيه للريح . وفوجىء الوحش بالحركة ، ولم يتنبه إلى الجرح الغائر فى كتفه وهو يحاول أن يتابع فريسته . ألقى بكل ثقل جسمه على الرجل المصابة . وكانت النتيجة صرخة غضب، وألم ، وانبثقت الدماء غزيرة من الجرح . وكاد هو نفسه أن يختل توازنه . ومع هذا فقد جرى وراء فريسته خطوات . ثم توقف يلعق جرحه .

وقف الرجل على بعد آمن . ودارت عيناه فى أرجاء المكان تبحث عن خنجره ، لكنه لم يعثر له على أثر وإن رأى رمحه الأول ملقى فى مكان غير بعيد . كانت المعركة تدور فى فسحة خالية تقريبا من الأشجار فكأنما قد أعدت خصيصا

القتال . لم يحاول الرجل أن ينتهز فرصة تألم الدب ليهرب ، وإنما انقلب صائدا يبغى فريسة . تحرك من مكانه ببطء شديد متجها إلى الحربة . ودارت معه عينا الدب ، وفجأة تحرك الوحش مهاجما ، يجرى على ثلاثة ، ولا تكاد الرابعة أن تلمس الأرض . كرر الرجل الحيلة وانحرف الدب . وفى هذه المرة إختل توازنه ، وخانته رجله فوقع على جانبه . ولم يتوقف الرجل . إتجه مباشرة إلى الحربة والتقطها ثم إعتدل فى وقفته .

ودون سابق إنذار ، شعر بدوار ، رأى أشجار الغابة تتراقص أمامه وأحس بأن ركبتيه بدأتا تخذلانه .

قفز قلب المرأة بين ضلوعها وهى ترى محاوراته مع عدوه . وقفز مرة أخرى وهى تراه يجرى ليلتقط الحربة . لكنه عاد فهبط حينما لاحظت أنه يترنح فى وقفته ، وأنه أسند نفسه إلى الحربة . ومن حسن الحظ يبدو أن الدب قد غير رأيه . فلم يعد ينظر إلى الرجل كفريسة ، وإنما اعتدل واتجه إلى جثة الذئب فى خطوات بطيئة متخاذلة . ومضت لحظات ، وبدأ الدب ينهش فى الجثة ويمزقها بمخالبه الحادة . ورأت المرأة أن الرجل قد استعاد توازنه . وظنت أنه سينتهز الفرصة المتاحة له مرة ثانية لينجو بجلده ، لكن الرجل كان يعلم أنه سوف يفقد رشده ، ويغيب عن وعيه بعد فترة صغيرة ، وأن تماسكه مؤقت ، ومعنى هذا أنه سوف يكون فريسة سهلة للدب ، او لغيره من الحيوانات الجائعة ان لم يقض عليه فورا . ولن تستطيع المرأة بمفردها ان تجره او تحمله إلى المأوى ، وتمش على الطعام لكليهما . كان عليه يقتل الدب .

اتجه فى خطوات مترنحة إلى حيث يجثم الوحش ، وجاهدا ان يركز عينيه على الجسد الضخم .

لم يعره الدب إلتفاتا فى مبدأ الأمر ، واكتفى بأن ارسل زمجرة إنذار ، ومضى يلتهم اللحم . لكن الرجل لم يتوقف فى سيره واستمر يتقدم نحوه . نظر إليه الدب جانبا وكأنما هو لا يصدق . واستجمع الرجل كل مابقى من قوته ، وسدد الحربة فى جانب الوحش . علت صرخة غضب وألم ، وترك الدب وليمته ، واستدار مهاجما ذلك الذى تجرأ على مقاطعته اثناء طعامه . وجرى الرجل

وتابعه الدب وقد صمم على قتله . لم يعد يعنيه الجراح التى أثخن بها ، ولا الألم الذى يشعر به من جرح كتفه ، أو الحربة المستقرة فى بطنه ، لقد أعماه الألم ، فلم يعد أمامه من مأرب إلا أن يقضى على غريمه . وأطلق الرجل ساقيه مبتعـداً عن الموت المحتوم .

وفجأة خذلته ساقاه . لم تعد رجلاه تتحملان ثقل جسمه ، وأظلمت الدنيا أمام عينيه ، ورأته المرأة يتهاوى فى مكانه ، ورأت الدب على قيد خطوات منه يستعد للضربة القاضية . وأطلقت صرخة رعب وأسى .

لم يكمل الدب ضربته . شاهدت المرأة جسداً يطير فى الهواء ليستقر على كتفه . ولم ير الوحش المهاجم الجديد ، لكنه شعر بمخالب قوية تمزق فراءه ، وبأنياب حادة تغرس فى رقبته . أجهدت المرأة نظرها لتتعرف على المهاجم ، ثم ندت عنها صيحة فرح ، لقد كان الذئب الصديق الوفى . وعلت صرخة الدب عالية ألماً ، وغضباً على هذا الدخيل الجديد . ولم يستطع كتفاه الممزقان من أثر الحربتين أن يعاونا قدميه فى حفظ توازنه ، فسقط على الأرض ، وبالرغم من أن سقطته قد سمرت الذئب فى مكانه فإن الأنياب الحادة لم تترك الرقبة ، ولا توقفت المخالب القوية عن تمزيق الفراء والجسد . حاول الدب أن ينهض من كبوته ، ولما لم يستطع إنقلب بجسده الضخم ليدفن تحته الذئب تماماً .

وجاءت النجدة فى شكل عملاق يخرج من بين الأشجار حاملا وعلا على كتفيه ، وقابضاً على هراوة ضخمة . لم يتوان العملاق فى أن يطرح عنه حمله ، وتقدم عدواً إلى حيث يتقلب الدب محاولا أن يزهق روح غريمه بمجرد ثقل جسده . ارتفعت الهراوة الضخمة فى الهواء لتهبط على رأس الوحش . سمعت المرأة صوت إرتطام الهراوة بالعظام . وسمعت صرخة يطلقها الدب ، الذى حاول النهوض لمحاربة المهاجم . وإرتفعت الهراوة مرة أخرى لتهبط بقسوة على الرأس ، ثم ارتفعت وهبطت مرات ، ومرات حتى همدت حركة الدب تماماً .

ألقى العملاق هراوته جانباً ، وبقوة هرقلية بدأ يرفع الجسد الضخم ليتمكن الذئب من الإفلات . وظهر الذئب يعرج ويترنح فى مشيته ، متجهاً إلى حيث يرقد الرجل . لكن المرأة كانت قد سبقته ، وجثت إلى جانب الرجل فعلا ، ترفع من رأسه وتضمه إلى صدرها . ودنا الذئب ، وراح يلعق جسد سيده .

حينما اطمأنت المرأة إلى أن رجلها لم يفقد حياته ، تحولت إلى التفكير العملى مباشرة . كانت تعلم أن المأوى لا يبعد كثيراً ، فأشارت إلى العملاق أن يحمل الرجل . تردد العملاق ، وهو ينظر إلى جثث الفرائس الثلاث ، الوعل ، والذئب ، والدب ، وأخيراً حمل الوعل على كتفيه ، وتناول هراوته ، ثم تقدم من الرجل ليحمله بين يديه كما يحمل الطفل ، وبدأ سيره متجها إلى المأوى فى حين أمسكت المرأة بجثة الذئب تجرها وراءها كما كانت تفعل قبل أن يهاجمها الدب .

نظر الذئب إليهما وهو يموء ، ثم نظر إلى جثة الدب ، وكأنما قد عز عليه أن يترك كل هذه الكمية من اللحم ، فأخذ ينهش فيها بنهم . وصل العملاق والمرأة إلى المأوى . وأدخل العملاق الرجل ، ثم وضعه برفق إلى جانب النيران ، والقى إلى جواره بجثة الوعل ، ثم خرج واختفى فى الغابة .

دلفت المرأة إلى المأوى تجر جثة الذئب ، حتى ادخلتها ، ثم التفتت إلى النيران وقد كادت تخمد ، فأسرعت بأوراق الشجر الجافة تغذيها ، وبالأخشاب الصغيرة تنميها . ومضت لحظات خشيت فيها أن تكون النيران قد خمدت تماما لكنها إندلعت فجاة وعادت ترسل الدفء . كان المأوى قد ازدحم حتى أن الحركة داخله كانت عسيرة ، ومع هذا فقد أرجأت ترتيبه حتى تطمئن على الرجل ، فراحت تكشف عن الجروح التى أصابت كتفه من جراء ضربة الدب . لاحظت أن الجلد قد تمزق ، وان الجروح فى بعض الأماكن كانت غائرة ، لكن الدماء توقفت من النزيف . احست بأن الجروح فى الواقع لا اهمية لها ، وانها سوف تشفى مع الوقت . اما الضعف الناجم من المرض السابق ، والمجهود الذى بذل ، والدماء التى سالت فهو الذى يجب ان يعالج .

اسرعت فى ترتيب المأوى قدر استطاعتها ، واقتطعت اجزاء صغيرة من لحم الوعل ، ومزجتها بالجليد وبدأت فى صنع الحساء . وتململ الرجل وفتح عينيه ليراها جالسة إلى جواره تحاول ان تقرب الوعاء من فمه . شرب الرجل ، واكل قطعا صغيرة من اللحم المسلوق فى المياه ، ثم راح فى سبات عميق . واحست المرأة بحركة فأطلت برأسها لترى العملاق يسير مجهدا وهو يجر وراءه جثة الدب فى حين سار خلفه الذئب ، وكأنما يحرسها من الوحوش . احتارت المراة اين تضع جثة الدب . لم يكن من الممكن ان تدخلها المأوى المزدحم

قملا ، كما لم يكن فى الاستطاعة أن تدخلها إلى مأوى العملاق والذئب إذ كان أصغر من أن يسعها ووقفت تفكر لحظات ، فى حين توقف العملاق والذئب كأنما ينتظران أوامرها . وبدأت تحفر فى الجليد بين المأويين ، وأشارت إلى العملاق فبدأ يحفر بدوره حتى أتما حفرة دفنا فيها الجثة ، وأهالا عليها الجليد حتى غطياها تماما .

* * *

مضى قرابة شهر على الحوادث السابقة . توالت فيه الأيام على وتيرة واحدة تقريبا . ظل الرجل طوال المدة تقريبا طريحا لا يقوى على القيام . وعاودته الحمى . لكن قوته الجبارة ، ودأب المرأة على مراعاته ، ودفء الغذاء كان لها جميعا أثرها الفعال فى نجاته من الموت . كانت مخالب الدب قد تركت ندوبا واضحة فى كتفه ، إلا أنه ما أن ابتدأ يبل حتى سار بخطى حثيثة نحو الشفاء الكامل . ولم تحدث حوادث تذكر فى هذه المدة سوى أن ذئبا هائما يبدو أنه قد شم رائحة جثة الدب فحاول نبشه ، لكن الذئب ، والعملاق طارداه فلم يلبث أن اختفى فى الغابة .

لكن هذا الشهر أتى بتغيرات واضحة فى مجالات أخرى . كان التغير الأول هو الانتفاخ الملحوظ الذى طرأ على المرأة . فإن أشهر الحمل كانت قد تقدمت ، ووصلت إلى الشهر الخامس ، فثقلت حركتها ، وبدأ تأثرها بالبيئة المحيطة بها جليا . كانت فى حاجة إلى راحة نسبية ، وإلى غذاء أكثر تنوعا من مجرد اللحم ، وإلى مكان أكثر اتساعا . صحيح أنها كانت بحكم حياتها وبيئتها أقدر على الاحتمال ، لكن الحمل ، وعدم إعتيادها على الجو ، أو المكان اللذين وجدت فيهما ، وكذلك عدم تنوع الغذاء ، وخاصة انعدام الفاكهة ، والنباتات الخضراء ، كانت كلها عوامل تؤثر فيها تأثيرا سيئا . بدت هزيلة بالرغم من انتفاخها ، وتغير لونها ، فأضحت أكثر شحوبا ، كما انتابتها كآبة وعصبية . ومع كل هذا فإنها كانت تتحمل بصبر دون أن تعرف هى نفسها سببا لما طرأ عليها من تغيير .

وبدأ التغيير الثانى على الرجل . فقد أبل تماما من جراحه ، لكن تأثره هو أيضا بعدم الحركة ، وعدم تعوده الغذاء الواحد كان جليا . إزداد نحولا ،

وشحوبا ، وتبرما ، وأكثر من الانفراد بنفسه كما راح ينظر إلى المرأة ويلاحظ ما هي عليه من ضيق وشحوب . لم يكن بيده حيلة فى مبدأ الأمر وهو طريح لا يقوى على الحركة ، لكن ما أن ابتدأ يشعر ببعض القوة حتى نشط تفكيره .

راح يوسع من دائرة تجواله ليبحث عن مكان آمن يستطيع أن يحمى فيه المرأة ، والوليد الذى تنتظره .

لكن الغابة حوله كانت عبارة عن نسخة طبق الأصل تتكرر مناظرها ، ولا مكان لمخبأ آمن . غير من خطته ، فبدلا من أن يوسع تجواله إتجه إلى إحدى الأشجار الباسقة وراح يحاول تسلقها . لكنه لم يستطع . فقد كانت فروعها بعيدة جدا عن الأرض كما كان جذعها أكبر من أن يحتويه بين يديه . وبعد محاولات عدة أصابه الفشل فيها وخدش اللحاء جلده فى مواضع متفرقة ، عاد مرة ثانية إلى تجواله . لكنه فى هذه المرة كان يبحث عن شجرة يستطيع تسلقها . وبالرغم من أنه وسع دائرته حتى أنه كان يغيب اليوم بأكمله عن مكمنه ، وبالرغم من تعرضه للأخطار أكثر من مرة إذ قابله أكثر من حيوان مفترس كان يهرب منه بطريقة أو بأخرى ، إلا أنه لم يجد بغيته .

وذات مرة رأى مكانا متسعا خاليا من الأشجار ، ففرح واتجه إليه وتوسطه تماما حتى يمكنه أن ينظر حواليه أكثر من بعد ، لكن خاب أمله فقد كانت الأشجار المحيطة بالمكان عالية إلى درجة أنها سدت كل المناظر سواها كما لم تكن الفسحة من الاتساع بدرجة كافية . وفى هذه المرة كاد ان يفقد حياته إذ هاجمه دب وهو فى وسط الساحة ، وكان عليه أن يجرى مسافة طويلة إلى حماية الاشجار يختبىء فيها . لكن ساقيه الطويلتين وخفة حركته كانتا كفيلتين بانقاذه . وقفل عائدا إلى المسكن ، وكله خيبة أمل ويأس .

وكان التغيير الثالث فى الطبيعة . ولو كان الرجل على خبرة بحيوانات المنطقة وطبائعها ، وعاداتها لأمكنه أن يعرف أن الدب لا يستيقظ من سباته الشتوى إلا عند نهاية الشتاء ، وإقتراب فصل الربيع . لكنه لم يكن يعلم . والواقع أن العاصفة التى صادفت المرأة كانت هى آخر العواصف الثلجية الجوية فى هذا العام صحيح أن الجو استمر باردا ، وأن الثلوج استمرت تتساقط ، لكن حدة

البرد كانت قد انتهت مع مرور العاصفة ، وابتدأت أشعة الشمس تكون أكثر سطوعا ، وأشد حرارة . هلت طلائع الطيور المغردة ، كما ابتدأت الأفرع العليا للأشجار تبدل من منظرها وتبزغ عيون الأوراق فيها .

لكن الرجل لم يلحظ من كل هذا سوى بداية الطيور المغردة ، وإن تكن قليلة متفرقة حتى أنه لم يعرها فى مبدأ الأمر التفاتا . والواقع أن عقله كان مشغولا بالمشكلة التى هو فيها حتى أنه لم يكد يلحظ أى تغيير . كانت الغابة بالنسبة إليه سجنا كبيراً لا يستطيع منه فكاكا . كانت أشجارها قضبانا متتالية لا منفذ منها بعد أن فقد كل شعور بالإتجاه فلم يعد يعرف أى طريق يسلك ، ولا إلى أى هدف يقصد . تساوت جميع الاتجاهات لديه فكلها أشجار ، وكلها ذات طابع واحد لا تكاد ان تحيد عنه .

وجاء يوم وجد فيه ان الثلج لم يتراكم عند مدخل الخيمة كما كان يفعل فى الأيام السابقة . لاحظ ان الثلوج التى فوق الخيمة قد ذابت ، ولم يبق متماسكا منها إلا القليل إذ كانت حرارة النيران تحتها قد ساعدت على ذوبان الجليد . خرج يستقبل الصباح ، وخرجت معه المرأة فقابلتهما اشعة الشمس اقوى مما كانت ، وشعرا بحرارة لم يشعرا بها فى الأشهر السابقة . تناهى إلى سمعهما اصوات الطيور المغردة . ونظرت المرأة إلى السماء ثم اشارت إلى رفيقها فرأى سربا من الطيور يحلق . لبث ينظر إلى السرب حتى اخفته الأشجار ، وسارت المرأة لتجمع بعض الأخشاب ولم يتحرك الرجل من مكانه ، ولا هو ارخى نظره إلى الأرض . كان يتساءل من اين اتت هذه الطيور ؟ ولماذا ظهرت فجأة ؟ إن من الجلى انها لم تكن تعيش فى هذه المناطق فى الأشهر الماضية فلا شك إذا انها كانت تعيش فى مناطق اخرى اكثر دفئا ، ولا يوجد بها هذا الثلج اللعين .

فجأة إستقر رأيه على انه إلى الاتجاه الذى اتت منه الطيور يجب ان يكون الرحيل . ومنذ هذه اللحظة بدات هجرة ثانية للرجل . بدأ النشاط يدب فى المعسكر ، وإن لم يكن احد من الثلاثة الآخرين قد فهم المغزى ، إلا ان ثقتهم فى الرجل كانت كاملة بحيث كانوا يطيعون اوامره دون اى تردد .

لم يتعجل الرجل الرحيل لأكثر من سبب . فأولا كانت لا تزال هنالك

كمية ضخمة من اللحم لا يستطيع الرجلان حملها ، فضلا عن الاحمال الأخرى التى كان يجب ان يأخذاها معهما ، كما انه راى ان عدد اسراب الطيور الوافدة كان يزداد يوما عن يوم . وبالاضافة إلى هذا فقد لاحظ ان الجو بدأ يميل إلى الدفء أكثر حتى تناثرت الخضرة فى أنحاء الغابة . وأخيراً فإن الرجل كان يريد حل مشكلتين . كان عليه اضافة بعض تحسينات على ضـــوء خبراته السابقة . وكذلك كان عليه أن يفكر فى أيسر طريقة يحمل بها ورفيقه أكبر كمية من اللحوم ، والأخشاب الصغيرة اللازمة للنيران ، والأوعية المختلفة والجلود .

بدأ عمله فوراً فى إنتقاء قطعة من خشب الأشجار تصلح لكى تكون وعاء النار ، فقد أصبحت النار بالنسبة له هى مصدر الأمن والطمأنينة . إعتنى بأن تكون القطعة تصلح لعمل وعاء كبير نسبياً بحيث يحتوى على أكبر كمية من الأخشاب المحترقة ، ولا يكون من ناحية أخرى كبيراً بدرجة لاتستطيع المرأة أن تحمله أو يعوقها عن الحركة . إبتدأ الناب السيفى يعمل ، ويشكل بمهارة اكتسبت من خبرة سابقة . ولما تم الوعاء طلاه من الداخل ببعض الطين ، ثم وضع فيه قطعا من الخشب المحترق حتى جف تماما وراح يرقبه مرة ، ويأمر المرأة بحمله مرة أخرى ، حتى اقتنع بأنه يوفى بالغرض . كان طوال يومه يفكر فى الطريقة التى يسهل بها حمل أكبر كمية من الأثقال دون عناء ، ودون أن تعوق الحركة .

لم يطل به التفكير . كان قد سلخ فراء الدب ، وجلد الوعل ، بحيث كون كل منهما مسطحا . ورأته المرأة وهو يخترق جلد الوعل من الأطراف الاربعة ويضمها إلى بعضها ، ثم انتقى احدى الحراب وراح يجرب قوة احتمالها حتى اطمأن إليها ثم جمع الأطراف وادخل الحربة فيها فإذا بها تكون خرجا يمكنه ان يضع فيه الكثير من الاحمال .

ولم يقتنع الرجل بهذا بل انه وضع فيه فعلا كل ما استطاع . وادخل الحربة ثانيـــة ، ثم حملها على كتفه ملقيا الخرج وراء ظهره . وابتدا تجاربه فى السير حاملا الخرج . وجرب اوضاعا عدة . وفى احداها انزلق الخرج من الحربة

وتبعثرت الأشياء التى بداخله على الأرض . أجرى تعديلات أخرى بأن قطع سيورا طويلة من الجلد فأدخلها فى الخروم ، وعقدها ، وراح يجرب أيسر طريقة لحمل الخرج بما فيه سواء عن طريق الحربة ، أو السير الجلدى ، أو الاثنين معا حتى ارتاح إلى الطريقة المثلى . وفعل فى فراء الدب مثلما فعل فى جلد الوعل ، ولم يمض أسبوع واحد حتى كان الرجل قد أعد عدة الرحيل ، ولم يبق سوى أن يقرر موعده .

الفصل الحادى عشر

شريعة الذئاب

حدد الرجل اليوم التالى لبداية الرحلة . لم يستطع أن ينام بعمق كما كانت عادته ، وإنما مكث إلى جوار المرأة مستيقظا يفكر . عادت أفكاره إلى رحلاته الأولى . لم تكن رحلة تماما ، وإنما كانت فرارا من الرعب . وسرت رعدة خفيفة فى جسده حينما تذكر الرعب . لقد اضطره إلى الهروب مرة ثانية حينما ظهرت آثاره فى المنطقة . ولعل هذا لم يكن فرارا بالمعنى الكامل للكلمة ، وإنما كان يداخله معنى الهجرة . وتوالت على ذهنه الحوادث . لقد ظهر القمر وغاب ، مرات ، ومرات خلال ترحاله فى الغابات . ورأى خلال هذه الفترة الوجيزة نسبيا مالم يكن قد رآه ، وهو قابع مع عائلته طوال سنوات صباه ، وشبابه المبكر ، رأى أنواعا مختلفة من الغابات ، ورأى النار تشتعل فى غابة ، ورأى جبالا لم يكن قد رآها قبل ذلك ، وشاهد أشخاصا من ساكنى الكهوف ، وتعددت عليه الأجواء ، من حر لافح إلى برد قارص .

تعلم الكثير من هجراته أو رحلاته ، كان أهمها كيف يصنع النار ، ويتحكم فيها . وتعلم أن الحيوان يكون أكثر إخلاصا من الإنسان إذا ما استؤنس . لقد صاحبه الذئب فى عشرات من مغامراته ، وأثبت المرة تلو الأخرى أنه صديق وفى لايهاب ، وما كان ليتردد لحظة واحدة أو ليفكر أمام الموت إذا مارأى صاحبه فى خطر . لم يكن أى ذئب عادى يجرؤ أن يهاجم بمفرده نمرا سيفى الناب ، أو دبا ضخما فى أى ظرف من الظروف ، لكن صاحبه لم يتوان أمام أيهما حينما كان الرجل يجابه الموت . ونمت بين الإثنين ألفة غريبة حتى أن الذئب كان يشعر بأحاسيس الرجل ، ورغباته قبل أن يبديها . ولعل أكبر ثقة أولاها الحيوان لرفيقه كانت فى الغابة المشتعلة . لم يكن هنالك حيوان يجابه النيران أو يصبر على قربه منها ، ولسعاتها ، وحروقها . إن الحيوانات يتولاها الذعر ، والرعب

الأعمى إزاء النار ، ومع هذا فقد ظل الذئب مع صاحبه وسط الغابة المحترقة .
حتى هذا الخوف الغريزى ، لم ينل من ثقته فى صاحبه .

وانتقل تفكيره إلى المرأة . لقد صاحبته بدورها فى ظروف قاسية .
ولم تتوان أن تواجه البرد ، والحيوانات والموت جوعا فى سبيله . كان يعلم أنها
قد أمضت ليالى طويلة لم تتم فيها إلا غفوات قليلة . كانت تسهر تراقبه أثناء
مرضه ، وتمسح عرقه ، وتبلل شفتيه بالمياه ، وتطهو له الطعام . وغمرته موجة
من الحب ، والعطف ، فى يده يتحسس برفق جسدها الممدد إلى جواره فى طمأنينة ،
حاذرا أن يوقظها . وتململت المرأة قليلا ثم عادت إلى سباتها . وداخله شعور
عميق بمسئوليته تجاهها . كان عليه أن يجد لها المأوى ، الآمن الذى لا تنتقل منه ،
حيث تستطيع أن تضع طفلها فى راحة ولا تخشى عليه البرد ، أو الحيوان . كان
عليه أن يوفر لها الطعام والمأوى . لهذا كان يلزم الرحيل من هذا الجحيم البارد ،
ويلزم أى يضمن الإستقرار فى المأوى الجديد الذى يختاره فلا يمكن أن يستمر
فى التنقل فى مكان إلى آخر ومعه إمرأة وطفل ، وذئب وعملاق .

استقر رأيه على يبدأ البحث عن المأوى . وراح يصور فى مخيلته الشروط التى
يجب توافرها فيه . يجب أولا أن يختار المنطقة ، ولو اضطره الأمر إلى الرحيل
أياما وشهورا . فالمنطقة يجب أن يكون جوها معتدلا لا ثلوج فيها ولا برد شديد .
ويلزم أن تكون كثيرة الأشجار ، متنوعة الثمار ، والخضروات ، وفيرة الصيد .
أما المأوى فيجب أن يكون صخريا إذ هو النوع الوحيد الذى يمكن أن يكتب له
البقاء ، والذى يمكن الدفاع عنه بسهولة ، كما يضمن الحماية والوقاية على قاطنيه .
يجب أن تكون المياه قريبة منه ، وأن تكون الثمار على مسافة ليست بعيدة .
ويلزم أن يكون متسعا يكفى لان يضمه وعائلته الصغيرة ، وأن يتبقى بعد ذلك
مكان يمكن فيه تخزين الأخشاب اللازمة للنار ، ومؤن تكفى الجماعة مدة طويلة
إذا ما حاصرها أحد الوحوش .

كان هذا عقل الإنسان يضع أهدافا للمستقبل ، ويفكر فيها ، ويدبر تخطيطها ،
ويعمل على تنفيذها . لم يكن الرجل مجرد حيوان يعيش ليومه ، ويقنع بقوته
إذا ما امتلأت بطنه ، ويختفى فى أى وكر إذا ما احتاج إلى غفوة . واطمأن
الرجل إلى ما انتهى إليه من قرار ، فألقى نظرة أخيرة يطمئن بها على النار ،

ولما ألفاها تحتاج إلى أخشاب قام من مكانه وغذاها ، ثم عاد يمد جسده إلى جوار رفيقته ، ويغلق عينيه لينام فى راحة ، وطمأنينة وصورة المأوى فى جنة عدن تداعب خياله .

مع أن الرجل قد تأخر فى نومة عن عادته إلا أنه استيقظ قبل أن يقوم أحد من الجماعة . كان كالطفل الصغير يتلهف على تجربة ثيابه الجديدة فى صبيحة عيد . لم يحاول إيقاظ المرأة من سباتها . وإنما داف إلى خارج المأوى ليلتقى بالجو المنعش البارد . لم تكن الشمس قد بزغت بعد ، لكن القمر كان مايزال يرسل ضوءه الفضى من خلال الأشجار لتظهر الغابة فى أبهى صورها . وعم السكون فكأنما قد توقفت الطبيعة لتلتقط أنفاسها . حتى الذئاب كانت قد توقفت عن إرسال نداءاتها الموحشة . كان الصمت كاملا يكاد المرء أن يتحسسه متجسدا . ولم تمض لحظات إلا ورأى الرجل أن الذئب قد دلف بدوره خارجا من مأواه المشترك . وتحرك الذئب بتكاسل ظاهر نحو سيده . والصق جسده فى رجله ، وكأنما هو يشعر بلذة لمجرد قربه منه . وربت الرجل على ظهره بحنان ، وأخذ يداعبه ويتخلل فراءه بأصابعه القوية ، ووقف الذئب مستكينا سعيدا .

فجأة وبدون سبب ظاهر شعر الرجل أن عضلات رفيقه قد تصلبت ، وارتفع أنفه إلى السماء قليلا ، وأخذ يلتقط الروائح من الغابة . تعجب الرجل ، وحاول أن يلتقط الروائح بدوره ، لكنه لم يشتم شيئا . تحول إلى حاسة سمعه ، دون أن يصل إلى أذنيه صوت . ازداد تصنته ، وأجهد ناظريه يلتمس أشباح الغابة ، لكنه مالم ير مايمكن أن يريب . وحول عينيه إلى الذئب . كان يعلم من طباعه وعاداته مايكفى لأن يقدر مدى قوة حواسه ، فلم يكن من اليسير أن يطرح جانبا مالاحظه من تصلب عضلاته ، وارسال أنفه إلى الهواء وارهاف سمعه . لم يتحرك الذئب من مكانه ، وإنما بقى على تصلب وقفته وكأنما قد تحول إلى صنم من حجارة . واستمر الرجل بدوره ينتظر بصبر ماسيفعله الذئب . وطال الانتظار دقائق ، ثم تراخت عضلات الحيوان ، وعاد سيرته الأولى .

طرح الرجل وساوسه جانبا ، فلعل الذئب قد اشتم رائحة عدو من مسافة بعيدة ، فانتبهت حواسه ، ولم يتراخ إلا بعد أن انصرف العدو . وعاوده

التفكير فى أن يوقظ المرأة ، والعملاق ليبدأ الجميع فى الإعداد للرحيل . دخل إلى خيمة العملاق أولا لتقابله العينان الضيقتان مستفهمتين . لاحظ الرجل أن العملاق يقبض على هراوته بيده فكأنه لم يترك هذه العادة فى اية لحظة من حياته . اشار إليه الرجل متمتما كعادته بأصوات غير مفهومة ، لكن المعنى كان واضحا . وقام العملاق بتثاقل ، ليخرج الإثنان من الخيمة .

ويبدو أن الحركة أيقظت المرأة ، إذ رآها الإثنـــان واقفة فى العراء تنتظرهما . وباشارات من الرجل بدأ الجميع فى العمل . أولى الرجل عنايته الاولى إلى النار حتى اطمأن إلى أن المرأة قد فهمت دورها تماما ، ثم انصرف يجمع الأشياء ليضعها فى الخرجين بعناية فائقة . ولما فرغ أحكم اغلاق كل خرج بالسير الجلدى ، وناول العملاق أحدهما وحمل الآخر ، ولم يبد على العملاق أى اهتمام بسير الأمور ، فهو يؤدى مايطلبه منه الرجل دون أى اعتراض أو استفهام ، فقد علم أن الرجل يزمع الرحيل ، لكنه لم يحاول أن يتساءل عن السبب . لعله تعجب فى قرارة نفسه خاصة وأن الغذاء وفير ، وقد بدأ الجو فى الاعتدال . ومع هذا فقد استمر يؤدى مايطلب منه دون أن يبدو على وجهه أية علامة تنبىء عن تعجبه .

سار الركب العجيب . امرأة تحمل إناء من فخار به نار موقدة تغذيها بين الحين والآخر بقطع صغيرة من أخشاب حملتها فى خرج صغير معها . وعملاق يحمل خرجا ضخما ، وهراوة ضخمة ، ينوء بحملها رجلان ، ومع هذا فقد كان يسير كأنما هو لايشعر بثقل حمله . ورجل كامل الرجولة يحمل بدوره خرجا ضخما ، ويتمنطق بخنجر حاد من ناب النمر ، ويمسك بحربة خشبية قد دبب طرفها إلى أقصى حد . وإلى جوار كل هؤلاء يخطر ذئب ضخم قلق فى سيره ويلتفت يمنه ويسرة ، ثم يرفع أنفه فى الهواء يلتقف الروائح من النسيم ليطلق بعدها عواء طويلا موحشا .

رتب الرجل السير بحيث يكون فى المقدمة تليه المرأة ، ثم العملاق ، فى حين ترك الذئب يجرى على هواه . واتجه فى سيره إلى حيث رأى الطيور المهاجرة تطير ولم يغير اتجاهه إلا بين الحين والآخر حينما كان يرى دربا آخر ، فكان يعدل قليلا ليتبع الطريق الذى أتت منه . لاحظ فى سيره أن الشمس كانت دائما

على يساره عند الصباح لتكون شبه عمودية عليه عندما ينتصف النهار ، ثم تميل يمينه عند الغروب ، فراح يوفق بين مسير الطيور وما لاحظه . ولم يدر الرجل أنه قد أرسى أول قواعد الملاحه . كانت هجرة الجماعات قبل هذا هروبا إجباريا ، أو انتقالا عشوائيا ، بحثا عن منطقة صيد جديدة ، أو أماكن ثمار وفيرة . لم يكن الرجل الأول ليهتم بالاتجاه الذي يأخذه طالما وجد بغتيه ، ولهذا فلم ينصرف تفكيره إلى السماء يتخذ من مصابيحها هديا فى ترحاله ، وإنما انحصر نظره إلى الأرض ، وما تحويه من غذاء ، أو تنذر به من عدوان .

توالت الأيام والركب سائر فى طريقه يخترق الغابة ، ولم تحدث فى الأيام الأولى حوادث تذكر ، فلم يكونوا يتوقفون سوى لتناول الطعام ، أو لقضاء حاجة ، أو عند النوم ، أو لجمع الأخشاب لتغذية النيران . لم يكونوا فى حاجة ، إلى الصيد ، إذ أن كميات اللحم التى حملوها كانت كافية لإشباعهم ، كما أن الحيوانات المفترسة لم تعترض طريقهم ، ربما لأن منظر الركب كان مرعبا ، العملاق بهراوته الضخمة ، والرجل برمحه الطويل ، والذئب بوحشيته وشراسته البادية ، وربما كانت رائحة النار بمفردها تبعث رعب الوحوش .

كان التغير محسوسا فى الجو كلما أوغلوا فى السير ، فمن ناحية كان سيرهم صوب الجنوب ، والجو الدافىء ، ومن ناحية أخرى كان الشتاء قد ولى تماما ودخل الربيع ، بدأت علامات التغير تظهر بوضوح تام فى الخضرة المتناثرة ، وانقطاع سقوط الجليد ، وبدء ذوبانه على الأرض حتى تكونت هنا وهنالك قنوات مائية صغيرة ، وصارت الأرض طينية فى أماكن كثيرة . أضحى من العسير عليهم أن يجدوا مكانا جافا ينامون عليه فاضطروا إلى افتراش الجلود ، وندرت الأخشاب الجافة التى تصلح غذاء للنار .

وبالرغم من هذه المضايقات اليسيرة فإن الجمع كان سعيدا . فالرجل سعيد إذ لاحظ تغير الجو كلما مضى فى السير ، ولأنه يعلم أن كل يوم يمضى يقربه من هدفه . والمرأة سعيدة بجوار رجلها ، ولأنه أضحى لا يضيع سعيا وراء الغذاء تاركا إياها نهبا للوساوس والخوف . والعملاق سعيد إذ كان غذاؤه متوفرا ، كما استمرت زمالته للرجل الذى أولاه حبه . كان الجميع سعداء .

ماعدا الذئب ، لاحظ الرجل أنه كان دائم القلق ، يتحسس الروائح في الجو ، ويلتفت قلقا في كل اتجاه ، وكثيرا ما كان يسهر الليل ليرسل بين الفينة والأخرى عواء طويلا موحشا ، فيه إثبات وجود ، وفيه تحد . حاول الرجل أكثر من مرة أن يعرف سبب ما يعترى رفيقه . وأجهد ناظريه بحثا بين الأشجار ، لكنه لم يستطع أن يرى شيئا ، تحسست أنفه الروائح فلم يشم سوى روائح الغابة الطبيعية . في كل مرة كان يطرح عنه الهواجس ، وينتهى بأن يربت على كتف الذئب في محاولة لتهدئته دون جدوى .

وبلا سابق انذار وقعت الكارثة . كان الوقت حوالى الظهيرة ، وكانوا يعبرون فسحة خالية تماما من الأشجار ، ويبدو أن خلوها من الشجر أعطى الشمس فرصة أكثر لتذيب الجليد ، فكانت الأرض طينية زلقة . فجأة زلت قدم المرأة ، فانكفأت على وجهها ، وطار وعاء النار من يديها ، وتناثرت محتوياته . وندت من فم المرأة صرخة أوقفت تقدم الرجل . وبنظرة واحدة أدرك مدى الخسارة التي لحقتهم . تبعثرت الأخشاب الصغيرة المحترقة على الأرض الطينية المبتلة ، وعبثا حاول الرجل أن يجد قطعة واحدة يستطيع أن يستخدمها بسرعة لإشعال نار جديدة فقد إبتلت جميع القطع بلا استثناء ، كما احتوى الطين بعضها فاضحت بلا فائدة . وفي اللحظة التالية عرف الرجل أن الخسارة لم تقف عند هذا الحد ، حد فقدهم النار ، سمع صرخة مكتومة أخرى من المرأة حينما حاولت النهوض إذ أن كاحلها الأيمن قد إلتوى تحتها أثناء إنزلاقها . في لحظة واحدة حرمت الجماعة من النار وما تضفيه من حماية ، وأمن ، ودفء ، ونور كما أضحى أحد أفرادها عاجزا لا يستطيع مواصلة السير بمفرده دون معونة .

وقف الرجل ينظر إلى المرأة بحنق غير معقول . كان يعلم أهمية النار بالنسبة إليهم ، كما يعلم أنه لن يستطيع في هذا الجو الرطب أن يعثر على أخشاب جافة لكى يتمكن من إيقاد نار أخرى ، وحتى إن وجد الأخشاب فلن يجد أوراق الشجر الجافة التي تلتقط النيران بسرعة .

لبثت المرأة في الأرض تنظر إلى الرجل بخوف قاتل ورجاء . وفي كل هذا وقف العملاق مكانه كأنما الأمر لا يعنيه ، أو كأنه ينتظر أن يستأنف الركب

سيره كما كان قبلا . ولعل الرجل كان قد بلغ من حنقه أن يضرب المرأة . أو لعله قد خطر فى باله أن يتركها مكانها نهبا للوحوش لولا أنه قد إضطر أن يحول تفكيره وناظريه عن المرأة التعيسة ليرقب تصرفات الذئب .

بدأ الذئب كأنما قد ألم به مس . كان يجرى فى كل اتجاه وهو يزمجر متحديا. إلتفت الرجل إلى الأشجار، وفى هذه المرة رأى السبب فيما أصاب رفيقه من لوثة . بلاصوت ، وكأنما باتفاق سابق ، ظهرت عشرات الذئاب من وراء الأشجار ، وتقدمت فى تؤدة الواثق نحو الجماعة . ألقى الرجل حمله على الأرض ، وتلفت حواليه ، وفى اللحظة التالية علم مدى الخطر الذى يحيط بهم . من كل جانب ، ومن كل اتجاه كانت الذئاب تتقدم وقد أحاطت بهم تماما ، تحول بينهم وبين الهرب ، أو حتى الاحتماء خلف بعض الأشجار . صرخت المرأة فى رعب . وتلفت العملاق حوله كأنما قد أفاق لتوه من نوم عميق . ثم ألقى حمله على الأرض ، وقبض على هراوته بيديه كلتيهما ووقف متحديا . وكأنما كان القتال عمله الوحيد ، زالت من عينيه نظرة السأم والبلاهة التى كانت دائما مرتسمة عليهما لتحل محلها نظرة خبيثة فيها وحشية ، وفيها تحفز ، بل ولعل فيها السرور لقتال غير متكافئ .

كانت عينا الرجل قد ألمت فى لحظات بالموقف السئ الذى إنتهى وجماعته إليه . وبدأ عقله يعمل بسرعة تفوق سرعة البرق . ورأى أنهم فى موقفهم هذا لا أمل لهم مطلقا فى النجاة أو فى قتال الذئاب . قد يقتلوا بضعة ذئاب ، لكن ، دون حماية الأشجار ، لن يمكثوا أكثر من برهة يسيرة . كان عليهم يهاجموا أقرب الذئاب إلى الأشجار ليحاولوا اختراق الحصار قبل أن يطبق عليهم باقى القطيع ، ثم ليحتموا فى الغابة بعد ذلك . وهناك لعل الأمل فى نجاتهم أو نجاة بعضهم يكون أكثر . لكن كان دون خطته عائق كبير ، هو عجز المرأة عن السير ، بله العدو . لم يدر فى خلده أن يتركها مع أنه كان يعلم أن فرصته فى النجاة تكون أكبر كثيرا لو فعل . واستقر رأيه على أن يحملها على كتفه . كان التفكير بالنسبة إليه صنوأ للعمل والتنفيذ . مد يده إلى المرأة ولكنها تمنعت . لقد أدركت ، كما أدرك ، أن فرصته فى النجاة على قدر ضآلتها سوف تهبط إلى النصف

لو احتملها معه ، وأنه على العكس لو تركها فربما ألهى ذلك بعض الذئاب عن متابعته فتزيد الفرصة ، فأبت أن تطيعه كيلا تكون عبئا إضافيا عليه .

لم يكن لدى الرجل وقت ليضيعه ، فأشار إلى العملاق أن يحمل الخرجين ، وانتزعها من الأرض انتزاعا ليلقى بها على كتفه . نظر إليه العملاق فى دهشة ، كيف يمكن أن يأمره بحمل الخرجين الثقيلين وهو مقدم على قتال يحتاج فيه إلى كل قوته، وكل سهولة الحركة . لكنه كان قد اعتاد أن يطيع الرجل طاعة عمياء . على الرغم من عدم اقتناعه ، تناول أحد الخرجين فألقاه وراء ظهره وأمسك الثانى فى يده دون أن يدع هراوته المحبوبة ، ووقف ينوء بحمليه منتظرا أوامر صديقه .

لم يأخذ هذا أكثر من دقيقة ، لكن حينما ابتدأ الرجل ينفذ مااستقر رأيه عليه ، توقف متعجبا لما يرى . ويسمع . كان الذئب قد انفصل عنهم ، وتقدم إلى وسط المسافة التى تفصلهم عن القطيع ، وأرسل عواء موحشا عاليا أتبعه بزمجرات تحد ، وهو يجول بناظريه فى أبناء جلدته .

توقفت الذئاب عن التقدم . ولحظات لم يحدث شىء . ثم انفصل من القطيع ذئب أشعث ضخم ، رفع عقيرته بالعواء أتبعه بزمجرات تحد واضحة . وبسرعة البرق إندفع الذئبان يلتقيان فى قتال الموت . دون أى مجهود بدا للثلاثة جليا ما فعله الذئب . لقـــد أرسل تحديه إلى زعيم القطيع فى قتال على الزعامة . قتال لن ينتهى إلا بموت أحدهما . كان فى استطاعته أن ينجو بجلده ، فلم تكن الذئاب لتقتله ، بل لعله كان فى استطاعته أن يشترك فى الوليمة ويهاجم أصحابه . لكنه لم يفعل ، وآثر القتال وهو يعلم أنه لامخرج له منه إلا الإنتصار على غريمه ، أو الموت .

الذئب حيوان شرس ، يحب القتال بطبيعته ، إذا قاتل فإن قتاله يتسم بالوحشية التى لارحمة فيها ، ولا هو ينتظر الرحمة من غريمه . لهذا كان القتال بين الذئبين وحشيا وقويا منذ اللحظة التى بدأفيها . كان زعيم القطيع ضخما هائل الحجم يفوق فى حجمه ووزنه رفيق الجماعة . لكن الأخير ، كان أخف حركة ، وأخبث فى التفكير . لعل عشرته الطويلة للانسان قد اكسبته عقلا كبح قليلا من إندفاع وحشيته الطبيعية ، أو لعل قتاله عشرات المرات إلى جوار رفيقه قد منحه مراناً

على أى حال فقد كان من الواضح منذ الوهلة الأولى أن زعيم القطيع كان يعتمد كلية على قوته البادية التفوق ، وجسمه الضخم . فى حين كان الذئب يحاول ألا يقف أمامه موقف الند للند . كان كلما اضطره الموقف إلى ذلك تملص منه بوسيلة أو بأخرى ، ويتباعد الخصمان قليلا ليلتقطا أنفاسهما وهما يدوران حول بعضيهما ، كل يحاول أن ينتهز فرصة من غريمه لينقض عليه ، ويبدأ القتال على أشد مايكون مرة أخرى . قتال لارحمة فيه ولا هوادة تستعمل فيه الأنياب والمخالب ، وتسيل فيه الدماء حمراء قانية .

راح الآدميون الثلاثة يرقبون القتال تعتريهم أحاسيس شتى . كانت المرأة مازالت مطروحه على كتف الرجل ، وكأنما هى ريشة لايشعر بحملها ، ثنت رقبتها وراحت تنظر مشدوهة إلى القتال الوحشى الدائر وقد امتلأ قلبها رعبا . ولم يطرح العملاق حمليه الثقيلين ، لكنه وقف بدوره ينظر ببلادة إلى الذئبين ، وكأنما لايعنيه من القتال الدائر إلا مجرد الاستمتاع بمشاهدته . كان عقل الرجل يعمل دون هوادة . إن القتال الدائر لابد أن تنتهى فيه حياة أحد الغريمين ، فلو كان رفيقه هو الفائز فلن يحتاج إلى مساعدة ، أما إذا دارت الدائرة عليه فسوف يكون فى نهايته نهايتهم هم أيضا وان يكون هنالك أى مجال للمساعدة . وإذا فلا فائدة فى التفكير فى الذئب الآن ، وعليه أن يفكر فى نفسه ، والاثنين الذين معه . لو أمكنه فقط أن يستغل الموقف الحالى المتجمد لتحسين مركزهم ولو قليلا لكان هذا أوفق .

انتقلت عيناه تتفحصان قطيع الذئاب . كانت جميعا قلقة تنظر إلى القتال الدائر منتظرة النتيجة . إذا كان عليه أن يتحرك ، فيلزم أن يكون الآن قبل أن ينتهى القتال وتنتبه إليهم الذئاب . كان عليه أن يتحرك سريعا . لكن فى أى اتجاه؟ . كانت المسافة بينهم وبين أقرب الذئاب تزيد على ثلاثين مترا ، فى حين لم يكن المتقاتلان يبعدان بأكثر من عشرة أمتار . وقرر أن يكون اتجاهه أولا بعيدا عن المتقاتلين حتى لايلفت نظر الذئاب الأخرى إليه ، وحتى لاتظن الذئاب أنه يقدم لمساعدة رفيقه فلو خطر فى بالها هذا لكان فيه القضاء المحتم السريع عليه ، وعلى رفيقيه .

اختار أقرب الذئاب فى الاتجاه الذى حدده ، بعيدا عن المتقاتلين . وتحرك خطوات . وفى الحال بدأت من الذئاب المواجهة له زمجرة . لاحظ أنها كشرت

عن أنيابها مستعددة الهجوم . وتناست تماما القتال الدائر . وتوقف الرجل عن الحركة . كان يظن أن الذئاب قد نسيتهم مؤقتا ، لكن يبدو أنه كان واهما. أشار إلى العملاق أن يتقدم خطوات ، وحينما علا صوت الزمجرات مرة أخرى. توقف العملاق . كانت الذئاب قلقة ، ولم يوقفها عن الهجوم إلا أنها تعمل كجماعة ، وهي تنتظر أمر زعيمها المقبل ، أيا كان ، وثقتها فى أن الفرائس لن تفلت من براثنها . لكن أية حركة ، أو أية خشية من ضياع غذائها سوف تدفعها حتما إلى الهجوم . تصنع الرجل عدم الاكتراث ، وحول نظره من الوحوش الجائعة إلى الذئبين المتقاتلين .

لم تكن قد مضت أكثر من خمس دقائق على بداية الصراع ، ومع هذا فقد كان من الجلى أن الذئبين قد إستنفدا قدراً كبيراً من طاقتهما ، كانت الدماء مختلطة بالطين قد كست فرائهما ، وكانت حركاتهما أبطأ ، وأكثر حذراً ، وإن لم تكن أقل وحشية وشراسة . كانا يدوران حول بعضهما فى دائرة ضيقة وقد كشرا عن أنيابهما . ولاحظ الرجل أن رفيقه به عرج خفيف. وأصابه إكتئاب شديد أن معنى هذا أن أنياب الذئب الزعيم قد نالت من إحدى أرجل رفيقه ، وأنه بالتالى قد فقد إحدى ميزاته ، وهى الحركة . كان يبدو للناظر أن المعركة تكاد أن تكون فى حكم المنتهية ، بل أن الذئب نفسه أدرك هذا فكان يتحاشى هجمات الآخر دون أن يبادله هجمة بأخرى . كان أقرب إلى الدفاع عن نفسه ، يحاول أن يبعد مخالب غريمه وأنيابه عن جسده .

وفجأة قفز زعيم الذئاب فى الهـــواء قفزة قوية حملته المسافة الصغيرة التى تفصله عن غريمه . ارتطم الجسدان ببعضهما ، وفى اللحظة التالية كان جسد رفيق الرجل ملقى على الأرض ، وقد أنغرست الأنياب الحادة فى جانب رقبته . صرخت المرأة رعباً ، وأشاحت بوجهها عن المعركة ، وقد ظنت أن الذئب قد قضى عليه . لكن لم يمض وقت طويل حتى كان الذئب قد برهن على أن القتال لم يكن قد انتهى . تحركت قدماه الأماميتان لتشق المخالب طريقها فى وجه غريمه ، وصادفت أحداها عيناه فأسالتها . وصرخ الذئب الزعيم وتراجع مذعوراً متألماً . وبسرعة البرق كان غريمه قد اعتدل مهاجماً بلا هوادة أو رحمة ومنذ هذه اللحظة انقلب سير القتال تماماً وأصبح الذئب الزعيم تحت رحمة غريمه

يحاول أن يمتلص منه دون جدوى فحيثما يتجه كانت تقابله المخالب الحادة تقطع في فرائه لتصل إلى جسده تمزقه .

ثم كانت النهاية الحتمية السريعة . في محاولة لتفادي ضربات غريمه زلت قدم الذئب العجوز ففقد توازنه لحظات . وقبل أن يتمالك نفسه كانت الأنياب الحادة قد انغرست تماماً في رقبته . وعبثاً حاول أن يتخلص منها ، وعبثاً حاول أن يمزق جسد غريمه بمخالبه ، فلم يفلح أكثر من أن يسبب بعض الجراح التي لا قيمة لها ، في حين استمر الفكان القويان مطبقين على الرقبة وهما ينفضان الجسد المثخن بالجراح . وأخيراً انفصلت القصبة الهوائية ، وسكن الجسد الضخم هامداً لا حراك به . تراجع الذئب والدماء تسيل من كل جزء فيه وأطلق زمجرة مواجها بها القطيع ، لقد انتصر على الزعيم ، وحقت له الزعامة فهل هناك متحد آخر ؟

لاحظ الرجل أن ذئباً يبدو عليه الشراسة أكثر من الباقين بدأ عليه القلق وهو يحاول أن يستقر على رأي . كان على يقين من أن رفيقه ليس في حالة تمكنه من منازلة ذئب آخر ، فاشتدت قبضته على الرمح استعداداً ، لكن الذئاب كانت جائعة تنتظر فرائسها بفارغ الصبر أما وقد انتهت معركة الزعامة ، فليتوجه الزعيم الجديد إلى الفرائس . لم تتمالك بعض الذئاب نفسها فاندفعت إلى جثة زعيمها الأسبق تمزقها وتلتهم ما تستطيع ، في حين أطبق الباقون على الآدميين الثلاثة مندفعين في سرعة رهيبة .

بالرغم مما كان يعانيه الذئب فان حركته كانت سريعة إلى حد مذهل ، في لمح البصر أضحى يقف أمام قطيع الذئاب مزمجرا متحدياً حائلا دونهم والجماعة وترددت الذئاب مكشرة أنيابها في حين استمرت الفئة المهاجمة من الخلف في هجومها . وبحركة سريعة ألقى العملاق حمليه على الأرض ، وطوح هراوته في الهواء فاطاح برأس أحد الذئاب المهاجمة . وصرخ الذئب صرخة ألم لم تكتمل . والتوى على نفسه ليسقط على الأرض وقد تهشمت جمجمته . وانقلب بعض الذئاب على الجثة تلتهمها بينما استمر الباقون في هجومهم . لكن الهراوة الضخمة لم تكن تسمح مجالا عند أحداها للاقتراب من الرجل والمرأة .

لم يطل تردد الفئة المقابلة طويلا إذ قفز الذئب الذى كان يريد التحدى للزعامة وقطع المسافة القصيرة فى ثوانى معدودة وطار فى الهواء قاصد رقبة الرجل . ولم تكتمل القفزة إذ التقى بحربة طويلة فى صدره القته على الأرض مضرجا بدمائه . وفى اللحظة التالية كانت مجموعة من أخوانه تلتهمه ومازالت فيه بقية من الحياة . ووضع الرجل المرأة على الارض ثم تناول اللحم من أحد الخرجين وألقى به الى باقى الذئاب المهاجمة . وتوقف الهجوم لتتقاتل الذئاب فيما بينها على اللحم الطرى . وبأسرع مايستطيع تناول باقى اللحم من الخرج الثانى ليلقيه الى الذئاب التى كان بعضها مازال يهاجم العملاق بالرغم من العقاب الشديد الذى كانت تنزله الهراوة بكل من اقترب . وصرخت المرأة . والتفت الرجل ليرى أن أحد الذئاب قد طرحها أرضا وفى حين كانت مخالبه تعمل فى الفراء الذى تتدثر به كان يحاول بانيابه أن يقضم رقبتها وهى تعمل جاهدة على إبعاد الوجه الشرس بيديها الضعيفتين . وأنسل الخنجر الحاد ليهبط على الذئب القابع بضربتين متتاليتين . وصرخ الذئب وارتد إلى الوراء ليكون فريسة سهلة لباقى الذئاب .

توقف الهجوم على الجماعة لحظات كانت الذئاب تتقاتل فيها على الفرائس المتعددة . والتفت الرجل إلى العملاق فرآه مازال واقفا وهو قابض على الهراوة والدماء تنزف من اكثر من موضع فى جسده . بسرعة اشار اليه إلى الناحية التى يريد أن يتجه إليها ، ومد يده ليلتقط المرأة من الأرض ويلقيها على كتفه . جرى العملاق أمامه يلوح بهراوته مهددا ، فى حين وقف الذئب يحمى الانسحاب ولم تحاول بقية الذئاب قطع طريقهم فى هذا المرة الا ذئبا واحدا لقى جزاءه السريع من هراوة العملاق وراح بدوره لقمة سائغة لباقى افراد القطيع .

لو ان احداً كان يقف من الساحة موقف المتفرج لرأى منظرا داميا غريبا . مجموعات متعددة من الذئاب تتشاحن مع بعضها على جثث افراد منها وبعض اللحم الملقى ، وقد اكتست جميعها بدرجة أو اخرى بخليط من الطين ، والدماء ، وعملاق ضخم تسيل منه الدماء يجرى مطوحا بهراوته فى الهواء كانما به مس ، وبجانبه رجل ضخم يحمل امرأة على كتفه ، ويحمل خنجراً مازال يقطر منه الدماء ويأتى فى المؤخرة ذئب وحيد اثخنته الجراح يعدو وهو يعرج . ولم

يتوقف الأمر عند هذا . وإنما كانت هنا لك ايضاً ذئبة، تعدو إلى جانب الذئب وكلما زمجر الأخير ، توقفت قليلا لتتبعه حينما ينساها ويبتعد .

أخيرا وصلت الجماعة إلى حماية الاشجار . ولم يتوقف العملاق وأنما استمر فى عدوه يليه الرجل حاملا المرأة . وتوغلوا فى الغابة . ومضت الدقائق تتوالى سراعا حتى أحس الرجل أن صدره ينفجر ، وأن ثقل المرأة على كتفه قد تضاعف مرات ، ولم تعد قدماه تستطيعان حمل جسده ، فأصدر صوتا وقف له العملاق ، ثم انتقى جذع شجرة ضخمة ليضع المرأة إلى جواره ويرتمى بدوره على الأرض لاهثا يلتقط انفاسه بصعوبة . ووقف العملاق برهة ينظر إلى رفيقه ، ثم جلس على الأرض وراح صدره الضخم يعلو ويهبط بانتظام .

كانت الغابة حولهم صامتة ساكنة لاصوت فيها إلا حفيف الرياح الخفيف يداعب قمم الأشجار العالية ، وبعض أصوات الطيور المغردة تطلقها فرحة مرحة لكن الثلاثة كانوا ، فى حالة يرثى لها من التعاسة . فالمرأة كانت كأنما قد أصيبت بالذهول ، فهى تائهة لاتدرى ماتفعل ، وقد تمزق الفراء حول صدرها ، وتلطخت بالطين وبالدماء التى تنزف من كتفها ، ومع ذلك فقد كانت تتنفس بانتظام ويسر وهى تجيل بنظرها فى انحاء الغابة لتلتقط أية حركة قد تتهددهم .

كانت حالة العملاق هى أسوأ الثلاثة . فبالرغم من قوته الهرقلية ، وقدرته الخارقة على الاحتمال الا أن الجروح التى اصابته من مخالب الذئاب كان بعضها غائرا تنزف منه الدماء كما ان العدو السريع الذى اعقب المعركة زاد من حالته سوءا . لم تصدر منه أنة ألم ، ولم يبد عليه أى انواع التعب ، ولو أن الرجل طلب منه أن يبدأ العدو ثانية لفعل ، لكن الواقع أن رأسه كان يدور ، وأنه كان يرى دوائر حمراء أمام عينيه تحجب عنه الرؤيا بالكامل .

بالرغم من أن صدر الرجل كان يكاد أن ينفجر ، وكان مايزال يعلو ويهبط بشدة كما أصابه دوار إلا أنه أحسن الثلاثة حالا . فلم يكن قد أصابته جروح . كانت آلامه سطحية جميعها لا تتعدى الارهاق الشديد ، ولهذا فلم يمض وقت طويل حتى كان قد استعاد قوته ، ورجع إلى حالته الطبيعية ، وبمجرد أن أفاق كانت عيناه قد ألمتا بكل ما حوله ، وكان عقله يعمل ويزن الموقف بدقة . لاحظ حال العملاق ، فاغترفت يده فى الطين حوله ، واتجه إليه ليضعه على الجراح الغائرة

التى كانت تنزف . ونظر إليه العملاق فأشار عليه بالا يتحرك وجره من كتفه يسنده إلى جذع الشجرة إلى جوار المرأة . وفى لحظات كان قد استسلم للنوم وهو مازال قابضا على هراوته . وتبين له أن الذئب لم يكن له أثر ، لكن تفكيره فيه لم يطل إذ علم أنه وقد أصبح زعيما لقطيع من الذئاب أضحت عليه مسئوليات يجب أن يواجهها ، على الأقل إلى حين . وربما تعمد الذئب البقاء مع القطيع ليبتعد به عن رفيقه وصحبه .

دارت عينا الرجل فى أرجاء الغابة ، ثم تطلع إلى السماء . كانت الشمس مازال عالية فى الظهيرة . ولو أن الرجل كان يعلم لأدهشه أن جميع ما حدث منذ زلت قدما المرأة حتى هذه اللحظة لم يزد كثيرا عن الساعة . أسرع ينتقى بعض الأفرع الساقطة ليغرسها حول رفيقته والعملاق ، وقد إتخذ من جذع الشجرة جدارا يدور حوله بالأفرع الطويلة . كان قد تعلم بناء مثل هذا المأوى المؤقت سابقا فكان يعمل بسرعة واتقان . لم يكن يهتم بالراحة قدر اهتمامه بأن يوفر أقصى قدر من الأمان للاثنين العاجزين ، فى أسرع وقت مستطاع قبل أن يجن الليل . لهذا فلم يول السقف تفكيره ، ولا هو اهتم بأن يجعل السياج مترابطا بحيث لا تتخلله رياح الليل الباردة ، وانما راح ينتقى من الأفرع أقواها ثم يقوم باستعمال خنجره ليحفر حفرة عميقة فى الأرض يغرسها فيها . ولم يكد الظلام يحل حتى كان قد أتم سياجا كاملا دون أى منفذ ، حتى ولا فرجة لباب .

لم يتوقف الرجل عن العمل حتى بعد أن حل الظلام . على ضوء القمر ، جلس على الأرض مستنداً إلى الحاجز الذى بناه ، ومضى يصنع بخنجره حرابا مختلفة ، ناول بعضها إلى المرأة . ولا هو توقف بعد أن صنع خمساً أو ستاً منها . وانما بدأ فى بطء يملأ الثغرات التى تتخلل السياج بأفرع لم يعتن تماماً بأن تكون فى قوة ومتانة سابقتها ، ولا حتى فى طولها كان كل مايهمه هو أن يصنع ساترا يحمى رفيقه ، والعملاق من تيارات الهواء البارد . أخيراً ، وقد مضى من الليل أكثره أسلم عينيه لسبات عميق . ومع هذا فقد كانت جميع احساساته مرهفة لتلتقط أية حركة قد تهدده وصحبه بالخطر .

مع بزوغ الشمس إستيقظ الرجل . شعر بأن كل عضلاته قد توقفت عن

الحركة . لكن هذا الشعور لم يدم طويلا . سرعان ما هب من إضطجاعه لينظر من خلال فرجة عالية إلى العاجزة والمريض . كانا ما يزالان نائمين وإن كان يبدو على العملاق القلق أثناء نومه . رأى الرجل أن الشحوب قد علا الوجه القبيح . لأول مرة بدت عليه بعض آثار الضعف من كثرة الارهاق وما نزف من دماء لكن الرجل كان قد اطمأن مؤقتاً ، وكان عليه ان يولى عنايته مسائل أخرى لا تحتمل البطء . لم يكن من شك فى أن هذا المكان سوف يصبح مأواهم المؤقت لفترة من الزمن قد تطول ، أو تقصر تبعاً للسرعة التى يتمكن بها العملاق من إسترداد قوته ، ولهذا فقد كان على الرجل أن يجعل المكان مريحا قدر إستطاعته كما أن عليه أن يجد الغذاء له وللعاجزة . وأخيرا ، فان استطاع أن يعثر على قطعتين من الخشب الجاف يمكنه بهما أن يصنع نارا فان الوقت الذى سوف يمضونه فى المأوى المؤقت لن يكون قد ضاع هباء .

بدأ بأهم الأشياء الثلاثة، الغذاء . كانت قد مضت على الجماعة أربع وعشرون ساعة دون أن يتذوقوا قطعة لحم أو أى شيء آخر . ولم يكن الذى مر يوما عاديا ، بل كان مرهقا من جميع الوجوه مما ضاعف من احتياجهم للغذاء . أصدر صوتا استيقظت له المرأة فأشار إليها بأنه سوف يذهب للبحث عن الغذاء ، وأن عليها الا تتحرك من مكانها حتى يعود . وكأنما أراد القدر أن يهادن الجماعة بعد أن أفقدها بضربة واحدة الأمن ، والغذاء فضلا عن إصابة الاثنين واختفاء الذئب ، فان الرجل ما كاد أن يبتعد قليلا حتى صادفه وعل صغير شارد . بضربة واحدة من إحدى الرماح التى يحملها سقط الحيوان مضرجا بدمائه ، وفى اللحظة التالية كان الرجل فوقه يجهز عليه .

لم ينتظر بعد ذلك وإنما حمل الوعل على كتفيه وسار عائدا إلى المأوى حيث بدأ فى سلخ الجلد الثمين ، واقتطاع أطايب الجثة لاعطائها إلى المرأة والعملاق ثم أخذ لنفسه قطعة من اللحم ومضى ينهشها فى نهم . تناولت المرأة قطعة أخرى وبدأت تأكل لكن العملاق كان ما يزال نائما يهذى ، وفشلت جميع محاولات المرأة فى إيقاظه ، فاحتفظت بباقى اللحم ، والأطايب لوليمة أخرى . وشاهدت الرجل وهو يبتعد ليعود بعد مدة حاملا كمية أخرى من الأفرع الطويلة يضعها على الأرض إلى جوار المأوى . وكرر العملية مرات حتى تجمع لديه كمية لابأس بها ، ثم راح يرصها إلى جوار بعضها فوق سياج المأوى .

حاولت المرأة أكثر من مرة أن تنهض من مكانها ، لكن قدمها كانت ماتزال تؤلمها ، فوقعت على الأرض يائسة . كان الرجل قد انتزع بضعة أغصان من السياج ، وأبعدها قليلا بحيث يمكن الولوج بصعوبة إلى داخل المأوى ، وراعى فى ذلك اتجاه الرياح وأن تصل إلى القاطنين رائحة الوافدين دون أن تحمل الرياح رائحتهم ، ولما شاهد قنوط المرأة ناولها جلد الوعل مطالبا إياها أن تقتطع منه سيورا رفيعة ، كأنما أراد بذلك أن يشعرها بالمشاركة . لكن الجلد كان مايزال طريا ، وبالرغم من أن المرأة أسندته إلى أحد الأفرع ، كما أن نصل الخنجر كان حادا إلا أن العملية كانت شاقة . وهبط عليهم الظلام ولم تكن قد قطعت إلا جزءا صغيرا من الجلد .

كف الرجل عن العمل بعد أن اكتمل السقف ، وأضحى المأوى أشد ظلمة من الخارج لا ينيره سوى بصيص ضئيل يصل من ضوء القمر خلال فرجات رفيعة متباعدة فى السياج .

تناول الإثنان وجبة من لحم الوعل ، لكن العملاق استمر على حاله ، بل إنها ازدادت سوءا . انتابته الحمى فراح يصيح صيحات الحرب ، ويطوح بهراوته ، حتى اضطر الرجل أن ينتزعها منه بالقوة . وأخيرا أجهدته الحرارة فاستلقى على الأرض مجهداً ، والعرق يتصبب من جميع أجزاء جسده ، ولم يدر الرجل كيف يستطيع أن يساعد العملاق ، فقد مضى عليه أكثر من ستة وثلاثين ساعة دون طعام أو شراب ، كما أن الأرض كانت رطبة ، والجلد الذى يتدثر به قد تمزق حتى أضحى أسمالا لا تغنى . نزع الرجل رداءه . وبعد لأى استطاع أن يلبسه العملاق ، ثم تدثر هو بما بقى من جلد الوعل .

نام ليلته نوما متقطعا قلقا ، يستمع إلى عواء الذئاب ، وصرخات الوحوش وطيور الليل . واستيقظ قبل أن يظهر نور الصباح على صوت قطرات المطر تنهمر لتضرب بشدة على السقف الخشبى . وتساقطت المياه على النائمين . وكان أول تفكيره أن العملاق لن يتحمل البرد إذا ما استمر هطول الأمطار ، وسقوط المياه عليه ، فهرع إلى الخارج ليلتقط بضعة أعواد من الخشب يسد بها ما أمكن من ثغرات فى السقف ، ولم ينته إلا بعد أن تأكد

أن الجزء الذى ينام فيه العملاق قد امتنع سقوط المياه فيه تماما . وخرجت المرأة من المأوى تساعد الرجل وبقدمها عرج خفيف ، وبدأ السياج يئن من ثقل ما وضع عليه من أخشاب فتوقف الاثنان عن العمل ، ودلفا إلى المأوى يحتميان من الأمطار .

كان نور الصباح قد انبلج ، وعلى ضوئه رأى الرجل أن العملاق مستيقظ ، وأنه ينظر إليه كأنما يعتذر عما ألم به ، وعن عجزه عن مساعدته . لاحت على شفتى الرجل شبه إبتسامة فيها ترحيب ، وأخرج خنجره ليقطع من اللحم ويعطى المريض ، لكنه أشاح بوجهه وركن رأسه إلى جذع الشجرة وأغمض عينيه فى حين راح جسده ينتفض بشدة . ونزع الرجل ما يستر جسده من بقايا جلد الوعل ليضعه على الجسد المحموم . لكن دون جدوى .

داخله احساس غريب بالعجز . لو أنه فقط عثر على قطعة واحدة من الخشب الجاف إذاً لأمكنه أن يحول المأوى الرطب إلى دفء وأمن ولأمكن طبخ بعض الجذور فى الماء ليلقمها المريض . لكن أنى له أن يجد الخشب الجاف . خطر فى باله أن يحمى بعض الأخشاب على الأقل من المطر المنهمر ، فهرع إلى الخارج وتناول أكثر الأفرع جفافاً ، ودلف بها إلى الداخل ليضعها فوق بعضها فى ركن من المأوى الرطب . وتناول الرجل والمرأة افطارهما بحذر . قطعة صغيرة من اللحم لكل منهما . ومكثا ينتظران أن تتوقف الأمطار . ومن حسن الحظ أن سقوط الأمطار لم يمكث طويلا . وسطعت الشمس تلقى بأشعتها الدافئة على الغابة الرطبة ولم يتمهل الرجل . أخرج أكثر الأغصان جفافاً من المأوى ، وازال لحائها الخارجى ليعرض اللحاء لأشعة الشمس ، ثم بدأ يعمل بخنجره فى الخشب الداخلى . لاحظ أن الخشب من الداخل أقل رطوبة مما ظن فتعمق فى حفره وتركه معرضا بدوره لأشعة الشمس ، ومرة ثانية دخل إلى المأوى ليخرج غصنا آخر يفعل فيه مثل ما فعل لسابقه . ثم تناول عدة أغصان رفيعة أزال لحاءها وأخذ يكسرها إلى قطع صغيرة وضعها جميعا تحت الأشعة .

وفجأة خطر فى باله شىء . أشار إلى المرأة بالدخول إلى المأوى ، وأعطاها رمحاً وحذرها من الخروج ، ثم غرس بعض الأغصان ليغلق الباب تماما .

بعزيمة لا تخطىء راح يعدو تجاه الفسحة التى كانت مسرحاً لمعركة الذئاب .
لم يكن يثقله فى هذه المرة أى حمل ، ولذلك قطع المسافة بسرعة دون أن يشعر
بأى تعب حتى بانت الفسحة أمامه من خلال الأشجار . توقف عن العدو
وأمسك برمحه على استعداد ، وراحت عيناه تجوسان خلال المنظر أمامه . كان
يعلم أن مثل هذه الفسحات الخالية ، ومجارى المياه ، هى أحسن الأماكن التى
تربض فيها الوحوش انتظارا لفرائسها ، ولهذا ضاعف من حذره قبل أن يتجرأ
على ارتيادها .

جالت عيناه فى الأرض لتريا الخرجين ملقين على بعد لا يزيد عن عشرين
مترا . ومع هذا فلم يتعجل . فقط حينما رأى وعلا يسير على مهل فى الناحية
الأخرى من الفسحة ، سمح لنفسه أن يظهر . لكنه لم يتخل عن حذره . جرى
بأقصى مايستطيع من سرعة ليلتقط الخرجين ، وينكص على عقبه بالسرعة نفسها .
وتلوى فى عدوه بين الأشجار مدة يسيرة ولم يقف ليلتقط أنفاسه الا بعد أن
تأكد من عدم وجود أى من وحوش الغابة . كان قلبه ينبض من السعادة
فالخرجان كانا من الجلد ، ومعنى هذا مزيد من الدفء للرجل والعملاق والمرأة ،
وكان بهما بعض الأدوات ، خناجر خشبية ، وأوعية وغيرها ، ولم يكن يكد
يطيق الصبر حتى يعود إلى المأوى ليعلم تماما ما يحتويان ، لكنه أيضاً لم يكن
من الغفلة بحيث يعتقد أن فى مكنته أن يجلس فى العراء وحيدا يبحث ، وينقب
دون أن يعرض نفسه لأشد الأخطار .

وصل إلى المأوى ، وأزال الأغصان التى وضعها لتسد فجوة الباب ، ثم دلف
لتتلقاه المرأة باسمة وقد مدت يدها ببعض جذور الشجر . وأبى الرجل فى
حماسته ورغبته فى التأكد عما فى الخرجين أن يتناول شيئا . حانت منه التفاتة
إلى العملاق . ولم يكن فى حاجة إلى نظرة ثانية ليعلم أن حالته قد ازدادت
سوءا . بسرعة ، وضع الخرجين على الأرض ، وفتح الأول لتندى من فمه صيحة
مرح . كانت ببعض الأوانى والأوعية ، سليمة لم تمسها المياه ، وكان به بعض
الخناجر الخشبية جافة وقاها الجلد من الرطوبة .

وبلهفة فتح الخرج الثانى ليزداد فرحة حينما وجد قطعا صغيرة من الأخشاب

وقد علق ببعضها أوراق الشجر الجافة . فرد أحد الخرجين ليضع عليه هذا الكنز الثمين ، وأخذ فراء الدب السميك ليضعه تحت العملاق المريض يقية به من رطوبة الأرض ، ثم خرج من المأوى ليعود ببعض الحطب الذى كان قد عرضه لأشعة الشمس ليجد أنه بدوره قد جف او كاد . واكتملت لديه بذلك جميع العناصر التى يريدها . ومنذ هذه اللحظة لم يتوقف عن العمل حتى أمسكت النيران فى أوراق الشجر القليلة لتنتقل منها إلى الحطب ثم إلى الأخشاب الجافة فى الوعاء .

واستحالت الحياة مرة ثانية من برد إلى دفء ، ومن رطوبة إلى جفاف ، ومن خوف إلى أمن ، ومن جوع إلى شبع ، ومن مرض إلى صحة ، ومن ظلام إلى نور ، ومن وحشية وبربرية إلى أم خطوات نحو المدنية .

———————

الفصل الثاني عشر

عودة الذئب

تراقصت ألسنة النيران في المأوى جذلة مسرورة ، وحول العملاق رأسه إليها ومضى ينظر كأنما هو يفكر . والواقع أن عقله كان لا يفكر فعلا ، وإنما يتذكر . لقد درج في طفولته ، وصباه ، وشبابه ، على الخوف من النيران ، وهاهي الآن تصنع له ذلك الشراب الساخن الذي تقدمه له المرأة ليدفيء من جوفه وأوصاله ، ويرسل القوة في أنحاء جسده . كانت المرأة قد طورت الحساء فوضعت فيه إلى جانب جذور النباتات قطعا من اللحم وتركت الماء يغلي حتى كادت الجذور واللحم لا يبينان في الماء ، فخرج عن هذا المزيج البسيط غذاء سهل إلقامه له وهو مريض . لقد تغير الحال مرة ثانية منذ إندلاع النار . فهاهما الرجل والمرأة يخرجان للصيد وقد تركاه منفردا يغذي النار دون خشية عليه من الوحوش الجائعة مع أنه كان ما يزال من الضعف بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه .

تذكر العملاق أن الرجل قد توسع في بناء المأوى بأن أكمل حجرة خارجية أخرى ليصل إلى شجرة ثانية كانت تبعد عن الأولى بأكثر من أربعة أمتار ، لقد ترك الحجرة الأولى كما هي ، واتخذ من أحد جوانبها جانبا لحجرة ثانية تصل ما بين شجرتين واستعمل الطين ليسد جوانب السياج ، وليضع منه بين فجوات السقف حتى إذا ما هطلت الأمطار لم يسقط في المأوى إلا القليل من الماء . وتذكر أن الرجل أضحى يسير دائما وقد تدلى من وسطه جراب جلدي كبير إلى حد ما ، يبدو أنه قد وضع فيه أدوات سحرية ، ولم يعلم العملاق أن الرجل قد تلقى درسا من الحوادث الماضية فاصطنع لنفسه جرابا يضع فيه دائما قطعتين جافتين من الخشب إلى جانب بعض الحصاة الجاف ، وأخشابا صغيرة أخرى ، هي أدوات النيران ، حتى إذا ما وقعت كارثة أخرى ، وما أكثر الكوارث في حياته ، أمكنه في ساعات قلائل أن يوقد النار . لقد تعلم الرجل أن المياه هي العدو الأول للنار ،

وأن الخشب غذاؤها ، فكان يحمل معه دائما جرابا من الجلد أحكم اغلاقه ليحمى النار ، ويغذيها .

توالت الأيام دون حوادث غير مألوفة ، وفى كل يوم كانت صحة العملاق فى تحسن مضطرد . لقد تركت أنياب الذئاب ومخالبها على جسدة آثارها التى لن يمحوها الزمن ، لكن هذا لم يكن بذى بال فكم سبق أن تركت المعارك من أمثال تلك الكثير من الندوب ، وما كان الجمال إحدى ميزاته على أى الأحوال . كان قد استعاد الكثير من قوته التى أكلتها الحمى ، بل كان يستطيع أن ينتقل من مكان إلى آخر ، لكن الرجل كان يأمره دائما بملازمة الحجرة الداخلية من المأوى ، ومراقبة النيران حتى يعود والمرأة محملين بما يصادفهما من صيد . وبعد أن يأكل الجميع كان يسمح له بالترويض خارج المأوى . لكن الرجل عندئذ كان دائما معه لا يتركه ، وكم إزداد حنين العملاق الى هراوته المحبوبة يطوحها فى الهواء ويتخيل أن عدوا أمامه يهشم بها رأسه ، وأنه يحيط بها على حيوان مفترس يقصم ظهره . بدأت الحيوية تدب فيه ، وكانت بالنسبة إليه صنوا لاستعمال القوة .

مضى قرابة شهر كان قد إسترد فيه قوته تماما ، ولم تبق من آثار لتلك المعركة الرهيبة إلا الذكريات . وتغير الكون فى هذه المدة تغيرا كاملا فأضحت الغابة خضراء جميلة ، ودبت الحياة فى أرجائها ، وخرجت الارانب ، وسائر الحيوانات الصغيرة من جحورها ، وتكاثرت قطعان الوعول ، وتناثرت الجداول الصغيرة فى أماكن متفرقة تجرى لكن تتجمع ، وتستقر فى أنهار صاخبة . وفيما عدا هذه الجداول بدأت الارض تجف تحت أشعة الشمس .

وذات يوم عاد الرجل والمرأه من الصيد ليجدا جثتين لرجلين مطروحتين فى العراء وقد تهشمت الجمجمتان ، وتدل الآثار على أن المخ قد استخرج من كل جمجمة ، وقفز قلب الرجل رعبا : خوفا على صديقه الذى يعتقد أنه لم يسترد كامل قواه . صرخ مناديا ومصيخا السمع فى الغابة ، ولما لم يسمع شيئا إستدار هو والمرأة ليريا العملاق واقفا على باب المأوى ممسكا بهراوته الضخمة ، وهو ينظر إليهما مستفسرا فى براءة طفولية .

طغت على الرجل راحه نفسية فألقى على الارض بخنزير برى صغير كان يحمله ، وتقدم من العملاق ليمسك ذراعه فى حركة لم يعرفها المتوحش من قبل .

ولم يطل شعور الرجل بالراحة إذ علم أن فى هذه البقعة رجالا آخرين ، وأنه أضحى لا مقام لهم فيها بعد اليوم . بسرعة أشار إلى رفيقيه ، وأخذ يجمع أشياءهم فى الخرجين . لقد قرر أنه لا مجال للمبيت فى المأوى بعد اليوم ، وأنهم كلما أسرعوا فى الإبتعاد عنه كلما كان ذلك أكثر أمنا . لم تمض ساعتان حتى كان الرجل قد سلخ الخنزير ، وأخذ لحمه ،واطايبه كما كانت المرأة والعملاق قد انتهيا من جمع باقى الأدوات التى يريدانها بالإضافة إلى ملء خرج كامل من الأخشاب الصغيرة الجافة تبعاً لأوامر الرجل ، وحينما انتهى كل شىء كانت الشمس قد أوشكت على الغروب .

لم يقبل الرجل اشارات رفيقته بالانتظار إلى الصباح التالى ، لكنه بدأ الرحيل فورا ، ولم يتوقف حينما حل الظلام مباشرة ، وانما ازداد إيغالا مبتعداً عن المأوى . أخيراً حط الجمع رحلهم ، ونامت المرأة مجهدة وقد تدثرت لتدفأ ، وتناوب الرجلان الحراسة وتغذية النيران المندلعة فى الوعاء الكبير . كانت المرأة فى أوائل شهرها السابع ،وازداد انتفاخها ، كما تأثرت حركتها،وأضحت أقرب إلى التعب والبطء ، لكن الرجل لم يكن يعر ذلك التفاتافقد كان اهتمامه ينحصر فى أن يضع أكبر مسافة بينه وبين الرجال الذين غزوا وكرهم .

قبل بزوغ الشمس كان الرجل قد أيقظ المرأة ، والعملاق وبعد تناول وجبة سريعة بدأ السير . دائماً فى الاتجاه نفسه ، نحو الجنوب . لم يعد يحتاج إلى الطيور فى هجراتها حتى ترشده ، وإنما إتخذ مسار الشمس له دليلا ، وفى المساء ، حينما تحل نوبته فى الحراسة صار يرقب النجوم والكواكب . كان يلحظ مسار أكثرها بريقا ، ويحدد لا شعوريا مكانه فى السماء ، وفى نوبته التالية من الحراسة كان يحاول أن يكتشف موقعه . ولم يكن يدرى أنه بذلك قد وضع أسس علم الفلك .

مرت الأيام سراعا والرجل يسوق الجماعة بلا هوادة . وبالرغم من التعب والآلام التى كانت تعانيها المرأة فإنها كانت تحاول ألا تكون عقبة فى سيرهم ، أو أن يشعر الرجل بما تعانيه . لكن لم تمض عشرة أيام الا وكان الاجهاد قد نال منها ، ولم تستطع أن تكمل السير ، فسقطت على الأرض اعياء . توقف

الرجل عن السير ، ونظر أولا إليها بغضب ، لكنه حينما رأى النظرة المستكينة في عينيها ، وكأنما تعتذر عن أعيائها ، زال غضبه فجأة كما جاء ، وانحنى عليها ليلتقطها بين ذراعيه ، ويسير بها باحثا عن مكان يصلح مأوى يعطيهم أكثر ما يمكن من أمن .

كانت طبيعة الغابة قد تغيرت خاصة في الأيام الأخيرة من سيرهم . لاحظ الرجل هذا التغير ، لكنه لم يعره إهتماما حقيقيا . كانت الأشجار تبدو أضخم ، وتباعدت المسافات بينها ، وهبطت أفرعها ، وأغصانها ، فلم تكن الساق ملساء لا أثر فيها للأفرع ، وتنوعت أشكالها ، وكثرت الثمار البرية التى مكنتهم من الإقتصاد في اللحم المتبقى معهم ، ولم تضطرهم إلى التوقف للصيد وطلب الغذاء . تغيرت أيضاً طبيعة الأرض فلم تكن طينية فحسب ، انما ظهرت فيها قطع من الحجارة ، والحصى الصغيرة التى كثيرا ماضايقتهم أثناء سيرهم ، ولولا الأحذية الجلدية التى صنعتها المرأة لاضحت عائقا حقيقيا يعرقل تقدمهم السريع . كثرت أيضا الجداول الصغيرة التى تنساب فيها المياه بسرعة مستهدفة وجهة واحدة كأنما لتجتمع بعد ذلك في مجرى واحد يضمها جميعا .

إنتقى الرجل شجرة ضخمة الساق ووضع رفيقته برفق على الأرض ، ثم راح يلتقط الحصى والحجارة ليلقيها بعيدا . اضطجعت المرأة مستندة إلى جذع الشجرة وصدرت منها تنهيدة راحة . وجلس الرجل والعملاق إلى جوارها بعد أن وضعا عنهما حمليهما . كان الوقت مازال في الظهيرة ولم يكن الرجل ينتوى البقاء الا لفترة صغيرة حتى تسترد المرأة أنفاسها ، لكنه حينما أراد أن يأكل وجد أن اللحم المتبقى لا يكاد يكفى ثلاثتهم ليومين بالرغم من الكميات الضئيلة التى كان يوزعها ، وبالرغم من استعانتهم بالثمار البرية . وعدل الرجل عن رأيه ، فأشار إلى العملاق بالبقاء إلى جانب المرأة ، وحمل بعض الرماح ولم يلبث أن اختفى في الغابة .

ناولت المرأة قطعة من اللحم إلى العملاق الذى كان مازال يفضل أن يأكله نيئا في حين اقتطعت لنفسها جزءا صغيرا ، وراحت تشويه على النار . ولما أتم الاثنان غذاءهما أغمضت عينيها واستسلمت للنوم ، بينما قبع العملاق في مكانه لا يتحرك الا ليغذى النيران بين الحين والآخر .

مضت ساعات . واستيقظت المرأة من نومها لتجد أن الشمس قد شارفت

على المغيب . تلفتت حولها مستفهمة من العملاق القابع فقابل نظرتها بنظرة بلهاء لا تعنى شيئا . جالت بعينيها فى أرجاء الغابة حولها دون أن ترى أثراً لرفيقها . لم يكن هنالك داع للقلق ، فكم تغيب الرجل أياما وهو فى رحلات الصيد ، فراحت تسلى نفسها بانتقاء بعض الحصى والقائها بعيدا . وهنا وقعت إحدى تلك المصادفات التى غيرت من مجرى الحياة الانسانية .

اصطدمت احدى الحصوات بحصاة أخرى على الأرض . وانبعثت شرارة صغيرة . كان من الممكن ألا تراها المرأة ، لولا أن الضوء الخافت ساعد على الرؤية . وكان من الممكن أيضا أن تراها ، وأن تفوتها أهميتها ، لكنها سرعان ما استقبلت قيمة إكتشافها . كان رجلها يمضى ساعات فى عملية توليد النار من احتكاك الخشب الجاف . وها هى حصوة تنتجها فى لمح البصر . راقبها العملاق فى تعجب وهى تبحث فى الأرض عن الحصوة التى ألقتها حتى عثرت عليها ، وعلى الحصوة الأخرى . رآها وهى تضربهما بكلتا يديها فى بعضيهما ، لكن لم تنبعث أية شرارة . ولم تيأس المرأة . راحت تجرب الضرب فى شتى جوانب الحصوتين . وفجأة انبعث الشرارة المرجوة . كررت المحاولة . وانبعثت الشرارة مرة أخرى ، فثالثة ، فرابعة . كادت تجن فرحا حتى أنها ذهبت إلى العملاق تريه اكتشافها الجديد . ونظر إليها ببلاهة من لم يفهم أهميـــة مايرى فانصرفت عنه .

انتظرت المرأة فى لهفة عودة رفيقها لتطلعه على اكتشافها فهو ولا شك يقدر أهميته . وحل الظلام قبل أن يعود الرجل حاملا على كتفيه غزالا صغيرا . لم يلتفت إلى حركاتها وهو يلقيه على الأرض ويبدأ فى سلخ جلده ، واقتطاع أطايبه . وصبرت المرأة وهى على أحر من الجمر حتى انتهى ، ثم أرادت أن تريه اكتشافها ، لكنه اقتطع من اللحم ليعطى العملاق ويعطيها ثم جلس إلى النار يشوى قطعته ، ويأكل منها فى تلذذ ظاهر .

تمالكت المرأة أعصابها حتى انتهى من غذائه . لكنه حين أراد أن يستلقى لينام أمسكته من ذراعه ، وصدر منها صوت صاحب الاشارة بأن ينظر . نظر الرجل إليها أولا فى سأم المتعب ، الذى يبغى النوم ، ولا يريد أن يحول بينه وبين راحته حائل ، لكنه سرعان ما اعتدل فى إضطجاعه حينما رأى شرارة النار

تنبعث ، مرة تلو الأخرى . تناول الحصوتين من المرأة ومضى يجربهما حسبما دلته المرأة ، وانبثقت الشرارات تتلوضم بها .

وضع الرجل الحصوتين فى جرابه إلى جانب الأخشاب الجافة وأشار إلى العملاق أن يبدأ نوبة حراسته ، ثم استلق إلى جانب المرأة لينام فى لحظات .

فى الصباح لم يتعجل ايقاظ المرأة ، والعملاق كعادته وحينما فعل كان ضوء النهار قد سطع . وبعد الافطار لم يتعجل أيضا الرحلة بالرغم من أن المرأة كانت قد إستردت قوتها ، ونشاطها تماما . بدلا من ذلك أخرج من جرابه الحصوتين وأراهما للعملاق ، والمرأة وأشار إليهما أن يبحثا عن مثيلاتهما ، وبدأ هو أيضا فى البحث . كان يريد أن نعرف ما إذا كانت الشرارات تندلع من أى حصوتين أم أن هاتين فقط لهما خاصية معينة دون سائر الحصى ؟ ولم يمض وقت طويل حتى كان قد إجتمع له عدد كبيرا من الحصى المشابهة .

جلس الرجل والمرأة على الأرض يجربان الحصى فى أناة وصبر بينما اختفى العملاق فى الغابة . أخيرا علم الرجل إن إنبعاث الشرارات ليست خاصية فريدة فى هاتين الحصوتين . لكن من ناحية أخرى لاتتمتع كل الحصى بها . وانتهى به الأمر إلى انتقاء أحسنها ووضعها فى جرابه . ولما لم يكن العملاق قد عاد بعد فإنه استلقى مسترخيا تحت أشعة الشمس .

إنتصف النهار . وجمعت المرأة بعض الثمار البرية ، وتناولا وجبتيهما . وعاد العملاق . كانت المرأة هى أول من رآه ، وجرت منادية رفيقها . هب الرجل من إسترخائه لينظر إلى الناحية التى أشارت إليها . كان رفيقه يسير بخطاه البطيئة الثابتة ، وهو يحمل على كتفه جسدا ما يزال يتحرك ويقاوم ، وإن كان العملاق لا يبدو عليه أنه يشعر بالمقاومة . ألقى بحمله على الأرض أمام الرجل والمرأة لينظرا فى دهشة إلى الجسد العارى لامرأة شابة تتأوه من ألم الرضوض إثر ارتطامها بالأرض . نظر الاثنان إلى العملاق مستفسرين ليشير إليهما بيديه إشارة مبهمة نحو الغابة ثم إلى هراوته الضخمة التى كانت ما تزال ملوثة بالدماء . ورفعت الغريبة رأسها من الأرض لتنظر إلى الاثنين بدهشة وفضول . لكن النظرة لم تكن تخلو من وحشية وتحدى . كانت نظرة حيوان حبيس يرى الموت مقدما عليه ، ولا يستطيع منه فكاكا . تأملتها المرأة مليا وردت الغريبة

النظرة . كانت بيضاء اللون كشأنها ، لكنها أطول قامة من المرأة ، وانسدل شعرها الأسود الفاحم على كتفيها بشكل وحشى أشعث أما عيناها فقد كانتا سوداوين واسعتين تعلوهما رموش كثة ، ويتوسط الوجه الأملس أنف لم تكتمل استقامته وفم واسع ملء الشفتين . رأت العينين القلقين تتحولان منها إلى العملاق الواقف مرتكزا على هراوته ، وقفز الرعب إلى النظرة الوحشية ، وانكمش الجسد الطويل خوفا .

لقد كانت مع رهط من قومها ، وهبط عليهم هذا العملاق مطوحا بهراوته الرهيبة ليسقط ثلاثة رجال مهشمى الرؤوس ، ويفر الباقون متفرقين فى أنحاء الغابة . وانعقد لسانها وشلت حركتها . وقبل أن تلحق برفاقها ورفيقاتها كانت يد من حديد قد أمسكتها من شعرها . عبثا حاولت أن تضرب الجسد الهائل أو أن تخدشه بأظافرها . سحبها من شعرها ، وتركها على الأرض ، ثم جلس إلى جوارها يلتهم مخ ضحاياه . حاولت مرة أن تلوذ بالفرار لكن ضربة من قبضة يده أفقدتها الرشد ، ولم تفق إلا وهى محمولة على الكتف الهرقلى . وسار بها العملاق . حاولت طوال الطريق أن تقاومه أو تفلت من يده ، لكن لم يبد عليه أنه قد شعر بها بل استمر فى سيره حتى ألقاها أمام هذين الإثنين .

لم يتحرك العملاق من مكانه . وظل لا يحول النظر عن الرجل . وفهم الأخير ما يعنيه . كانت المرأة بالنسبة للعملاق فريسة شأن أية فريسة أخرى اصطادها سويا ، فإن أرادها الرجل فهى له . وإن لم يردها أخذها . وهز الرجل رأسه نفيا ، فمد العملاق يده ليقبض على شعر الغريبة المرسل ويجرها منتحيا بها مكانا بعيدا عنهما .

٭٭٭

لم يتحرك الركب إلا فى صبيحة اليوم التالى . وبالرغم من أن الرجل لم يتعجل السير إلا أنه كان قلقا يتلفت فى كل ناحية من الغابة . أضحت حواسه تلتقط أى صوت ، أو أية رائحة . لقد علم أن الإنسان حوله فى كل مكان ، ولم يكن هنالك مجال للشك فى شىء يوهم نحو وجود أغراب عنهم فى المنطقة . أصبح الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يخاف منه الرجل ، وذلك الرعب الذى ترك غابته الحبيبة فرارا منه . لم تكن لهم حماية حقيقية إلا بالنار .

لكن النار كانت لها أيضا مثالبها ، فإنها تدل على مكانهم برائحتها ، وبريقها من مسافات بعيدة . ولما لم يكن هناك غيرهم يعرفها فكان من اليسير التعرف عليهم عن طريقها . راح يرقب شعور المرأة الغريبة ، رفيقة العملاق حيال النار . كانت تنظر إليها فى بلاهة وخوف ، بل كانت تنظر إلى رفيقة الرجل نظراتها إلى شىء خارق القوة يخضع الطبيعة لإرادته .

لم تتغلب على خوفها من النار رغم مرور بضعة أيام على انضمامها للجماعة ، ولما حاولت المرأة أن تجعلها تعتاد عليهـــا منعها الرجل بإشارة منه صحبها صوت فهمته .

كان التفاهم بين الإثنين ، الرجل والمرأة ، يزداد عن طريق تنوع الصوت ، أكثر من الإشارة بمفردها ، بل إن بعض الكلمات الآمرة ، والناهية كانت قد استقرت لها ألفاظ محددة . إستيقظى ، أريد غذاء ، أريد ماء ، سيرى ، قفى ، وهلم جرا . من البدهى أنه لم تكن هنالك لغة كاملة يستطيع الإنسان بها أن يتفاهم ، لكن تكونت بعض الكلمات التى تكفى الحياة اليومية ، والتحذير من الخطر . كانت كلمات جميعها ذات مقطع واحد مثل أوم ، وأر ، وأبا ، وماشابه . كلمات بسيطة لاتعقيد فيها ولا تركيب ، لكنها تؤدى المعنى الذى يريده أيهما فى هذه الحياة البدائية حتى أن الإشارة فيها لم تصبح أساسية، فكان ا ما يستطيع أن يفهم مايريد الآخر ولو لم يكن ينظر إليه .

ولعل أهم ماتوصل إليه الإثنان هو اطلاق اسم لكل منها يعرفه الآخر عند النداء . ذلك أن العملاق ورفيقته كانا يلتفتان إليها عند صدور أى صوت من أيهما . ولهذا اضطر الرجل أن يكرر كلمة واحدة فى كل مرة يريد أن يخاطب بها المرأة وكانت أقرب الكلمات إلى لسانه هو لفظ « تا » ومع مرور الوقت اعتادت المرأة عليه ، وأضحى علما عليها . وقلدته المرأة بدورها فأطلقت عليه اسم «بو» كما أطلقت على العملاق «مو» ورفيقته «بى» . ولعلها كانت المرة الأولى فى تاريخ البشرية التى أطلقت فيها الأسماء على الأفراد ، فكان لكل منهم شخصيته الذاتية التى يعرف بها ، فى حال غيبته .

سار الركب يتبع « بو » الذى لم يزايله قلقه لحظة واحدة فكان يصر على أن يتناوب كل منهم الحراسة فى المساء أو حين يخلدون إلى الراحة . كان دائم التطلع

فى كل اتجاهات ، يقفز لأية حركة غريبة ، ويتأكد من كل ظل شجرة . وكم افتقد الذئب الذى طالما كفاه مئونة الحذر والقلق . وكم شعر بوحشة لغيابه . ولعله كان مايزال يأمل أن يعود إليه فلم يكن يصدق أن رفيقه الذى صاحبه فى عشرات المغامرات يمكن أن يتركه ولايراه ثانية . لكن الأيام كانت تمر دون أن يظهر له أثر .

وذات يوم توقفت « تا » عن السير ، وأصاخت السمع ثم نادت على رجلها وأشارت إليه أن يستمع . وتوقف الركب ، ووصل إلى آذانهم صوت منتظم يأتى من بعد . لم يكن صوتا مألوفا ، لكنه أيضا لم يكن غريبا تماما . اجهد الرجل نفسه ليتبين ماهيتـــه ، وأخيرا استطاع التمييز . علم أنه هدير مياه يأتى من مسافة بعيدة ، فأشار إلى رفاقه بالاستمرار فى اتجاههم .

مضى يوم آخر قبل أن يروا النهر العظيم . كان نهرا واسعا تتجمع فيه الجداول والنهيرات ، لتجرى مياهـه سريعة تتلاطم أمواجها لتكون دوامات رهيبة ، تقفز فيها الأسماك لتتلألأ تحت أشعة الشمس البراقة . كان صوت تلاطم الأمواج ببعضها فظيعا ، ويبدو أن النهر كان يجرى إلى منخفض فجرت مياهه سريعة مخيفة ، لكن لم تكن تعترض مجراه الصخور ، بل إن شاطئيه كانا طينيين بالرغم من وجود الحصى ، والحجارة ، المتناثرة . ووقفت الجماعة تنظر إليه . كانت أقرب الأشجار تبعد عنه حوالى عشرة أمتار ومع هذا فإنهم شاهدوا الكثير من الأفرع والأغصان تتلاعب بها المياه . ربما أتى بها النهر من حيث منبعه ، وربما جرفتها بعض الجداول أو النهيرات التى تصب فيه .

اطمأن الرجل بعد مدة إلى أنه لا يوجد عدو قريب فألقى بخرجه ، وسار بحذر إلى الضفة القريبة ، وخاض قليلا فى المياه ، فى حين أشار إلى باقى رفاقه أن يلبثوا مكانهم فى حماية الأشجار . رأوه يقف جامدا فترة ، وهو يمسك برمحه كأنما ليطعن عدوا يرقد فى المياه . وفجأة هبط الرمح بسرعة ليخرج ثانية من المياه وفى نهايته سمكة قذف بها بعيدا عن الضفة . وتكررت العملية بضعة مرات ، كانت حصيلتها ست سمكات متوسطـــة الحجم . ونادى الرجل المرأة لتساعده فى حمل السمكات التى كان بعضها مازال يقفز على الأرض ، ثم اتجه الإثنان

إلى رفيقيهما وبدأ الجميع يأكلون وجبة شهية . ومنذ ذلك الوقت بدأ سيرهم فى محاذاة النهر ، وفى إتجاه جريان مياهه . ساروا بين الأشجار ، لكن الرجل كان دائماحريصا على أن يكونوا قريبين من النهر ، فأمن بذلك أحد الاتجاهات إذ لم يكن عدو ليكشف عن نفسه بالسير فى المنطقة المكشوفة بين الأشجار والنهر ، كما كان لهم منه غذاء وفير بين الفينة والأخرى .

إستمرت الطبيعة تغير مناظرها كلما أوغلوا فى التقدم .خفت الأشجار إلى درجة كبيرة حتى أنها أصبحت متباعدة فى حين ارتفعت الحشائش لتكسو الأرض جميعها ، وتصل حتى قرب ضفة النهر . وانبسطت الأرض أمام الجماعة سندسية خضراء فى رقعة واحدة لا يقطعها سوى بضعة أشجار متناثرة فى الخضم الأخضر. واتسع الأفق أمام أنظارهم فلم يعد يمنع الرؤيا شىء . وبدا لهم فى الأفق البعيد سحابة عالية تبينوا ، أنها جبل يمتد عبر الأفق جميعه .

وكما تغيرت المناظر تغيرت أيضا الحياة الحيوانية . لمحت الجماعة بعض الزواحف ، وعثرت على بيضها ، وبيض الطيور ، كما رأوا نمرا سيفى الناب يرتوى عند ضفة النهر ، وشاهدوا ذكرى غزال يتقاتلان ولابد أن الإناث كانت على مقربة ، تنتظر الفائز إذ حينما حاولوا الاقتراب إنطلق من بين الأشجار قطيع صغير سرعان مالحقه المتقاتلان ليختفى الجميع بعد برهة بين الحشائش الطويلة . لكن الرجل تمكن من التربص بقطيع آخر ، وانقض بحربته على أحد أفراده وسرعان ما عاد للجماعة يحمله على كتفيه .

أضحى السير بين الأعشاب مشكلة معقدة بالنسبة للمرأة وهى تحمل النيران، كما أن الخرجين كانا يعوقان تقدم الرجل والعملاق . واضطر الرجل أن يأمر الجماعة بالسير فى محاذاة النهر ، فإن ذلك كان أكثر أمنا . صحيح أن أى عدو يمكن أن يراه من مسافة بعيدة ، لكنه كان يمكنه أيضا أن يرى أعداءه . ولم يكن ثمة مكان يهاجمهم منه أحد سوى من ناحية الحشائش التى كانت ماتزال تبعد بضعة أمتار ، وربما أعطت هذه المسافة فسحة من الوقت تعدم قوة المفاجئة . وظهرت للجماعة من ناحية أخرى مضايقات لم تكن فى الحسبان ، إلا وهى الحصى الصغيرة والحجارة المتناثرة التى تقطع فى أقدامهم رغما عن الأحذية الجلدية ، لكن لم يكن فى الاستطاعة تمادى هذه المضايقة فاستمروا فى سيرهم .

وفى أثناء محاولاته قطع الأعشاب والحشائش سواء لاستعمالها للنوم أو لتغذية النيران ، وجد الرجل أن الخنجر ، وسائر الأدوات التى معه سلاح ضعيف حتى أنه كان يقضى وقتا طويلا ليخرج بنتيجة غير متكافئة مع المجهود .

وحدث مرة أن عثر على حجر صغير حاد الطرف . وحينما إستعمله وجد أنه يقطع بيسر يفوق الخنجر فاحتفظ به ، ودارت عيناه فى أثناء النهار تبحثان فى الأرض عن حجر أو حصاة تكون ذات نصل حاد . وعثر على الكثير ، فالطبيعة مليئة بالأدوات البدائية ، فانتقى منها أربعة احتفظ بأحدها وأعطى كل من رفاقه حجرا أراه كيف يستعمله .

وإذا كان السير قد أضحى مشكلة فإن تغذية النيران أضحت بدورها مشكلة أخرى . كانوا فى الغابة ، أو حيثما توجد الأشجار يجدون الخشب بسهولة ، حتى وإن كانت به بعض رطوبة إلا أن الرجل وجد أنه لو قطعه إلى أجزاء صغيرة فإنه يحترق ، وإن كانت نيرانه تعطى دخانا شديدا كثيرا ما سبب مضايقات للمرأة . أما الآن وقد إنعدمت الأشجار تقريبا ، فقد إنعدمت معها الأخشاب أو كادت . صحيح أن الجماعة كانت تعثر بين الحين والآخر على قطع متناثرة على ضفة النهر ، لكن هذه القطع كانت إلى جانب رطوبتها الشديدة . نادرة ، ما اضطر الرجل أكثر من مرة إلى المجازفة بدخوله إلى بعض مزالق النهر ليصيد غصنا من المجرى . كادت قدمه أن تنزلق أكثر من مرة لكنه كان يفلح فى حفظ توازنه .

إضطر الرجل بالرغم من هذا إلى الإقتصاد الشديد فى استعمال البقية القليلة من الأخشاب الجافة التى كان مازال هو والعملاق يحتفظان بكمية منها ، واضطر بالتالى إلى استعمال بعض الحشائش فكان يقطع من أطرافها ليغذى النار خاصة أثناء الليل . وجد أنها كانت تحترق أسرع من الأخشاب الرطبة ، ما كان يجبره على اقتطاع كميات كبيرة منها . ولم يعد يبالى بعد ذلك بالدخان ، إبل ربما كان يرى فيه الحماية إذ أن الحيوانات المفترسة كانت تلتقط رائحته من مسافات بعيدة فلا تقترب من المنطقة .

وإذا كان السير ، وكانت تغذية النيران قد أضحيا مشكلتين فإن النوم أضحى مشكلة المشاكل . فإلى جانب النهر كانت الأرض شديدة الرطوبة علاوة

على الحصى ، والأحجار التى تكاثرت حتى أضحى من شبه المستحيل أن تنق مساحة كافية لنوم الجماعة ، واضطر الرجل بعد تفكير طويل إلى أن يقسم الجماعة إلى قسمين ، ينام إثنان منهما على الحشائش التى كان يمكن أن تكون فراشا مريحا إذا ما مالت على الأرض ، فى حين يبقى الاثنان الآخران فى حراستهما وتغذية النيران . وكان من نتيجة هذا أن الجميع لم يكونوا ينالون قسطا كافيا من النوم . لكن لم تكن هنالك حيلة يتفادى بها ذلك .

ويبدو أن رائحة الدخان قد أبعدت الحيوانات من الجماعة إذ أنهم ساروا أياما لم يصادفوا خلالها حتى مجرد ظبي . ولهذا انحصر معظم غذائهم فى الأسماك التى كانت متوافرة بكثرة على ضفة النهر الهادئة نسبيا . كانوا يسيرون معظم ساعات النهار لايقطعون السير إلا عند الظهيرة عندما يصطاد الرجل بعض الأسماك يتغذون بجزء منها ، ويحتفظون بجزء آخر لليلهم وصباحهم . أما فى الليل فقد اعتادوا على أن يقطعوا بعض الأعشاب الطويلة عند حافة النهر ، ويفترشها ثلاثة منهم على أن يتناوب الرجلان الحراسة . ولم يطمئن الرجل مطلقا فى كل الوقت الذى مضى على أن أفراد قبيلة الفتاة قد نسوهم . لاحظ أكثر من مرة أن الأعشاب كانت تتماوج على مسافة بعيدة منهم ، وحاول جاهدا أن يتعرف على السبب ، لكنه لم يستطع أن يتبين شيئا نظرا لطول الحشائش التى كانت تغطى قامة الرجل إذا انحنى قليلا .

لم يعط الرجل الجماعة أية راحة خلال هذه المدة إذ أن قلقه ظل مستمرا . كان يعلم أنه لن يشعر ببعض الأمان الحقيقى إلا عندما يبلغ الجبل الذى بدا الآن ، وقد اقتربوا منه ، كبيرا عاليا ، شامخا ، يطاول السماء ، ولاح له أن النهر إنما يجرى رأسا إلى باطن الجبل لينتهى عند سفحه تماما .

وللمرة الثانية فى رحلة هجرتهم ، ودون سابق إنذار ، ضربهم القدر ضربة قاسية . كان الوقت عند الظهيرة . توقف الركب ، وراح الرجل يمارس صيد السمك كعادته التى إستقرت منذ أيام بعد أن دخلوا منطقة المراعى . ولابد أن العدو قد راقبهم لأيام وعرف عاداتهم تماما فاختار الوقت الذى تكون فيه جميع حواس الرجـــل منتبهة إلى الصيد ، وحين يواجه النهر بالضرورة فلا يستطيع الالتفات إلى ناحية الأعشاب ، والحشائش.

جلست رفيقة الرجل على الأرض تستريح من التعب الذى حل بها من جراء سيرها فى الصباح ، ووضعت إلى جوارها الوعاء الذى يحتوى على النيران والى جوارها أيضاً جلست رفيقة العملاق (بى) تنظر باعجاب إلى مهارة الرجل التى يبديها فى الصيد . وعلى بعد بضعة خطوات منها جلس العملاق وقد بدا عليه كأنما هو نائم ، ومع هذافقد كان هو أول من انتبه إلى الخطر الداهم فهب واقفا مطوحا بهراوته ، بعد أن اطلق صيحه انذار ، وتحذير .

فى ثوان انقلبت الساحة رأسا على عقب . خرج من بين الأحراش اكثر من عشرين رجلا قسموا انفسهم إلى قسمين اندفع فريق منهم يصرخون ويطوحون هراواتهم نحو العملاق ، واندفع القسم الثانى إلى حيث يقف الرجل عند حافة النهر. كان توقيت الجماعة المهاجمة دقيقا إلى درجة أنه لم تكن هنالك فسحة من الوقت لأن لينضم الرجل إلى العملاق أذ تعمد المهاجمون فصلهما عن بعضهما ، واحاطة كل واحد منهما احاطة تامة .

لم يهتم القادمون بالمرأتين ، فلم يتجه اليهما أى واحد منهم . ومع هذا فقد إنقضت رفيقة العملاق على أقربهم ، وراحت تقطع وجهة وجلده باظافرها حتى إضطرته أن يضربها بهراوته . تلقت المرأة الهراوة فى جبهتها فانبثقت الدماء متدفقة ، وهوت على الأرض. متهالكة لاتتحرك . واتجه المهاجم نحو المرأة الأخرى يريد أن يضربها بدورها ، لكنها أمسكت بأحد الرماح إلى جوارها وقذفته بكل ما أوتيت من قوة فى صدره . نظر إليها المهاجم غيرمصدق لما حدث ثم حول نظره ببلاهه إلى الرمح المستقر فى صدره والدماء تسيل منه ، وسقطت من يده الهراوة وبدا كأنما هو يحاول أن يخرج الرمح ، لكنه سقط على الأرض يرفس بقدميه .

رأت المرأة نفسها حرة غير مراقبة فالتفتت تنظر بهلع إلى المعركة الدائرة بين رجلها والمهاجمين . كان الرجل فى سياق رفع رمحه ليصيد سمكة أخرى حينما سمع صيحه العملاق . وبحركة آليه سريعة التفت وراءه ليرى اكثر من عشرة اشخاص يهاجمون بالهراوات ، كان المهاجمون على قيد خطوات منه ، فلم يكن لديه الوقت الكافى ليلقى عليهم برمحه ، أو أن يخرج خنجره من جرابه . بسرعة بديهية مذهلة إنقلب استعمال الرمح فى يده إلى عصا غليظة طويلة طوحت

بأقرب المهاجمين إليه إثر ضربة أصابته فى صدغة ، ثم راحت توقع بالباقين عقابا صارما .

لم يكن الرمح معدأ أصالة ليكون هراوة . لهذا فلم يكن تأثيره قويا على الأجساد القوية المقاصة ، فهو وأن كان قد اوقف تقدمهم مؤقتا ، لكنه من ناحية أخرى لم يكن فعالا بدرجة تكفى لأن تنهى قتال من أصابه ، إلا إذا كانت الاصابة فى مواضع معينة من الجسم . وما كان لدى الرجل الوقت الكافى لينتقى المواضع . وانتهز فرصة توقف الهجوم عند حد معين ليقدر موقفه .

كان النهر وراءه بصوته الهادر وجريانه السريع يعنى الموت غرقا لو انزلقت قدما الرجل ، أو تقهقر خطوة أو خطوتين فى حين كان المهاجمون يحيطون به من كل جانب آخر . وحانت منه لفتة جانبية فرأى أن عددا كبيرا من الرجال يحيطون بالعملاق وقد بدأ رأسه عاليا بينهم وهو يطوح بهراوته الضخمة . ولم يسعف الوقت الرجل لكن يتأكد من حقيقة موقف زميله وإن كان قد قطع بأنه لا فائدة ترجى من التماس المعاونة منه . ولم يرا أيا من المرأتين ، وعلى أى الاحوال فلم يخطر فى باله انتظار أية مساعدة تأتى منهما .

حاول أحد المهاجمين الالتفاف حول الرجل من ناحية النهر ، لكن ضربة سريعة من الحربة جعلت قدمه تنزلق إلى المياه الجارفة ، التى كتمت صرخة اطلقها وهو يهوى . ولم يحاول بعد هذا أحد من رفاقه أن يتخذ السبيل نفسه .

لعل كثرة عدد المهاجمين كانت هى فى حد ذاتها من عوامل تأخير النتيجة الحتمية ، خاصة وأن المكان الذى كان يقف فيه زلق بطبيعته ولم يكن يتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص ، أو اربعة ولهذا أمكنه الدفاع عن نفسه فترة أطول مما لو كانت الظروف مغايرة . إستمر الرمح يدور يوقع عقوبته الصارمة . لكن الهراوت ايضا كانت تهبط على الرجل ، ومع أن أيامنها لم يصب عظامه أو رأسه إلا أنه بالرغم من هذا كان يتلقى ضربات قوية اضطرته إلى التراجع نحو النهر قليلا . وعلى حين غرة قذف احد المهاجمين الرجل بهراوته ، وطارت الهراوة فى الهواء لتصيب جبهته أصابة شديدة . انبثقت الدماء من جرح كثيب ، وشعر الرجل كأنما ارتدت رأسه إلى الخلف فانفصلت عن جسده ، بينما أصابته صدمة عنيفة من أرتطام هراوة أخرى فى كتفه . وبدأ الكلال يصيب عينيه ، أحس كأنما قد نامت رجلاه بثقل جسمه ، وأيقن أنه لن يستطيع الصمود طويلا ، ومع هذا فإن الرمح لم يتوقف عن الدوران يطيح بأى من اعدائه يفكر فى الاقتراب .

لم يلحظ الرجل وهو منهمك فى قتاله أن واحداً من المهاجمين قد بدأ يتسلل ببطء وحذر نحو النهر يريد أن يأخذه على حين غرة من الخلف، أو على الأقل يضطره أن يلتفت إليه فيعطى باقى رفاقه فرصة الهجوم الجماعى والقضاء عليه. مضى المهاجم يتقى موطىء قدميه بين الحصى والأحجار بحذر خشية الانزلاق. واقترب من الرجل حتى لم يعد يفصله عنه أكثر من خطوتين أو ثلاث، ورفع هراوته يريد أن ينزل بها على رأس خصمه بضربة لو اصابته لكانت القاضية. وفى هذه اللحظة طار شىء فى الهواء ليستقر فى صدر المهاجم. أمسك التعس بالحربة التى قذفتها المرأة يريد أن ينتزعها من صدره، وانزلقت قدمه لتجرفه المياه فى تيارها.

لكن هذا الانقاذ المؤقت لم يدم إلا لحظات، فإن الرجل كان قد بلغ نهاية إحتماله. ولاحظ المهاجمون أن التعب قد أخذ منه، وأن ضربات الرمح ودوراته قد ضعفتا فشددوا هجومهم. وجاءت النهاية حينما انكسر الرمح أثر احدى الضربات. تراجع الرجل وهو يرفع يديه يتقى بها الهراوات المتتالية التى تساقطت عليه. وانزلقت قدمـــه، وعلت صرخة رعب قاتل من المرأة، وابتلعته المياه الجارفة.

توقف باقى المهاجمين هنيهة. ثم إستداروا إلى حيث كان القتال مايزال دائراً بين العملاق ورفاقهم. وشاهدوا منظر أرعبهم لحظات. كان العملاق واقفاً يطوح بهراوته فى حين ابتعد المهاجمون قليلا عنه وهم يحيطونه فيما يشبه الدائرة الكاملة، لكن أحدا لم يكن يجرؤ على الاقتراب. وعلى الأرض تمددت أربع جثث حطمتها الهراوة الرهيبة، وقد تهشمت جماجمها تماما وتناثر المخ من كل منها مختلطا بالدماء، وبدا على العملاق أنه كان سعيدا متلذذا بالقتال. كان رائعاً فى وقفته، ماردا بين أقزام.

فجأة حمل العملاق على المهاجمين حملة صادقة صارخا بصوت مرعب. وفر الجمع من أمامه. لكن اخوانهم من خلفه هاجموا، وأصابته ضربات قاسية من هراوات عديده. ولم يبد عليه أنه تأثر بها. وحينما استدار ليلقاهم اسقطت الهراوة رجلا خامساً مهشم الرأس. كانت ضربة واحدة من الهراوة كافية لأن تقضى على عدوه، بينما كان هو يتحمل عشرات الضربات وكأن جسده قد صفح

من حديد . سالت الدماء من أكثر من موضع فيه ، كما بدأت تظهر آثار الضربات واضحة فى أجزاء كثيرة من بدنه ، ومع هذا فكأنما هى ضربات أطفال اصابته .

ويبدو أن واحدا ممن بقوا على قيد الحياة من مهاجمى الرجل كان أكثر دهاء من إخوانه ، فحينما شاهد ماتحدثه هراوة العملاق من رعب أوقف زملاءه عن الانضمام إلى المهاجمين ، وأشار إليهم يلتقطوا حجارة وحصيا من الأرض . وفى لحظات بدأت الحجارة تطير فى الهواء لترتطم بالجسد العملاق . واندفعت الدماء غزيرة من الرأس والجبهة ، وسائر أعضاء الجسد .

صرخ العملاق صرخة عاليةواندفع نحو مهاجميه غير عابىء بالحجارة تنهال عليه . وسالت الدماء من جبهته لتغطى عينيه وتسدل ستاره حمراء على بصره . ومع هذا فإن الهراوة الرهيبة كانت قد بدأت ضرباتها القاتلة ، وسقط رجلان آخران . لكن الباقين إنضموا إلى رفاقهم فى القتال وبدأ كأن النهاية الحتمية قد أضحت قريبة .

وجاءت النجدة من حيث لم يحتسب أحد . من وسط الحشائش الطويلة اندفع جسدان . ذئب وذئبة ، طار الجسدان القويان فى الهواء ليسقطا على الأجسام البشرية المتراصة حول العملاق ، واعملت المخالب والأنياب عملها حيثما التقت مع لحم بشرى ، وتعالت صيحات الألم والرعب ، وفى اللحظة التالية انطلقت الجماعة الباقية فرارا من الوحشين .

كانوا قد تلقوا عقابا قاسيا من الرجل ، وأعملت فيهم هراواة العملاق القتل وحينما ظنوا أنهم قد تغلبوا عليه ، ظهر لهم وحشان من حيث لا يعلمون . وكان فى هذا الكفاية ، فقد كان من الجلى أنهم لن يصيبوا بغيتهم فى هذا اليوم على الأقل ، فانطلقوا هاربين .

أحس العملاق فجأة بأن الضربات قد توقفت ، وسمع صرخات المهاجمين وزمجرة الذئبين ، فوقف مستندا على هراوته يقاوم الأعياء الذى داهمه . ومسح الدماء من عينيه حتى يتمكن من الرؤية ، وفى اللحظة التالية شاهد ذئبة ضخمة تندفع فى الهواء نحو رقبته . لم تكن الذئبة تعرفه ، فهى قد رأت رفيقها يندفع

فى الهواء نحو الرجال ، فاندفعت وراءه ، وما كان العملاق بالنسبة لها سوى مجرد واحد من هؤلاء .

لم يكن لدى العملاق وقت كاف لأن يتلقى الذئبة بهراوته ، ولا أن يحيد عن هجمتها ، لكنه رفع يده بسرعة ليضربها وهى فى الهواء ويلقيها بعيداً عنه . وفى أقل من لمح البصر كانت الذئبة قد استعادت توازنها واندفعت إليه مرة ثانية قبل أن يستطيع الاعتدال فى وقفته . كان الإعياء قد حل به ، وعادت الدماء مرة ثانية تكون ستارة حمراء أمام ناظريه فلم يعد فى استطاعته الدفاع عن نفسه .

كان من الممكن أن يصير العملاق فريسة سهلة للذئبة لولا أن الذئب ، كان قد عاد من مطاردة المهاجرين بعد أن اقتنع بأنهم قد هربوا ولم يعودوا يكونون خطراً على أصحابه . وكما طارت الذئبة مرة ثانية فى الهواء تبغى رقبة العملاق ، طار الذئب ليتقابل الجسدان فيرتطمان ببعضهما ويقعان على الأرض . وزمجرت الذئبة ، وزمجر الذئب متحدياً ، وأخيراً سكنت الذئبة ، وراحت تنظر إلى جثث الموتى ، وبدأت وليمة عظيمة .

تلفت الذئب حوله باحثاً عن صاحبه ، ولما لم يره بدأ يتحسس جثث الموتى بأنفه دون طائل ، وأخيراً رأى المرأة واقفة تولول عند النهر فاتجه إليها ونظر متسائلا . وكأنما فهم ، فوقف عند الحافة ينظر بحزن إلى المياه الدافقة ، وأطلق عواء موحشاً طويلا ينعى به رفيق حياته .

الفصل الثالث عشر

تحت الجبل

لو كان قد قدر فى ذلك أصيل اليوم لأحد أن يطل من علياء على تلك البقعة من الأرض بين الحشائش الطويلة والنهر الجارف لرأى وسمع عجبا . فرفيقة العملاق « بى » كانت قد بدأت تفيق من الضربة التى أصابتها ، وراحت تنظر فى تعجب حولها تحاول أن تتفهم الموقف .

وجلس العملاق على الأرض يمسح الدماء التى كانت ماتزال تقطر على جبينه ، وقد بدا عليه الذهول ، والاعياء من أثر ما نال من ضربات الهراوات ، وما أصابه من حجارة وحصى . راحت عيناه الضيقتان ، تجولان فى بلاهة حوله حتى استقرتا على رفيقته التى كانت قد تململت تفيق من غيبوبتها ، ورأى إلى جوارها وعاء النار وقد بدأت تخمد فمد يده بحركة آلية اعتادها ليخرج من الخرجين بعض الأخشاب ويغذيها بها .

ترنح فى مشيته تلك المسافة القصيرة نحو الوعاء ، ولاحظ جثث القتلى متناثرة على الأرض ، وسمع زمجرة الذئبة تحذره من الاقتراب وهى تنهش جثة أحدهم فى نهم . لكنه لم يعرها التفاتا وأكمل بغيته . ثم وقف يحاول الاستقرار على الخطوة التالية ، أخيرا اتجه إلى النهر يمسح الدماء المتجمدة على وجهه وجسده ويعب منه ليرتوى .

وأفاقت رفيقة العملاق لترى المرأة تولول على ضفة النهر ، فى حين مضى الذئب يجرى بمحاذاته جيئة وذهابا ، وعيناه لا تفارقان المياه الجارية ، ويتوقف بين الفينة الأخرى ليرسل عواء طويلا هو بين النداء والنحيب . قامت « بى » من مكانها متجهة إلى « تا » رفيقة الرجل ، وأمسكت كتفيها برفق ، لكن بحزم ، وأدارت وجهها الباكى عن النهر ثم قادتها إلى ناحية الأحراش حيث أجلستها إلى جوار النار .

فرغ العملاق من عب الماء واغتساله . وأحس أنه أحسن حالا ، وإن كان جسده قد تورم فى مواضع كثيرة ، كما أصابته جروح بدا أكثرها خبثا ذلك الذى فى جبهته ، وآخر عند كتفه الأيسر . لكن هذه الأورام ، والجروح ، لم تكن بالنسبة له شيئا يذكر إذ هى جزء من حياته اليومية . لم يكن يبدو عليه من ناحية أخرى أى تأثر لموت الرجل ، أو على الأقل بدا أن هذا هو الحال فى الظاهر ، وإن كان حزنه لفراق رفيقه لم يكن يقل عن حزن المرأة . لكنه لم يكن يعرف كيف يظهره ، إذ توقف عقله فى بلاهة لايعى تماما ما حدث . فالحياة بالنسبة له هى الغذاء ، والنوم ، والقتال ، أما الموت فهو مجرد الغياب . لقد علم أنه لن يرى صديقه بعد اليوم ، فقد ذهب أصدقاء له آخرون كما ذهب الرجل ، ولم يعودوا ، وهذا هو كل ما فى الأمر .

عاد العملاق من الضفة وجلس بجوار المرأتين ليريح جسده المكدود . راح يداعب الطين تحت قدميه برأس هراوته الضخمة . وكان على رفيقة العملاق أن تكون عملية . فالرجل لم يكن يعنى بالنسبة لها شيئا ، فى حين كان العملاق هو سيدها . أما المرأة الأخرى فهى حامل ، والأمومة غريزة فى النساء ، ولهذا كان عليها أن تساعدها . انتقت « بى » احدى الجثث ، وأخرجت منها المخ لتقدمه إلى العملاق الذى تناوله ، والتهمه بسرعة . وفعلت هذا فى جثة أخرى ، لتقدم مخها إلى المرأة التى أنكرت الطعام ، رغم الالحاح الشديد . ومد العملاق يده لينتزعه منها قبل أن يصل إلى فمها .

لكن الغذاء كان كثيرا ، وكانت الذئبة قد فرغت من تناول طعامها حتى اتخمت فاستلقت على الأرض شبه نائمة ، وهى ترقب رفيقتها من جانب ، والرفاق الثلاثة من جانب آخر . وتفادت المرأة « بى » الذئبة وهى تنتقى جثة لرجل آخر . ويبدو أن العملاق كان قد استقر على أنه أخذ كفايته من المخ فأخرج سكينه الحجرى وراح يقطع أجزاء من اللحم يلتهمها . وحذت « بى » رفيقته حذوه . ولم يلتفت الاثنان إلى « تا » رفيقة الرجل ، التى كانت ولولتها قد تحولت إلى نحيب صامت مستمر .

فرغ العملاق من طعامه فأشار إلى « بى » أنه يريد الشراب . وقامت المرأة فتناولت أحد الأوعية وذهبت إلى الضفة المائة ، وفى سيرها عثرت على بضعة سمكات كان الرجل قد إصطادها قبل إبتداء المعركة فالتقطتها . وناولت العملاق الوعاء ثم عرضت السمكات على المرأة ، فلما أبت وضعتها أمامها ، وانسحبت لتلق بجسدها إلى جوار سيدها .

جن الليل . ونامت « تا » إعياء ، وتعبا وتناوب « مو » العملاق ، ورفيقته « بى » تغذية النيران كما علمهما الرجل . وحل الصباح ، واستيقظت « تا » لترى أن الذئب كان مايزال على عهده رابضا إلى جوار الضفة ، قلقا لايستقر . تحاملت على نفسها واتجهت إليه لتضع يدها على رأسه . وزمجر الوحش لكنه عاد فهدأ وارتفع وجهه إليها كأنما يريد أن يقول شيئا ثم ابتعد عنها وهو يعدو بمحاذاة النهر ، وتوقف ليطيل إليها النظر ، ويطلق عواء حادا طويلا لم يكن قد كف عنه طوال الليل .

تعجبت المرأة ، ولم تدر ماذا يريد الذئب ، بينما استمر يكرر فعلته ، فيعود لينظر إليها ويبتعد ، ويرسل عواءه الموحش الطويل . وأخيرا أعياها فهم مايرمى إليه فانحنت على المياه تبلل وجهها وتشرب . أحست بجوع شديد فعادت إلى حيث السمكات فالتقطتها وبدأت تأكل .

كانت « بى » مستيقظة تغذى النيران وقد اقتطعت لنفسها وجبة من إحدى الجثث تأكلها ، كما إقتطعت أخرى وضعتها إلى جوار « مو » ، العملاق النائم . وشاهدت « تا » الذئبة تنهش بقية الجثة التى كانت تأكل منها فى الليلة الماضية ولاحظت أن الذئب لم يذق طعاما فتركت ما تبقى من سمكاتها ، واقتطعت بعض اللحم وقدمته إليه .

وللمرة الثانية تصرف الذئب تصرفه العجيب . رفض اللحم ونظر إليها ، وأعاد حركاته التى قام بها منذ قليل . واحتارت المرأة . لقد فهمت أنه يريد منها أن تتبعه بحذاء النهر ، لكنها لم تفهم السبب فلم يكن يخطر فى بالها أن رجلها ما يزال على قيد الحياة . لقد رأته وهو ينزلق فى المياه المروعة الجارفة ، ورأت يديه تخبطان بلا فائدة على سطح النهر ، ورأت كتلة ضخمة من الخشب يحملها

التيار ترتطم به بشدة لتجرفها المياه الهادرة . ولم تعد بعدها ترى شيئاً .

ألقت المرأة قطعة اللحم أمام الذئب وعادت إلى مكانها بجوار النيران تأكل ما تبقى لها من السمكات ، وترقب العملاق وقد استيقظ يلتهم ما قدمته له « بى » من اللحم . فرغت « تا » من غذائها وسرحت ببصرها إلى الذئب ، ومن ورائه النهر ، بينما بدأ عقلها يعمل . إن فقدانهم الرجل كان ضربة قاضية على سائر الجماعة . فالعملاق قانع بحياته لا يفكر طالما أنه يأكل ، ويشرب ، وينام « وبى » قانعة بحياتها إلى جواره ، فما كان يهمها أين يقيمان ، وأين ينامان ، فكل الأماكن بالنسبة لهما سواء . لكنها كانت فى وضع آخر تحمل فى أحشائها جنيناً أوشك على الظهور إلى الدنيا ، ويلزم أن يكون له مكان آمن يستقر فيه . هل كان هذا ما يبغيه « بو » رجلها من الرحلة التى بدت لا هدف لها ؟ هل كان رجلها يبحث عن مأوى يكفل لها ولوليدها أكبر قسط من الأمان ؟

قفزت الأفكار تتتالى فى رأسها . هل كان الذئب يعلم هذا بغريزته الغريبة وبالتصاقه الدائم برجلها ؟ هل يريد منها أن تتبعه إلى حيث الأمان لها ولوليدها . إن بقاء الجماعة حيث هم لن يؤدى إلى نتيجة ، ولن يفكر الإثنان فى الترحال بل ربما عادت الجماعة المهاجمة بعدد أكبر أو بمفاجأة غير متوقعة ولن يفلتوا منهم فى هذه المرة . كان رجلها يتبع جريان النهر متوجهاً إلى الجبل فلتفعل هى هذا أيضاً .

هبت من مجلسها ، وحملت معها وعاء النار ، وإحدى الحراب . أشارت الى العملاق والمرأة « بى » أن يحملا سائر الأدوات ، والحراب ويتبعاها . لم يكن العملاق قد فرغ من تناول طعامه فنظر إليها فى بلاهه ولم يتحرك من مكانه ، واستمر يأكل بنهم ، ورأت « بى » أن سيدها لم يتحرك . فلم تعر المرأة التفاتاً ، وبقيت فى مكانها .

حاولت « تا » جاهدة أن تفهم العملاق بالإشارة إلى احتمال عودة أعدائهم . وفهمت « بى » ، ولم يفهم « مو » . فقدت « تا » أعصابها ، فقد شعرت فجأة بخطورة الموقف ، وحتمية الإبتعاد سريعاً عن هذه المنطقة . بحركة سريعة وضعت وعاء النار على الأرض ، ومدت يدها بالرمح تنغزبه العملاق . ندت صيحة غضب منه ، وأمسك بهراوته الرهيبة ، وفى اللحظة التالية كان الذئب واقفاً إلى جوار المرأة يزمجر ، ويكشر عن أنيابه ، وإلى جوارها أيضاً وقفت الذئبة .

زحفت « ن » مرتاعة بعيدا عن الوحشين ، وبقى العملاق فى مجلسه تتنقل عيناه بخبث بين الثلاثة وكأنه يقدر مدى إمكانياته أمام الوحشين والرمح . ويبدو أنه اقتنع أخيرا بعدم جدوى القتال فقام من مكانه متثاقلا يحمل هراوته وهو مازال يقضم فى اللحم النىء .

زمجر الذئب ، وكشرت الذئبة عن أنيابها ، لكن العملاق كان قد نسى الواقعة تماما . كان كالطفل ، سريع الغضب ، سريع النسيان . ولم تتدخل « تا » عن حذرها وهى تشير إليه بحمل الخرجين معا ، ولا وهى تأمر « ن » أن تحمل بعض الجراب . توقف العملاق قليلا كأنما يفكر ، ثم تناول سكينه ، وابتدأ يقطع من الجثث أمامه أطايبها ليلقى باللحم فى الخرجين .

حمل العملاق أحد الخرجين وقد امتلأ ، ثم أشار إلى « ن » بحمل الخرج الآخر ، وحاولت « ن » فلم تستطع أن تحركه ، ورفع العملاق هراوته مهددا ، لكن « تا » تدخلت وأفرغت بعض اللحم من الخرجين حتى استطاعت المرأة أن تحمله مكرهة .

هنا حدث شىء عجيب آخر فقد انقض الذئب على اللحم يقضمه ، هو الذى بات ليلته وجزءا من صباحه يأبى أن يتناول الطعام . سار الركب العجيب ، تتقدمه « تا » والذئبين ليلتهى بالعملاق . كانت حركات الذئب مدعاة للدهشة فقد بدا كمن تملكه القلق ، بل واستخفه الطرب ، فكان يجرى أمام الجماعة إلى مسافة بعيدة ، ثم يعود وكأنه يستحثهم على الإسراع .

لم تكن « تا » تستطيع فى الواقع أن تسير بسرعة ، بل إن مجرد السير لمدة طويلة كان فيه إرهاق شديد عليها وهى فى شهرها السابع حاملة وعاء النار بكلتا يديها بينما تأبطت رمحها . كانت تسير متثاقلة ، بطيئة . ولم تكن « ن » أحسن منها حالا ، فإن الخرج الذى كانت تحمله كان لم يزل ثقيلا عليها بالرغم من كمية اللحم التى ألقتها « تا » خارجه . ومما زاد الطين بلة أن الحصى ، والحجارة تكاثرت حتى تكاد أن تغطى الأرض جميعها وتقطعت الأحذية الجلدية ، فكان من العسير عليها السير ، خاصة وهى لا ترى موطىء قدميها . تجرحت أقدام المرأتين ، ولولا خشية « تا » من عودة أعدائهم ، وخوف « ن » من هرارة العملاق لتوقفتا عن

السير . أما « مو » فقد كان الوحيد بينهم الذى لم يبد عليه أى أثر للتعب ، بالرغم من العقوبة التى وقعتها عليه المهاجمون فى ظهيرة اليوم السابق .

إنتصف النهار وهم مايزالون سائرين . وبدأت ضفة النهر ترتفع ، وازداد هدير المياه كما ازدادت سرعة جريانها . ولاحظت « نا » أن الأرض فى إرتفاع مستمر . نظرت أمامها لترى أن سلسلة الجبال أضحت أعلى كثيرا مما ظنت . بدت القمم شاهقة تطاول السماء ، وانعكست أشعة الشمس على الجليد . وبهتت « نا » للمنظر الموحش الساحر أمامها . وحار عقلها فيما إذا كان رجلها يهدف إلى تسلق هذا الجبل الهائل . وأيقنت فى نفسها أنها لن تستطيع مواصلة التسلق إلى القمة فقد لاح أن الجبل قد من صخور ضخمة ملساء لامنفذ منها ولا ممرات .

أحست بتعب شديد ، وبأنها لن تستطيع الاستمرار فى التقدم دون أن تأخذ راحة كافية فتوقفت عن السير ، وأشارت إلى الجماعة بالتوقف ، ثم جالت بنظرها فيما حولها تبتغى مكانا تستطيع أن ترتاح فيه . كانت الأرض قد تغيرت طبيعتها ، واشتد انحدارها . قصرت الحشائش ، وتناثرت فى أماكن متفرقة بينما ظهرت بعض الأشجار . لكن طبيعة الأرض كانت قد تحولت تماما من طينية إلى صخرية ، وأضحت الصخور هى الغالبة بينما قلت المساحات الطينية وتباعدت . وأتاها صوت هدير المياه فألقت بصرها إلى النهر لتجد أنه أضحى يجرى على حائطين من الصخور ، يزداد إرتفاعها كلما اقترب النهر من بطن الجبل .

راحت تنظر إلى المياه السريعة المتدفقة . وامتد بصرها لترى أن النهر يستمر فى جريانه بين حائطى الصخور حتى يرتطم بجسم الجبل ثم يبدو أنه يغوص فى أعماقه إلى حيث لايعلم له مستقر . لاحظت أن الجدارين الصخريين لم يكونا دائما مرتفعين وإنما كانت هنالك أماكن يمكن منها الهبوط بيسر إلى مجرى النهر ، وفى هذه المواضع كانت توجد غيضات بها بعض الأشجار فكرت فى أن تهبط من إحدى هذه الفتحات ، لكنها كانت تعلم أن عليها أن تعود ثانية لتصعد الجبل . أخيرا إستقر رأيها على أن تستريح الجماعة فى ظل إحدى الأشجار فجلسوا على الأرض متهالكين .

لم تستطع « نا » أن تواصل السير بقية النهار ، فى حين لم يكن العملاق يأبه لأى من الحالتين ، واستكانت « بى » سعيدة إلى جواره . أخرجت « نا » بعض

اللحم ، واللقمة بين الذئبين فانقضت الذئبة عليه بينما بدا القلق واضحا على الذئب وهو يأكل . كان يريد أن يستمر فى صعود الجبل ولا يرى فى التوقف قبل أن تغيب الشمس داعيا . راقبته وهو يأكل ثم يترك اللحم ليجرى صاعدا الجبل ثم ليختفى عن ناظريها بعد قليل .

وطعم « مو » و « بى » من اللحم البشرى ، وعافت نفس « تا » أن تقربه ، فقد رأت رجلها يبتعد عنه لسبب لاتدريه ، وربما أيضا لم يكن هو يدريه . لكن الجوع كان قد أخذ منها ، فلم تكن بضعة سمكات أكلتها فى الصباح تكفيها وفى أحشائها جنين . مكثت بعض الوقت فى مكانها مرهقة ، ثم تسللت حاملة حربتها واتجهت إلى إحدى الأجمات القريبة عساها تجد بعض الثمار البرية . ولم تجد ثمارا ، لكنها وجدت الكثير من الأخشاب الجافة المتساقطة من أفرع أغصان . وعمها الفرح فوضعت رمحها ، جانبا ومضت تنتقى ماتستطيع حمله منها إذ كانت الكمية التى بقيت من الأخشاب قد تناقصت إلى حد مخيف . واعتزمت أن تعود بالعملاق ليحمل بعض الأخشاب بدوره ليكون لديهم رصيد كاف منها .

فجأة تناهى إلى سمعها أصوات ما أن تبينتها حتى حل الرعب فى قلبها ، ألقت مافى يديها وأسرعت إلى رمحها تلتقطه . كان الأصوات غير بعيدة عنها فاتجهت إلى مصدرها لترى الذئب وقد حاصره أسد جبلى وقد استعد للهجوم .

كانت تقف على صخرة تعلو الذئب تماما وفى مواجهته كان يقف الأسد وقد بدت أنيابه الحادة ، وعيناه المرعبتان . وقفز الأسد فى الهواء ، وصرخت المرأة مستنجدة ، وألقت رمحها بكل قوة ليستقر فى كتف الوحش . سقط الأسد على الأرض يزأر زئيرا مخيفا ، واندفع من وسط الأجمة القريبة جسم آخر ليقع على ظهره . تبينت « تا » الذئبة ، وقد إعتلت الأسد غارزة أنيابها ومخالبها فيه . ولم يقف الذئب بدوره بل قفز محاولا أن يعتلى بدوره ظهر الأسد .

لكن ما كان ذئبان مهما بلغت قوتهما ليكونا ندا لأسد ، حتى إن كان مصابا بطعنة رمح فى كتفه . شاهدت المرأة فى وقفتها صراعا وحشيا يدور بين الحيوانات الثلاثة . كانت الدماء تنزف من كتف الأسد الجريح ، لكن الرمح لم يكن قد ألقى بقوة كافية لكى يستقر فى مكانه ، ولا لكى تكون الإصابة شديدة .

ولعل أنياب الذئبة ومخالبها كانت أشد إيلاما وأبعد أثرا من الإصابة التى ألحقتها به المرأة . كان الأسد خفيف الحركة إلى درجة أدهشت المرأة . انقلب على ظهره فطارت الذئبة إلى القفر بعيدا عنه ، ونال الذئب ضربة من الكف الضخم طوحته، وألقت به على الأرض ، وقد انبثقت الدماء منه .

والتفت الأسد إلى الذئبة يريد أن يلحقها برفيقها ، لكنها أفلتت منه ، فى حين اندفع الذئب ليقفز بدوره على ظهره ، وينشب مخالبه تقطع فى الجلد ، ويغرس أنيابه بقوة . وزأر الحيوان من الألم وكرر حيلته الأولى ، وانفلت الذئب قبل أن ينقلب عليه الجسد الضخم . وانتهزت الذئبة الفرصة لتنقض على الرقبة الضخمة وتغرس أنيابها فيها . صرخ الحيوان وهب واقفا ، وبضربة أخرى أطاح بالذئبة لتقع على الأرض مضرجة بالدماء ، ولا تتحرك من مكانها .

قفز الوحش على الذئب ، ونظرت المرأة حولها فى لهفة باحثة عن شىء تستطيع أن تقذف الأسد به ، لكنها لم تجد سوى بعض الحجارة التى لا قيمة لها . وجاءت المساعدة من حيث لا تدرى ، كان الموقف قد عاد إلى ما كان عليه . وحوصر الذئب وراء الصخرة التى تقف عليها المرأة . أرسل الأسد زئيره المرعب متحديا ، ومستعدا لقفزته الأخيرة القاتلة ، بينما انكمش الذئب مزمجرا . ومن الأحراش القريبة شاهدت المرأة العملاق يندفع نحو الأسد يلوح هراوته بكلتا يديه .

هبطت الهراوة بقوة هرقلية على الرأس الضخم . وسمعت المرأة صوت العظام وهى تتكسر . وصرخ الأسد ، وذار حول نفسه مواجها العدو الجديد . واندفع الذئب من فوقه يعتليه ، وينشب فيه مخالبه وأنيابه . والمرة الثانية هبطت الهراوة بسرعة عجيبة لترتطم بجبهة الحيوان المفترس . وعاد الأسد يدور حول نفسه . لكنه فى هذه المرة لم يكن يدور ليواجه عدوه ، وإنما كان دورانه كمن أصابه خبال . دوران لا هدف له ولا غاية .

وسقط الذئب على الأرض ، وارتفعت الهراوة لتنزل على ظهر الأسد ، وقفز الحيوان التعس . وتتالت الضربات بلا توقف . حاول الوحش أن يهرب منها ، لكن أقدامه لم تكن تستطيع أن تحمله . وهاجمه الذئب ليقطع

من جسده ، ولم تتوقف الحرارة الرهيبة فى الارتطام به ، أخيرا جمدت حركة الجسد القوى تماما .

عثرت المرأة على ممر هبطت فيه إلى حيث وجدت العملاق ينظر فى بلاهة إلى الجسد المسجى ، فى حين ذهب الذئب يلعق رفيقته التى بدا أنها قد فقدت الحياة . ونظرت المرأة حولها . كان هذا المكان أقرب مايمكن إلى الأمان . أحاطت به الصخور من ثلاثة جوانب لتترك مساحة بينها تكفى لأن تستقر بها الجماعة بضعة أيام تستريح فيها . أشارت إلى العملاق أن يتبعها ، وعادت به إلى حيث كانت « بى » ، وحمل الإثنان الخرجين ، وحملت المرأة وعاء النار بعد أن غذتها بما بقى لديهم من أخشاب فقد علمت أنها يمكنها أن تجمع كمية كبيرة منها .

سار الجميع إلى مأواهم الجديد ، ولم تتوقف المرأة ، وإنما كانت كأنما قد وهبت قوة غامضة ، فعادت بالإثنين إلى الأجمة القريبة لتجمع الأخشاب وترجع بها ثانية محملين بأكبر كمية مستطاعة . ناولت المرأة « خنجرا وأمرتها أن تبدأ فى اقتطاع أطايب الأسد وحده ، فى حين اتجهت إلى حيث كان الذئب يربض إلى جانب رفيقته بين الفينة والأخرى ، وهو يرسل صوتا خفيفا أقرب إلى المناجاة .

علمت المرأة أن الذئبة لم تمت ، وإن كانت قد أصيبت فى كتفها إصابة بالغة مزقت عضلاتها ، وأسالت الدماء منها . رأت أن الذئبة سوف تحتاج إلى ماء تمسح به جرحها وترطب رأسها . ولم يكن الماء قريبا إذ أن مصدره الوحيد الذى كانت تعرفه هو النهر . نظرت إلى السماء تفكر . كانت الشمس قد غابت منذ مدة وراء الجبل ، لكن الضوء كان ما يزال قويا . وقدرت المرأة أنها تستطيع الذهاب إلى النهر ، والهبوط من إحدى الممرات التى رأتها وتعود قبل أن يحل الظلام تماما .

لم تتردد . أشارت إلى العملاق أن يحمل الذئبة ، ويضعها إلى جانب النيران التى بدأ وهيجها يعلو بعد أن غذتها « بى » ببعض الأخشاب . وانتقت وعاء سارت به فى طريق النهر . وتبعها الذئب بعد تردد يسير . وعاد الإثنان قبل أن يحل

الظلام تماما لتبدأ المرأة فى إستعمال بعض أوراق الشجر تبللها ، وتضعها على موضع اصابة الذئبة ، وترطب بها فمها . و تململت الذئبة قليلا . وفتحت عينيها ولتنظر إلى المرأة . صدرت منها فى بادىء الأمر زمجرة غاضبة ، وحاولت أن تنهض من رقدتها ، لكنها ، عادت وألقت برأسها على الأرض فى استكانة وتألم.

أبعدت رائحة الدخان الحيوانات الهائمة عن المنطقة ، فأعطتهم أمانا وضوءا . وظنت المرأة أن مأواهم الجديد فيه الحماية الكافية فبدأت تعمل على أن تكون اقامتهم فيه مريحة لمدة طويلة . ومرت أيام إستطاعت فيها الذئبة أن تنهض من رقدتها ، لكنها لم تبتعد عن المأوى . كأنما أمنت إلى المرأة فكانت تسير حيثما سارت .

بالرغم من أن اللحم كان مازال كثيراً فإن الذئب كان يتغيب كل يوم . عاد مرة وفى فمه أرنب برى . وفى مرة أخرى أخذ يقوم بحركات مهووسة أمام المرأة (تا) ، حتى تبعته ، وبعد مسيرة أقل من ربع ساعة شاهدت جثة غزال صغير تمكنت بعد تعب يسير أن تحضرها إلى المأوى .

ولم يبتعد العملاق ورفيقته كثيرا ، فكانا يقضيان معظم ساعات النهار وهما يأكلان ، أو يجلسان . إعتاد العملاق أن يجلس على . الأرض مرتكزا إلى أحد الجدران الصخرية ، وفى يده هراوته الحبيبة التى لم تكن تفارقه ، فى حين تجلس إلى جواره المرأة (بى) رفيقته ، ولا يتحرك الاثنان ساعات واعتادت (بى) أن تذهب معه إلى النهر ليعودا بعد مدة حاملين وعاءين مملوءين بالماء .

وابتدأت المرأة (تا) توسع من دائرة حركتها لتتعرف على المنطقة تتبعها الذئبة . وذات مرة إرتقت من جهة لم تكن سارت فيها من قبل . وشاهدت إلى أعلى جزءا مظلما من الجبل علمت انه مدخل لكهف ، اذكرها بالكهف الذى نشأت فيه مع قومها . وأسعدها الاكتشاف حتى أن شعورها لأول وهلة كان يدفعها إلى الصعود وارتقاء الجبل . لكنها كانت تعلم بسابق خبرتها أن بعض هذه الكهوف تتخذه الحيوانات المفترسة مأوى لها ولأطفالها فامتنعت عن الذهاب ، وعادت مسرعة إلى المأوى ، حيث كان العملاق ورفيقته والذئب .

لم يفهم العملاق السبب فى انتقالهم الثانى ، لكنه كان قد اعتاد اطاعة المرأة

فحمل أحد الخرجين ، واعطى الآخر لرفيقته ، وسار الاثنان متهومين خلف المرأة حاملة النار . ولم يمض وقت طويل حتى كان الجمع قد وصل إلى الكهف .

توقفت المرأة عند المدخل ، لكنها لم تسمع أى صوت من الداخل كما أن الذئبين لم تبد عليهما أية إشارة تنم عن القلق ، أو انهما اشما رائحة غريبة صادرة من الكهف . لم يطل تردد المرأة ودلفت إلى الداخل .

لم يكن الظلام فى الخارج قد حل ، أما فى الداخل فلم يكن المدخل من الاتساع ليسمح لضوء الغروب الباهت أن ينير . وبالرغم من أن النار كانت مشتعلة ألا أن ضوءها لم يكن يصل إلى كل الجدران الحجرية ، فأعطى المكان رهبة ، واحساسا بالاتساع . اقتنعت المرأة بأن تشير إلى العملاق ورفيقته بأن يضعا حمليهما على الأرض إلى الجدار بجوار المدخل وجلست بدورها إلى جوارهما وبدءا وجبة العشاء ، فى حين أخذ كل من الذئبين نصيبه ، وربضا عند المدخل يلتهمانه ، وبقيت هى تفكر فى رجلها (بو) الذى ابتلعه التيار ، والذى كانت تظن أنها لن تراه بعد ذلك

° ° °

فى ثوان قليلة تنازعت الرجل « بو » ثلاثة أحاسيس . شعر ببرودة شديدة تسرى فى جميع أنحاء جسده ، وبأن الهواء حوله قد إستحال إلى ماء يحيط به من كل جانب ، وأن ماردا جبارا راح يلعب به فيطويه بين أصابعه يحطمه ويحطم عظامه ، ثم يقذف به مسافة بعيدة من يد إلى أخرى وفى الثوانى التالية زال إحساسه بالبرودة ، وضعف شعوره بالمارد ، وتضاعف شعوره بالماء مرات . توقف تفكيره تماما عن كل شىء إلا عن كمية المياه الهائلة التى ملأت العالم فجأة لتحيط به من كل جانب . وبشعور غريزى حاول التخلص من هذا العدو ، فأخذ يضرب بيديه كأنما ليبعده عنه . وفى لحظات ظن أنه أفلح ، إذا ارتفعت رأسه قليلا ، لكن فى اللحظة التالية كان هذا العدو الناعم المتفكك قد ملأ عليه دنياه ثانية .

وما كان لهذه الحياة الدافقة فى مثل هذا الرجل أن تستكين بسهولة . راحت يداه تضربان عدوه بأقصى ما تستطيعان من قوة . وبلين بسيط كانت اليـــدان تغوصان فى الجسد الذى ملأ الكون من حوله . والمرة الثانية ظن أنه أفلح

فى أن يهزم خصمه . ارتفع الرأس فوق الماء لحظة ، جرف بعدها بسهولة ويسر لتحتويه أحضان المارد . ولم يكف الرجل ثانية عن الضرب فى خصمه ، ولم يبد على الخصم أى أثر الضربات المنهالة عليه . لم يحاول أن يرد عليها ، وإنما برفق قاتل كان يحتويه .

شعر الرجل بأن صدره يكاد أن ينفجر . لم يحاول خصمه أن يضغط عليه ، ولكنه ملأ عينيه ، وأذنيه ، وفمه ، فمنع عنه الرؤية ، والسمع ، والهواء وفجأ بيدأ عقله يعمل ثانية . لم يكن ذاك الجزء المفكر هو الذى يعمل ، وإنما الجزء الذى يتذكر . رأى المرأة ، والعملاق ، والذئب ، والرعب ، وغابته الحبيبة ، بل ورأى أهـــله وقبيلته التى أفناها الرعب . رأى حريق الغابة ، والحيوانات التى تجرى محترقة ، والقردة ، تقفز والنيران مشتعلة فيها . رأى الثلوج المتراكمة ، والماموث ، ومعركة الذئاب .

كانت المناظر تتالى بسرعة مخيفة لا إرتباط بينها ، لكنها كانت واضحة جلية كأنما تعيد نفسها . ولم يعد شعوره بخصمة يملأ عليه حياته . لكن بدا أنه نسيه تماماً . استكان إليه وشعر بالراحة بين أحضانه . لم يعد فى حاجة إلى هذا الفراغ الهائل الذى نسميه الهواء ، ولم يعد يشعر بأن الماء يملأه وبأنه يريد التخلص منه ، بل لم يعد يشعر بوجوده أصلا .

وبدأت الصور تتلاشى حتى توقفت تماماً . وأحس بلذة هائلة لم يشعر بمثلها طوال حياته . لم يعد هنالك خوف ، أو جوع ، أو عطش ، وإنما داخلته إستكانة لذيذة ، واسترخاء دون شعورة بالجسد . لم يكن قد فقد إحساسة بذاتيه كلية . لكن بدا له إنه قد بدأ ينطلق من سجن ضيق إلى أفق واسع . كله أضواء وألوان . ليس فيه أرض ، وليس فيه سماء . مجرد أضواء وألوان . عالم لا شكل له ولا حد ، أضحى هو جزءاً منه .

وفجأة إصابته ضربة قاسية على رأسه . وتحركت يداه تضربان صدره الرهيب الذى ملأ الدنيا عليه ومنع عنه الهواء . وقبضت إحدى يديه على شيىء صلب يتحرك بسرعة هائلة . — وانحسرت المياه عن أنفه وفمه . ولم تترك يده الشيء الصلب الذى قبضت عليه ، واندفع الهواء إلى فمه مختلطاً بالماء بشدة . وبغريزة لا تخطىء لم يترك ما هو ممسك به .

كانت قطعة ضخمة من شجرة جرفتها المياه قد أصابته فى رأسه ، فأعادت إليه رشده — وأمسكت يده بنتوء كبير فيها ، لعله كان فرعاً قد كسر ، فأعانته على أن يرفع رأسه عن سطح المياه . ومضت لحظات ، وهو يسعل وببطء شديد رجع إليه تفكيره . كان التيار من حوله جارفاً قوياً تتلاطم أمواجه ، لكنه استطاع أن يتفادى المياه المتواثبة وكلما دخل الهواء إلى رئتيه نقياً غير مختلط بالمياه كلما إزداد شعوره بعودة التفكير السليم إليه .

امتدت يده الأخرى لتحيط بجذع الشجرة وترفعه قليلاً عن المياه المتواثبة ونظر حوله ليرى أن التيار كان يحمله بسرعة رهيبة ، ورأى أنه فى الساعات التى مضت ، أو لعلها لحظات ، قد إبتعد جداً عن موقع رفاقه . وبلا شعور أطلق صيحة استنجاد ضاعت وسط صوت هدير المياه . وما كان فى استطاعة رفاقه لو أنهم سمعوه أن ينقذوه مما هو فيه ، بدا له جلياً أنه إن كان سوف ينجو من هذا الوحش الهائج فلا اعتماد له إلا على نفسه ، وتفكيره الهادىء .

تمالك أعصابه الثائرة المرعوبة ، وراح ينظر إلى ضفة النهر وقد بدت له وكأنها على مسافة أميال منه . كان يعلم أنه لو ترك الجذع لحظة فإن ذلك سوف يكلفه حياته . لم يكن أمامه إذا إلا أن يتمسك به . وأن يترك مصيره إلى حيث يلقيه .

بدأ إحساسه بجسده يعود . كانت رأسه قد أصيبت بضربة قوية من الشجرة ولم يداخله الألم حينما أصيب ، لكنه أحس الآن بألم شديد فيها . شعر بأن شيئاً لزجاً يسيل منها ليختلط بعمرة فعلم أن الدماء تنزف منه . ودافعه دوران خفيف راح يقاومه بكل ما أوتى من إرادة . وراودته الآلام فى شتى أنحاء جسمه من أثر المراوات التى إنهالت على كتفه وذراعه . لكن أكثرها ألما كان فى السلسة الفقرية . كانت المياه الهائجة قد ثنته تماما ، وكادت تكسرها .

وكأنما خشى أن يغلبه الدوار ، أو تهزمه الآلام فشدد قبضتيه على الجذع خوفاً وحذرا . وسرعان ما تمالك نفسه وبدأ تفكيره الهادىء ثانية . إن الجذع يدفعه التيار فى وسط النهر تماما . وهو لا يستطيع أن يتركه أفلا يمكنه إذا أن يغير من مساره ؟ حاول أن يحركه أو يوجهه إلى أحد الاتجاهين ، لكن

التيار كان سريعا وقويا إلى درجة جعلت محاولاته العديدة تذهب أدراج الرياح ، بل أن الدوامات المائية هددته أكثر من مرة بأن يفلت الجذع من يديه ، لكنه ظل متشبثا به . واقتنع أخيرا بأن يظل متعلقا ينتظر مصيره .

كان التيار يدفعه بسرعة مخيفة لم يكن يعتقد أن هنالك ما يدانيها . ومرت ساعة أو أكثر ، ولاحظ أن الضفتين قد بدأتا فى الارتفاع حتى أخذتا تكونان جدارين صخريين . وأصابه الهلع حينما وجد أن المياه تدفعه بسرعتها الهائلة نحو الجبل الذى بدا سدا منيعا . تأكد أنه لو ارتطمت الكتلة الخشبية بالجبل وهى تندفع بمثل هذه السرعة فانها لا محالة سوف تتفتت أو أنه على الأقل لن يستطيع أن يستمر فى التمسك بها . ولا مناص بعد ذلك من موته غرقا .

مضى فى لهفة ، وقلق متزايد ين ينظر حوله باحثا عن مخرج . لكن التيار لم يخفف من سرعته ، ولم تقل خطورة الدوامات المائية . بدأ الكلال يصيب عضلات يديه ، كما أنه إبتلع كميات كبيرة من المياه بالرغم من محاولاته المستمرة فى أن يبقى رأسه مرتفعا فوقها . كان الجذع على ضخامته لا يزيد عن مجرد ألعوبة فى يد المارد يحركها ، ويدفعها كيفما شاء ، واضطر الرجل كثيرا إلى تغيير موضعه . إنقلبت الكتلة الخشبية مرات فوقه ، ووجد نفسه تحتها يغطيه الماء ، ومع هذا فقد ساعدته قوته الفائقة أن يستمر فى تمسكه بها ، وأن يعتدل المرة تلو الأخرى .

مرت ساعة أخرى . وبدأت الشمس تميل إلى الغروب . أحس الرجل بأن عضلات يديه وأكتافه تتمزق ، وبأنه لن يستطيع المقاومة طويلا على هذه الحال ، ومع ذلك فإن التيار لم يخفف من قوته أو سرعته . لاحظ فى هلع أن الجبل بدا وكأنه يندفع نحوه صامتا شامخا . تضاءلت المسافة بينهما حتى أضحت مسافة ثوان ترتطم الكتلة الخشبية فيها بالجدار الصلد . وبكل ما بقى من قوة إزداد تشبثه بالكتلة . وأغمض عينيـــه متوقعا الصدام المروع فى اللحظة التاليـــة .

لكن الصدام لم يحدث . ومرت لحظات ، ومع هذا فقد استمر الحال على ماهو عليه . وإزداد صوت ارتطام المياه . بالجدران حتى أضحى هديرا يصم الآذان . وفتح الرجل عينيه . لم ير شيئا . كان الظلام الدامس يحوطه من كل

جانب . انتابت الرجل الحيرة ، وبدأ الضغط على أعصابه يشتد ، وهو يحاول أن يوسع حدقتيه عسى أن يرى شيئا . لكن الظلام كان تاما حتى أنه لم يكن فى استطاعته أن يرى الكتلة الخشبية التى يتشبث بها . إزداد اضطراب اعصابه، وأحس كأنما قد إزدادت برودة الماء ، وبأنه قد إنتقل إلى عالم آخر من الأرواح ، عالم مخيف من الظلام ليس فيه كائن سواه .

انتهبته أفكار سوداء ، فى مثل الظلام الذى يحتويه . لقد علم أنه الآن تحت الجبل ، وبأن المياه قد شقت لنفسها طريقا بين الصخور ، لكن إلى أين يؤدى هذا الطريق ؟ يبدو أنه سيظل فى هذا الظلام إلى أبد الآبدين . وأن فى هذا ولا شك سوف تكون نهايته ، فلم يعد لديه القوة الكافية للاستمرار فى المقاومة .

وفجأة ارتطمت الكتلة الخشبية بقوة هائلة بحاجز صخرى . وللحظات أفلتت يديه فعلا ، لكنه سرعان ما أعاد تمسكه بها .

خيل للرجل أن الجذع قد غير من اتجاهه ، وإنه قد أضحى مستعرضا فى التيار، وأنه توقف تماما عن الاندفاع . وظلت المياه تضرب بشدة فى الكتلة الخشبية. وبقيت هى تعيد الإرتطام بالحاجز دون أن تتحرك إلى الأمام . وانتاب الرجل هلع متزايد . جال فى خاطره أن هنا ينتهى النهر ، وأنه قد قضى عليه نهائيا بالبقاء مكانه حتى تخور قواه تماما ويدع نفسه للموت .

خطر فى باله أنه لا يمكن أن يكون قد انتهى النهر عند هذا الحد فمازالت المياه تجرى من حوله ، ومن تحته ، ويحاول التيار أن ينتزع جسده ويجرفه معه . احتاج إلى قوته كلها ليتمكن من البقاء فى مكانه متشبثا بالكتلة التى كانت ماتزال فى مكانها ترتطم من وقت لآخر بالحاجز غير المرئى أمامها . اندفعت المياه بعنف . وانقلبت الكتلة من أثر الصدمة ، وانقلب معها وضع الرجل ، وعاد إحساسه بعالم آخر من المياه يحيط به من كل جانب . لم يفقد عقله فى هذه المرة ، فلم يترك الكتلة الخشبية تفلت من يديه ، وإنما حاول أن يعدل من رأسه فوق المياه الجارفة .

فى اللحظة التالية ارتطم رأسه بشىء صلد . كانت الصدمة من الشدة لدرجة أنه كاد أن يفقد شعوره ، لكن غريزة الحياة كانت ماتزال قوية فيه

فازداد تمسكه بالجذع . ومضت لحظات وهو فى شبه غيبوبة وذهول لا يدرى ماذا حدث . ثم ساوره خاطره . وازداد من تمسكه بالكتلة بيد واحدة ، ورفع يده الثانية إلى أعلى . ثانية واحـــدة كانت تكفى لأن تفسر له كل ماحدث .

أدرك عقله أن سقف المجرى المائى قد هبط حتى لم يعد بينه وبين المياه أكثر من نصف ذراعه ، ولهذا ارتطمت به الكتلة الخشبية إذ أنها من الضخامة بحيث لم تتمكن من المرور . استمرت فى موقفها تتلقى صدمات المياه من التيار من ناحية ، وصدمات السقف الحجرى من ناحية أخرى .

إنتاب الرجل رعب قاتل . ان معنى هذه أن الجذع سوف يبقى فى مكانه لا يتحرك حتى يتفتت من أثر رطوبة المياه واصطدامه بالسقف ، وقد يستغرق هذا أياما أو حتى أسابيع فى حين أنه لن يستطيع البقاء على هذا الحال ساعات قليلة . ومعنى هذا بالتالى أنه قد قضى عليه بالموت حيث هو .

لكن الأخطار كانت صنو الرجل ، زاملته فى كل مراحل حياته . كانت رفيقته فى كل يوم ، وكل لحظة . وقد خرج منها جميعا منتصرا بتفكيره الهادىء ، وتصرفه السليم . ولسبب غريب رجعت ذاكرته إلى الوراء . إلى حريق الغابة . كان يتلهف وقتها على قطرات ماء من السماء لتطفىء اللهيب المستعر ، وها هو الآن وعالمه كله ماء ، ولا شىء غير الماء ، سوى الصخر الصلد ، والاظلام الدامس .

كما فعل فى حريق الغابة ، فعل الآن . بدأ فى هدوء يقدر موقفه والظروف المحيطة به . ويتلمس الوسائل للخروج من المأزق . لم يكن يرى شيئا مما حوله . لكنه أيضا لم يكن يستطيع أن يرى والنيران تحيط به الغابة . على الأقل يمكنه هنا أن يتحسس موقفه . وبدأت يداه تعملان بدلا من عينيه . فأقل هفوة قد تؤدى إلى أن يجرفه التيار وتفلت من يده الكتلة الخشبية ، ولهذا لم يحاول أن يتعجل .

راح يتحسس السقف الحجرى . ويقدر علوه عن المياه تماما . أخذ يقارن بين هذا العلو ، وارتفاع الكتلة عن سطح الماء . وأدهشه أن المسافة لا تتجاوز نصف

راحة اليد . إنه يستطيع أن يضغط على الكتلة . أو على الأقل على مقدمتها لتهبط بالقدر المناسب ، وسوف يدفعها التيار بعدئذ فى سبيله . وتراجعت الأسئلة فى رأسه . هبه فعل ذلك ، واستطاع أن يهبط بالكتلة بالقدر المناسب ، فمن يضمن له أن السقف الحجرى سوف يستمر على هذا العلو عن سطح الماء ؟ ألا يجوز أن يزداد اقترابا حتى تصبح حركة الجذع مستحيلة ، ولا سبيل أمامه إلا الرجوع ضد التيار الجارف ؟ واستعاد الرجل تقدير موقفه . ان قواه ان تستطيع احتمال الموقف الذى هو فيه ، فالبقاء حيث هو معناه الموت حتما . قد يكون بعد ساعة أو أقل أو أكثر قليلا ، لكنه لن يفلت . وهو لا يستطيع الرجوع ، كما لا يستطيع أن يترك الكتلة الخشبية ، وبذلك فلا أمل له فى النجاة إلا ذلك الاحتمال الضعيف وهو أن يستمر علو السقف كما هو أو ، أن يزداد ارتفاعا . فإن هبط قليلا كان معناه الموت له .

بدأ مناوراته فور استقرار رأيه . كان أول ما فعله أن تحسس تماما طول الجذع ، وراح يجرب أحسن الطرق التى يستطيع بها بأقل مجهود أن يهبط به عن مستوى السقف . لم تكن أية حركة يأتيها سهلة فإن التيار كان قويا جارفا كثير الدوامات ، كما أنه هو لم يكن فى أحسن حالاته البدنية ، فقد أفقده قتاله مع مهاجميه ، وصراعه مع المياه ، والتيار ، والصدمة التى تلقاها فى رأسه مرتين الكثير من قوته ، وحيويته حتى أن كل جزء من جسمه كان يشكى من الألم بل أن ذراعيه قد كلتا من التشبث بالجذع ، ومقاومة التيار . لكنه من ناحية أخرى كان يعلم أن هذه هى الفرصة الوحيدة فى النجاة ، وأعطاه هذا العلم دفعة قوية جعلته يتناسى إرهاقه وضعفه وآلامه .

كانت الكتلة مستعرضة التيار فكان عليه أن يعيدها ، ولو جزئيا ، لتميل وتندفع طوليا ما استطاع . أخذ يجرب الضغط فى كل جزء من الكتلة واضطر فى كل مرة يضغط فيها أن يغوص برأسه فى المياه . ولم تكن له حيلة فى هذا فان مجرد الضغط باليد لم يكن يكفى ، فكان عليه أن يساعد بكل ثقل جسمه .

ودون سابق انذار دارت الكتلة فى دوامة مائية ، وهبطت معه إلى الحد المطلوب ، واندفعت بقوة هائلة مع مجرى النهر ، كأنها تعوض ما فاتها من وقت . وعادت المياه تملأ حياة الرجل وتقذف به من كل جانب . راحت الكتلة

ترتطم من لحظة إلى أخرى بالسقف الحجرى . وخيل إليه أن ارتطامها قد إزداد وكلمح البصر جال فى خاطره أن معنى هذا أن السقف يميل إلى الهبوط فتخلله هلع كاد أن يفقده أعصابه .

تقلبت الكتلة فى اندفاعها مع التيار . وارتطمت احدى يدى الرجل بالسقف الحجرى فأحس بأن جلده قد سلخ ، وأن عظام أصابعه قد تهشمت . اندفع الألم من يديه إلى رأسه صارخا ، لكنه لم يدع الكتلة الخشبية تفلت منه . مضت الثوانى سراعا ، وألح عليه شعوره بضرورة التنفس أن يخرج رأسه من الماء . لكن الارتطامات التالية للكتلة الخشبية بالسقف الحجرى كانت تحذره . بدا له أن الكتلة قد إزداد غوصها فى الماء حتى أنها كادت تختفى برمتها فيه . ظن أنه سمع صوت ارتطام المياه نفسها بالسقف الصخرى ، لكن الكتلة كانت ماتزال فى اندفاعها السريع مع التيار .

أحس برئتيه تكادان أن تنفجرا طلبا للهواء . وداخله دوار . واندفع الماء فى فمه ، فابتلع كميات كبيرة منه . ومع هذا فانه ، لم يفقد تفكيره أو توازنه مضت الثوانى ثقيلة طويلة ، وشعر الرجل أنه لن يستطيع المقاومة ، وأن عليه أن يحاول التنفس حتى إن كان فى ذلك تهشيم رأسه .

أرخى من ضغطه على الكتلة ورفع رأسه فوق سطح الماء . وادهشه أن الخشب لم يصطدم بالسقف الحجرى ، ولا تهشم رأسه من الارتطام به . بل أنه فى الواقع لم يكن فى إضطرابه السابق قد لاحظ أن الإرتطام قد كف منذ ثوان كثيرة مضت . ملأ فمه بالهواء وإنتابه غثيان شديد من كثرة ما ابتلع من ماء ، وراح يسعل بشدة . ومضت ثوان أخرى قبل أن يتمالك نفسه . أحس بالتيار يدفعه بشدة ، لكنه كان قد أصبح الآن مجرد نزهة بالمقارنة بما مر به فى الدقائق الماضية .

وكأنما أراد القدر أن يكافئه ويعوضه عما لاقاه ، فجاءت البشارات متتالية . تضاءل صوت هدير المياه وارتطامها بالجوانب الصخرية للجبل ، كأنما قد اتسع مجرى النهر ، وأحس الرجل بأن التيار قد خفت حدته ، وقلت سرعة اندفاعه . ولعل أكثر البشارات تأثيرا فى الرجل أن عينيه فجأة بدأتا تشاهدان جدران

المجرى وسقفه . كان المجرى قد إتسع إلى درجة كبيرة حتى أن الجوانب بدت بعيدة فى الضوء الباهت ، كما أن السقف الصخرى فوقه إرتفع لأكثر من قامة .

وتزايد الضوء شيئاً فشيئا ، حتى بدا كل شىء جليا واضحا . وراحت الكتلة الخشبية تتهادى فى اندفاعها ، بينما توقفت تماما الدوامات المائية . كان التيار مايزال قويا ، لكن إتساع المجرى إمتص كل تلاطم المياه . ولم يمض وقت طويل حتى بدا منفذ خارج من الجبل . ودهش الرجل حينما لاحظ أن الشمس لم تغرب بعد . ولو كان يعلم أنه لم يمض فى باطن الجبل أكثر من دقائق معدودات لانتابه الذهول .

تهادت الكتلة الخشبية خارجة من المنفذ الجبلى ، ليرى الرجل أن صفق النهر قد إتسعتا إلى درجة هائلة ، وأن الأشجار تتسابق على الجانبين . تناهت إلى أذنه أصوات الطيور المغردة ، وضجيج القردة تتصايح مودعة الشمس .

أحس فجأة بكل آلام جسده . وبأن الأعياء قد بدأ ينتابه . وبما بقى له من قوة جاهد فى دفع الكتلة إلى احدى الضفتين . أحس برجليه ترتطمان بالأرض قبل أن تقف الكتلة تماما . ولم يثق فى أن فى استطاعة قدميه أن تحملا جسده ، فزحف على ركبتيه ويديه ، غير عابىء بالآلام المتزايدة فى عظام أصابعه ، ولا الدماء التى كانت ماتزال تقطر منها ، ومن رأسه .

اعتنى بأن يبتعد قليلا عن الماء حتى وصل زاحفا إلى أقرب شجرة ، وغابت الدنيا عنه .

الفصل الرابع عشر

نفق الموت

استيقظت « نا » مع شروق الشمس . كان أول شعور لها هو أنها فى مكان غريب ، فأدارت نظرها فيما حولها رأت « ب » ترقد على بعد خطوات منها . وإلى جوارها جلس العملاق يغذى النيران ، أما الذئبان فلم يكن لهما أثر . تلفتت متطلعة تتفحص الكهف . كان كبيرا يزيد عرضه على عشرة أمتار فى حين إمتد طوله إلى الداخل أكثر من ثلاثين مترا . ولاحظت « نا » أن بأحد الجدران فتحة مظلمة يمكن أن يدلف منها جسم العملاق براحة .

قامت من مكانها . ونظر إليها « مو » ببلاهة ثم استمر فى عمله . وشعرت بجوع شديد ، فاتجهت إلى أحد الخرجين ، وأستخلصت قطعة من اللحم ، لحم الأسد ، لنفسها ، وجلست تشويها على النيران . وأشار إليها « مو » فذهبت وإقتطعت له جزءاً آخر بدأ يأكله نيئا وهو مستلق إلى جوار رفيقته « بى » .

فرغت « نا » من غذائها فقامت متجهة إلى الفتحة المظلمة . لقد تعلمت من رجلها ، ومن خبراتها السابقة ، أن أول شيء يجب عمله هو معرفة المكان الذى تقيم فيه . فالمكان عادة له فى حد ذاته قدراته يدافع بها عن اللاجئين إليه . وفى كل حياتها كانت كل القـــدرات يجب إستغلالها إن أرادت البقاء اكتشفت أن الفتحة إنما تؤدى إلى ممر بدا طويلا ، لكنها لم تستطع أن تتحقق من ذلك إذ أن الاظلام فى الداخل كان تاما .

عادت المرأة إلى الأخشاب المتراكمة لترى أن « بى » قد استيقظت ، وأنها بدأت تتناول وجبة الصباح . تتبعتها عينا « بى » وهى تلتقط فرعا جافا كبيرا تضع طرفه فى النار حتى اشتعل ، ثم تعود بها إلى الفتحة البعيدة . وسارت « نا » بالفرع المشتعل ينير لها السبيل . وطالعها الجو فى الممر الجبلى رطبا باردا حتى أنها شعرت بقشعريرة شديدة تسرى فى جسدها ، لكنها استمرت فى التقدم .

بدا الممر أطول كثيرا مما ظنته ، بل أنه كان يلوح أنه لا نهاية له . لاحظت ، تماما، أن الممر لم يكن مستقيما ، وإنما كانت تعتريه تعريجات فجائية ، ولم يكن منبسطا وإنما كان يميل إلى الارتفاع التدريجي . داخلها شعور بالرهبة والخوف ، وخشيت أن تنطفىء الشعلة فى يدها لتبقى فى الظلام الدامس ، واعتزمت العودة حينما اتسع الممر فجأة لتجد أنه قد تكونت منه حجرة داخليـــة .

دلفت إلى الحجرة الصخرية . كانت بدورها متسعة لا تقل عن الكهف الخارجى ، وإن كان تقديرها يعتريه الشك إذ أن ضوء النيران لم يكن ليعطيها الأبعاد الحقيقية . شعرت بشدة رطوبة الحجرة ، وبالصمت المطبق الذى يسود المكان . وتواثبت ألسنة النيران من الغصن الجاف ، مهددة بقرب انطفائها ، وطغى عليها خوف رهيب ، فأسرعت إلى الممر تعود أدراجها وهى تنظر هلعة إلى الغصن المتناقص فى يدها . خيل إليها أن الممر قد ازداد طولا ، حتى حسبت أنها قد فقدت طريقها ، أو اتخذت طريقا آخر غير الذى جاءت منه . وازداد هلعها خشية أن تنطفىء الشعلة فى يدها لتتركها تتخبط فى الظلام ، فراحت تعدو بأقصى ما تستطيع من سرعة . وزاد من وجلها صوت وقع أقدامها على الأرض الصخرية وهو يقطع السكون المطبق حولها .

كادت أن تنزلق مرة على الأرض الرطبة ، والتوت قدمها أكثر من مرة وهى تطأ حجارة صغيرة متناثرة ، لكنها لم تعبأ بهذا ، واستمرت فى اندفاعها المجنون دون وعى . كانت تريد أن تصل إلى النور قبل أن تنطفىء الشعلة فى يدها .

لم يكن هنالك داع فى الواقع لهذا الهلع الذى استولى عليها إذ أن الممر لم يكن له مخرج آخر . ولم تمض دقائق إلا وكانت قد وصلت لاهثة إلى الكهف الخارجى ، فألقت الغصن الذى كاد أن ينتهى ، وارتمت على الأرض تسترد أنفاسها الضائعة ، وأعصابها المنهارة . لم تكن المرأة جبانة ، وما كان يمكن أن يقال هذا وهى التى حاربت إلى جانب رجلها حيوانات الغابة ووحوشها ، بل وهى التى جاهدت الطبيعة الشرسة فى أشد حالات ضراوتها ، لكن الظلام والصمت المطبق كان لهما أثرهما على أعصابها .

استعادت أنفاسها بعد فترة ، وتطلعت من مكانها لترى أن العملاق والمرأة ما يزالان يجلسان حيث تركتهما . وفي حين كان « بو » ينظر إليها وكأنه لا يعنيه من الأمر شيئاً ، كانت « تا » تنظر إليها بدهشة واضحة . لم تمكن رفيقة العملاق تفهم لماذا تترك المرأة الغذاء ، والدفء ، والراحة ، والأمان إلى جانب النيران وتذهب لتختنق فى باطن الصخور الصماء .

لم تتحرك « تا » من مكانها حتى بعد أن استردت أنفاسها ، ذلك أنها شعرت بالآلام فى بطنها أثر عدوها المحموم الذى تناست فيه أن فى أحشائها جنينا يتحرك . لكن عقلها كان يعمل . إن الحجرة الداخلية أكثر أمنا من هذا الكهف ، وإن هاجمهم عدوهم فيها فلن يستطيع أن يداف إلا من خلال الممر الضيق نسبياً . فلو فاجأتهم الجماعة التى هاجمتهم قبل ذلك أو غيرهم فمن اليسير جدا على العملاق أن يوقف الهجوم ويردهم على أعقابهم خاسرين .

شعرت بجفاف حلقها من أثر الجرى . فذكرها هذا بمشكلة أخرى وهى المياه . أن كانوا يريدون البقاء فى هذا الكهف أو الحجرة الداخلية فلا بد لهم من مصدر مياه قريب والا تعرضوا جميعا للموت عطشا إذا حاصرهم عدو .

قامت من مكانها متثاقلة . ولم تلتفت إلى رفيقيها وهى تداف خارجة . قابلتها أشعة الشمس قوية ترسل الدفء فى جسدها البارد . واستنشقت هواء جافا نقيا أعاد إليها إحساسها بالحياة . جالت ببصرها فى الكون ، كانت على علو يزيد على ثمانمائة متر وشاهدت منظرا بديعا تحتها . بدت الأعشاب كبساط أخضر ضخم ، تتناثر فيه أشجار وحيدة ، لتقطع من وتيرة المنظر فتزيده بهاء . وعلى امتداد الأفق البعيدة لاحت أشجار الغابة تتكاثف تدريجيا حتى تكون حائطا تقف عنده الأعشاب ثم ليمتد بعد هذا لون أخضر مغاير ليلتقى بالسماء .

وعلى قدر ماكان المنظر ساحرا فإن المرأة لم تكن تهتم به كثيرا ، فعلى الرغم من شعورها بالجمال الا أن تفكيرها كان ينصب على ماهو أهم من ذلك . على مصادر المياه . اتجهت بعينيها إلى حيث ينساب النهر يتلوى بين الأعشاب والحشائش وقد انعكست عليه أشعة الشمس فاكسبته لمعانا فضيا جميلا يتلألأ فى أماكن متغايرة . واكتأبت المرأة . كانت المسافة بينها وبين النهر كبيرة حتى أن مجرد الذهاب إليه فى الأحوال العادية كان مخاطرة جسيمة .

إستبعدت النهر كمصدر الماء . ودارت عيناها تتفحصان الجبل حولها ببطء شديد عسى أن يكون هنالك جدول، أو غدير . لكن بالرغم من شدة تمعنها لم تستطع أن تكتشف شيئا. مضت الدقائق وهى ماتزال تفحصها ، وأخيراً أيقنت بعدم وجود أى مصدر مياه على مدى بصرها سوى النهر .

عادت متثاقلة إلى الداخل . وانتابها حزن عميق ، فإن الكهف كان يبشر بأنه هو المأوى المثالى الذى تستطيع فيه أن تضع مولودها فى أمان ، وأن تنشئه بعيدا عن مخاطر الانسان والحيوان ، لكن عدم وجود الماء قريبا منه قطع بأنه لا يصلح كمأوى ، وعليها أن تبحث عن غيره .

ألقت بجسدها على الأرض ، وجلست مستندة إلى الجدار الصخرى . حدقت ببصرها فى النيران تفكر ولم تلتفت إلى الرفيقين الجالسين إلى جوارها . ولعلها تذكرت رجلها فازدادت الكآبة التى انتابتها . لو كان الرجل موجودا الآن اذا لما توانى فى البحث عن مأوى يناسبهم . لكنها ، وهى المرأة الحامل ، بطيئة الحركة، ما كان فى استطاعتها أن تقفز . بين الصخور ، أو أن تسير على غير هدى الساعات طويلة مضنية فى البحث . ولم يكن فى استطاعتها ، من ناحية أخرى ، أن توضح لرفيقيها الابلهين أهمية العثور على مأوى يناسبهم ، ويغطى احتياجاتهم البسيطة. لقد قنع الاثنان بوجودهما آمنين مؤقتا فى الكهف ، وبوجود بعض اللحم يأكلانه وحينما يفرغ اللحم سوف يذهب العملاق بحثا عن مزيد ليعود به ، ويبدأ حياته الكئيبة الصامتة مرة أخرى . وحينما يمسهما العطش سوف يذهبان إلى النهر يرتويان ، فإن صادفتهما أخطار جابهاها، كما جابها عشرات غيرها ، حتى يأتى اليوم الذى تدور فيه عليهما الدائرة ، ويذهبان بدورهما طعاما لعدو .

وكأنما كان فى تفكيرها هذا إيحاء لرفيقيها قام الاثنان فجاء ، ودلفا إلى خارج الكهف . وتركاها بمفردها واحزانها . لم تكن تخاف الوحوش ، فقد تعلمت أن رائحة النيران لن تجعلها تقترب ، لكنها كانت تخشى العدو الوحيد الذى أثبت أنه لا يخاف النار ، وإن كان لا يقترب منها ، الا وهو الانسان .

هبت من مجلسها ، وتناولت أحد الرماح الملقاه على الأرض ثم نظرت إلى كمية الأخشاب المتبقية . كانت ماتزال هنالك كمية كبيرة منها تكفى لأن تستمر النيران مشتعلة أكثر من ثلاثة أيام ، لكن كانت هنالك فكرة تراودها

أرادت التحقق منها . كانت قد لاحظت وجود بعض غيضات قريبة من الكهف فخرجت تجمع المزيد من الأخشاب الجافة لتقوم بتنفيذ ما استقرت عليه .

حينما خرجت كان العملاق ورفيقته قد اختفيا بين الصخور والأشجار . ابتدأت فى بطء تجمع قطعا من الأخشاب لتعود بها إلى الكهف . كررت العملية مرات عديدة حتى تجمع بالداخل كمية كبيرة . وشعرت بالتعب يدب فى جسدها . وازداد شعورها بالعطش ، لنفسها قطعة أخرى من اللحم شوتها على النيران وجلست تأكل .

كان النهار قد انتصف حينما إنتهت من وجبتها ودخل الذئبان وقد بدا عليهما أنهما قد تناولا وجبة دسمة من فريسة كانت بعض دمائها ماتزال تعلق بفم الذئبة تزاحم الإثنان حول المرأة التى راحت تداعب فراءهما بحنان . ولم تمكث طويلا على هذا الحال ، وإنما قامت من مجلسها لتنفذ الجزء الثانى من خطتها .

حملت ما استطاعت من الأخشاب ، وسارت بها إلى أقصى مايصل الضوء فى الممر ، ثم وضعتها إلى جانب الحائط ، وخرجت ثانية لتنتقى وعاء فخاريا ملأته بقطع صغيرة من الخشب وأشعلت فيـــه النيران . وراح الذئبان يرقبانها من مكانهما بتكاسل واضح . وشاهداها وهى تختفى للمرة الثانية فى الممر الجبلى .

لم تقف فى هذه المرة عند نهاية الضوء ، بل سارت فى الممر ، حاملة الوعاء . ولم ينتابها أى خوف فقد أيقنت أنه حتى إذا انطفأت النيران . فانها تستطيع أن تعود أدراجها حيث لامنفذ آخر للممر سوى عن طريق الكهف الخارجى . سارت مدة طويلة ثم وضعت الوعاء على الأرض ، وعلى هدى ضوئه البسيط ، عادت مرة ثالثة إلى المدخل لتحمل كمية أخرى من الأخشاب .

لم يكن العملاق ورفيقته قد رجعا ، لكن ونا ، لم تقلق إذ كانت تعلم أنهما ذهبا إلى النهر للشراب ، وأن المسافة بين الكهف والنهر أطول مما كان يظنان ، وأنهما بالتالى لن يستطيعا العودة قبل غروب الشمس . كررت العمليه حتى تجمع لديها فى الممر كمية لابأس بها من أخشاب وضعتها على ثلاثة أبعاد معقولة ، ووضعت آخر كمية تحملها فى الكهف الداخلى نفسه .

نظرات حولها تكتشف الحجرة الجديدة ، لكنها فى محاولتها لم تمكن

تستهدف ممرا آخر ، كانت قد تذكرت وهى جالسة تنظر إلى النيران فى الكهف الخارجى أن الرطوبة فى الحجرة الداخلية شديدة جدا . بل إن الأرض الحجرية ذاتها كانت زلقة من المياه . وتعجبت من أين تصل هذه المياه إلى الداخل . لابد أن هنالك مصدرا لها ، فإذا ما اكتشفته أصبح الكهف المأوى المثالى ، وكفاها مئونة البحث عن غيره .

لم يكن هنالك شك فى أن هذه الحجرة لم تر ضوء الشمس ، أو حرارة النيران لآلاف السنين . وقد يكون هذا تعليلا كافيا للرطوبة الشديده التى ملأت المكان ، لكن عينى المرأة النفاذتين كانتا قد لاحظتا أن الجدران أقل رطوبة من الأرض ، ومعنى هذا أن هنالك مصدرا للمياه التى تنساب بكمية ضئيلة من مكان ما .

حملت وعاء النار ، ومضت تبحث عن الموضع المرتقب .

لم تكتشف أن ظنها كان صحيحا فحسب ، وأن المياه تنساب من أحد الشقوق فى جدار ، وإنما أيضا اكتشفت أن هنالك ممرا آخر فى نهاية الكهف لعله امتداد للممر الذى أتت منه ، وما كانت الحجرة إلا مجرد اتساع فيه . لم تكن المياه تنساب من الشق بغزارة وإنما مجرد قطرات تتساقط . وضعت المرأة يدها على القطرات تلتمسها وتبلل بها شفتيها . ومضت مدة قبل أن ترتوى ، لكنها فى النهاية اكتفت بما شربت .

اتفعت إلى الطرف الآخر للممر وترددت أن تتابع اكتشافها ، لكن الفضول الغريزى دفعها إلى التقدم . قررت فيما بينها وبين نفسها أن تدخل إلى مسافة يسيرة لترى إن كان الممر سوف ينتهى سريعا أو أنه موغل فى امتداده .

تقدمت حاملة شعلة طويلة من النيران ، وكان الممر مايزال مستمرا فى الصعود . وازدادت رطوبة الجو حتى أن تنفسها بدأ يضيق ، ومع هذا فقد تقدمت بعد تردد يسير . لم يبد أن للممر نهاية إذ استمر فى امتداده وتعرجاته . وبعد مدة انقسم إلى أكثر من فرع . توقفت عن المسير . وداخلها شعور بأنها إن اتخذت إحدى السبل فقد تضل طريق العودة . وبعد تردد يسير بدأت رحلتها راجعة إلى الكهف الخارجى .

مضت أيام والجماعة هائمة فى الكهف . لم تضع المرأة وقتها هباء ، وإنما استمرت تجمع الأخشاب وتنقلها كانقلت كمية من اللحم المتبقى من الغزال الذى كان الذئب قد اصطاده . سارت فى الممر الداخلى مرات عديدة . ولم تتوقف عند مفترق الطرق ، وإنما سارت فى إحداها ، واعتنت بأن تضع علامات غائرة متقاربة على جدران الممر حتى تعرف طريق عودتها . تماماً كما كانت تفعل فى الغابة .

استكشفت مرات أخرى ، وفى أحداها عثرت على منبع ماء نقى كفاها مئونة العطش المستمر إذ لم تكن تكفيها تلك القطرات التى كانت تبلل بها شفتيها فى الحجرة الداخلية بين الآن والآخر . وذات مرة كادت أن تسقط فى هوة عميقة لم تدر مدى غورها ، لكنها تراجعت فى اللحظة الأخيرة . وقفلت عائدة وهى ترتعد . وحينما علمت أنها أصبحت فى الممر الرئيسى أعتنت أن تضع علامة الموت على مدخل الفرع .

فى كل تجوالها لم تصل إلى نهاية الممرات . صحيح أن بعضها كان ينتهى إلى صخور صلد . لكن البعض الآخر كان يستمر فى الغور ليتفرع بعد ذلك . وضعت علامات تستطيع أن تميز بها الممر المغلق من غيره وكأنها بهذا قد بدأت أول خطوات الكتابة ، أعنى العلامات المميزة والرسم . هذا الممر به ماء فكانت علامته خطوطاً متقطعة ، وذلك لا منفذ منه ، فعلامته خط رأسى يوحى بجدار ، والثالث ميزته بخط أفقى ينتهى بخط رأسى طويل، دلالة على أن به هوة عميقة .

اعتنت المرأة دائماً أن تنقل بعض الأخشاب تضعها على مسافات فى الممرات المفتوحة ، كما أعتنت بأن تنتقى لها أقل الأماكن رطوبة ، فقد كانت تعلم أن المياه هى العدو الأول للنار . وما كانت تريد أن تبقى فى هذه الممرات دون ضوء . ولم تدر المرأة أنها فى استكشافاتها المستمرة قد توغلت لأكثر من مائتى متر فى باطن الجبل ، ولا أنها قد اكتسبت خبرة كبيرة ، وألفة تامة بطبيعة الجبل ومسالكه ، واحساساً باتجاهاته التى قد يرى المرء لأول وهلة أنه لا مخرج منه .

وجاء يوم آتت فيه هذه الأيام ثمرتها ، واحتاجت المرأة إلى كل خبراتها

ومهاراتها التي اكتسبتها من تجوالها المستمر في باطن الجبل . وأثبتت دون أن تدري نظرية لم تعرف إلا حديثاً وهي أن المكان يدافع عن قاطنيه .

كان الوقت ظهراً ، حين صادف من إحدى رحلاتها الإستطلاعية جلست على الأرض إلى جوار العملاق ، ورفيقته يتناولون وجبة الغذاء وكان الذئبان قد تمددا في هدوء بعد أن التهما وجبتهما . وفجأة هب الإثنان واقفين وهما يزمجران ، ثم اندفعا إلى مدخل الكهف . علت صرخة غضب وألم من الخارج ، وفي اللحظة التالية انقلب السكون إلى حركة ، والصمت إلى أصوات مختلطة

بسرعة خاطفة هب العملاق واقفا وفي يده هراوته ، واندفع إلى مدخل الكهف ليتلقى سيلا من الرجال يلوحون بهراواتهم وقد حاصروا الذئبين اللذين اضطرا إلى التراجع أمامهم . تصايح الرجال ، وارتفعت الهراوة الرهيبة تهبط على رأس أول الداخلين . وتلقى ثان رعا في صدره قذفته « تا » ، ووقع رابع على الأرض وأنياب الذئب مطبقة على رقبته في حين أطبقت الذئبة على يده الممسكة بالهراوة .

وتوقف الهجوم . لكن المهاجمين لم يتركوا مدخل الكهف وراح جماعة منهم ينتقون الحجارة ويلقونها عليهم . من فوق رؤوس أصحابهم . صرخ الذئب وتراجع إلى الداخل ، وأصيب العملاق في أكثر من موضع في جسده لكنه هجم على الجمع غير مبال بالحجارة . وسقط رجل آخر ، وجرى زملاؤه فرارا من الهراوة الرهيبة ، ثم توقفوا على بعد آمن وراحوا يمطرون قاطني الكهف بالحجارة .

انتهزت المرأة فرصة الهدوء النسبي فتناولت غصنا طويلا ، وأشعلته . أشارت إلى المرأة الأخرى « بي » التي كانت منكمشة في منحنى بأحد الجدران تحتمي من الحجارة المتطايرة ، ثم صرخت على العملاق والذئبين منادية . وأسرعت نحو الممر . وعلى قدر بلادة العملاق العادية فإنه يبدو أن القتال يشحذ عقله ، فلم يتوان لحظات ، وإنما حمل بسرعة بعض اللحم ووضعه في خرج وبإشارة من « تا » جمعت المرأتان ما استطاعتا من الرماح والأخشاب ، واندفع الجميع نحو الممر .

سارت المرأة فى المقدمة ، يتبعها الذئبان فرفيقة العملاق و بى ، فالعملاق وحينما وصل الجميع إلى كومة الأخشاب الأولى التى كانت « تا » قد وضعتها فى الممر ، أشارت إلى الجماعة بالتقدم ، ووضعت ماتحمل من أخشاب إلى جوارها ونسقت المجموعتين لتسدان أرض الممر تماما ثم أشعلت النيران فى بعضها ودلفت إلى الداخل خلف رفاقها .

وفى الخارج إستمرت الجماعة المهاجمة فى قذف الحجارة لمدة قبل أن يكتشفوا أنه لم يصدر من الكهف أى صوت . وتجرأ أحدهم فأطل برأسه إلى الداخل . ولما لم ير أحدا صرخ على رفاقه مناديا . وقف الجميع فى الكهف الخالى وقد تولتهم الدهشة ، حتى اكتشف أحدهم الممر . اندفع المهاجمون يتزاحمون وهم يتصايحون ، لكنهم حينما دخلوا قليلا كانت النار قد أمسكت باقى الأخشاب لتكون حاجزا رهيبا تتصاعد ألسنته كأنما تتحدى أن يقترب منها أحد ، فتوقفوا مترددين .

سمع الهاربون أصوات المهاجمين يستحثون بعضهم على اقتحام النيران ، لكنهم كانوا يعلمون أن خوف أعدائهم منها سوف يبقيهم مترددين لدقائق حتى يخمد أوار النار قليلا . سارت المرأة بخطى ثابتة يتبعها رفاقها مشدوهين حتى وصلت إلى الكومة الثانية من الأخشاب التى كانت قد وضعتها فى الممر فاحتملتها . كانت تعلم أنها وضعت ثلاث مجموعات من الأخشاب قبل أن يتصل الممر بالحجرة . وحينما وصلت إلى المجموعة الثالثة فعلت بها ما فعلته بالأولى ، ونسقتها مع ما تحمل لتكون السد الثانى أمام الجماعة المهاجمة . لكنها فى هذه المرة انتزعت لنفسها فرعا آخر والقت الذى كان معها فى وسط كومة الأخشاب الثانية .

كانت تتواثب فى رأسها خطة طالما فكرت فيها فى حالة هجوم عدو واضطرارها إلى الفرار . كانت تحتاج إلى بعض الوقت لتنفيذها ، ولهذا وضعت حاجزى النار . وحينما وصل الجميع إلى الحجرة الداخلية احتملت ما بها من أخشاب ثم سارت يتبعها رفاقها إلى الممر الداخلى . بدأت تضع بعض الأخشاب القليلة على مسافات قريبة نسبيا ، وتشعل كل مجموعة منها حتى اوهج

الممر . واستمرت فى عملها هذا إلى أن وصل الجمع إلى حيث تعددت المسالك .

امتلأ جو الممر بالدخان ، وبدأ الجميع يسعلون ، لكن المرأة لم تأبه لهذا ، وانما اشارت إلى رفاقها أن يتبعوها فى أحد الممرات ، وسارت بهم فترة قصيرة ، ثم طلبت منهم أن يبقوا حيث هم عند منعطف شديد فى الممر . تململ الذئبان ، لكنها انهت اعتراضهما بشدة ، وتركت الجميع فى ظلام دامس وعادت سريعاً حتى مفترق المسالك .

فى هذه المرة أخذت طريق ممر الموت . جمعت عدداً من الأخشاب راحت توزعها فى مجموعات صغيرة حتى وصلت إلى الهوة . أشعلت النيران فى كل مجموعة وهى عائدة ، وحينما وصلت إلى المفترق ثانية ، كانت تسمع أصوات الرجال تصلها . وضاعفت من سرعتها لتلحق بأصحابها عند المنعطف فسارت بهم فى الممر المتعرج وقد أخفت المنعطفات ضوء الشعلة فى يدها عن الجماعة المهاجمة .

كانت قد مضت دقائق والرجال لا يستطيعون تخطى حاجز النار وما أن بدأت جذوتها تخبو حتى قفزوا من فوقها يتصايحون صيحات الظفر ، والإنتصار وجروا فى الممر ليقابلهم حاجز ثان عاق تقدمهم . ومضت دقائق أخرى قبل أن يجدوا أنفسهم فى الحجرة المظلمة نسبيا ، والتى لم يكن ضوء حاجز النيران ليصل إليها تماما . وقفوا لحظات وهم مترددون ، لكن أحدهم لاحظ الضوء المنبعث من الممر الداخلى فصاح فيهم فتبعوه .

أضحى بعد ذلك تقدمهم سهلا بالرغم من الدخان المتصاعد . ولم يفكر واحد فيهم أن النيران سوف تنطفىء بعد دقائق إذ لم تكن الكميات تكفى لبقائها مشتعلة أمدا طويلا فى هذه الرطوبة الشديدة ، بل إن بعضها كان قد بدأت جذوته تخبو فعلا قبل أن يصلوا إليها ، لكنها كانت ما تزال تعطى ضوءاً باهتا يمكن السير على هداه . تدافعوا وراء بعضهم حتى وصلوا إلى المفترق . ولم يروا ضوء الشعلة التى كانت المرأة تحملها إذ أخفتها المنعطفات فانطلقوا فى طريق الموت .

وبالرغم من أن المرأة كانت قد سارت بالجماعة شوطا بعيداً فى الممر الاخر

إلا أن أصداء صرخات الموت وصلتهم عالية مرعبة . لقد أثبت المكان قدرته على الدفاع عن قاطنيه ، وسقط بعض المهاجمين فى الهوة التى لا قرار لها . وصلت إلى آذانهم أصوات مرتعبة لرجال يتدافعون مذعورين يتخبطون فى ممر الموت ، وقد بدأ الظلام الدامس يحتويهم إلا من جذوات ضئيلة تلتمع على الأرض الرطبة المبللة .

وقفت المرأة تصيخ السمع ، وتفسر الأصوات . لقد اندفع بعض المهاجمين يسقطون فى الهوة السحيقة ، لكن بقية منهم إستطاعت أن تمنع نفسها من السقوط . واستنتجت المرأة من سرعة إنتقال أصواتهم أنهم قد قفلوا راجعين ، وأن هنالك جذوات من بقايا النيران كانت ماتزال تضيء ، وتيسر لهم معرفة الطريق إلى الحجرة الداخلية وان يلبثوا حتى يجدوا سبيلهم إلى الكهف الخارجى .

لبثت تفكر فى مصيرها والجماعة . لم يكن من المستطاع بعد هذا الخروج من باطن الجبل ، فهنالك سوف يتصيدهم أعداؤهم الذين لاشك فى أنهم سوف يبقون متربصين . ولن تستطيع هى وجماعتها من ناحية أخرى البقاء فى باطن الجبل إلى أبد الآبدين ، فلم تكن هنالك حياة فيه يستطيعون أن يعتمدوا عليها فى غذائهم ، ولن تكفيهم اللحوم التى حملها العملاق لأكثر من أيام معدودات كما أن الأخشاب الباقية معهم لن تكفى للاضاءة إلا ليوم أو بعض يوم . وكلما أمعنت فى التفكير كلما ازداد اقتناعها بأن الممرات الجبلية التى فرحت بها ، واعتقدت أنها سوف تنقذها من أعدائها أضحت مصيدة موت لافكاك منها .

وأخرجها من أفكارها السوداء صدى عواء الذئب يأتى كأنما من مكان سحيق . التفتت حولها مذعورة لتلاحظ لأول وهلة أن الذئبين لم يكن لهما أثر . نظرت إلى رفيقيها . لكنهما قابلا نظراتها الاستفهامية ببلاهتهما المعتادة زادت المرأة ، وعاد إليها صدى العواء ، وفى هذه المرة أيقنت أنه يرد من مكان بعيد فى باطن الجبل .

لم تتردد لحظة ، وانما أوغلت فى الممر يتبعها صاحباها . كانت قد أوقفت الجماعة فى آخر نقطة وصلت إليها فى استكشافاتها السابقة ، وبهذا كانت تسير فى

مكان مجهول بالنسبة لها . استمروا فى السير فى الطريق المتعرج . واضطرت أثناء سيرها إلى اشعال غصن آخر بعد أن كاد الذى فى يدها أن ينطفىء . وبالرغم من أنه خيل إليها أنها أوغلت لمدة طويلة فإنها لم تجد أثراً للذئبين . كررت النداء . وتكرر صدى الهواء ، ولم يبد أن الصوت قد اقترب .

ومع أن مخاوفها من عدم استطاعتهم العودة كانت تزداد ، فإنها لم تفكر فى أن تتخلى عن الذئبين ، وأن تتركهما لشأنهما . كانت تعلم أن ثمة شيئاً يمنعها من اللحاق بهما ، وإلا فكان من اليسير عليهما أن يعودا أدراجهما ، وهما يتحسسان طريقهما عن طريق حاسة الشم . استمرت فى التقدم ، واستمر الممر فى الايغال متعرجا صاعدا ، حتى أضحى تقدمهم بطيئا مرهقاً .

مضت أكثر من ربع ساعة ، ظنتها المرأة ساعات ، وتصورت أنهم توغلوا أميالا فى باطن الجبل ، لكن الواقع أنهم لم يكونوا قد قطعوا أكثر من مائتى متر . وبدأت تيأس من أنهم لن يصلوا إلى الذئبين . اعتقدت أن صدى العواء قد رددته جنبات الجبل حيث لا منفذ آخر له ، وإن كان الصوت قد وصل إلى أسماعهم فانما لأنه لا منفذ آخر للصدى بين الجدران الصخرية . وبدأ يداخلها الشك فى أن الذئبين يبتعدان كلما اقتربت منهما حينا وصلها العواء واضحا جليا . ودفعها هذا إلى مزيد من بذل المجهود الذى كاد أن يتلاشى مع فقدها الأمل .

وفى منعطف ظهر أمامها فجأة حاجز حجرى سد الطريق إلى الأمام . تلفتت حولها ، ولم تر سوى الجدران الصخرية ، والسقف الصخرى . وحانت منها نظرة إلى أعلى السد الحجرى فلاحظت أنه لا يصل تماماً إلى السقف ، وانما كان هنالك فاصل بينهما . وكان من اليسير الوصول إلى الفتحة فقد كان سطح السد مائلا به نتوءات .

تحاملت على نفسها ، وتسلقت الصخرة دافعة أمامها المشعل . ولم يتبعها رفيقاها ، ولكنهما وقفا ينظران إليها فى تعجب . كانا قد توقفا ، وقد شاهدا الحاجز أن المرأة سوف تعود بهما من حيث أتيا ، أو أن تبحث عن منفذ آخر سوى هذا الممر الذى لا ينتهى ، فلما رأياها تتسلق الحاجز وقفا مترددين .

نظرت و تا ، من الفتحة وامتلاء قلبها فرحا . تحت الصخرة مباشرة رأت

الذئبين يتواثبان . وفهمت لماذا لم يكن فى استطاعتهما العودة . كانت الصخرة من جانب الممر مائلة يمكن تسلقها ، أما من الناحية الأخرى فقد إرتفعت لحوالى المترين مستقيمة ملساء .

ولم يكن هذا هو كل ما أثلج صدرها ، رأت أيضاً أن الممر لم يصبح ممراً ، وأنما أضحى منطقة فسيحة تتلوها هوة عميقة تتدلى من سقفها تكلسات تتلألأ ، فى أشكال هندسية بديعة متباينة . تنبهت المرأة فوراً إلى أن ضوء مشعلها الضئيل ما كان يمكن أن يكشف لناظريها كل هذه المساحة الكبيرة لو أن هنالك ضوءاً ، وإن كان باهتاً إلا أنه ضوء النهار على كل حال .

لم يكن فى استطاعتها القفز كل هذه المسافة من أعلى الصخرة إلى حيث كان الذئبان ، لكن حل هذه المشكلة كان من اليسر بمكان . استدعت العملاق ورفيقته . وفى دقائق كان العملاق قد ألقى بخرجه إلى جانب الذئبين وداف بصعوبة من الفتحة ليهبط إلى الجانب الآخر . ثم ليتناول المرأتين الواحدة تلو الأخرى ، ويضعهما برفق على الأرض . وحينما عبر الجميع الحاجز الصخرى وقفوا ينظرون إلى الهوة السحيقة أمامهم .

كانوا فيما يشبه الشرفة الكبيرة . امتدت أمامهم مساحة هائلة من مغارة كبيرة تتدلى من سقفها فى محاذاتهم تقريباً تلك التكلسات المتلألئة فى الضوء الباهت الذى ينير المغارة من مصدر مجهول . وشعرت « دنا » بتعب جسمانى شديد ، وأحست بأن قواها تخور فجلست على الأرض الصخرية ، والتمست طعاماً من العملاق . وكأنما كان فى هذا اشارة لهم إذ استرخى الجميع ، وراحوا يتناولون وجبة من اللحم النيء قبل أن يستأنفوا رحلتهم .

لم تتوقف عينا « دنا » ، حتى وهى تأكل ، عن التطلع إلى الجدران الصخرية حولهم تتلمس طريقاً يؤدى إلى أرض تلك الهوة السحيقة . لقد تأكدت أن الضوء يأتى من مكان ما فى أرض هذه الهوة فكان لابد لهم إذاً من بلوغها . رأت أن الجدار الصخرى ، وإن كان يبدو لأول وهلة أصماً لا مجال فيه الهبوط إلا أنه فى الواقع كانت توجد به ممرات متعددة ، وإن كانت ضيقة ،وخطرة ، خاصة وأنها تهبط فى أماكن كثيرة هبوطاً يكاد أن يكون عمودياً .

انتهت من طعامها ، ولاحظت أن الضوء فى الكهف قد خبا حتى أن جنباته البعيدة لم تعد ترى ، كما أن التشكيلات التى كانت متلألئة منذ لحظات قد تحولت إلى لون أزرق باهت . تذكرت أن هجوم أعدائهم ، وفرارهم عبر الممر كان فى الظهيرة ، وهم ولا شك قد قضوا ساعات طويلة فى باطن الجبل ، وبالتالى فإن الليل وشيك . ولم تطل التفكير بعد هذا إذ قررت أن يقضى الجميع الليل فى مكانهم ، وما كان أحدهم فى حاجة إلى أن تحثه ، إذ كان التعب والارهاق قد حل بهم .

كان على أحدهم دائماً أن يظل مستيقظاً ليراعى استبدال الشعلة بأخرى قبل أن تنطفىء . ولعل المدة التى قضتها « تا » فى استعمال الشعلة داخل الممرات قد علمتها أنسب وضع لها بحيث لا تبقى مستقيمة فتنطفىء ، ولا يشتد ميلها فيزداد إشتعالها وتعجل نهايتها . وبوضعها الصحيح غرزتها فى أحد تشققات الحائط الحجرى . وابتدأ العملاق النوبة الأولى لملاحظتها ، واستبدالها بغيرها كلما إستدعى الامر .

كانت نوبة « تا » هى الأخيرة . وحينما أيقظها « بى » قامت متثاقلة ، وهى تشعر بالآلام فى كل أعضاء جسدها . اعتدلت فى جلستها تنظر إلى الشعلة ، وبعد أن أطمأنت ، أشاحت بوجهها إلى الظلمة السائدة فى المغارة . وراودتها الذكريات تدور حول رجلها الذى لم تكف عن التفكير فيه . لقد ذهب بلا عودة ، ولن تراه ، لكنه كان يملأ حياتها عن طريق قلبها ، وذلك الذى يتحرك فى أحشائها .

لقد تحملت الالم فى كل لحظة منذ أن تركها رجلها ، وكم من مرة حدثت نفسها بأن تنهى حياتها ، لكنها كانت تقاوم تلك الرغبة وتقاوم الأخطار ، بل وتحملت الآلام بلذة فى سبيل تلك النطفة التى تركها رجلها فى أحشائها . لم يكن شعورها بوليدها المنتظر أمومة مبكرة ، وانما كان شعورا بالانتماء إلى تلك النطفة الحية التى بقيت من رجلها .

بدأت طلائع الفجر توضح معالم المغارة ، وتسلل ضوء النهار شيئاً فشيئا ينير سبل الخروج إلى العالم ، والمرأة ما تزال فى جلستها لا تتحرك ، وما تزال

أفكارها تحيطها بعالم من الخيال والذكريات يملأ جنباته ذلك الذى ذهب إلى غير عودة .

ooo

لكنها لم تكن تعلم أن الرجل لم يذهب إلى غير عودة . لم تكن تعلم أنه قد نجا من الفيض الهائل من المياه التى رأتها تبتلعه ، وأنه مثلها قد اخترق الجبل ، ليس عن طريق الممرات والكهوف ، وإنما عن طريق مجرى النهر المتدفق الذى ألقاه على مسافة ليست بعيدة عن مكانها . ألقاه خائر القوى منهوكا ومجروحا ، فى أكثر من موضع . لكنه حى بل وما تزال فيه بقية من قوة جعلته يتماسك حتى زحف إلى أقرب شجرة ، وهنالك إنهارت قواه تماما وراح فى غيبوبة عميقة .

غابت الشمس وهو مازال فى إغمائه ، وتحولت الاغماء بعد مدة إلى نوم حقيقى عميق . كان الجسد الهرقلى، وقد استراح من المقاومة والاجهاد يعمل جاهداً فى أن يستعيد حيويته ويجدد قوته . ومضت ساعات سريعة والرجل فى مكانه لا يتحرك ، بل أنه لم يتململ فى نومه . ولعل من حسن حظه أنه لم يعثر عليه حيوان مفترس من حيوانات الغابة وإلا كان قد راح ضحية سهلة دون أن يستطيع إبداء أية مقاومة .

لم تظهر على الرجل علامات الحياة إلا حينما علا ضجيج القردة وصياحها وهى تحيى شمس الشروق .

تململ فى نومه فى مبدأ الأمر دون أن يستيقظ ، لكنه حينما فتح عينيه بعد فترة كان عقله مستيقظا تماما . دار نظره يستوعب الطبيعة حوله ، وتحرك من مكانه فكانت حركته فجائية شعر أثرها بوخزة ألم شديد فى رأسه أعادته إلى موضعه الأول . وبدأ شعوره بالأوجاع فى شتى أنحاء جسده ، لكن أشد الآلام كان فى رأسه، وكتفه الأيسر مع ذراعه ، ويده .

كان رأسه قد أصيب بضربة شديدة من جذع الشجرة المندفع مع التيار ،

وتلقى كتفه وذراعه بعض ضربات الحراوات من أعدائه أما يداه فكان جلدها قد انزع ، وأصيبت عظامها حينما اصطدم الجذع الذى كان يحتضنه بالسقف الحجرى لمجرى النهر ، وانهصرت اليد بينهما .

إعتدل فى جلسته مستندا إلى الشجرة فى بطء ومع هذا فقد أحس بالدوار يغشاه ، واحتاج إلى كل إرادته ليطرد الغمامة التى كانت قد بدأت تضع حاجزا أمام عينيه . مكث دقائق وهو مغمض العينين لا يتحرك . وحينما فتحهما تراقصت أمامه نقاط حمراء مالبثت حتى تلاشت ، وابتدأ يتحسس باقى عضائه ليتعرف على قدر! ا كانت رجلاه سليمتين ، وإن أحس ببعض الآلم فى عضلات فخديه إلا أنه على الأقل كان يشعر بأنه يستطيع أن يستعمل يديه ، كذلك كانت يده اليمنى سليمة ، وإن كانت حركة الأصابع مشدودة تقريبا لكثرة تشبثه بالكتلة الخشبية ، ومقاومته العنيفة للتيار . وكانت عضلات ذراعه الأيمن أيضاً تؤلم ، لكنها كانت سليمة يستطيع مع القليل من الاحتمال استعمالها .

أما وقد ألم بقدراته البدنية فقد انتقل بتفكيره إلى موقفه . برزت إلى السطح المشكلتان الدائمتان . الأكل والأمان ، لكنهما فى هذه المرة كانتا أشد وضوحا ، وأقسى مظهرا . بحركة لا شعورية امتدت يده يتحسس منطقته ، فالغذاء والأمان كانا مرادفين بالنسبة له للخنجر ، والنار . تنهد بارتياح حينما أحس بالخنجر فى مكانه ، وإن كان لم يجد الكيس الذى كان يحتوى على الحصوات ، ويبدو أنه سقط فى وقت ما فى النهر .

لم تكن هنالك فائدة فى البقاء حيث هو . تحامل على نفسه وقام . اندفعت الآلام إلى كل جزء فيه حتى أنه لم يعرف كيف يحدد مصدرها . دارت به الأرض الفضاء . وغامته سحابة مظلمة حالت بينه وبين الرؤية . كان يتوقع لاشعوريا شيئا من هذا ، وإن لم يكن قد اعتقد أن تصل الحال إلى ما وصلت إليه . استند إلى جذع الشجرة ، وتصايحت القردة ، تتخاطب بلغتها الغريبة لعلها تحذر منه ، أو تضحك عليه .

قاوم الدوار الذى انتابه جاهداً . ومكث لحظات ثم بدأ تجربته الكبرى

فى السير نحو النهر . لم تكن المسافة تزيد على عشرين مترا ، لكنها بدت له طويلة مرهقة . مشى يترنح ، وسقط فى الخطوات الأخيرة . لبث فى مكانه يلتقط أنفاسه ويقاوم أعياءه . كان يريد أن يرتوى ، ويشعر بالماء البارد يبلل به رأسه المحموم . كان يعلم أن عليه أن يفعل ذلك ، ويعود سريعا إلى حماية الأشجار بعيدا عن أعين الوحوش .

التفت إلى مجرى النهر ، ولأول مرة لاحظ أن التيار كان قد حمله إلى مسافة طويلة بعيدا عن سطح الجبل . زحف الخطوات الباقية ، وشعر بالماء البارد يرطب رأسه وشعره ووجهه . وارتوى منه . وشعر بقواه تعود إليه . لبث فى مكانه قليلا ثم بدأ يعود إلى حماية الأشجار زحفا . حتى وصل إلى أقرب شجرة فاسند ظهره إليها . وراح يلتقط أنفاسه .

عاود النظر إلى الجبل . لو أمكنه أن يصل إلى هنالك ، وأن يعثر على مأوى يجمع فيه بعض الأخشاب ، ويوقد النيران فإنه سوف يكون بمأمن لبضعة أيام يستطيع أن يسترد خلالها قواه . أما الطعام فكان متأكدا من أنه سيجد بعض الثمار البرية التى تكفيه ، وما كان فى حاجة إلى اللحم ، على الأقل لأيام .

تحامل على نفسه ، واتجه إلى داخل الغابة يستند إلى أشجارها ويتمهل فى كل خطوة . ومضت أكثر من نصف ساعة قبل أن يعثر على بعض الثمار البرية ، فأخذ يلتهم منها ما استطاع إذ كان الجوع قد أخذ منه . انتقى أحد الأفرع الجافة استعملها كعصى يتوكأ عليها ، لم يتوغل بعد ذلك فى الغابة ، وإنما عاد أدراجه إلى حيث النهر ، حاملا معه ما استطاع من الثمار .

كان هدفه أن يصل إلى الجبل ، لكنه كان يعلم أن المسافة طويلة عليه وأنه ليس ندا لأى حيوان يهاجمه . صحيح أن حظه كان كبيرا حتى الآن فلم يصادفه أى من الوحوش ، لكنه أيضا لم يكن يتصور أن مثل هذا الحظ سوف يدوم . جلس إلى ظل شجرة يستريح . وذهبت أفكاره إلى « تا » ، والعملاق ، والذئب « بى » . لاشك فى أن « تا » قد وثقت من غرقه فى النهر ، ولعلها

بدورها قد قتلها المهاجمون أو أخذوها أسيرة . أما العملاق فمن المقطوع به أنهم قتلوه . كان عليه هو أن يستعيد قواه ، ثم يعود ليبحث عن رفيقته .

اعتراه شعور عجيب بأن شيئا غريبا يحدث فى الغابة . احتار لحظة فى التعرف عليه . ثم عرف . إن الغابة قد أطبق عليها السكون . توقفت القردة عن الصياح . بل لعلها قد توقفت عن الحركة أيضا . لقد كانت ترقب شيئا ترتعب منه . واستمر السكون دقائق . وراحت أذن الرجل تتصنت الأصوات . وأعمل جهده أن تصل إليه أية رائحة .

ومن وسط السكون ، ومن بعد لا يزيد على مائة متر ، انطلقت صيحة عرفها فى لمح البصر . كانت صيحة سيد الغاب . النمر ذو الناب السيفى . لم تكن صيحة هجوم ، وإنما كانت صيحة غضب . إن شيئا ما يهاجم النمر ! أى وحش ذلك الذى يجرؤ على مهاجمة ملك الغابة؟ كانت الاجابة تتردد فى عقل الرجل ، لكنه كان يأبى أن يصدقها ، أو .. حتى أن يتفوه بها .

ظلت زمجرات النمر تصل إلى أذنى الرجل أكثر من عشر دقائق ، ويبدو أن خصمه كان يقاتل وهو صامت ، فلم يسمع له حس . أخيرا حل السكون ، لكن القردة لم تعد لصياحها . إذا فالمنتصر يتمتع الآن بثمرة انتصاره ، ويحتفل به بوجبة دسمة يقتطعها من جثة فريسته . كان الخوف قد جمد تفكيره ...

وشل حركته تماما ، فلم يتحرك من مكانه أثناء القتال ، أما وقد عاد السكون مرة ثانية ، فقد اندفعت الأفكار سريعة متلاحقة فى مثل سرعة البرق .

إن من انتصر ، ولم يكن فى شك كبير منه ، سوف يأكل حتى يمتلئ .. وغالبا بعد ذلك سيرد النهر ليشرب وهو لابد مكتشف مكانه . كان يعلم أن عليه أن يتحرك بسرعه ، وأن يبتعد دون أدنى صوت ، إلى حيث لا يراه العدو المجهول ، وحيث لا تصل إليه رائحته . كان فى وجود هذا الشىء حماية مؤقتة له ، فلن يجرؤ حيوان مفترس على الاقتراب من المنطقة . إلا الضباع فسوف تجذبها رائحة الدماء ، ستقف بعيدة عن المنتصر إلى أن ينتهى من طعامه ، وتتقاتل فيما بينهما على ما بقى . ولم تكن الضباع تخيفه حتى وهو فى أسوأ حالاته ، ولهذا فقد تناول عصاه ،

ولم يمتن بأن يختفى نفسه ، واتجه بأقصى ما يستطيع بدنه المريض أن يحمله بعيدا ، نحو الجبل . هنالك ، بين الأحجار والصخور ، ربما يكون له أمل فى أن يختفى ، كما تختفى الجرذان فى جحورها .

على أنه لم يترك الحذر على اطلاقه ، وأنما كان يستفيد من كل صخره قدر استطاعته . كان يتصور أنه سيصل إلى حمى الجبل فى مدة يسيرة ، ناسبا ذلك إلى إلى المدة التى حمله فيها التيار . لكنه لم يقدر أن التيار ، حتى فى بطئه ، كان أسرع كثيرا من الرجل المجد فى السير ، بله المريض . ولم يقدر أن مجرى التيار مستقيم لا يعـــترضه شىء ، فى حين كانت الحجارة والصخور المتناثرة على الضفة تعوق كثيراً تقدمه .

ظل يتحامل على نفسه أكثر من نصف ساعة ، ومع هذا فان الجبل لم يكن يبدو أنه اقترب . اضطر مكرها أن يستريح ، فأنتقى إحدى الغيضات ليحتمى فى ظلها وشجرها ، تخفيه مؤقتا عن العيون . انتهز الفرصة وانتقى فرعا وبدأ يدبب أحد طرفيه ، مستعملا الحجارة تارة ، والخنجر أخرى . بحث بين الحصى المتناثرة عن شبيهه لتلك التى تشعل النار ، ومضى يجربها حتى رأى الشرر يتطاير من احتكاك اثنين منها فاحتملها ، ولم يشعر بمرور الوقت وهو منهمك فى عمله . بل ولم يشعر بالآلام فى رأسه وجسده ، وان الوقت أضحى ظهرا وأن الشمس تعلو كبد السماء ، بدأشعوره بالألم والجوع يزداد . تناول الثمار القليلة التى معه . ولم يتعجل الرحيل ، وبقى مكانه يفكر .

لم يكن هنالك شك فى أن ذلك الذى كان يقاتل النمر قد فرغ من غذائه وأنه الآن نائم يتمتع براحة بدنية ، ولن يستيقظ ثانية حتى تبدأ وطأة الجوع تدفعه إلى الحركة . ربما يكون قد إحتفظ ببعض اللحم ، وفى هذه الحالة فلن يترك مكانه الا بعد أن يأ كل ماتبقى ، ثم يبدأ فى البحث عن فريسة أخرى . ومن الغريب أن الرجل لم يداخله لحظة أى شك فى نتيجة المعركة ، وأن المهاجم هو المنتصر ، وليس النمر . أية قوة تلك التى تهاجم النمـــر السيفى النــاب وتفتك به ؟

تململ الرجل فى مكانه قلقاً . كان يعلم أن عليه أن يفعل شيئاً . لكن ما هو ؟ إن الغيضة التى هو فيها كبيرة ، وهى تصلح فى الواقع مخبأ آمنا من الحيوانات ، ولولا وجود ذلك الشىء فى الجيرة ، لانتقى مكاناً وأشعل ناره فأمن بذلك شر الحيوانات المفترسة . أما وهذا الشىء موجود ، على بعد يسير منه فكأنه بذلك يدله على مكانه ، ولن تحميه النار .

دار بنظره يتفحص المكان . كان النهر يجرى هادئاً على بعد لا يزيد عن بضعة أمتار منه ، وإلى الشمال انبسطت مساحة من الأرض تكاد أن تكون جرداء الا من بضعة غيضات وأشجار منفردة متناثرة ، ثم الجبل . فكر لحظات فى أنه يستطيع أن ينتقى فرعا ضخماً يضعه فى الماء لينتقل به إلى الضفة الأخرى من النهر . ثم عاد واستبعد الفكرة إذ أنه لم يكن يعلم إذا كان ذلك الشىء يستطيع السباحة ، فقد شاهد كثيراً من الحيوانات تعبر الأنهار فى غابته ، كما أنه كان يمكن أن يصل إلى الجبل وينتقل إلى الضفة الأخرى بسهولة .

لم يشعر فى الواقع حينما غلبه النوم ، ولا أحس بالوقت الذى قضاه نائما فإن جسده كان مرهقا محموما إلى درجة أن النعاس طغى عليه حيث هو ، فكأن الطبيعة قد اتخذت له القرار الواجب اتباعه . حينما استيقظ كانت الشمس قد غربت ، وابتدأت جيوش الظلام تطغى على الكون . على خلاف عادته لم يستيقظ منتبها . مكث دقائق وهو لا يدرى تماما مكانه أو ما حدث له . وحينما بدأ الانتباه يعاوده ، كان أول ما أحس به هو الظمأ الشديد ثم الجوع .

اتجه إلى النهر يروى ظمأه . وبالرغم من أن الجو لم يكن باردا الا أن قشعريرة شديدة سرت فى جسده . لم يبال بها حتى ارتوى ، وحينما عاد إلى مكانه ، استلقى مرهقا كان الظلام قد حط رحله . جافاه النوم لمدة . لكنه وافاه أخيراً ، ولم ينتبه منه الا مع خيوط الفجر . عوضه النوم الكثير من حيويته الضائعة ، كما ساعدته الراحة فى التغلب على جراحه ، فابتدأ الجرح فى رأسه فى الالتئام ، وخفت حدة الخدوش التى كانت تمزق جلد يده . وحتى العظام

والعضلات كانت قد ارتاحت واستعادت أغلب قدرتها . لكن شعوره بالجوع كان عظيما . بدون تردد قام من مكانه ممسكا حربته ومتكئا على عصاته، اتجه إلى النهر . هنالك أمكنه أن يصيد بضع سمكات ،رجع بها إلى وكره المؤقت يلتهمها .

بدأ من فوره فى البحث عن الكهف فى الجبل . كان يعلم أن عليه أن يقضى بضعة أيام بعيدا عن النضال حتى يستطيع أن يسترد قواه كاملة . وأخيرا وفق فى أن يجد كهفا صغيرا كان من العسير عليه أن يدخله ، لكنه كان متسعا من الداخل . وقريبا من مجرى النهر . وأسعده الحظ فى أن يقتنص ماعزاً جبليا كفاه مئونته لعدة أيام . ومن الغيضان القريبة جمع أغصانا ، وحطبا وأشعل النيران داخل الكهف .

استغرق كل هذا منه أكثر من ثلاثة أيام ، وحينما استقر أخيرا يلتهم قطعة من لحم الماعز المشوى كان التعب قد حل به حتى أنه نام فور أن امتلأ .

مضت الأيام تترى وهو قابع كالحيوان الجريح فى وكره لا يخرج منه إلا مساء ليروى ظمأه ، ويملأ أوعيته التى صنعها من الخشب ، بالماء ، وليصيد بعض السمكات . لم ير أثراً للرعب الذى صادفه فى الغاب ، وإن كان دائم التفكير فيه.وفى طريقه للخلاص منه ، لكن حينما مرت الأيام دون ان يراه،أو يرى ما يشعر بوجوده إعتقد أنه رحل عن المنطقة .

لم يكف لحظة فى التفكير فى رفيقته . كان قد اعتزم أن يعود إلى الناحية الأخرى من الجبل للبحث عنها ، واستخلاصها من القوم الآخرين إذا كانت ما تزال على قيد الحياة . كان يعلم أن عليه أن يسترد قواه كاملة إن شاء أن يقوم بهذه المهمة ، فلم يتعجل حتى شعر بأنه قد إسترد صحته ، وأن جراحه قد التأمت تماما فقرر أن عليه أن يبدأ رحلته فى اليوم التالى . لكنه لم يكن قد قدر له أن يقوم بها أيضا .

استيقظ مع مطلع النهار،وجلس فى تأن يأكل متزودا للرحلة ، ثم قام يجمع

حاجياته القليلة فى جلد الماعز واحتملها، على كتفه . وبدأ الصعود إلى الجبل . لم تكن هنالك مسالك ، لكن الفترة التى قضاها يراقب الماعز من بعد ، علمته كيف ينتقى مواضع قدميه . وكيف يقدر المسافات ، ويختار أقصر السبل ، ولهذا حينما جلس ليستريح فى وقت الظهيرة ، كان قد بلغ ما يقارب المائة متر ارتفاعا . وفرغ من تناول قطعة من اللحم النىء ، وكان يجمع حاجياته متأهبا للاستمرار فى رحلته ليقطع شوطا قبل أن يحل المساء حينما رددت جنبات الجبل صرخة عالية تناهت إلى أذنيه ، وجمد الدم فى عروقه . لم يشك لحظة فى أنها صرخة رعب هائل أطلقتها رفيقته .

———————

الفصل الخامس عشر

صيد المردة

كانت « تا » فعلا هى التى أطلقت الصرخة التى سمعها « بو » . بعد أن بدأ النهار يبزغ ، نزلت الجماعة من « الشرفة » التى كانوا فيها داخل المغارة . لم يكن الهبوط سهلا . لكن وجود الذئبين يسر كثيرا فى معرفة أى الطرق يتخذون ، إذ كانا يختاران بغريزتهما أسهل الطرق . وحينما كان من العسير على « تا » أن تهبط ، أو تقفز ، نظرا لحالتها ، كان العملاق يحملها كأنما هى طفل وأخيراً وصلوا إلى أسفل المغارة ، واتجهت « تا » فورا إلى مصدر الضوء .

لعلها تعجبت لحظات وهى ترى أن الذئبين لم يتقدما كعادتهما ، وإنما وقفا ينتفضان رعبا ، ويعوءان مواء الهررة . ربما كان ذلك هو السبب فى ترددها حينما وصلت إلى فتحة المغارة ، وكان السبب أيضا فى انقاذ حياتها .

كانت فتحة المغارة صغيرة نسبيا لا يزيد طولها على متر ونصف ، وعرضها على متر ، حتى أن المرأة انصرف تفكيرها مباشرة إلى كيفية خروج العملاق منها وإن كانت قد قدرت أنه سوف يستطيع ذلك عن طريق الزحف . وحينما وصلت إلى المدخل نفسه توقفت تنظر إلى الذئبين . ولكنهما رفضا التقدم . ولم يكن هنالك مناص من خروجهم من المغارة وإلا قضى عليهم جميعا أن يهلكوا جوعا ولهذا أمسكت بوعاء النار ، وتقدمت تتفادى الأحجار على الجانبين .

فى اللحظة التالية امتدت يد ضخمة لم تر لها مثيلا . يد تزيد فى حجمها على ضعف حجم يد العملاق . لم يكن لديها الوقت لتتمعن فى اليد ، أو صاحبها إذ أنها كانت تندفع نحوها لتقبض عليها ، ولو فعلت فما كان هنالك شك فى أنها سوف تلقى حتفها . بسرعة خاطر بديهة دفعت المرأة بوعاء النار فى القبضة الممدود وهربت إلى الداخل . صدرت زمجرة مكتومة ، وانسحبت اليد لحظات ، لكنها اندفعت بعد ذلك عبر المدخل تبحث عن الفريسة .

كانت « تا » قد توقعت هذا ، فلم تدلف إلى الداخل فى خط مستقيم وإنما انحرفت فى حماية أحد جدران المغارة . امتدت اليد لتصبح ذراعا ضخما يزيد طوله على مترين، وبدأ الذراع يبحث فى المحيط حوله عن ضحيته . وتمكنت « تا » أن تمعن النظر . كانت الذراع كأفعى ضخم كثة الشعر يزيد قطرها على ضعف قطر ذراع العملاق ، ومع هذا فلم تكن فيها ذرة من الشحم . كانت كتلا من العضلات الفولاذية المفتولة ، وكان منظر اليد وهى تبحث بشعا تنتهى باصابع ضخمة غليظة وأظافر طويلة قوية قذرة أقرب إلى المخالب . ابتعد الجميع عن مجال اليد ، إلا العملاق فلم تكن طبيعته تعرف الخوف . ما أدركه هو أن هذه اليد تمثل عدوا ، وأن هذه فرصته لاستعمال هراوته المحبوبة .

ارتفعت الهراوة لتهبط بشدة على الذراع . وتحركت الذراع بسرعة خاطفة فاصطدمت بالعملاق . ضربة واحدة طار على أثرها العملاق فى الهواء . ليقع على بعد أمتار من الذراع الضخم ، صرخت « تا » ، رعبا وخوفا على « مو » وانسحبت الذراع من الداخل .

كان من حسن حظ « مو » أن مجال حركة الذراع كان محدودا بالجدار الصخرى ، ولهذا لم تأخذ الضربة قوتها الكافية ، وإلا لكانت قد قضت عليه تماما حتى مع هذا فإن الضربة كانت من القوة لدرجة أنها طوحت به ، وأوقعته على الأرض فاقدا الرشد ، بينما طارت هراوته فى الهواء لتستقر على مسافة تزيد على عشرين مترا .

جرت المرأتان صوبه ، وبدأت « ب » تولول ، فى حين أخذت « تا » تقلب نظرها وتتحسس بيديها من مكان الإصابة . ويبدو أن العملاق قد تلق الضربة فى ذراعه أو كتفه ، على أى الأحوال لم يكن هنالك موضع ظاهر سوى جرح بسيط فى إحدى كتفيه ، من أثر ارتطامه الشديد بالأرض الصخرية . وطمانت (تا) صديقتها فكفت عن الولولة والعويل . جلست على الأرض ، ووضعت رأس العملاق بحنو زائد على فخذها ، وانتظرت صابرة حتى يفيق .

جلست (تا) بعيدة تفكر . أفبعد أن وصلوا إلى النجاه أو كادوا يأتى هذا الشىء ليسد أمامهم الطريق ؟ . أية قوة تلك التى تطيح بضربة بسيطة بالعملاق وكأنه طفل صغير ؟ — أى وحش هذا الذى يقلق النار فى يده ، وضربة العملاق

القوية على ذراعه دون أن يصرخ أو يجرى ؟ هل قضى عليهم بالموت جوعا فى هذه المغارة؟ أم هل سوف يكتفى الوحش فى الخـــارج بما نال ، ويدع الجماعة لحالها ؟ .

واتتها الإجابة عن السؤالين فى اللحظة . ابتدأ جدار المغارة عند الفتحة تتساقط منه بعض الاحجار اثر ضربات قوية تنهال عليه من الخارج . وانتابها الذعر . إن الوحش فى الخارج لم يقنع بالانتظار ليقضى عليهم جوعا ، وانما بدأ يضرب الجبل بيديه يريد أن يوسع الفتحة حتى يستطيع الدخول إليهم . وعلى قدر ماكان الجدار الصخرى سميكا الا أن أجزاء منه سوف تنهار حتما لو استمر الضرب بهذه القوة مدة كافية . ولم تتصور أن هنالك قوة تستطيع أن تمنع الآن موتهم إما جوعا بعد بضعة أيام ، أو قتلا بين يدى هذا الشىء فى بضع ساعات .

° ° °

توقف «بو» فى مكانه فجأة! . راح عقله يعمل بسرعة رهيبة . بشكل ما تبعته «تا» عبر الجبل، وهى الآن ليست على مسافة بعيدة عنه يهددها خطر داهم . لقد واتته الصرخة وكأنها تأتى من مكان سحيق ، فقد كانت على علوها مكتومة لم تأخذ إنطلاقتها العادية . دار ببصره فى جنبات الجبل . وعلى قدر لهفته على الحركة بسرعة ، على قدر ما كان يعلم أنه لن يساعدها باندفاعه . وأن عليه اولا أن يحدد مكانها ، وأن يعرف نوع الخطر الذى تتعرض له .

ببطء شديد ابتدأت عيناه تمسحان الجبل ، جزءا جزءا . لم يكن فى الواقع فى حاجة إلى هذا ، فبعد دقائق معدودة سمع كأنما هنالك من يضرب الجبل بكتلة خشبية ضخمة . لم يكن الضارب على مرأى منه ، لكنه أمكنه بسهولة أن يحدد مصدر الصوت . بخفة القرد اخذ يتنقل من مكان إلى آخر ويقفز من صخرة إلى أخرى، محاذرا جهده الا يحدث صوتا ، وان كان صوت الإرتطام بالصخور الذى سمعه يغطى على الأصوات الضئيلة التى تحدثها حركته .

فجأة رآه رأى العين . لأول مرة رأى الرعب فى وضح النهار . أبصره كما هو فى كل قوته وعنفوانه . جمد فى مكانه لايستطيع حراكا وقد سلبته المفاجأة كل حواسه ، وشلت تفكيره . على بعد لا يزيد على خمسين مترا كان الرعب يقف وهو

يضرب الجبل بيديه المجردتين. إن ما ظنه الرجل كتلة خشبية ضخمة ترتطم بالصخور لم تكن سوى قبضة بشرية. لكن أية قبضة ؟ وأى بشر ؟.

كان مارداً يزيد طوله على أربعة أمتار، وقد كساه شعر كثيف من أعلى رأسه إلى أخمص قدمه. حتى وجهه لم يترك الشعر فيه مكانا إلا الجبهة منحدرة إلى الخلف انحدارا شديدا حتى ليبدو أن الرأس قد فصل منها جزء. ومن خلف حاجبين كثيفين ظهرت عيناه ضيقتان بالنسبة إلى هذا الحجم الهائل. كان الصدر الذى يجاوز عرضه ضعف الرجل البشرى ينطق بالقوة المجردة. القوة الهائلة التى لا حدود لها. وفهم الرجل كيف يمكن أن يقتل ثور بضربة واحدة من قبضة

اليد. وكيف يمكن أن يزاح من الطريق فرع شجرة ضخم. وكيف يمكن أن يهاجم النمر السيفى الناب، ويقتل ببساطة. فهم كل هذا وأكثر منه بمجرد النظر إلى هذا الرعب الماثل على الرغم من المسافة الكبيرة التى تفصل بينهما.

بقى مكانه جامدا لا يتحرك لحظات معدودات. ومن حسن حظه أن المارد كان منهمكا فى محاولته توسيع فتحة المغارة فلم يلحظ وجوده. بخوف وحذر تراجع الرجل إلى حماية بعض الصخور يختفى وراءها عن ناظرى غريمه.

كانت اللحظات الماضية كافية لأن يقدر قوة المارد، كما كانت كافية أيضا لأن يلم بالموقف. فالمرأة رفيقته حبيسة فى ذلك الكهف، والمارد لا يريد أن ينتظر خروجها، ومن معها، إذا كان منهم من بقى على قيد الحياة. كان عليه أن ينقذها. بحركة آلية نظر إلى الرمح فى يده، ولو كان يعرف الضحك لفعل، لكن ظهرت على وجهه بسمة بشرية حقا، بسمة فيها مرارة وسخرية. إنه إن

إستطاع أن يقترب بدرجة كافية من المارد لاقارعه، فان الاصابة لن تكون بالنسبة لعدوه أكثر من وخزة شوكة صغيرة.

كان عليه أن يجد طريقة أخرى للتغلب على هذا المارد الجبار، ومما يبدو كان عليه أن يفعل ذلك بسرعة، إن أراد أن ينقذ رفيقته، فقد بدأ جزء من جدار المغارة فعلا يتفتت تحت الضربات الهائلة. وكما هى عادته، بدأ بهدوء يقدر الموقف. فالمارد واقف تحته مباشرة بمسافة تزيد قليلا على خمسين مترا.

والمسافة بين المارد، والأرض تزيد على النصف ولم يكن لديه من الأسلحة سوى الخنجر والرماح . ونظر حوله مفكراً . أجل والصخور .

نظر حوله ، وتحته. على مسافة حوالى ثلاثين مترا إلى أسفل شاهد حجرا ظن أن فى إستطاعته حمله . هبط محاذرا حتى وصل إليه . وحاول رفع الحجر ، لكنه كان فى الواقع أثقل مما يستطيع حمله . تلفت حوله بجزع ، لم يجد سوى حجارة أخرى أما أكبر كثيرا من الحجر ، أو أصغر إلى درجة لا تجدى . بقوة هرقلية دفعه إليها اليأس احتمل الحجر . وفى حذر وتأن تحرك حتى أصبح المارد تحته تماما . ولم يكن فى حاجة بعد هذا أن يلقى الحجر اذ أنه سقط منه .

بالرغم من أنه كان قد جاهد أن يقع الحجر تماما على رأس المارد ، الا أن عدم تمكنه منه لم يعطه الفرصة لاحكام الرمية . وجرت الحوادث بعد هذا بسرعة. شاهد المارد يرفع رأسه إلى أعلى ، ورآه يحاول أن يتفادى الحجر الضخم وهو يهبط عليه . وفى ثوان إندفع الحجر بسرعة مخيفة ليرتطم به ، وتدحرج معه إلى أسفل الجبل . وقف الرجل ينتظر قلقا . هل يقضى الحجر على عدوه الملعون ؟ . ومضت دقائق ، لم يستطع أن يتحقق مما حدث تماما . لكن كل شىء كان هادئا فى السفح . لم يتعجل ، ولم يتحرك مكانه ، على قدر رغبته فى اللحاق برفيقتــــه .

أخيرا خيل إليه أنه شاهد شيئا يتحرك . وعلى أنه أجهد ناظريه فقد مضت دقائق أخرى قبل أن يتحقق من أن المارد يتحرك فعلا . لم يكن لديه شك فى أن الحجر قد أصابه . لكنه لم يعرف أين حدثت الاصابة ولا مداها أو قدرة المارد على تحملها . فكر فى أن يقطع الشك باليقين ، وبأن يستمر فى إلقاء الحجارة فى المكان الذى ظن أن عدوه قد سقط فيه . اندفع يبحث بجنون عن حجارة مناسبة ، وعندما عثر عليها ، رأى أن الجبار قد قام واتجه مترنحا نحو الغابة .

وقف الرجل ينظر مبهوتا . كيف يمكن أن يبقى على قيد الحياة مخلوق بعد أن صدمه مثل هذا الحجر وهوى به أكثر من عشرين مترا بين الصخور ؟

وليس هذا فحسب ، بل أنه لم تمض دقائق حتى يقوم من سقطته ويسير !! تساءل فى نفسه عن مقصد المارد ، وإن كان يعلم بغريزته أنه انما يهدف إلى الاحتماء بوكره ، أينما كان هذا الوكر . كشأن أى حيوان جريح يقبع فى عرينه حتى تلتئم جراحه .

لم يضع « بو » وقته بعد هذا . هبط سريعا إلى مدخل المغارة ، ودلف منها إلى الداخل . وفوجىء بجسم ضخم يصطدم به ليطرحه أرضا وبأنياب حادة تبغى عنقه . كانت مفاجأة لم يتوقعها ، فلم يكن يعلم أن هنالك ذئبة لا تدرى من أمره شيئا . وعلى قدر ماكانت المفاجأة مذهلة على قدر ماكان رد فعله سريعا . قبض على رقبة الذئبة بيد من حديد يبعد أنيابها عن وجهه ورقبته .

لم يدم هذا الموقف الا لحظات إذ سرعان ما قفز الذئب ليطرح الذئبة عن جسد صاحبه . وتدحرجت الذئبة على الأرض . ووقف الذئب فوقها مزمجرا ومكشرا أنيابه . قام الرجل من سقطته . وصرخت « تا » جذلا وفرحا ، وأقبلت عليه تتحسس جسده كأنما لتتأكد من أنه حقيقة حى . وترك الذئب رفيقته ، وقفز على صاحبه مبصبصا بذنبه وهو يهره ويدور حول نفسه مظهرا فرحة . وداعب الرجل فراءه الناعم . وانكمشت « بى » فى نفسها ، وراحت تدلك رأس العملاق كأنما تبغى أن يعود إليه رشده ليقتل هذا الشبح . وقبعت الذئبة فى مكانها دون أن تجرؤ على الحركة ، وإن استمرت فى زمجرتها وهى تنظر إلى الغريب الذى اقتحم عليهم عرينهم .

تقدم الرجل من العملاق ورفيقته . لم تدعه « تا » يفلت منها لحظة ، وانما استمرت تتحسسه غير مصدقة . وركع « بو » على الأرض إلى جانب صاحبه . وحينما أيقن أنه لم يمت تركه لرعاية « بى » ، وجلس مستندا إلى احدى جدران المغارة وهو ينظر فى عجب إلى التشكلات المدلاة من السقف وإلى الاتساع الهائل للمغارة .

لم يضع الرجل وقته طويلا بعد هذا . كان يعلم أن الحذر يقتضى أن ينتقل الجميع فورا من هذا المكان . ومع يقينه أن المارد قد أصيب إصابة بالغة وأنه ذهب ينزوى فى وكره ، إلا أنه لم يكن يعرف مدى الإصابة ، ولا مقدار تحمل المارد لها ، وخشى أن يعود فى أية لحظة بعد أن يسترد أنفاسه . رأى العملاق

يتململ في مكانه. فأشار إلى المرأة أن تبقى ، وانطلق خارجا يتبعه الذئب . في حين قبعت أنثاه إلى جوار « تا » كأنما قد جرحت كبرياءها فأنفت أن تتبع مولاها .

° ° °

كانت الأيام التالية أيام عمل مستمر مرهق بالنسبة للجماعة . انتقلوا أولا إلى كهف قريب نسبيا من المغارة . لكنه كان مقرا مؤقتا . لقد استقر رأى الرجل على أن هذا أنسب مكان تضع « تا » فيه وليدها ، وإنه هو المكان الذى يجب أن تستقر الجماعة فيه نهائيا . هنالك الجبل ، بكهوفه ومآويه، وهنالك النهر بمائه وأسماكه ، والغابة على بعد منه تستطيع الجماعة أن تكتشف أى عدو على مسافة كبيرة ، وهنالك الغيضات والأشجار المتناثرة تمدهم بالأخشاب ، بل وقد إاكتشف في بعضها ثماراً برية ، ونباتات حريفة . وإن شاءوا ذهبوا إلى الغابة للصيد ، وجنى الثمار .

كان المكان مثاليا من كل الوجوه ، إلا من ناحية واحدة هى وجود ذلك الرعب الذى يعيث فى الأرض . صحيح أنه لم يظهر له أثر منذ أيام، لكن بمجرد وجوده تهديد دائم للجماعة ، وما كان ليوقفه شىء . وفى هذه الأيام لم يكف الرجل عن التفكير فيه ، بالرغم من أنه كان يبحث عن مأوى دائم يعطى الجماعة أكبر قسط من الأمن والراحة .

أخيراً عثر على بغيته. كان كهفا يكاد أن يكون فوق مجرى النهر ، يرتفع عن السهل بحوالى الأربعين متراً فكان من اليسير أن يرى من فيه كل من يقترب . أمامه أرض فضاء، كونت ما يشبه الشرفة الواسعة تنتهى عند أحد طرفيها بجدول صغير تسيل مياهه صافية باردة من أعلى الجبل ، لتنساب بعد ذلك هابطة متعرجة تلتقى بالنهر ، تكونت عنده غيضة صغيرة ، لاحظ الرجل أنه لم يكن فى الامكان الوصول إليه من أعلى ، إذ وقفت الصخور رأسية لا مكان فيها لقدم .

لم يكن فى الإستطاعة الوصول إلى الكهف الا من طريقين . أحدهما جانبي ضيق لا يسع إلا شخصا واحداً ، والآخر عن طريق الصخور ليضيق عند

الفضاء أمام الكهف ، وينحصر بين حاجزين ضخمين من الصخور . كان الكهف في الواقع كأنما كونته الطبيعة ليكون حصنا منيعا يسهل الدفاع عنه .

وحينما دلف الرجل إلى الداخل ازداد سروره . أيقن أن هذا هو المكان المثالي . لم يكن المدخل نفسه ضيقا ، لكنه أيضا لم يكن واسعا ، كان يكفي لأن يدخل منه العملاق براحة . وكان جداره الصخري سميكا ، وتأكد الرجل من ذلك وهو يذكر الضربات التي كانت تهوي على جدار المغارة كالمطارق . واطمأن حينما تصور مثل هذه الضربات تهبط على الكتلة الصماء الضخمة . وبدا له الكهف من الداخل واسعا ، منيرا ، وقد امتد بجوار الجدار الخارجي ما يشبه الممر ، اكتشف حينما دخله أنه يحتوي على حجرة ثانية لا تقل في اتساعها عن الأولى، وإن كانت أقل منها ضوءا .

لم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما استمر الممر عبر الحجرة الثانية لينتهي إلى ما يشبه الخزانة . كانت حجرة ثالثة في الواقع ، لكنها مظلمة لا ترى العين البشرية فيها شيئا . كاد أن يتركها ليعود أدراجه حينما شاهد بصيصا صغيراً من ضوء النهار يدلف بين تشققات في الجبل ، وانتهى إلى أذنيه صوت لو عرف كيف يصفق له لفعل . كان يبدو أن الحجرة الأخيرة تنتهي تماما عند الغدير الذي رآه . ومن الشق سمع صوت المياه وهي تتساقط في الخارج .

عاد ثانية إلى الحجرة الصغيرة ، ونظر من التشقق ، ليتأكد من أن تفكيره كان صحيحا ، وأن الجدول يقع مباشرة أمام التشقق يخفيه عن العيون . مد يده ، لكن الشق كان ضيقا لم ينفذ فيه . ولم يأبه لهذا إذ قفز إلى رأسه خاطر أنه من اليسير عليه أن يصنع مجرى خشبيا صغيرا على قدر التشقق ليلتقط به المياه المنسابة في الخارج حينما يريد ، ويرفعه إذا اكتفى . كلا لم يكن ضيق التشقق بالمعضلة التي يقف أمامها تفكيره .

في اليوم الرابع بعد التقاء الرجل بالجماعة كانوا قد استقروا تماما في مأواهم. كانت النيران تشتعل على الأرض الصخرية في كلتا الحجرتين، وكان الذئبان والعملاق قد اصطادوا فيما بينهم ثورا بريا فاحت رائحة شوائه في جنبات الكهف . وكانت

الجماعة كلها قد اشتركت فى نقل كمية ضخمة من الأخشاب ملأت بها الاماكن الواقعة من كل من الحجرتين. وكان الرجل قد انتقى فرعا خشبيا رفيعا طويلا حفر فى وسطه بخنجره وبسكين حجرى مجرى ضيقا. وظهر عليه السرور حينما جربه فى الشق والتقط المياه لتدخل إلى الحجرة الداخلية. ورفعه بعد أن تأكد من صلاحيته بل أنه اكتشف أن فى امكانه أن يتحكم فى كمية المياه التى يريدها عن طريق امالة الفرع إلى الحد المطلوب. اختار لنفسه ورفيقته الحجرة الثانية، واتخذ من جلد الثور بساطا يقيهما رطوبة الأرض، وجمود الصخر.

اصطنع من الأفرع رماحا متعددة، وراحت تاو تدرب بنو على أستعمالها فى أوقات فراغها. اما العملاق فقد أبى أن يعلمه الرجل إذ لم يكن يرض عن هراوته بديلا. ومضى الذئبان يمرحان، وبدا أن الذئبة قد أنست إلى الرجل فلم تعد تزمجر حين رؤيته، بل انها تركته يسمح بيده على فرائها، ولم ينس دبوء فى كل هذا حذره، فكان هنالك دائما من يجلس فى شرفة الكهف يرقب نهارا، أما فى المساء فكان فى وجود الذئبين ضمان كافيا لأن يتلقى الجمع انذارا إذا ما اقترب دخيل. علمهما الرجل إن مأواهما الفيضة على الشرفة فاتخذاتها مسكنا ومقاما.

كانت تلك جماعة هانئة سعيدة. أمن أفرادها الأخطار فنسوا أن هنالك خطرا لم يكن من الجائز أن ينسوه. لكن شخصا واحدا منها لم ينس لحظة، ولم يلهه الأمان الذى يعيشون فيه، ولا أن المارد لم يظهر له أثر.

كان دائما يفكر. كان عليه ان يقتل المارد، أو أن يترك الجيره ويهرب. لقد علم الآن لماذا لايوجد انسان غيره وجماعته على ما لهذا المكان من مزايا وعلم لماذا لم يهاجمه حيوان وهو ملق فى ظل الشجره فى اعياء ليلة كامله بعد أن طرحه النر. وعلم السبب فى أن العملاق، والذئب قد غابا طوال يوم تقريبا حينما ذهبا يبحثان عن فريسة فى الغابة. كان كل هذا لمجرد وجود المارد.

وكما كان الرجل يفعل حينما يجد نفسه فى أرض غريبة، بدأ عقله يتذ كر ويدرس مايعرفه عن عدوه، لقد صادفه أربع مرات فى أماكن متباعدة، وفى كل مرة كان المارد وحيدا. فهل هو مارد واحد أو هو نوع من الانسان يعيش منفردا؟

ولمعرفته بالحيوانات وطباعها تذكر الدب، وكيف أنه يقضى حياته وحيدا، ولا يجتمع بأنثاه إلا فى وقت التزاوج، فإذا ما علقت الأنثى تركت الذكر لتضع بعيدا عنه، ولو رأى أولاده لافترسهم. هكذا إذا كان المارد فى الأغلب.

تذكر أنه لم يسمع له صوت فى أية مرة، حتى حينما أصابته الصخرة، ولابد أنها كانت اصابة شديدة، لم تصدر منه صرخة ألم أو غضب. وحينما كان يقاتل النمر، لم يصدر سوى اصوات حنجرية أقرب إلى الزمجرة، لكن هذا هو كل ما فى الأمر.

معنى كل هذا أنه حيوان وحيد، له منطقته التى يختص بها، يجول فيها ويفترس فى سكون، لاصوت له، فلا نداء استغاثة، ولا حياة جماعة. وحشية متناهية، فاما يقتل أو يقتل، بلا رحمة، ولا شفقة ولا حنان. لو تعدى واحد من بنى جنسه على منطقة صيده لقاتله حتى الموت.

لم يكن هذا هو كل مالاحظه، لكنه كان كلما أمعن فى التفكير اقتنع بأن المارد لسبب ما يكره الانسان العادى. إن الحيوانات لاتقتل لمجرد القتل، وانما هى تقتل حينما تكون جائعة، أو حينما يهدد حياتها خطر. لقد علمته تجارب الغابة هذا، وكان هو نفسه يعيش على هذا المبدأ أما، ذلك المارد فكان يقتل الانسان لمجرد قتله. لقد رآه يقتل أفراد عائلته أجمعين، وما كان من الممكن أن يكونوا له طعاما.

لو كان تفكيره هذا صحيحا فإن هنالك ماردا آخر فى منطقة مجاورة. لكن ماهى حدود هذه المنطقة؟ وأين تبدأ الأخرى؟ سرح ببصره فى أرجاء السهول والغابات اللانهائية الممتدة أمامه، وكاد أن ييأس من التفكير حينما وقع نظره على النهر. وكومضة برق واتته الفكرة. إذا كانت هنالك منطقة لكل مارد فلابد أن يكون هنالك حدود لها. قد تكون اشجارا معينة، أو فسحة من الأرض. أو أى نوع من العلامات المميزة، أو حتى مجرد خط وهمى يعرفه كل من الماردين بغريزته فلا يتعداه الا متحديا. ولكن حينما يوجد النهر فلا شك فى أنه حاجز طبيعى يكون حدا لكل منطقة. هذا إذا كان افتراضه الأصلى صحيحا.

لم يكن أمامه فيما رأى سبيلا آخر للتفكير. لقد قرر أن يبقى والجماعة فى هذه

المنطقة ومعنى هذا أن المارد لا بد أن يقتل . ولن ينظر هو حتى يواجهه عدوه بل يجب أن يذهب للبحث عنه ، وإيجاد الطريقة للتخلص منه . ولن يستريح أو يهنأ له عيش حتى يفعل ذلك . لم يندفع وراء رأيه ، وإنما بدأ أولا يحصن مكانه قدر استطاعته .

أضحت الأيام التالية مليئة بالعمل له والعملاق . بل ولقد ساعدت فيها المرأتان نسبياً . بدأ بأن بحث عن حجر ضخم تعاون الرجلان على نقله ليضعاه أمام مدخل الكهف بحيث يخفيه من بعد، ويحميهم من الرياح . وأكمل عمله بأفرع الأشجار تغطى ما بقى من الفتحة ، ولم يترك إلا فرجة ضيقة لمرورهم ، فكان من العسير على الشخص العادى أن يتبين المدخل إلا إذا إقترب منه جداً وحتى عند ئذ فقد يمر به دون أن يلحظه .

وبدا العجب على الجماعة حينما رأوه يحمل فرعاطويلا من الأشجار بمعاونة العملاق ، ويضعه على الممر الصخرى أمام الكهف ليرتكز على الحاجزين الحجريين. وازداد العجب حينمارأوه، يقف على الفرع يتحرك فوقه ، حتى أطمأن إلى أنه يتحمل ثقله براحة . وطلب من العملاق بعد هذا أن يفعل مثلما فعل . ولما اطمأن إليه،غاب الاثنان ليعودا بعدمدةوهما يحملان فرعا مماثلا وضعاه بجوار أخيه وجرب الرجل قوة احتمال الفرع الثانى ، وبلغ تعجبهم أشده حينما رأوه يصنع رماحامتفرقه يغرسها فى الأرض ورؤوسها إلى أعلى .

مضت الأيام تباعا والرجل لا يكل ، وفى كل يوم يضم مع رفيقه أفرعا جديدة ورماحا إضافية إلى سابقتها . أخيراً أتم تغطية الحاجزين ليصبح طريقا عهدا من أفرع الشجر لمتراصة فوق حاجزين من الصخور يزيد إرتفاعها على ثلاثة أمتار ويخفى تحته رماحا رؤوسها تتجه إلى أعلى . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما طلب الرجل من الجميع أن يجمعوا حجارة وحصيا،ورمالا ليردموا الغطاء الخشبي ، ويملأوا الشقوق بين الأفرع.وبعد أيام أخرى كان يخيل إليك أن الطريق ما هو إلا مجرد إمتداد طبيعى للسهول المحيطة ، وإن كان إمتدادا صاعدا إلى الجبل .

وتجاوزت حيطته المدى حينما أمر كل مراقب للطريق نهاراً إلا يبرح الغيضة المجاورة ، وأن يحتمى دائما بالأشجار حتى يمكنه الرؤية ولا يستطيع أحد

أن يراه من بعد . لم يكن يذهب للصيد مع العملاق إلا ليلا ، ليعود الاثنان محملين بالفريسة قبيل الفجر . وحينما أتم جميع ما تصوره من احتياط ، جمع الكثير من الأفرع وأوراق الشجر الجافة ليلقيها متناثرة على الطريق الذى اصطنعه ، وإلى جانبيه ، فى شكل طبيعى لا يثير الريبة .

كان قد مضى أكثر من شهر على وجودهم فى مأواهم الجديد حينما أتم الرجل كل ما يبتغيه . لم يظهر طوال هذه المدة أى أثر للمارد . ووضعت « تا » مولودا ذكرا هو أقرب الشبه إلى أبيه . وظهرت أعراض الحمل على « بى » . وبعد أن اطمأن الرجل إلى أن جميع احتياطاته قد تمت . وأن لدى الجماعة طعاما من اللحم . والثمار يكفيهم مدة طويلة قرر أن الوقت قد حان ليقوم بتنفيذ ما اعتزمه للقضاء على غريمه .

بزغت بشائر الفجر ، وتحرك الرجل من جوار رفيقته . انتقى رمحين من الرماح العديدة التى استندت إلى أحد الجدران ، وابتدأ رحلته . تمنطق بخنجره العظمى ، وحمل معه حصوتين لإشعال النيران . كانت « تا » قد فهمت منه ما يجب عمله إذا ما هاجمهم المارد أثناء غيابه ، وإن كان يرجو فى قرارة نفسه الا يحدث هذا حتى يمكنه ان ينفذ ما يدور فى رأسه كاملا .

رأته شمس الأصيل فى الغابة من الناحية الأخرى من النهر . كان يجلس فوق افرع احد الأشجار يلتهم من ثمار الغابة ما يشبع جوعه . لم يتخذ اى احتياط لكى يخفى نفسه . كان يتعمد احداث الجلبة والصخب مع القردة . وحينما جن المساء جمع حطبا وضعه على الأرض ، واشعل فيه النار . لم يمكث بجانبها ، وانما ارتقى شجرة بعيدة بحيث يمكنه ان يراها منها ، ونام على احد الفروع الضخمة ، وكان شيئا لا يشغل باله .

استيقظ فى الصباح ليرى ان النار قد خمدت بعد ان اتت على الأخشاب . لم يتحرك من مكانه ، ودار بعينيه فى ارجاء الغابة . كان من حسن حظه ان المارد ضخم الجثة فلم يكن من اليسير عليه الاختفاء إلا فى اماكن محدودة ولكنه فى هذه الأماكن كان يحسن الاختفاء .

استقرت عينا الرجل على دغل قريب تكاثفت فيه الأشجار ، والأفرع ،

والأعشاب . كان هذا أصلح مكان للمارد ، ومع هذا فلم يبد فيه أية حركة ولم يصدر من ناحيته أى صوت . لم تخدعه المظاهر ، فقد كانت هنالك حقيقة واحدة تقطع بوجود المارد فى الجيرة ، وهو ذلك السكون المطبق الذى ران على الغابة .

مكث فى مكانه لا يتحرك . وراح يقدر المسافة بينه وبين الدغل . ورجع عن رأيه فى أن يظهر نفسه أولا ، فبمجرد محاولته الهبوط من الشجرة سيراه المارد ، وسوف يعطيه هذا فرصة كبيرة للحاق به . لم يكن عند الرجل شك فى أنه الأخف حركة ، وأسرع جريا ، ، لكن هذا يكون عند تساوى الفرص ، والمسافة . وكان هذا هو خطؤه الأول الذى كاد أن يكلفه حياته .

لم تطل لعبة الانتظار فإن جسم المارد الضخم لم يكن يستطيع أن يتحمل الإنكماش لمدة طويلة فى مساحة صغيرة نسبيا عليه . شاهد الرجل الأعشاب تتحرك ، وسمع صوت تكسر غصن ، وانفرج الدغل ليظهر الجسم الهائل . وقف المارد ينظر إلى بقايا النار ، ورأى الرجل العينين الضيقتين الخبيثتين تتنقلان فى أرجاء الغابة ، وتتفحصان كل ركن قريب . كتم أنفاسه حينما تطلعت العينان إلى أعالى الأشجار ، لكن يبدو أنه لم يره ، فبعد مدة دار المارد على عقبيه ، ومشى مبتعدا من الشجرة التى اعتلاها الرجل .

ظن أن الفرصة قد واتته . كان المارد يبعد عن مكانه بأكثر من ستين مترا وهو يبتعد فى كل خطوة . ولم ينتظر الرجل أكثر من هذا . بخفة القردة بدأ يتنقل بين فروع الشجرة هابطا حتى وصل إلى الأرض . وفى اللحظة التالية كان المارد قد إستدار ورآه . وقف الاثنان برهة ينظران إلى بعضهما ثم اندفع المارد ، واستدار الرجل مطلقا ساقيه للريح .

لم تمض دقائق حتى استبان الرجل خطأه . كان يظن أنه أسرع عدوا بمراحل من عدوه ، ولم يكن يريد أن يفقده ، فبدأ متمهلا غير متعجل . لكنه حينما إستدار ليقدر المسافة هاله أنها قد تناقصت بما لا يقل عن الثلث . انتابه ذعر فجائى ، فانطلق يعدو بأقصى سرعته ، مبتعدا عن الموت الذى يلاحقه . وحينما التفت ثانيــة كانت المسافة قد عادت إلى التزايد . لكن ليس بالدرجة التى تمناها .

راح عقله يعمل فى قلق . لقد علم الآن أن المارد لا يستطيع العدو حقا ، لكن رجليه الطويلتين نسبيا كانتا تعطيانه فرصة أكبر نظرا لسعة خطواتهما . لم يكن يبدو عليه أى اجهاد أو تعب ، فى حين أن الرجل إذا استمر على عدوه السريع ، فما لا شك فيه أنه لن يستطيع التحمل لمدة طويلة .

مضت دقائق ، وكان صدره قد بدأ فعلا يضيق بنفسه . أيقن أنه إذا استمر على الاحتفاظ بهذه السرعة فأنه لن يصمد طويلا ، وسيضطر إلى الوقوف كلية أو الاقلال من السرعة . وفى كلتا الحالتين سيلحق به المارد . كان لا بد له من الراحة حتى يستطيع الصمود . انحرف فى مساره فجأة ، وضاعف من سرعته باذلا كل جهده حتى وثق أنه إختفى تماما عن مرأى المارد ، ثم انزوى فى حمى دغل يلتقط أنفاسه ، ويجمع شتات أفكاره . كان يعلم أنه يستطيع أن يكرر هذه الحيلة طالما هو فى الغابة . لكن المسافة بين الغابة والجبل طويلة ، ولن يستطيع فيها أن يكررها ، فعليه إذا أن يبدأها وهو على أتم ما يكون من الراحة وأن يعطى نفسه أقصى فرصة بأن تكون المسافة بينه والمارد ، حين يبدآن ، أطول ما يمكن أن تكون .

شعر بالعطش الشديد ، وبأن حلقه جاف يلتهب ، لكنه لم يعر الأمر التفاتا ، وصرف كل إحساساته إلى التصنت والنظر . ولم تمض دقائق حتى التقطت أذناه صوت تكسر غصن . تردد برهة بين أن ينطلق من مخبئه أو أن ينكمش تاركا الأمر للصدفة عسى الا يكتشف عدوه مكانه . واختار الاختباء إذ يعطيه فرصة أكبر لاسترداد قواه كاملة . ظهر المارد من بين الأشجار ولم يتوقف فى سيره ، وإن دارت عيناه باحثة منقبة فى كل شجرة أمامه . امسك الرجل أنفاسه حتى تخطاه ، وأيقن أنه قد ابتعد عنه . ثم خرج من مكمنه ، وسار متمهلا فى أثره متتبعا صوت وقع الأقدام ، ومحتميا خلف كل شجرة فى الطريق .

فجأة توقف الصوت أمامه ، وجمد فى مكانه لا يتحرك . هل أحس المارد بخطوات تأتى من خلفه ؟ أم أنه قد زهد البحث وضرب صفحا عن فريسته ؟ تلفت حوله يبحث عن مخبأ يحتمى به . وحينما رآه عدل عن الذهاب إليه إذ كان يبعد عن مكانه وخشى إن تحرك أن يحدث صوتا يسمعه المارد .

هبت نسمة شمالية خفيفة حملت إليه رائحة هدوء واضحة ، ومع هذا فلم يصل أذنيه أى صوت . لبث جامدا يفكر فى تصرف المارد . ومضت دقائق والسكون على ماهو عليه . لم يجرؤ على الحركة ، وبقى مكانه مرهفا كل حواسه . ثم قطع السكون صوت إرتطام قوى ، وصيحة مكتومة . عاد الصمت بعدها يرنو على الغابة .

بحذر شديد تحرك الرجل محتميا وراء الأشجار فى كل خطوة ، ومتتبعا الرائحة . لم يمض وقت طويل حتى شاهد المارد . كان يجلس مستندا إلى جذع شجرة ضخمة ، وهو يلتهم جثة رئم صغير . وتنهد « يو » بارتياح . لقد صادف المارد الرئم فنسيه . كان كأى حيوان آخر ضعيف الذاكرة ، وإذا ما صادف غذاؤه الهاه عن أى شىء آخر . اختزن الرجل هذه المعلومات الجديدة عن المردة وأضافها إلى ماعنده . هذا إذا هو السبب فى أن المارد فى الناحية الأخرى من النهر لم يحاول أن يهاجمهم ، أو يبحث عنهم ثانية ! لقد نسى وجودهم ببساطة .

استراح إلى الخاطر . راح من مخبئه يراقب المارد وهو يلتهم جثة الرئم بشراهة . رآه وهو يقضم اللحم الطرى النيء والدماء مازالت تسيل منه وتتساقط من الفم الممتلىء . رأى اليدين الضخمتين تعبثان فى الجثة تقطعانها بسهولة عجيبة دلت على مدى القوة الكامنة فيهما .

لم يمكث بعد هذا طويلا فى مكانه . كان يعلم ما سوف يحدث . إن المارد سوف يتم غذاءه فى هدوء ، ولعله بعد هذا يستريح ، أو ينام أو يذهب إلى النهر ليشرب ، لكنه لن يترك الجيرة إلا بعد بضع ساعات ليبحث عن فريسة جديدة . وانتهز الرجل الفرصة . انسحب بهدوء من مكانه وانطلق فى الغابة بحثا عما يأكله

عثر على بعض الثمار البرية ، أكل منها كفايته ، واغنته عن البحث عن مياه يطفىء بها ظمأه . والتقط فرعان يصلحان كرمحين ثم انتقى شجرة ضخمة إرتقاها إلى أقصى ماتتحمله الفروع ، ولم يتخل عنه حظه فصادف عشا لأحد الطيور ، وحينما عبث فيه استخرج بيضتين كبيرتين سرعان ما كسرهما ، والتهم

ما فيهما ثم استلقى على أحد الفروع معتنيا أن تخفيه الأغصان والأوراق عن العين المتطفلة . وبدأ يصطنع لنفسه رمحين .

مضت أكثر من ساعتين ، وقارب النهار الانتصاف قبل أن يتم الرجل عمله. تناول حربتيه وخرجه الصغير ، وهبط بحذر إلى الأرض ثم اتجه من فوره إلى حيث ترك المارد . لم يكن عدوه قد تحرك من مكانه ، كان جالسا حيث هو وقد أغمض عينيه ، وراح فى سبات عميق .

دار الرجل دوره كاملة حتى أضحى على بعد لا يزيد خطوات من عدوه النائم ، وبأقصى ما لديه من قوة قذف بأحد الرمحين ليستقر فى الصدر العريض. ولم ينتظر ليرى نتيجة عمـــله ، استدار ، وانطلق فى طريق الجبـــل بأقصى سرعته .

إنتفض المارد مستيقظا ، وندت من حنجرته حشرجة هى بين الزمجرة والألم المكبوت . وامتدت يده لتنتزع الرمح الخشبى من صدره ، وتطوحه فى الهواء والدماء تقطر منه ، ثم هب واقفا وانطلق فى أثر عدوه ، وقد امتلأت عيناه غضبا وكراهية . كانت الدماء تقطر من صدره ، لكن لم يكن لمثل هذا الجرح أدنى أثر فى الجسم الحديدى الضخم ، فى حين دفعه الغضب الأعمى إلى مضاعفة سرعته حتى وجد الرجل أن عليه أن يعدو بأقصى ما يستطيع من سرعة ليمنع عدوه من اللحاق به .

ابتدأت المطاردة . لم تمض عشر دقائق حتى كان الرجل قد ترك الغابة منطلقا فى طريقه إلى الجبل . وعلى بعد لا يزيد على مائة متر اندفع وراءه المارد . وللمرة الثانية أدرك (بو) أنه قد أخطأ وأساء التقدير . فى الغابة لم تكن هنالك أحجار تعوق تقدمه ، أما هنا وبعد أن جرى مسافة لا تزيد على خمسين مترا بدأت الحصى ، والأحجار ، تكون عائقا هاما يحد من سرعته ، فى حين لم تكن هذه الحصى والأحجار لتحد من سرعة المارد إذ لم يكن لها أثر فى القدمين الضخمتين الخشنتين ، وجلدهما السميك . وابتدأت المسافة تضيق بين الخصمين .

انحرف (بو) تجاه النهر ظنا منه أن الحصى تقل نسبيا على الضفة ، ووجد أن هذا كان صحيحا ، بل أنه يبدو أن الطين الرخو كان عاملا يساعده لو عثرت قدماه بحصى ، فى حين أنه كان يعوق المارد الذى كان ثقل جسمه يجعل قدميه تغوصان

نسبيا فى الطين الطرى . ولم يفكر المارد ألا فى تتبع آثار (بو) ولهذا إنحرف إلى ضفة النهر وراءه دون أن يعقل أنه لو استمر فى مساره الأول لكان هذا أسرع له وأوفق .

دون أن يخفف من سرعته ألقى « بو » نظره وراءه . وتنهد بارتياح حينما شاهد أن المسافة بينه وبين المارد عادت إلى التزايد . كان مايزال منطلقا بأقصى سرعته ، ولم يبد على المارد أنه قد خفف هو أيضا من السرعة ، وفى أقل من عشر دقائق أخرى كان الاثنان قد قطعا أكثر من ثلث المسافة إلى الجبل . لكن (بو) كان قد بدأ عدوه فى الغابة منذ حوالى عشرين دقيقة ، ولم يتوقف لحظة واحدة عن بذل أقصى مجهود ، راحت أنفاسه تتردد سريعة ، وتصبب جسمه عرقا وعرف أنه لن يستطيع أن يستمر على هذه السرعة حتى يصل إلى حمى الجبل .

انتابه الذعر وهو يلاحظ أن ساقيه بدأتا تتراخيان ، وأن تنفسه أضحى عسيرا ، وأن عينيه بدأتا تكلان . انتابته الآلام فى شتى أعضاء جسمه ، وازداد شعوره بوخزها فى عضلات رجليه ، كان لا بد أن يبطىء من سرعته ، أو يتوقف كلية . ومع هذا فقد كان الموت وراءه يتقدم بخطى ثابتة دون ملال أو كلال .

نظر إلى النهر عساه أن يجد قطعة من خشب قريبة من الضفة يستطيع أن يتعلق بها ، ويدفعها إلى وسط المجرى ، لكن المياه كانت تنساب أمامه سريعة صافية لا أثر فيها لأخشاب تصلح . لاحظ أنه بالرغم منه قد قلل من سرعته فلم تعد الرجلان تستطيعان تحمل العبء الهائل لمدة أطول . رفع رأسه بذعر إلى الجبل . كانت المسافة مازالت تزيد على النصف ، ولم يبد عليه أنه إقترب منه .

لكن المارد أيضا لم يكن فى حاله أحسن من الرجل . لم يكن قد اعتاد أن يسير بسرعة كل هذه المدة ، ولم تكن رجلاه القصيرتان بالنسبة إلى جسمه اعتادتا تحمل هذا الوزن الهائل فوقهما دون راحة لمدة طويلة . وأضاف الطين عبئا جديدا عليهما ، وعلى الصدر الضخم ، فراحت أنفاسه تتردد فى صعوبة بالغة . على أن المارد من ناحية أخرى لم يكن يزيد كثيرا عن مجرد حيوان ،

فهو إما أن يبلغ هدفه، أو يسقط بعد أن تكون آخر قطرة فى قواه قد نفدت . ولهذا لم يقلل من سرعته أو يتوقف ، وإنما اندفع وراء خصمه دون مبالاه .

أضحت المطاردة معركة إرادة من ناحية ، وقدرة بدنية من ناحية أخرى . فارجل لم يكن يدفعه فى الواقع إلا إرادته . كانت قدماه تدميان من الحصى المتناثرة التى، وان كانت أقل عن ضفة النهر من الداخل، إلا أنها كانت من الكثرة بحيث كثر تعثره فيها خاصة بعد أن أعيا . وازداد ضعف ساقيه وتوتر عضلاتها ، أصبح كل تنفس يدخل صدره سوطا من نار يلهبه . وجف حلقه حتى أنه ما كان يرطب الهواء الداخل إلى حنجرته . وشعر بقلبه يطرق متفجرا يرن صداه فى أذنيه وجانبي رأسه . وكلت عيناه تماما أو كادتا ، ومع كل هذا فقد كان يعرف أنه إن توقف أنتهى أمله فى الحياة . استمر لدقائق أخرى يقاوم . ونظر إلى الجبل من خــلال الغمامة التى كانت تغطى عينيه . ولم يبد أنه اقترب منه .

أخيرا زادت الآلام حتى أنه لم يعد يبالى إن جاءه الموت . بل لعله تمناه ففيه رحمة من هذا العذاب . لم تعد ساقاه تتحملان ثقل جسمه . وانثنت ركبتاه ، فسقط على وجهه يلهث . بقى مكانه دقائق ينتظر الموت . لكن الموت لم يأت . وبدا له أن انتظاره قد طال ، وعادت أنفاسه تتردد بيسر أكثر ، فأدار رأسه ليرى أن المارد قد سقط بدوره ، وأنه لايتحرك من سقطته .

وقفز الأمل عائدا ينير له الحياة .لم يتعجل إذ أنه لاحظ أن المسافة بينه وبين المارد أكثر من ذى قبل. زحف ببطء إلى حافة النهر يرتشف من مياهه ويدفن رأسه فيها . أحس بقواه تعود إليه، لكن عضلات جسمه كانت ماتزال تعانى من المجهود الشاق ، اعتدل جالسا ،وانزاحت الغشاوة عن عينيه. رأى أن الجبل أضحى لاتزيد المسافة إليه اكثر من بضع مئات من الأمتار ، وأن الأرض كانت قد بدأت ترتفع فعلا . وأدار بصره إلى المارد ليرى أنه بدوره قد بدأ يتحرك .

تحامل على نفسه قائما ، واتجه إلى الصخور أمامه . ولم يبتعد بضعة أمتار حتى التفت خلفه ليرى أن المارد قد قام بدوره، وأنه يتبعه، لم يكن من اليسير

عليه أن يترك فريسته تفلت من يديه . فى هذه المرة لم يستطع الرجل أن يطلق الساقية العنان ، فكان جريه على ما إعتاده فى حياته بسهوله ويسر . تناقصت المسافة سريعا ووصل «بو» إلى الصخور ، فإخذ ينتقى طريقه بينها . وبالرغم من أنه لم يفصله عن المارد أكثر من خمسين مترا ، إلا أنه أستمر يحتفظ بقواه لأنه كان يعلم أن المطاردة لم تنته بعد وأن ما أمامه لا يقل فى صعوبته عما مضى ، إن لم يزد .

كان هذا هو خطؤه الثالث . لم ينتبه إلى أنه كان عليه أن ينتقى طريقه بين الصخور ، فى حين كان المارد يتخطى صخورا من العسير عليه أن يتخطاها .

لم تمض دقائق بعد هذا حتى أحس «بو» بخطئه . كان المارد لا يبعد عنه بأكثر من ثلاثين مترا ولم يكونا قد جاوزا منتصف المسافة بين ضفتى النهر . حاول جاهدا أن يبتعد ، وضاعف من مجهوده ، لكن المسافة بقيت على ما هى دون أن تتزايد مترا واحدا بل لعلها نقصت . لم يلتفت الرجل وراءه بعد هذا ، وانما قصر جهده على إنتقاء طريقه ، والقفز من صخرة إلى أخرى ما استطاع .

كانت المسافة قد تناقصت إلى أقل من عشرة أمتار حينما لمست قدما الرجل الأرض المنبسطة على الضفة الثانية للنهر . اندفع بكل قواه بعيدا عن الجبل ، نحو الغابة وبدأت الافكار تدور فى رأسه . لم يحاول هذه المرة إلا أن يبتعد بالقدر الكافى عن المارد ، واستمر فى جرى متراخ يحفظ المسافة بينهما . لو كان تقديره صحيحا فان هنالك ماردا آخر يقبع فى مكان ما من الغابة الشاسعة أمامه كانت خطته أن يتلاقى المارد أن ليقتلا بعضهما .

وتدافعت إلى رأسه شتى الأسئلة . هل هنالك مارد ثان حقيقة أم أنه مجرد الوهم الذى صور له وجوده ؟ وحتى إن وجد هذا المارد الآخر فأين هو الآن فى هذه الغابة المترامية ؟ هل يرقبها الآن أم أنه على بعد أميال داخل الغابة ؟ أو لعله نائم فى ظل شجرة ينعم بعد أكلة دسمة . لقد مضى أكثر من شهر دون أن يظهر له أثر ، فما الذى يجعله يظهر الآن ؟ ماذا لو اندفع هو فى الغابة ليقع فريسة سهلة فى يد المارد قبل أن يظهر الآخر الذى يجرى خلفه ؟ ماذا لو أن الماردين لم يتقاتلا وانقلبا ضده .

دفعته هذه الأفكار إلى مضاعفة المسافة التى تفصله عن مطارده . فايا كانت الأوضاع فلا شك فى أنه يجب أن يبعد المارد عن مكان الكهف الذى تقطن

فيه الجماعة . ومضت الدقائق ، وعاد إلى سابق جريه الهادىء ابعد أن تأكد ن المسافة قد تضاعفت .

كان الإثنان قد قاربا الدغل الذى احتمى به الرجل اول الأمر حينما قذف به النهر إلى هذه الضفة ، ولم تكن الغابة لتبعد بأكثر من الف متر . وبشعور خفى انحرف « بو » بعيدا عن الدغل ، وفى اللحظة التالية ظهر من بين الأشجار مارد آخر . وتوقف مطارده .واندفع الرجل باقصى سرعه بعيدا عن الاثنين.

التفت خلفه ليرى أنهما يتقدمان من بعضهما غير معيرين التفاتا إليه ،وكأنهما قد نسياه . وتوقف بدوره ليشهد اكثر مارأت عيناه من وحشية وضراوة فى القتال . ولم يكن بمفرده الذى يشهد هذا القتال ، لكن عيونا اخرى قلقة كانت تنظر من شرفة الجبل جاهدة فى التعرف على مجرى الامور . هناك عند الكهف ، وقفت المرأتان ، والعملاق ، والذئبان يحاولون أن يميزوا الحوادث. هم العملاق بالحركة ليتجه لنجدة صاحبه ، لكن وتاء حالت بينه وبين ذلك . ورضى بالبقاء بعد أن فهم أن هذه هى أوامر « بو » . أما الذئبان فكانا ينتفضان ذعراو هما يريان بوضوح مايحدث.

التحم الماردان ببطء. كان التعدى على المكان هو الجريمة التى لا تغتفر. جزاؤها الموت ، وبدأ القتال وحشيا منذ اللحظة الاولى . قوة مجردة تصارع قوة أخرى مجردة. لم يكن هنالك أى دخل للعقل أو الحيلة، أو المكر ، أو الخداع، وانما هى القوه بأجلى معانيها. انهالت الضربات من الجانبين كالمطارق يحدث إرتطامها أصواتا عالية. كانت مثل هذه الضربات هى التى فتتت الصخور عند المغارة. ومع هذا فلم يكن أثرها يزيد عن أن يترنح الذى تلقاها . ويعود ليكيل لخصمه مثلها كانت ضربات بطيئة قوية متعمدة لم يحاول احدهما أن يتحين فرصة أو أن يتابع انتصارا، بل لعل كلا منهما كان يكيل الضربة وينتظر حتى يتلقى ضربات خصمه .

كان الماردان يتساويان فى الضخامة ، والشكل ،فكأنما هما توأمان لا يستطيع الرائى أن يفرق بينهما . وبعد مدة من الالتحام فقد الرجل نفسه القدرة على المعرفة . لم تكن ضرباتهما تستهدف مكانا معينا من الجسم ، وأنما هى تنزل حيث تصيب . ولم تمض فتره حتى كانت الدماء تسيل من كليهما . من الوجه

والصدر ، والذراعين . رأى الرجل الدماء تختلط بالشعر الكث ، ورأى الوجهين ينتفخان ، وأغلقت احدى عيني مارد ، وسالت الدماء ، بغزارة من أنف الآخر ومع هذا فلم يتوقف سيل الضربات المنهالة .

لم يصدر من أيهما صوت، وحبس العالم أنفاسه وهو يشاهد قتال الجبابرة. ووقف الرجل مشدوها لا يتناهى إلى أذنيه سوى أصوات ارتطام الضربات بالجسدين الحديدين . حتى صوت انسياب المياه القريبة بدأ كأنه اختفى احتراما لهذه القوة البادية .

مضت اللحظات كأنها الدهور ، وتوقف الماردان برهة كأنما يلتقطان أنفاسهما ، ثم بدأ الإلتحام مرة ثانية . بدا كأنما الإثنان يحتضنان بعضيهما . واستعملت الأظافر الصلبة ، والأصابع القوية تخمش الجلد ، والوجه والعيون . وانغرست الأسنان، والأنياب الحادة حيثما اتفق لها أن تكون . وحاول أحد الماردين أن يعصر عدوه ليخرج أنفاسه من صدره فطوقه بذراعيه ، ومضى يضغط بكل مافى قوته غير عابىء بالضربات التى أنهالت عليه تقطع من لحمه ، وتكسر من عظامه . وتحيل المجموع إلى خليط من الدماء، والعظام ، واللحم

ويبدو أن الضربات التى نالها المارد قد أثرت فيه إذ إنفصل الاثنان ووقفا برهة ينظران إلى بعضيهما من خلال الدماء السائلة . لم يكن فى النظرتين أى خوف ، أو قلق فلم يكن للموت معنى لأيهما . بل لم تبد الكراهية ، أو الحقد ، أو أى شعور آخر . كان القتال، وغريزة القتل فقط هما السائدان . وعادت الضربات تنهال . لاحظ الرجل أنها كانت أقل شدة مما بدأت ، وأن الصدرين الهائلين يرتفعان، وينخفضان بثقل وجهد متزايدين .

أخيرا هبط الجسدان الضخمان على الأرض كجبلين يتهاويان ، واستمرت الضربات تتالى ، والدماء تسيل . لكنها كانت ضربات ضعيفة ، بعيدة عن بعضها كأنما كان صاحباها يعانيان جهدا فى مجرد رفع ذراعيهما . راحا يتقلبان على الحصى لتختلط الدماء بهما وبالتراب حولها ، وليلتصق التراب بالجسدين المسربلين بالسائل الأحمر القانى . ومضت الدقائق ثقيلة ، ورأى الرجل نهاية القتال . لقد اعتلى أحد الماردين الآخر ، وغرس يديه فى عينيه بقوة يقتلعهما .

وسالت منها الدماء غزيرة ، وأطبقت الأسنان الحادة على العنق المكشوف على الأرض . وحاول المارد المسجى أن يتخلص من جسد غريمه ، وارتفعت يداه مرات لتهبطان على ظهره ، لكن النهاية كانت قد حانت ، فلم تمض لحظات حتى كانت قصبته الهوائية قد انقصمت عن عنقه وخمد الجسد الهائل .

لم يتحرك المارد المنتصر . بقى هامدا فوق صدر غريمه حتى ظن الرجل أنه مات بدوره . تقدم منهما حذرا . وتوقف لحظة ليلتقط حجرا ضخما من الأرض ، ثم تقدم بخطى بطيئة حتى وصل إلى الكومة الهائلة المسجاة المختلطة من العظام ، واللحم ، والدماء ، والتراب ، والحصى . شاهد أن المارد المنتصر لم يكن قد مات بعد إذ كانت أنفاسه تتردد . رفع الحجر إلى أعلى ليهبط به على رأس غريمه ، لكن فجأة تحرك الذراع الضخم ليصيبه فى صدره بضربة طاحت الحجر ، وقذفته فى الهواء أكثر من ثلاثة أمتار اصطدم بعدها بالأرض بشدة رضت ضلوعه ، وعظامه .

بقى « بو » فى مكانه ذاهلا . كان المارد ضعيفا لا يقوى على الحركة ، وإلا كانت الضربة كفيلة بالقضاء عليه . لكنها مع ذلك كسرت بعض ضلوع صدره . أحس بالآلام مبرحة مع كل نسمة هواء تدخل صدره . ودارت به الأرض حتى أضحى فى شبه غيبوبة ، وأدرك أن غريمه لا بد أنه الآن يقف فوقه ، ويكفى أن يطأه بقدمه ليقتله كالحشرة دون أن يستطيع دفاعا عن نفسه . وفتح عينيه ليرى الدنيا ظلاما ، جاهدت إرادته ضد الآلام وضيق التنفس ، والغيبوبة . وابتدأت الغامة تنقشع من أمامه شيئا فشيئا .

رأى السماء صافية لا أثر فيها للغيوم ، وبدت له قمم الجبل تتطاول من بعيد . أحس برأسه يكاد أن ينفجر ، وهو يحاول أن يديره لينظر إلى ناحية المارد لكنه أرغم نفسه ، وهاله ما رأى . كان الجسم الضخم لا يبعد عنه سوى ثلاثة أمتار ، تقل . ورأى العينين الضيقتين وقد تورمتا فإزداد ضيقهما تنظران إليه بوحشية . شاهد الوجه البشع وقد ازدادت بشاعته من أثر الدماء والتراب المختلطين بالشعر الذى يكسوه ، وبالجلد العارى فى الأماكن القليلة من الوجه . رأى الأنف الأفطس يقطر دما ، والشفتين المنفرجتين الضخمتين وقد انشقت

العليا وتورمت لتظهر الفم وقد خلا من بعض الأسنان . وانتابه الذعر وهو يرى الذراع المكسو بالشعر الطويل يمتد إلى ناحيته كأفعى ضخمة تزحف على الأرض فى بطء .

لم تتمكن الذراع من أن تصله . وبدا على المارد أنه يبذل جهدا كبيراً ليتحرك من مكانه . إرتفع الرأس ، وتلاه الكتفان . وإنسحب الذراع قليلا ليتكىء الكتف عليه فى محاولة للنهوض . شاهد الرجل كل هذا كأنما هو فى حلم ، وبذل مجهودا جبارا ليقوم ويبتعد عن الموت الذى يتحرك فى بطء وثقة . واندفع ألم طاغ إلى صدره سمره فى مكانه ، وأسقط رأسه ثانية على الأرض يلتقط إنفاسا تدخل بصعوبة إلى صدره . وعاودته السحابة السوداء تغطى عينيه .

مضت لحظات وهو ملقى فى مكانه لا حراك به ، وقد داهمته غيبوبة مؤقتة . وحينما فتح عينيه وانقشعت السحابة ، رأى اليد الضخمة ترفع فوق رأسه مباشرة . حاول يائساً أن يتحرك دون جدوى . وفى ثوان علم أن اليد الهابطة سوف تنهى حياته . لكن حتى إرادة الحياة كانت قد تركته . علقت عيناه بذهول يكاد أن يصل إلى افتتان المأخوذ باليد وهى تهبط ، واستسلم للموت .

لكنها لم تهبط عليه . بسرعة البرق اندفع جسم كبير فى الهواء ليلتقط اليد . وانغرست أنياب طويلة حادة فى الرسغ لتبعد الذراع كاملة عن مرماها واستمع الرجل وهو فى شبه غيبوبة إلى زمجرة حبيبة كأنها الأنشودة فى أذنيه لقد تغلب الذئب على رعبة من المارد . حينما شاهد صديقه فى خطر ، إنطلق من شرفة الكهف ليصل فى الوقت المناسب لينقـــذه . غير عابىء بالموت ، أو الرعب .

وتحرك الذراع الضخم ، يطوح بالذئب ، يريد أن ينفضه عنه . وتقلب الذئب مع حركات الذراع ، وكأنه طفل صغير . لكن الفكين القويين ظلا يطبقان على الرسغ لايدعانه . لم يكن هنالك شك فى أن ضعف المارد الشديد هو الذى مكن الذئب من الإستمرار فى الإطباق على اليد ، وإلا لكانت حركة واحدة تكفى لأن تقذف به بعيدا . ومع هذا فإنه لم تمض لحظات أخرى إلا وكان الحيوان المسكين يطير فى الهواء ليسقط على الأرض بعيدا عن الاثنين .

وكأنما أعطى الذئب دفعة جديدة للرجل فشعر بقواه تعود . تحامل على نفسه، ونهض واقفا مبتعدا عن الموت إلى جواره . أمسك ضلوع صدره المكسوره بيده كأنما ليحاول أن يلحمها . وخفف ضغط يده بعض الآمه فبدأ يسير مترنحا نحو الكهف . كان مايدفعه هو مجرد غريزة الحياه ، ولاشيء آخر غيرها . بدا له الجبل على مسافة هائلة ، وداخله شك كبير فى إستطاعته الصمود حتى يصل ، ومع هذا فقد ظل على ترنحه يتحامل .

انضم إليه الذئب بعد برهة . ولاحظ «بو» أن صديقه يعرج فى سيره ، وأن الدماء تسيل من مكان ما فى فخده ، لكنه لم يكن يستطيع أن يفعل من أجله شيئا . أستمر الاثنان فى سيرهما البطيء . ومضت دقائق رهيبة فى آلامها ، وإن كان الرجل قد اعتاد الالم نوعا ما ، وعرف كيف يبقى على الوضع الذى يجعله أخف حدة . التفت وراءه . كان المارد قد قام من رقدته ولاح أنه يترنح فى وقفته ، ثم أخذ يتبعهما بخطى بطيئة ثابتة .

حاول «بو» أن يزيد من سرعته ، لكن سرعان ما انذرته الآلام بعودة الدوار والغيبوبة فعاد إلى خطواته المترنحة الاولى . وتضاءلت المسافة بين الخصمين ، ونظر الرجل إلى الجبل ، واليأس يعصر قلبه . أرغم نفسه على أن يزيد من سرعته، وازدادت الآلام فى صدره شدة حتى أنه كاد أن يصرخ .، كتم أنفاسه فلم يعد يتنفس الا عند الضرورة : وبدأ الدوار يداخله ،فكان يسير على غير هدى . لم تعد عيناه فى الواقع تريان شيئا ، فاغمضهما كلية حتى لايشعر بالدوار ، أو عساه إن يقلل من وقعه .

وجاء وقت نفذت فيه قوته تماما . بدون سابق انذار تراخت ركبتاه ، ولم تعد ساقاه تستطيعان حمل جسمه . دارت الارض ، واظلمت الدنيا فتهاوى ساقطا. سمع فيما يشبه الحلم زمجرات صديقه، واحس بيدين قويتين تطوقانه ، وترفعانه من الأرض ، ثم لفحة الهواء البارد النقى كأنما شخصا قد احتمله وجرى به .

والواقع أن هذا كان ماحدث تماما : فقد رأى الذئب رفيقه يتهاوى على الأرض ، واقترب المارد حتى أضحى لايبعد بأكثر من أمتار قليلة ، ورأى الذئب أن صديقه لايستطيع الحركة، وأنه مائت لامحاله . بدون أدنى تفكير فى الخطر الماثل أمامه ، اندفع إلى ساق المارد يغرس أنيابه ويعمل فيها بمخالبه .

حاول المارد أولا أن يقذفه بعيدا بمجرد تحريك ساقه ، لكن الذئب كان يدافع عن حياة رفيقه ، فشدد من إطباق فكيه على الساق . انحنى المارد بثقل كأنما كانت كل حركة تسبب له ألما ، وبضربة واحدة من يده أطاح بالذئب . اطلق الحيوان المسكين صيحة ألم لم تكتمل وهو يطير فى الهواء ليسقط على بعد أمتار .

التفت المارد إلى حيث شاهد الرجل يسقط ، لكنه لم يكن هنالك . لقد شاهد العملاق ما حدث . وعلى بطء تفكيره عادة كان تقديره للموقف سريعا . اندفع بدوره هابطا من الكهف ، وجرى بأقصى سرعته ليحتمل صديقه بين يديه بخفة زائدة كأنه طفل ، ويعود به متبعاً الطريق الذى اصطنعته الجماعة إلى شرفة الكهف .

بقى المارد مكانه ينظر بذهول إلى ذلك العملاق الذى كان قد ابتعد بحيث يكاد أن يختفى من أمامه . اتجه إلى ناحية الكهف سعيا وراءه . لكن التعب كان قد نال منه فلم تكن الدماء التى نزفت بغزارة من أثر قتاله المرير مع ابن جلدته ، ولا الآلام الحادة فى شتى أنحاء جسمه وعضلاته ، ولا أنياب الذئب التى انغرست فى يده وساقه بالشىء الهين حتى على مارد مثله . سار خطوات ثم تهاوى على الأرض وبقى مكانه يرقب الكهف ، وأهله من بعد .

أفاق « بو » من غيبوبته المؤقتة ليرى نفسه ملقى على أرض الكهف ورأسه على فخذى « تا » تمسح جبينه الذى تجمعت عليه قطرات العرق . ظل عقله برهة لا يعى تماما ما حدث ، ثم لاحت فى عينيه نظرة تساؤل . بالرغم من محاولة احتجاج من المرأة قام يسير مستندا إلى جدران الكهف حتى خرج إلى الشرفة . كانت « ب » تجلس مستندة إلى الجدار الخارجى ، وهى تنتفض من الرعب . ووقفت الذئبة تطلق عواء طويلا ، حزينا فى حين كان العملاق يقف منتصبا بكامل قامته ، وقد انفجرت رجلاه ، وقبضت يده على الهراوة الحبيبة ، وثبت ناظريه حيث يرقد المارد .

ناداه « بو » فالتفت إليه مستفهما . وبإشارات سريعة فهم العملاق والمرأتان مايريد . بسرعة دلفوا إلى الكهف ليخرجوا منه بعد لحظات ، وقد حملوا ذخيرتهم من الرماح كما حملت المرأة وعاء النار . ثم دخلت ثانية لتخرج

ومعها بعض الاخشاب الجافة ، وتضع الجميع إلى جانب الرجل الذى انتقل إلى حافة الشرفة : وأشار «بو» ثانية إلى العملاق فأخذ هذا بعض الرماح ، وترك هراوته مترددا ثم اندفع إلى حيث رقد المارد .

شاهده المارد وهو يندفع نحوه ونظر إليه متعجبا . لم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب منه ، حتى وهو فى اشد حالات ضعفه ، ولا بد ان هذه كانت المرة الأولى فى حياته التى رأى فيها رجلا من الاقزام ، اعد إؤه بالغريزة . يتقدم نحوه غير هياب منه . آه وهو يرفع أحد الرماح ليلقيه عليه . وتلقى المارد الرمح بيده ليبعد عنه قبل أن يستقر فى جسده .

وتوالت الرماح تتساقط عليه . أصابه أحدهما فى كتفه اصابة شديدة . وبغضب مكبوت نزع الرمح من صدره ليلقيه ، وتحامل على نفسه ليقوم بتأديب هذا الذى جرؤ على مهاجمته . وفى اللحظة التالية استدار العملاق ، وانطلق يعدو تجاه الكهف .

إندفع المارد وراءه . أعماه غضبه حتى عن ضعفه ، وعن الدماء التى تنزف بغزارة من الجرح الذى أصابه فى كتفه . وقفز العملاق على فروع الممر الخشبى التى بدأت تئن تحت ثقل جسده . لكنه لم يكن فى مثل خفة الرجل ، فلم يستطع أن يبتعد عن المارد بالقدر الكافى . وامتدت اليد الهائلة لتطبق على العملاق . لكن المرة الثانية قفز جسد الذئب الذى كان قد استعاد وعيه لتنغرس الانياب الحادة فى ساق المارد .

إنسحبت القبضة الحديدية . وصدرت من الحنجرة حشرجة غضب وألم . وانحنى الجسد الهائل ، وتحرك الذراع ، لتهبط القبضة على رأس الذئب تهشمها تماما .

وعلى الشرفة وقف الرجل وفى احدى يديه رمح طويل . كان يرقب ماحدث . صدرت من حنجرته زمجرة غضب حينما شاهد مصرع الذئب ، اعتصر الحزن قلبه ، وتوترت اعصابه ، وتصلبت عضلاته ، لكنه كان يعلم أن صاحبه أضحى فى عداد الاموات ، وما من قوة تستطيع مساعدته . صرخت «نا» ألما وحزنا وانكمشت «بى» فى مكانها . وفجأة اندفعت الذئبة تعدو ثم تقفز قفزة رائعة تهبط على اثرها عند قدمى المارد . وأطبق الفكان القويان على أعلى القدم . حاول

المارد أن ينفض الوحش الجديد عنه . حرك ساقه حركات متتالية لكن الذئبة لم يتركها لحظة . وبتثاقل شديد أنحنى ليضرب ضربته . لكن الذئبة تركت القدم ، وهربت بعيدا . وطاشت الضربة . واختل توازن المارد فترنح قليلا، لكنه سرعان ما اعتدل .

لم يلتفت إلى الذئبة ، وتقدم نحو الممر الخشبي . كانت خطواته مترنحة لكنها ثابتة . لم يكن هنالك شك فى أنه يعانى آلاما هائلة فى كل انحاء جسده لكن الغضب كان قد أعماه وهو يرى أعداءه على بعد خطوات . صرخت «تا» وهى تراه يتقدم «واندفعت «دب» مذعورة نحو مدخل الكهف ، لكنه أخطأته وارتطمت بالجدار الصخرى لتقع على الأرض متهاوية لاتستطيع قدماها أن تحملاها. وتقلصت عضلات العملاق، وهو يقبض على هراوته بقبضتيه . وتقدم الرجل خطوة يستعد لإلقاء الرمح .

لكن المارد لم يستمر فى تقدمه . للمرة الثانية اندفعت الذئبة . إنطبق الفكان القويان على الساق ، وانغرست الأنياب الحادة إلى أقصى مداها فى غور اللحم : ترنح الجسد الضخم ثم انحنى ليضرب بقبضته وتنحت الذئبة عن الساق ، لكنها لم تبتعد بالسرعة الكافية . لمستها أطراف الأصابع لمسة تكاد أن تكون عابرة ، ومع هذا فقد طارت فى الهواء لتقع على بعد أمتار . ولم تتحرك .

عاود المارد تقدمه . لم يحول نظراته المتوحشة الخبيثة التى تطل من عينه المتورمتين ، عن الجماعة . ووطأت قدماه أول الأفرع . أنت الأخشاب من ثقل الجسد الهائل ، لكنها لم تتكسر . ببطء شديد تحركت الساقان تصعدان القنطرة الخشبية . وتراجع الرجل ، وهو يرى الموت يتقدم ببطء شديد . شددت يده قبضتها على الرمح الطويل ، ثم ألقاه بأقصى ما يستطيع من قوة إلى صدر غريمـــه .

لعل الرجل كان قد رأى بعين الخيال رأس حديقه وهى تتهشم تحت القبضة الحديدية . أو لعله قد عاد بذاكرته إلى أهله ، وعشيرته . أو ربما كان يفكر فيما يمكن أن يحدث لرفيقته وابنه ، أو عساها تكون غريزة القتال فى سبيل الحياة أياً كانت الأسباب فإن كل قوة الرجل كانت وراء هذه الرمية . لم يبال بالآلام

المبرحة فى صدره . لم يبال بالدوار الذى انتابه . ولا بالغمامة السوداء التى بدأت تغشى عينيه ، وجمع كل مالديه من قوة فى هذه الرمية .

اندفع الرمح مارقا صادقا إلى الصدر العريض . وانغرس فيه إلى مايقرب من ربعه . وصدرت حشرجة تألم من المارد . وانبثقت الدماء غزيرة لتتلاقى مع دماء أخرى تسيل من أكثر من جرح ، ولتزداد تسربل الجسد الهائل . وقف المارد يترنح فى مكانه لحظات . ومد يده يريد أن ينتزع الرمح ، لكن لعله كان أضعف من أن يفعل . وبعد محاولات يسيرة قانطة تركه حيث هو . واستمر فى تقدمه .

وقف الجميع يراقبونه مبهوتين . لم يكن يبدو ان شيئاً ما يمكن أن يقتله ، أو يوقف تقدمه . وصرخ الرجل على رفيقته التى أسرعت تناوله رمحاً آخر . وفى حركة خاطفة ألقى الرمح الثانى نحو هدفه . لكن الرمية كانت عاجلة ، ولم يكن الرجل قد تمالك قواه ، فلم يندفع الرمح بالسرعة الكافية . ورفع المارد ذراعه ليتلقى الرمح وينحيه بعيداً عن الصدر العريض .

وتقدم المارد . وأنت الأفرع من تحته ، لكنها كانت ماتزال تتحمل الضغط . كانت حركاته بطيئة منهكة مكدودة تتطلب منه مجهودا ضخما ، ومع هذا فلم يتوقف . لم يبق بينه وبين آخر القنطرة الخشبية الا خطوات . وضاقت العينان المتورمتان كأنما تتأكدان من مكان الأعداء خلال ستاره قاتمة . وامتد الذراعات المفتولان ... وتساقطت منهما قطرات دماء قانية ، وجرت وتا ، رفيقها إلى الوراء ووقفت أمامه قابضة على أحد الرماح .

وتصدى العملاق بهراوته يهبط بعنف على القبضة الضخمة . وعلا صوت عظام تتهشم . وانسحب الذراعان . لم يصدر من المارد أية صرخة ، أو أنة ألم ، وإنما هى زمجرات حلقية لا تزيد عن حشرجة . ومالت الرأس يمنة ويسرة كأنما يوشك صاحبها أن ينهار ، ويغشى عليه ، ومع هذا فقد خطت الساقان خطوة أخرى . وامتد أحد الذراعين ثانية ليقبض على العملاق .

وفجأة نائت الأفرع بحملها الثقيل . ترنح المارد لحظة ، وبدا أنه يريد أن

يخطو على الصخور قبل أن تهبط به الأخشاب تحته . لكنه لم يكمل الخطوة . تكسرت الفروع فوقعت فى الحفرة ، ووقع معها الجسد الهائل .

لاشك أن بعض الرماح ، التى كان الرجل قد غرسها رأسية ، وجدت طريقها إلى جسده تمزقه . وتكسرت رماح أخرى . وسمع الرجل ومن معه أصواتها . ثم ساد السكون . تراخت عضلات العملاق . وتحامل الرجل على نفسه ليرى خاتمة المارد . لكن المارد لم يكن قد مات . كان بينه وبين الموت مسافة كبيرة .

رأته الجماعة وهو يقوم من سقطته بتؤدة وتثاقل كمن يقاوم احمالا ثقيلة ينوء بها . ووقفوا يرقبونه بذهول ، ودهشة . رأوا القبضة الضخمة تمسك بحافة الحفرة ، وبدت العضلات الهائلة تجذب الجسد . ارتفع الرأس البشع شيئا فشيئا . وكان العملاق أول من تنبه إلى الخطر . ارتفعت هراوته لتهبط على الأصابع . . واختلج الوجه المسربل بالدماء من الألم ، لكن الرأس إستمر فى الارتفاع البطىء ، ولم تترك اليد الحاجز الصخرى . إرتفعت الهراوة ثانية لتهبط مرات ، ومرات . وتهشمت عظام الأصابع ، وغطتها الدماء ، فزادت من بشاعة منظرها . وبالرغم من هذا استمر إرتفاع الرأس ، وتلاها الكتفان العريضان .

توقف العملاق عن الضرب لحظة وهو ينظر غير مصدق إلى الصدر الهائل وقد ارتفع عن الحاجز بأكثر من متر . لم يكن يعرف الخوف بطبيعته ، مع هذا فقد تردد لحظات أمام تلك الحياة التى تأبى أن يداخلها الموت . علم الخطر الذى يتهدد أصحابه فانساه ذلك حذره ، وتقدم من المارد يطوح بهراوته وهو يصرخ ويهبط بها على الرأس المضرج مثنى ، وثلاثا . وتحرك الذراع الضخم المكسو بالشعر ، وقبضت الأصابع الحديدية على رقبة العملاق . وشاهدت بقية الجماعة عرضا آخر للقوة البدنية ، الفائقة . رأوا صاحبهم يرتفع فى الهواء . رأوه وهو مازال يضرب بهراوته رأس المارد بلا وعى . أخذ يحاول دون جدوى أن يتملص من القبضة التى . . تطبق على عنقه ، لكنه كان كطفل صغير لا حيلة له .

بن الرجل وهو يرى صاحبه يجدف برجليه فى الهواء . علم أنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً من أجله . تناول أحد الرماح من المرأة وقذفها بما بقى له من قوة . واستقر الرمح صادقا فى صدر المارد . لكن هذا لم يحاول أن يتفاداه أو يخرجه . وانغرز الرمح إلى جوار رماح أخرى .

كان المارد يعلم أن نهايته قد دنت ، لكن الحياة الجارفة التى تتدفق فى جسده أبت أن تذهب دون أن تأخذ معها اعداءه . ثوان معدودات كانت تكفى لأن ينتهى منهم ، لو أعطى أدنى فرصة . بالرغم من الآلام المريعة التى كان يعانيها فى كل جزء من جسمه ، ومن الدماء الكثيرة التى نزفت منه ، وما انتابه من ضعف ، إزداد ضغط الأصابع على عنق خصمه . رأت الجماعة رأس صاحبها يميل إلى أحد الجانبين . وتوقفت الهراوة عن الحركة ، وتدلت الذراعان فى الهواء ، وتراخت الساقان .

بحركة لم يبد فيها أى مجهود أطاح المارد الجثة ، فطارت فى الفضاء لتسقط على بعد أمتار عديدة ، وترتطم بالصخور . وتحرك المارد يرفع ساقيه على الحافة . وتبين الرجل الخطر الداهم . بسرعة جرى إلى وعاء النار ليلتقط أعوادا من الخشب الملتهب . لم يشعر بالآلام فى ضلوع صدره المتكسرة . ولم يأبه لجلده وهو يحترق من الخشب الملتهب ، واندفع عائدا ليلقى بالنار فى الحفرة . امسكت النار فى الأعواد الجافة . فى ثوان ، ارتفع اللهب تحت قدم المارد . وأمسك فى شعر جسده .

هبطت القدم الأخرى بسرعة من حافة الحفرة ، وراحت اليدان تضربان النار بجنون . وامتد اللهب إلى الأغصان والأفرع ، الجافة لتزداد النار إشتعالا ولم يبق الرجل ساكنا . اندفع مرة ثانية إلى الوعاء ليعود ومعه عودا ملتهبا آخر ، القاه فى مكان ثان بالحفرة . واتسعت دائرة النيران ، وتطاولت السنتها وعلت سحب الدخان تملأ الجو . وكرر الرجل العملية ، حتى أضحى اللهب يحيط بالمارد من كل جهة .

لكن الواقع أنه لم يكن فى حاجة إلى التكرار ، فقد إمسكت النيران فى الجسد الضخم ، ولم يفلح المارد فى محاولاته المجنونة أن يوقفها ، فامتد اللهب يغطى الجسد كله .

وقفت الجماعة تشاهد نهاية المارد . رأوه خلال السنة النار التى تطاولت لتكون أتونا فى محاولاته لاطفائها عن جسده ، رأوه يضرب اللهب بلا وعى كأنما هى عدو يريد أن يقتله . ثم رأوه يتحرك خارجا منها مندفعا نحو السهل الممتد أمام الجبل بلا هدف .

رأوا كتلة من النيران تعدو مترنحة فى خطواتها . شاهدوها تتعثر فى الأحجار ، والصخور المتناثرة ، وتميل كأنما هى سوف تسقط على الأرض ثم تعتدل ، وتسير . أخيراً رأوها تتكفىء ، وتتحرك خطوة ، أو خطوتين ، لتستقر فى مكانها وتبقى مندلعة دقائق قليلة . ثم تخمد . وتصاعد بعض الدخان الذى مالبث بدوره أن همد .

ooo

مضت أكثر من سنة على الحوادث المتقدمة ، وكانت الشمس تسطع براقة فى السماء لترسل أشعتها دافئة على شرفة الكهف . كانت هنالك ذئبة ترقد فى إسترخاء يجرى حولها جراء صغيرة تتلاعب وتتواثب مع صبى ، وصبية ، الأول فى حوالى السنة والنصف من عمره ، يلقيها بحجارة صغيرة وهو يحاول السير ، والأخرى لاتزال فى الأشهر الأولى تجلس على الأرض تلعب فى التراب . وعلى الجدار الخارجى للكهف استندت امرأتان تنعمان بالدفء وترقبان الصغيرين وتنتظران رجلهما الذى بدأ يظهر من بعيد حاملا غزالا على كتفيه العريضتين .

جاء الرجل وقذف بالغزال تحت قدمى المرأتين فقامتا لتعدان الطعام . حملت « بى » الطفلة بينما بقى الصبى يداعب الجراء ، وجلس الرجل مستنداً إلى الجدار ينعم بالشمس ، ويسرح ببصره إلى الأفق البعيد . ولعله تذكر الذئب . وهو يسمع صوت الجراء التى اندفعت نحو تلمقه . ولعله تذكر أيضاً عملاقاً صاحبه فترة من الزمان . بدت فى عينيه نظرة حزينة ساهمة لم يفق منها إلا على ارتطام شىء به . وصوت الطفل وهو يضحك .

نظر إلى الشىء الذى رماه طفله به فإذا به حجر صغير به عروق صفراء . تأمله مليا ثم ألقاه من الشرفة ليتدحرج ، ويختفى بين الصخور فما كانت له فائدة له . وما درى أنه قد رمى قوة سوف تسيطر على مصائر الملايين من أحفاده من البشر . لم تكن العروق الصفراء سوى من ذهب خالص .

الفهرس

° ° °

رقم الإيداع ١٦٤٠ / ١٩٧٨

مطبعة المعرفة

• لم يكن ذا قوة بدنية تذكر .. ولا كان أعدى العدائين . حتى حواسه السمع، البصر، الشم كانت أدنى من أعدائه .. مع هذا خرج منتصرًا

• استغل الطبيعة .. استأنس الحيوان .. لم تبق سوى نفسه التى مازال يروضها حتى الآن ..

• هذا هو الإنسان الأول ..... حياته وآماله .. وأحلامه ... معاركه مع الطبيعة والوحوش ... وما هو أخطر من ذلك نفسه ...

مطبعة المعرفة

ص ٩٠